رسائل التزكية والترقية
(٣)

منازل النفس المطمئنة

أربعون رسالة في مراتب السلوك التخلقي

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب التعرف على الخصال والمكـارم التي تتصف بها النفس المطمئنـة، والـتي جـرى التعبـير عنهــا في الكتب المختصــة بهــذا الجــانب بالمنــازل والمقامــات والأحــوال، لأن النفس تــنزل فيهــا، وتقيم عندها، وتتحلى بها، وتظهر علاماتها عليها.

وقد اخترنا منها أربعين صفة تجمع أكـثر أو كـل مـا ذكره العلماء في منازل السائرين، وما يظهـر أنـه زائـد عليها هو في الحقيقة مندرج ضمن بعضها.

وقـد حاولنـا ربـط المعـارف والقيم المتعلقـة بهـذا الجـانب بالمصـادر المقدسـة من الكتـاب والسـنة، ومـا روي عن أئمة الهدى مما يؤكد ذلـك، أو يفصـله أو يـبين كيفية تنفيذه، أو يساعد عليها.

كما أنا انتقينا من كلام العلماء والحكمـاء مـا رأينـاه متوافقا مع تلك المصـادر.. ونبهنـا إلى الـدخن الموجـود في بعضــها حــتى لا تتحــول التزكيــة عن مقصــودها الشرعي.

وكما تعودنا في هـذه السلسـلة من مـزج الحقـائق العلمية بالمواعظ والرقائق؛ فقد انتقينا ما نراه مناســبا لــذلك من خلال حــديث الشــيخ مــع مريــده الصــادق، ووصيته ونصحه له كل حين..

رسائل التزكية والترقية

(3)

منازل النفس المطمئنة

أربعون رسالة في مراتب السلوك التخلقي

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1441 ـ 2019

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

..

المقدمة

يحاول هذا الكتاب التعـرف على الخصـال والمكـارم الـتي تتصف بها النفس المطمئنة، والتي جرى التعبير عنها في الكتب المختصـة بهـذا الجـانب بالمنـازل والمقامـات والأحـوال، لأن النفس تنزل فيهـا، وتقيم عنـدها، وتتحلى بهـا، وتظهـر علاماتهـا عليها.

وقد اخترنا منها أربعين صفة تجمـع أكـثر أو كـل مـا ذكـره العلماء في منازل السائرين، وما يظهر أنـه زائـد عليهـا هـو في الحقيقـة منـدرج ضـمن بعضـها؛ فهم مثلا يـذكرون الكثـير من المنازل المرتبطة بالحب.. وهي جميعا تؤول إليـه، أو تنتج عنـه، ولذلك كان الحديث عنه كافيا عن غـيره من التفاصـيل.. وهكـذا في التوكـل والتوبـة والصـبر والشـكر والرضـا وغيرهـا من المقامات والمنازل.

وقـد حاولنـا ــ كمـا في سـائر السلسـلة ــ ربـط المعـارف والقيم المتعلقـة بهـذا الجـانب بالمصـادر المقدسـة من الكتـاب والسنة، وما روي عن أئمة الهدى مما يؤكـد ذلـك، أو يفصـله أو يبين كيفية تنفيذه، أو يساعد عليها.

كما أنا انتقينا من كلام العلماء والحكماء ما رأينـاه متوافقـا مع تلك المصادر المعصـومة المقدسـة.. وقـد نبهنـا إلى الـدخن الموجود في بعض كلامهم حتى لا تتحول التزكية عن مقصـودها الشرعي.

وكما تعودنا في هذه السلسلة من مـزج الحقـائق العلميـة بالمواعظ والرقائق؛ فقد انتقينا ما نراه مناسـبا لـذلك من خلال حديث الشيخ مع مريده الصادق، ووصيته ونصحه له كل حين.

وتجنبنا الكثير من تفاصيل المسائل التي لا علاقة لها بالعمل، ولا دليل يدل عليها من العلم، وإنما هي مجرد اجتهادات، لا يضر جهلها، وقد لا ينفع العلم بها.

وننبه إلى أنا لم نرتب المنازل بترتيب خاص كما جرت به العادة في الكتب المتعلقة بهذا الجانب، لأنا رأينا أن في ذلك تكلفا كبيرا، بالإضافة إلى أن المنازل لا يلغي بعضها بعضا، وإنما تتكامل فيما بينها.

ومثل ذلك الحديث عن درجات كل منزلة، أشرنا إلى مجامعها ـ كما ذكره الحكماء ـ من غير تفصيل في ذلك لأن الدرجات لا نهاية لها.. ويمكن استنباط الكثير منها من خلال المظاهر التي تتعلق بها.

ومثل ذلك اجتنبنا الحديث عن تلك التعريفات الغريبة التي وردت في كتب الرقائق، والتي لا تزيد القارئ لها إلا بعدا عن حقيقتها.. ومثل ذلك تلك الشطحات والطامات التي ـ وإن أحسنا الظن بأهلها ـ إلا أننا لا نستطيع أن نوافقها، خاصة عند تعارضها في الظاهر مع النصوص المقدسة.

..

الحرية والخلاص

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تشكرني على تلك الرسائل التي أجبتك فيها عن أسئلتك حول مناهج التزكية ومدارسها، وأخبرتني أنك باستعمالك لها، أصبحت أكثر طمأنينة لحقائق الإيمان، وأكثر شوقا للقيم العظيمة التي يدعو إليها.

ولذلك طلبت مني أن أزودك بالمعارف التي تفيدك في الترقي إلى عالم النفس المطمئنة، ذلك العالم الذي أشاد به القرآن الكريم، واعتبر أصحابه من الراضين المرضيين، الذين كتب لهم الفلاح والفوز في الدارين.

وقد طلبت مني أن أجيبك عن أسئلة كثيرة حول هذه المرتبة من مراتب النفس، حتى تسعى للتحقق بها، باستعمال المناهج التي كنت قد حدثتك عنها.

وكان أول سؤال لك حولها مرتبط ببيان الفروق بينها وبين النفس الأمارة واللوامة.. مما ييسر عليك بعد ذلك التعرف على خصائصها، ومراتبها، ومنازلها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن قداسة القرآن الكريم تقتضي قداسة الألفاظ والتراكيب التي يستعملها؛ فهي ليست ألفاظا ولا تراكيب اعتباطية، بل هي منتقاة بدقة، بحيث يمكن للمتبحر فيها، والمتدبر لها أن يكتشف الكثير من الحقائق.

ولذلك فإن الفروق بين النفوس تتجلى من خلال المفردات الدالة عليها..

فالنفس الأمارة بالسوء، نفس تنزل الدركات الدنيا من

عــالم النفس، ولــذلك لا تــرى إلا الســوء والمنكــر والأهــواء والشياطين.. ولـذلك لا تـأمر إلا بمـا تـراه وتعيشـه، وتعتـبر كـل شيء خلاف ذلك غريبا عليها.

وهي أشـبه مـا تكـون بالخنـافس والحشـرات الـتي تعيش على القاذورات، وتستحلي تلك المعيشة؛ فلا ترى صورة للحياة غيرها.

وبذلك، فهي مطمئنة للسوء والمنكـر وكـل المثـالب الـتي تتحلى بها، بل ترى أنه لا يمكن أن تكون للحياة صورة غير تلــك الصورة.

وأمــا النفس اللوامــة؛ فهي النفس الــتي شــعرت بتلــك الروائح النتنة للنفس الأمارة، بعد أن أشرقت عليهـا بعض أنـوار النفس المطمئنة، ولذلك راحت تستقذر استسلامها لمقتضياتها، وقد جعلها ذلك تمارس كل الوسـائل والمنـاهج الـتي تخـرج بهـا من سيطرتها، وتتحرر بها من ربقها.

وأما النفس المطمئنـة؛ فهي النفس المنتصـرة في حربهـا على النفس الأمارة، وهي بذلك نفس متحررة من عالم الدنس والمستنقعات والقاذورات والمثالب..

وهي نفس متحررة من الشياطين الذين كـانوا يوسوسـون لها، ويستحوذون عليها.

وهي لذلك تنتقل من ذلك العالم المدنس إلى عـالم جديـد مملوء بالأنوار، جزاء وفاقا على مجاهـداتها.. ولمشـاكلتها لـذلك العالم.

ذلك أن الله تعالى بعدله ورحمته لخلقه، ينزل كل أحد في المرتبة التي يرضاها ويتقبلها، وله الاستعداد التام للتعامل معها.

وكما أن عالم النفس الأمـارة مملـوء بــ ﴿شَـيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُـرُورًا﴾ [الأنعـام: 112]؛ فإن عـالم النفس المطمئنـة مملـوء بالملائكـة والأوليـاء والصـالحين.. كمـا قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَـالُوا رَبُّنَـا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَـةُ أَلَّا تَخَـافُوا وَلَا تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَفِي الْآخِـرَةِ وَلَكُمْ فِيهَـا مَـا تَشْـتَهِي أَنْفُسُـكُمْ وَلَكُمْ فِيهَـا مَـا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: 30، 31]

وكما أن عالم النفس الأمارة مملوء بالضيق النفسي الـذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَـهُ مَعِيشَـةً ضَنْكًا﴾ [طه: 124]؛ فـإن عـالم النفس المطمئنـة عـالم واسـع ممتلئ بالبهجـة والسـكينة والطمأنينـة، كمـا قـال تعـالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـالِحًا مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَـاةً طَيِّبَـةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]

وهكذا؛ فإن عالم النفس المطمئنة مختلف تماما عن عالم النفس الأمارة، وعالم النفس اللوامة.

وإن شئت تشبيها تقريبيا لـذلك.. فـإن مثـل هـذه النفـوس مثل شـخص فقـير مـريض ممتلئ بالكآبـة يعيش بين اللصـوص والمجــرمين.. ثم فجــأة يظهــر لــه أن يفــر من بين أيــديهم، ويستعمل كل الوسائل التي تعينه على ذلك.. وبعـد جهـد شـديد يستطيع أن يصل إلى مدينة مملوءة بالحكمـة والصـلاح.. تتـوفر فيها كـل المرافـق الحضـارية.. ويتـاح لـه فيهـا أن يعـالج نفسـه وروحه وكل لطائفه.. ويتاح له فيها أن يتنعم بكل مـا حـرم منـه في ذلك المحل الذي كان فيه.

فهكذا النفس ـ أيها المريد الصـادق ــ في مراتبهـا الثلاث.. فهي في مرتبتها الأولى مرتبة النفس الأمارة مملوءة بالأمراض

والكآبـة لأنهـا تعيش في العـالم الأسـفل الغـريب عنهـا، عـالم الظلمـات، ومـع الـذين آثـروا أن يعيشـوا في ذلـك العـالم من شياطين الإنس والجن.

ثم إنهـا بعـد بغضـها ذلـك العـالم، ومحاولتهـا الفـرار منـه، تتحول إلى نفس لوامة، تستعمل كل الوسـائل لتخـرج من تلـك المستنقعات التي تسكن فيها، ولتمحو كل الآثار التي علقت بها.

ثم إنهـــا بعـــد تمكنهـــا من الفـــرار ووصـــولها إلى مدينـــة الصـالحين تتحلى بـأخلاقهم وطبـاعهم، وتطمئن بهـا الحيـاة في تلك المدائن الجميلة.

وبناء على هذا المثال التقريبي؛ فإن أول منزلة من منـازل النفس المطمئنة هي [التحرر والخلاص]، ذلك أنها المنزلة الـتي تمكنها من التخلص من القيود والأغلال التي كـانت تحبسـها في تلك المستنقعات، وفي صحبة الشياطين.

ذلك أن الله تعالى بحكمته جعل في نفس الإنسـان الكثـير من القـوى واللطـائف والطاقـات الـتي تقربهـا من العـوالم المختلفة، لتختار بعد ذلك ما يتناسب معهـا، ومـع طباعهـا، ومن خلال ذلك تتشكل حقيقتها وجوهرها.

وقد أشار إلى هذا ما روي في بعض الآثار أن بعضهم سأل حكيما، فقال: (أريد أن تعرّفني نفسي)، فقال الحكيم: أي نفس تريد؟.. قال: وهـل هي إلّا نفس واحـدة؟.. فقـال الحكيم: (إنمـا هي أربع أنفس: النامية النباتيـة، والحسـية الحيوانيـة، والناطقـة القدسية، والكليـة الإلهيـة. ولكـل واحـدة من هـذه خمس قـوى وخاصـتان.. فالناميـة النباتيـة: لهـا خمس قـوى ماسـكة وجاذبـة وهاضـمة ودافعـة ومربيـة، ولهـا خاصـتان الزيـادة والنقصـان، وانبعاثهـــا من الكبـــد وهي أشـــبه الأشـــياء بنفس الحيـــوان..

والحيوانية الحسية: ولها خمس قوى: سـمع وبصـر وشـم وذوق ولمس. ولهـا خاصـتان: الرضـا والغضـب، وانبعاثهـا من القلب، وهي أشـبه الأشـياء بنفس السـباع.. والناطقـة القدسـية: ولهـا خمس قوى: فكر وذكر وعلم وحلم ونباهـة، وليس لهـا انبعـاث، وهي أشــبه الأشــياء بنفس الملائكــة، ولهــا خاصــتان النزاهــة والحكمـة.. والكليـة الإلهيـة، ولهـا خمس قـوى، بقـاء في فنـاء، ونعيم في شقاء، وعزّ في ذل، وفقـر في غـنى، وصـبر في بلاء. ولها خاصتان: الحلم والكرم. وهذه الـتي مبـدأها من اللـه وإليـه تعود) (1)

وهــذا الخــبر، وإن لم يكن دقيقــا من جهــة روايتــه، إلا أن معناه صحيح.. ففي الإنسان كل القوى التي ذكرها..

فالإنسان يشبه النبات والحيوان في صـفات كثـيرة.. حـتى أن هناك من البشر من لم يخرج ولـو في لحظـة من حياتـه من عالم النبات والحيوان.. ذلك أنه لا يرى الحياة إلا غذاء ونموا..

وهنـاك من يـترقى.. لكن لا ليعيش عـالم الإنسـان الرفيـع المكرم، وإنما ليعيش مـع الشـياطين.. ولـذلك يسـتعمل العقـل الذي أتيح له ليترقى من خلاله وسـيلة للخـداع والمكـر والحيلـة مثل الشياطين تماما.

وهنــاك من يــترقى ليعيش حقيقتــه الإنســانية وبــدرجاتها المختلفة..

وقد اتفق على هذا كل الحكماء، وسأسوق لـك من أقـوال

1() روي الخبر منسوبا إلى الإمام علي في [بحار الأنـوار: ٦١ / 84]، وهـو ظـاهر في عدم صحة نسبته إليـه، ولهـذا ذكرنـاه باعتبـار معنـاه، لا باعتبـار سـنده، وقـد علـق عليـه المجلسي بقوله: (هذه الاصطلاحات لم تكـد توجـد في الأخبـار المعتـبرة المتداولـة، وهي شبيهة بأضغاث أحلام الصوفية)

بعضهم ما يقرر لـك تلـك الحقـائق، ويؤكـدها، ويحـول من ذلـك المثل الذي ضربته لك حقيقـة واقعـة تعيشـها كـل النفـوس من حيث لا تشعر.

فقد قال بعضهم معاتبا أولئك الذين يريدون معرفة الله، أو يتطلعون إلى الحقائق العالية من غير معرفة أنفسـهم، والقـوى التي تسيطر عليها: (ليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك، فكيف تعرف ربك؟)[1]

ثم رد على أولئك الذين يتوهمون أن معرفة النفس قاصرة على معرفة ما بدا منها للعيـان؛ فقـال: (فـإن قلت: إني أعـرف نفسي! فإنما تعـرف الجسـم الظـاهر، الـذي هـو اليـد والرجـل والرأس والجثة، ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الــذي بــه إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشــت طلبت الشرب.. والدواب تشاركك في هـذه الأمـور.. فـالواجب عليك أن تعـرف نفسـك بالحقيقـة؛ حـتى تـدرك أي شـيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت، وبـأي شـيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك)[2]

ثم ذكر الصفات الكثيرة التي تتشكل منهــا النفس، فقــال: (لقـد جمعت في باطنـك صـفات: منهـا صـفات البهـائم، ومنهـا صفات السباع، ومنها صفات الشياطين، ومنها صفات الملائكـة، فالروح حقيقـة جـوهرك وغيرهـا غـريب منـك، وعاريـة عنـدك.. فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحــد من هــؤلاء غذاء وسعادة.. فإن سعادة البهائم في الأكل، والشرب، والنوم، فــإن كنت منهم فاجتهــد في أعمــالهم.. وســعادة الســباع في الضــرب، والفتــك.. وســعادة الشــياطين في المكــر، والشــر،

1() كيمياء السعادة، أبو حامد الغزالي، (121)

2() كيمياء السعادة، أبو حامد الغزالي، (121)

والحيل. فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم)[1]

ثم ذكر المرتبة العالية، مرتبة النفس المطمئنة، تلك التي يترقى فيها الإنسان إلى حقيقته التي خلقه الله عليها، ولأجلها، فقال: (وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق؛ فإن كنت من جوهر الملائكة، فاجتهد في معرفة أصلك؛ حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء ركبت فيك؛ فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها، ولكن خلقها حتى تكون أسرك، وتسخرها للسفر الذي قدامك، وتجعل إحداها مركبك، والأخرى سلاحك؛ حتى تصيد بها سعادتك. فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك. وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة) [2]

وبذلك؛ فإن النفس المطمئنة ـ أيها المريد الصادق ــ هي تلك النفس التي تحررت من كل تلك القيود التي كانت تقيدها، وتحول بينها وبين الكمال المتاح لها.

وإن شئت أن تعرف سر ذلك؛ فاعلم أن الله تعالى ـ ليتيح للإنسان حرية الاختيار ـ فطره على صفات كثيرة، يمكنه من خلالها أن ينتقي ما يشاء منها، ليعين حقيقته من خلال ذلك الاختيار.

والأمر في ذلك شبيه بتلك الفرص التي تتاح للإنسان في الدنيا ليختار التخصص المناسب والوظيفة المناسبة، والبيئة

1() كيمياء السعادة، أبو حامد الغزالي، (121)

2() كيمياء السعادة، أبو حامد الغزالي، (121)

المناسبة وهكذا.. في كل شيء يكون له فيه حرية الاختيار.

وقد أشار إلى هذا قوله تعالى في بيان حقيقة الإنسان: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:30)

ففي هذه الآية إخبار إلهي عن سر ما يكتنزه الإنسان من صفات تؤهله للبر، كما تؤهله للإثم، ولهذا عندما ذكر الله للملائكة الخلافة ذكروا الإثم، وسفك الدماء، ذلك أن الخلافة تقتضي الحرية.. والحرية تقتضي الاختيار.. والاختيار يقتضي أن تكون هناك فرص مختلفة متعددة، وسبل متنوعة.. وكل ذلك يقتضي أن يكون في الإنسان ميل متساو لكل الطرق ولكل الاتجاهات حتى يحدد بعد ذلك الخيار الذي يتناسب معه ومع طبيعته وعزيمته وإرادته.

لقد ذكر الله ذلك فقال عند حديثه عن الإنسان، فقال:﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)﴾ (الإنسان)

انظر ـ أيها المريد الصادق ــ كيف ربط الله تعالى بين السمع والبصر وبين الهداية والضلال.. فكما أن السمع والبصر يتيحان لنا أن نستعملهما في الخير والشر.. فهكذا باقي القوى واللطائف..

ولهذا يذكر الله تعالى استعدادات الإنسان ـ كإنسان ـــ إلى جميع أنواع الإثم، فقد أخبر عن استعداده لليأس والكفر، فقال: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ﴾ (هود:9)، وقال:﴿ لا يَسْأَمُ الْأِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ) (فصلت:49)

وأخبر عن ظلمه الممزوج بكفره، فقال:﴿ إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (ابراهيم:34)

وأخبر عن ظلمه الممزوج بجهله، فقال:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب:72)

وأخبر عن خصومته، فقال:﴿ خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (النحل:4)

وأخبر عن عجلته، فقال:﴿ وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً﴾ (الاسراء: 11)، وقال:﴿ خُلِقَ الْأِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (الانبياء:37)

وأخبر عن بخله، فقال:﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْأِنْفَاقِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ قَتُوراً﴾ (الاسراء: 100)

وأخبرعن جدله، فقال:﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْأِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف: 54)

وأخبر عن هلعه، فقال:﴿ إِنَّ الْأِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ (المعارج:19)

وكل هذه الاستعدادات الآثمة تختزن في ذاتها ما يقابلها من الاستعدادات الطيبة الصالحة، ذلك أن الله الحكيم الرحيم لا يخلق الشر المجرد عن كل خير[1].. بل هو يخلق الخير.. ومن الخير ما يتحول إلى شر.. كما أن من الطعام ما يتسنه ويصبح

[1] ذكرنا هذه المسألة بتفصيل في رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (رسائل السلام)

غير صالح للأكل.. مع أنه في أصل طبيعته طيب وصالح.

وهكذا، فكما أن الطعام يتسنه، فكـذلك الإنسـان يمكن أن يتسنه.. وكما أن الطعـام يتسـنه بالغفلـة عنـه؛فكـذلك الإنسـان كلما غفـل عن النظـر في حقيقتـه وتقويمهـا وربطهـا بمصـدرها الأعلى كلما تمكنت الآفات منـه، وانحـرفت بـه بعـد ذلـك.. لقـد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، فقـال: وَلَا تَكُونُـوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) (الحشر)

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أنه لا يمكن للإنسان أن يذكر نفسه أو يعرفها، وهو لا يذكر ربه ولا يعرفه؛ فحقيقة الإنسـان لا يمكن أن تتجلى له إلا عندما يتصل بربه.

ولـذلك؛ فـإن التربيـة الخلقيـة وحـدها لا تكفي ليـتزكى الإنسان، كما يزعم الغـافلون من أصـحاب الفلسـفات الماديـة، وإنما يحتاج أيضا إلى التربية الروحيـة الـتي تصـله بربـه، والـتي ترقى بأخلاقه إلى المراتب العالية الـتي لا يمكن أن يعرفهـا من يعزلون الله عن الأخلاق.

أعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أنك لم تفهم بعـد سـر التحـرر والخلاص الذي يتحقق للنفس المطمئنة.. ولـذلك سأضـرب لـك مثالا يقرب لك ذلك.

أنت تعلم أن اللـه تعـالى وصـف نفس الإنسـان بكونهـا شحيحة، كما قال تعالى: وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّـحَّ (النسـاء: 128)، وهذه الصفة تدعو أصحاب النفوس الأمارة إلى الحـرص والبخل وكل المثالب التي ذكرتها لك.

لكن صـاحب النفس المطمئنـة المتحـرر من كـل تلـك المثالب يحول من هذه الصفة وسـيلة للتزكيـة والترقيـة.. ذلـك أنها تدعوه إلى الحرص على ما آتـاه اللـه من نعم، ليضـعها في

محلها الصحيح، ولا يـدعها للآفـات، ولهـذا قـال رسـول اللـه : .. وهو يحض على هذا الشح الإيجابي لبعض صحابته حين طلب أن يوصـي بجميـع مالـه: (الثلث والثلث كثـير، إنـك أن تـذر ورثتـك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنـك لن تنفـق نفقة، تبتغى بها وجه الله، إلا أجرت بها، حتى مـا تجعـل فى فى امرأتك)(1)

وهكذا صفة الجدل التي وصف بهـا القـرآن الكـريم النفس الإنسانية؛ فصاحب النفس الأمارة تجعلـه يسـتعملها في الجـدل في اللـــه، وفي الحقـــائق والتلاعب بهـــا، كمـــا قـــال تعـــالى: يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَـقِّ بَعْـدَ مَـا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَـا يُسَـاقُونَ إِلَى الْمَـوْتِ وَهُمْ يَنْظُـرُونَ [الأنفـال: 6]، وقـال: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُـلَّ شَـيْطَانٍ مَرِيـدٍ [الحج: 3]، وقـال: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَـادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْمٍ وَلَا هُـدًى وَلَا كِتَـابٍ مُنِيرٍ (8) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ لَـهُ فِي الـدُّنْيَا خِـزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ [الحج: 8، 9]

بينما صاحب النفس المطمئنة يستعملها في عدم الخضوع للباطل، وفي نصرة الحق، ولهذا دعا اللـه تعـالى إلى اسـتعمال الجدل في الـدعوة إليـه، فقـال: ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل: 125]

بل وصف بذلك إبراهيم عليه السلام، وأثنى عليه، فقال: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْـرَى يُجَادِلُنَـا فِي قَـوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ [هود: 74، 75]

وهكذا الكفر ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ والـذي وصـف اللـه تعالى به الإنسان؛ فإنه ـ عند صاحب النفس الأمارة ـ كفر بالله، وبالحقائق، وتغطية لها، بينما هو عند صـاحب النفس المطمئنـة

1() رواه البخاري ومسلم.

كفر بما يخالف الحق، كما قال تعالى في الثناء على إبراهيم عليه السلام وأصحابه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: 4]

ولهذا؛ فإن صاحب النفس المطمئنة ـ أيها المريد الصادق ـ لن يخرج عن طبيعته الإنسانية، وإنما يكتفي بتحريرها من كل تلك المثالب التي علقت بها وشوهتها، وقيدته بسببها.

هذا جوابي على سؤالك ــ أيها المريد الصادق ــ وهو يتضمن أمهات الحقائق المرتبطة بالنفس المطمئنة؛ فاسع لأن تحرر نفسك من تلك القيود التي تكبلها، وتنتكس بها عن حقيقتها، لتعيش عالم الإنسان.. لا عالم الجماد والنبات والحيوان والشيطان.. فأنت أرقى منها جميعا.

الثبات والاستقرار

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عما ورد في النصوص المقدسة من تقلب القلوب وتغيرها، وهل أن ذلك خاص بالنفوس الأمارة، أم أن النفوس المطمئنة يعتريها ذلك التغير والتبدل الذي يعتري غيرها من النفوس.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أنه مثلما تكون الإدارة المتحكمة في عالم السياسة والاقتصاد وغيرها هي المحددة لوجهتها، والضابطة لسلوكاتها ومواقفها؛ فكذلك الأمر في عالم النفس.

فقد جعل الله تعالى بحكمته في خلقه للطائف الإنسانية إدارة وقيادة تتحكم فيها، وبناء على تلك الإدارة تفترق النفوس، وتتميز.. فالنفوس لا تختلف في مكونها، وإنما في الجهة التي تديرها، وتضبط تصرفاتها.

وقد سمى القرآن الكريم تلك الجهة قلبا.. لا بمعناها الحرفي الجسدي الذي نعرفه؛ وإنما بمعناها الآخر، والذي يعني الجهاز المتحكم في الإنسان، والذي يتخذ القرارات المناسبة.

ولعله سمي كذلك لكون القلب هو الجهاز الذي يرسل الدم إلى جميع الجسم، وبذلك صار كأنه المتحكم فيه، ولذلك إن مرض القلب أصاب المرض سائر الجسد، وتوقفه عن العمل يعني الموت.

وهذا القلب الذي جعله الله تعالى مديرا للنفس، هو نفس ما يطلق عليه الفلاسفة: (النفس الناطقة، والروح الباطنة، والنفس الحيوانية المركبة، وهي النفس المدركة العالمة من

الإنسان والمطالبة والمعاقبة) [1]

ولذلك عرفه حكماء المسلمين بأنه (مصطلح على اللطيفة الربَّانيــة المرتبطــة بــالقلب الجســماني الصــنوبري المــودع من الصدر، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان) [2]

ونحن ـ أيها المريـد الصـادق ـــ وإن كنـا لا نعـرف بالضـبط علاقـة تلـك اللطيفـة الربانيـة الـتي وكـل اللـه تعـالى لهـا إدارة النفس الإنسانية بالقلب الجسدي إلا أننا ـ من خلال إيماننا بدقة المصطلحات القرآنية ـ نوقن بأن لهما علاقة وطيدة.

ولكن ذلك لا يدعونا إلى أن نشـغل بالنـا بـالبحث في مثـل هذه المسائل ذلك أنها تسـتدعي معرفـة حقيقـة تلـك اللطيفـة، وهــو مســتحيل لأجهزتنــا الحســية، ذلــك أن تلــك اللطيفــة في الحقيقة ليست سوى روح الإنسان، والـتي تتسـمى بالتسـميات المختلفة بحسب أدوارها ووظائفها.

وقد عبر بعض الحكماء عن ذلك، فقـال: (أمـا سـؤالك: مـا حقيقة القلب؟ فلم يجئ في الشريعة أكثر من قول الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الـرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّي وَمَـا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسـراء: 85].. لأن الـروح من جملـة القـدرة الإلهية، وهو من عالم الأمر، قال الله عز وجل: ﴿ أَلَا لَـهُ الْخَلْـقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54].. فالإنسان من عالم الخلق من جـــانب، ومن عالم الأمر من جـانب؛ فكـل شـيء يجـوز عليـه المسـاحة والمقدار والكيفية فهو من عـالم الخلـق. وليس للقلب مسـاحة ولا مقدار؛ ولهذا لا يقبل القسمة، ولـو قبـل القسـمة لكـان من عالم الخلـق، وكـان من جـانب الجهـل جـاهلا ومن جـانب العلم

1() الكليات، الكفوي: ص 754.

2() التعريفات، الجرجاني: ص 203.

عالما، وكل شيء يكون فيه علم وجهل فهو محـال. وفي معـنى آخر هو من عـالم الأمـر؛ لأن عـالم الأمـر عبـارة عن شـيء من الأشياء لا يكون للمساحة والتقدير طريق إليه) (1)

إذا عـرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن كـل التقلبـات الـتي تحصـل للإنسـان، سـواء في جانبهـا الإيجـابي أو جانبها السلبي مرتبطة بالقلب، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قـال: (ألا وإن فى الجسـد مضـغة إذا صـلحت صـلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهى القلب) (2)

وقال الإمام علي يصـف القلـوب وتنوعهـا: (أعجب مـا في الإنسان قلبه وله مـواد من الحكمـة، وأضـداد من خلافهـا، فـإن سنح له الرجاء أذلّه الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكـه الحـرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض لـه الغضـب اشـتد بـه الغيظ، وإن سعد بالرضا نسي التحفظ، وإن ناله الخـوف شـغله الحذر، وإن اتسع له الأمن استلبته الغرّة، وإن جدّدت له النعمـة أخذته العزة، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن استفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عضـته فاقـة شـغله البلاء، وإن جهـده الجـوع قعـد بـه الضـعف، وإن أفـرط في الشـبع كظّتـه البطنـة، فكـل تقصير به مضرّ، وكل إفراط به مفسد)(3)

وقـال الإمـام الصـادق: (منزلـة القلب من الجسـد بمنزلـة الإمـام من النـاس، الـواجب الطاعـة عليهم، ألا تـرى أنّ جميـع جوارح الجسـد شُـرط للقلب وتراجمـة لـه مؤدّيـة عنـه: لأذنـان والعينان والأنف والفم واليدان والرجلان والفرج، فإنّ القلب إذا همّ بالنظر فتح الرجل عينيه، وإذاهمّ بالاستماع حرّك أذنيه وفتح

1() كيمياء السعادة، (126)

2() البخاري، ج 3، ص 53، مسلم، ج 3، ص 1221.

3() بحار الأنوار: 67/52، والعلل 1/103.

مسامعه فسـمع، وإذا همّ القلب بالشـمّ استنشـق بأنفـه، فـأدّى تلك الرائحة إلى القلب، وإذا همّ بالنطق تكلم باللسان، وإذا همّ بالحركة سعت الرجلان، وإذا همّ بالشـهوة تحـرك الـذكر، فهـذه كلها مودّية عن القلب بالتحريك، وكذلك ينبغي للإمـام أن يطـاع للأمر منه)(1)

وبناء على ما ذكرت لك من قصدية الألفاظ القرآنيـة؛ فـإن القلب لم يسـم كـذلك إلا لتقلبـه الشـديد، بنـاء على كونـه هـو المختار الذي يختار ما يتناسب معـه.. وبنـاء على كونـه صـاحب الإرادة الذي يحدد ما يريده بناء على رغبته.

وقد قال قال رسول الله ﷺ مشيرا إلى ذلك: (مثـل القلب مثل الريشـة تقلبهـا الريـاح بفلاة) (2)، وتشـبيهه بالريشـة دليـل على تقلبـه الشـديد، وخاصـة إن كـانت الريـاح، وهي الابتلاءات والاختبارات والفتن شديدة.

وفي قولـه ﷺ: (تقلبهـا الريـاح بفلاة) أي بـأرض خاليـة من العمران إشـارة إلى خلـو القلب من المكـام الـتي تجعلـه أكـثر هدوءا واستقرارا، وأقوى من أن تؤثر فيه الفتن، ذلك أن الريـاح أشد تأثيرًا في الفلوات منها في العمران.

وفي جمع الرياح، بدل الريح، دلالـة على كـثرة الاختبـارات الإلهيـة، الـتي تجعـل القلب المنفعـل لهـا كثـير التقلب، إذ لـو استمرت الريح لجـانب واحـد لم يظهـر التقلب؛ كمـا يظهـر من الرياح المختلفة.

ولهذا؛ فإن أول صـفات النفس المطمئنـة بعـد نجاحهـا في تلـك الاختبـارات الإلهيـة، ثباتهـا واسـتقرارها وطمأنينتهـا وعـدم

---

(1) بحار الأنوار: 67/53، والعلل 1/103.

(2) ابن ماجه، برقم: (88)

تقلبها، لأنها استسلمت للحق، وسلمت لـه؛ فأعطاهـا الحـق من القوة بحيث لا تتقلب ولا تتبدل، بخلاف تلك النفس التي وصـف اللـه تعـالى أصـحابها، فقـال: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُـدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَـأَنَّ بِـهِ وَإِنْ أَصَـابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةَ ذَلِـكَ هُـوَ الْخُسْـرَانُ الْمُبِينُ [الحج: 11]

وقـد عـبر اللـه تعـالى في الآيـة الكريمـة عن الاسـتقرار والقبول بالطمأنية، وذلك دليل على أن النفس المطمئنــة نفس ثابتــة، لأنهـا تخلصــت من المزاجيــة والأهــواء المتقلبــة، وإنمــا خضعت للحق، ولمعاييره وموازينه؛ فصارت هي المتحكمة فيها.

ولكن ذلك ـ أيها المريد الصـادق ــ لا يعـني العصـمة؛ كـان رسول الله ﷺ ـ مع عصمته المطلقة ـ يقول: (يا مقلب القلـوب ثبت قلبي على دينك) فقيل له في ذلك ؟ قال: (إنـه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله) (1)

وكان يقول في دعائه: (اللهمّ إنّي أسألك الثّبات في الأمــر والعزيمة على الرّشد، وأسألك شـكر نعمتـك، وحسـن عبادتـك، وأسألك قلبا سـليما ولسـانا صـادقا، وأسـألك من خـير مـا تعلم وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم)(2)

لكن الله تعالى بلطفه عباده، يمن عليهم بالثبات، ذلك أنــه من صفات النفس المطمئنة، ومن الأسباب الكبرى لاسـتقرارها الاستعانة بالله، وبتأييده، ولذلك تنجح في كـل الاختبـارات الـتي تحل بها، كما قال تعالى عن رسـوله ﷺ: وَلَـوْلا أَنْ ثَبَّتْنَـاكَ لَقَـدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (الاسراء: 74)

1() ابن ماجه(199)

2() النسائي(3/ 54) والترمذي(3407) وأحمد ـ المسند 4/ 125.

ومثله قوله تعالى عن المؤمنين: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (ابراهيم:27)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أنه ــ بحسب تقلب قلبك وثباته ـ تكون حقيقتك ومنزلتك في الدنيا والآخرة.. فمنازلها لا يحددها أحد سوى اختيارات قلبك.

وقد روي عن بعض الحكماء أنه سئل عن أوائل الطريق إلى الله تعالى، فقال: (التوبة، وذكر شرائطها، ثم يُنقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف، ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء، ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين، ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين، ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين، ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين، ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين، ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء، ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين. وذكروا لكل مقام عشر شرائط، إذا عاناها وأحكمها وحلَّت القلوب هذه المحلة أدمنت النظرة في النعمة، وفكرت في الأيادي والإحسان، فانفردت النفوس بالذكر، وجالت الأرواح في ملكوت عزه بخالص العلم به، واردةً على حياض المعرفة، إليه صادرة، ولِبابهِ قارعة، وإليه في محبته ناظرة)(1)

وقد حاول الحكماء ــ بناء على تجاربهم في التزكية والترقية ــ أن يحصوا الكثير من المنازل التي تستقر فيها القلوب، وسموها مقامات، وكلها من المكارم التي دعا إليها القرآن الكريم، وأخبر أنها محال المتقين.

ومن تلك التقسيمات حصرها في أربعة منازل، كل منزل منها يجمع الكثير من فروع الصفات الطيبة، وهي: (الإيمان،

---

(1) حلية الأولياء، ج10، ص248.

والتوبة، والزهد، والعبودية) [1]

ومنها حصرها في أربعة منازل، وهي: (التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا)[2]

ومنها حصرها في تسعة منازل، هي: (التوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة) [3]

ومنها حصرها في اثني عشر منزلا، وهي: (التوبة، والمحاسبة، والخوف، والرجاء، والصدق، والإخلاص، والصبر، والورع، والزهد، والرضا، والتوكل، والشكر)[4]

ومنها حصرها في ثلاثة عشر منزلا، وهي: (المحاسبة، والمراقبة، والمشاهدة، والتحقق بالفناء، والبقاء، وعين اليقين، وحق اليقين، وكذلك التوبة، والورع، والزهد، والتوكل، والرضا، والتسليم)

ومنها حصرها في سبعة عشر منزلا، هي: (التوبة والزهد والصبر والفقر والتواضع والخوف والتقوى والإخلاص والشكر والتوكل والرضا واليقين والذكر والأنس والقرب والاتصال والمحبة)

ومنها حصرها في واحد وتسعون منزلا، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال[5]:

1() عوارف المعارف في هامش الإحياء: (4/261).

2() اللمع، (ص:68 - 80).

3() قوت القلوب: (1/178).

4() حقائق عن التصوف، (ص:269).

5() من قصيدة (المباحث الأصلية).

ألقَـــوا إليـــه من ما كان فيها قبـل ذا

وهي إذا أنكرتَهـــــا إحـــدى وتســـعين

وهو يقصـد ذلـك تغيـير صـفات النفس المذمومـة، والـتي تتحول بالرياضة والمجاهدة إلى صـفات محمـودة، ذلـك أن كـل صفة مذمومة يقابلها صفة محمودة.

ومنها حصرها في مائة منزل[1]، مقسومة عشـرة أقسـام: قسم البدايات، ثمّ قسم الأبواب، ثمّ قسم المعاملات، ثمّ قســم الأخلاق، ثمّ قسم الأصول، ثمّ قسم الأودية، ثمّ قســم الأحــوال، ثمّ قسم الولايات، ثمّ قسم الحقائق، ثمّ قسم النهايات.

فأمّا قسم البدايات فهي عشرة منـازل: اليقظـة. والتّوبـة. والمحاسـبة. والإنابـة. والتفكّـر. والتـذكّر. والاعتصـام. والفـرار. والرياضة. والسّماع.

وأما قسم الأبواب، فهـو عشـرة منـازل: الحـزن والخـوف والإشفاق والخشوع والإخبات والزّهـد والـورع والتبتّـل والرّجـاء والرّغبة.

وأمــا قســم المعــاملات، فهــو عشــرة منــازل: الرّعايــة والمراقبـة والحرمـة والإخلاص والتّهـذيب والاسـتقامة والتّوكـل والتفويض والثقة والتّسليم.

وأمـا قسـم الأخلاق فهـو عشـرة منـازل: الصّـبر والرّضـا والشّـكر والحيـاء والصّـدق والإيثـار والخلـق والتّواضـع والفتـوّة والانبساط.

1() هذا التقسيم للمقامات هو لأبي إسماعيل الهروي، في كتابه [منــازل الســائرين]، والذي لقي اهتماما كبيرا عند الشراح بمختلف طوائفهم ومذاهبهم.

وأمـا قسـم الأصـول، فهـو عشـرة منـازل، وهي: القصـد والعزم والإرادة والأدب واليقين والأنس والذّكر والفقـر والغـنى ومقام المراد.

وأمـا قسـم الأوديـة، فهـو عشـرة منـازل، وهي: الإحسـان والعلم والحكمـــة والبصـــيرة والفراســـة والتّعظيم والإلهـــام والسّكينة والطمأنينة والهمّة

وأمـا قسـم الأحـوال، فهـو عشـرة منـازل وهي: المحبّـة والغيرة والشّوق والقلـق والعطش والوجـد والـدّهش والهيمـان والبزق والذّوق.

وأما قسم الولايات، فهـو عشـرة منـازل: اللّحـظ والـوقت والصّـفاء والسّـرور والسـرّ والنّفس والغربـة والغـرق والغيبـة والتّمكّن.

وأما قسم الحقائق، فهـو عشـرة منـازل، وهي: المكاشـفة والمشاهدة والمعاينة والحياة والقبض والبسط والسّكر والصّحو والاتّصال والانفصال.

وأما قسـم النّهايـات، فهـو عشـرة منـازل، وهي: المعرفـة والفناء والبقاء والتّحقيق والتّلبيس والوجـود والتّجريـد والتّفريـد والجمع والتّوحيد.

وغيرهـا من التقسـيمات الكثـيرة، الـتي تحـاول أن تعـرف بالطريق إلى الله، وتبين المنازل التي ينزلها السالكون، ومثلهـا قـد يوجـد سـائر الأديـان الـتي سـبقتنا، ففي علم السـلوك المسيحي يقُسم الطريق إلى ثلاث مراحـل: (مرحلـة الطهـارة، ومرحلة التنوير أو الاشراق، ومرحلة الاتحاد) (1)

1() التصوف طريقة وتجربة ومذهبا لمحمد كمال جعفر ص (92)

وفي بعض الديانات الهندية يمر السالك بخمس مراحل: (مرحلة الزاهد الناسك.. ومرحلة المعلم.. ومرحلة الداعية.. ومرحلة الكامل.. ومرحلة الامام وهو الذي تخلص من أدران المادة) (1)

وفي البوذية يقطع السالك اربع مراحل وهي: (العزلة التامة، ومحاربة غرائز النفس ورغباتها، والقضاء النهائي على مختلف الشهوات، والتحرر والانطلاق) (2)

لكن كل ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ لا يساوي شيئا أمام ما ورد في النصوص المقدسة التي فصلت في ذكر المكارم ومنازلها وأحوالها، حتى أن المتأمل فيها لا يحتاج إلى غيرها.

ففي سورة البقرة، يصف الله تعالى المتقين بأنهم ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: 3 - 5]

وفي سورة المؤمنون، يصف الله تعالى المؤمنين المفلحين بأنهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

1() نشأة الفلسفة الصوفية لعرفان عبدالحميد ص(151)

2() نشأة الفلسفة الصوفية لعرفان عبدالحميد ص(151 - 152)

[المؤمنون: 1 - 11]

وهكذا نجد الأوصاف الكثيرة الـتي يمكن أن تقتبس منهـا ـ أيها المريد الصادق ـ الكثـير من المقامـات الـتي تنزلهـا النفس المطمئنة.

ومثـل ذلـك مـا ورد في السـنة المطهـرة؛ فقـد روي أن رسول الله ﷺ قال: (عشرون خصلة في المـؤمن، فـإن لم يكن فيـه لم يكمـل إيمانـه: الحاضـرون الصـلاة، والمسـارعون إلى الزكـاة، والحـاجون لـبيت اللـه الحـرام، والصـائمون في شـهر رمضـان، والمطعمـون المسـكين، والماسـحون رأس اليـتيم، المطهـرون أظفـارهم، المتّـزرون على أوسـاطهم، الـذين إن حدّثوا لم يكذبوا، وإن وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنـوا لم يخونـوا، وإن تكلمـوا صـدقوا، رهبـان الليـل، وأسـود النهـار، وصـائمون النهار، وقائمون الليل، لايؤذون جاراً، ولا يتأذّى بهم جـار، الـذين مشيهم على الأرض هونـاً، وخطـاهم إلى بيـوت الأرامـل، وعلى أثر الجنائز) (1)

وفي الأثر: (ناجى داود ربّه فقال: إلهي.. لكل مَلِك خزانـة، فـأين خزانتـك؟.. فقـال اللـه تعـالى: (لي خزانـة أعظم من العـرش، وأوسـع من الكرسـي، وأطيب من الجنـة، وأزين من الملكوت، أرضها المعرفة، وسماؤها الإيمان، وشمسها الشـوق، وقمرها المحبة، ونجومها الخـواطر، وسـحابها العقـل، ومطرهـا الرحمة، وأثمارها الطاعة، وثمرها الحكمـة، ولهـا أربعـة أبـواب: العلم، والحلم، والصبر، والرضا، ألا وهي القلب)(2)

ومثل ذلك ما ورد في أحاديث أئمة الهدى التي لا تسـتيقي

1() الكافي 2: 182

2() بحار الأنوار: 67/59، وغوالي اللئالي.

إلا من بحار القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومنها ذلك الوصف الطويل للمتقين، المـروي عن الإمـام علي، والـذي يقـول فيـه: (فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصّواب، وملبســهم الاقتصـاد، ومشـيهم التّواضـع، غضّـوا أبصـارهم عمّـا حـرّم اللّـه عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النّافع لهم، نـزّلت أنفسـهم منهم في البلاء كالّتي نزّلت في الرّخاء، ولو لا الأجل الّـذي كتب اللّه عليهم، لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقا إلى الثّواب، وخوفا من العقاب) (1)

إلى آخر الأوصاف الكثيرة التي تجتمع فيهـا كـل الفضـائل، ومثله ما روي عن الإمام السجاد في وصف المؤمن، فقد قـال: (المؤمن يصمت ليسلم، وينطق ليعلم، لايحدث أمانته الأصدقاء، ولا يكتم شهادته من البعداء، ولا يعمل شيئاً من الخـير ريـاءً، ولا يتركه حياءً، إن زكي خاف ممـا يقولـون، ويسـتغفر اللـه ممـا لا يعلمون، لايغره قول من جهله، ويخاف إحصاء ما عمله) (2)

وعن الإمام الصادق أنه قال: (ينبغي للمؤمن أن يكون فيـه ثمان خصال: وقور في الهزاهـز، صـبور عنـد البلاء، شـكور عنـد الرخــاء، قــانع بمــا رزقــه اللــهّ، لايظلم الأعــداء، ولا يتحامــل للاصدقاء، بدنه منه في نصب، والناس منـه في راحـة، إن العلم خليـل المـؤمن، والحلم وزيـره، والصـبر أمـير جنـوده، والرفـق أخوه، واللين والده)(3)

وعنــه قــال: (المــؤمن لــه قــوة في دين، وحــزم في لين، وإيمـان في يقين، وحـرص في فقـه، ونشـاط فيهـدى، وبـرّ في اسـتقامة، وعلم في حلم، وكيس في رفـق، وسـخاء في حـق،

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم (193)

2() الكافي 2: 182

3() الكافي 2: 181 / 2، الخصال: 406 / 1.

وقصد في غنى، وتجمل في فاقة، وعفوفي قـدرة، وطاعـة للـه في نصيحة، وانتهاء في شهوة، وورع فيرغبة، وحرص في جهاد، وصـلاة في شـغل، وصـبرفي شـدة، وفي الهزاهـز وقـور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لايغتاب، ولا يتكبر، ولا يقطع الـرحم، وليس بـواهن، ولا فـظ ولاغليـظ، ولايسـبقه بصـره، ولا يفضحه بطنه، ولا يغلبه فرجه، ولا يحسـد النـاس، ولا يغمـز، ولا يعير، ولا يسرف، ينصر المظلوم، ويـرم المسـكين، نفسـه منـه في عنـاء، والنـاس منـه في راحـة، لا يـرغب في عـز الـدنيا، ولايجزع من ذلها، للناس همّ قد أقبلوا عليه، وله همّ قـد شـغله، لايُـرى في حلمـه نقص، ولا في رأيـه وهن، ولا في دينـه ضـياع، يرشـد من استرشـده، وينصـح من استشـاره، ويسـاعد من يساعده، ويكيع(1)عن الخنا والجهل) (2)

وفي حـديث آخـر قـال: (مكـارم الأخلاق عشـرة: اليقين، والقناعة، والصبر، والشـكر، والحلم، وحسـن الخلـق، والسـخاء والمروءة، والغيرة، والشجاعة) (3)

وغيرها من الروايات الكثيرة التي يغنيك التأمل فيها ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ عن كـل مـا كتب حـول مقامـات السـالكين، والتي قد يختلط فيها الحق بالباطـل، والشـرع بـالهوى.. فاحـذر من أن تسلم دينك لمن ينحرف به عن سواء السبيل...

....

1() كع عن الشيء: حبس نفسه عنه.

2() الكافي 2: 182

3() الكافي 2: 46.

الترقي والحركة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن تلك المنــازل والمقامات التي حـدثتك عنهـا في رسـالتي السـابقة، وهـل هي ثابتة مستقرة على حال واحد، أم أنها قد تتغير وتتبدل؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الثبات الذي ذكرتـه النصــوص المقدســة لا يعــني عــدم الحركــة، ولا التطــور، ولا الترقي؛ فليس هناك شيء في الكـون بهـذه الصـفة، بـل الكـل متحرك شوقا إلى الجمال الإلهي.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك، فقــال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَـيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الاسراء: 44)، وبما أن التسبيح يعني تنزيه اللــه تعـالى عمـا لا يليـق بـه، والحمـد هـو الثنـاء على اللـه بكمالاتـه المطلقة.. فـإن ذلـك يقتضـي تـرقي كـل شـيء من خلال ذلـك التسبيح والتحميد الـذي لا حـدود لمعانيـه، لعـدم محدوديـة اللـه تعالى.

وبــذلك؛ فــإن النفس المطمئنــة تســير في ذلــك الســير التكاملي الذي يسير فيه الكون جميعا، لتكتشـف في كـل يـوم، بل في كل لحظة شأنا جديدا من الشؤون الإلهية التي عبر اللــه تعالى عنها بقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُـلَّ يَـوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: 29]

وقد قال بعض المفسرين معلقا على معناها: (أي أنّ خلقه مستمر، وإجاباته لحاجات السائلين والمحتـاجين لا تنقطـع، كمـا أنّ إبداعاته مستمرّة فيجعل الأقوام يوماً في قوّة وقــدرة، وفي يوم آخر يهلكهم، ويوماً يعطي السلامة والشباب، وفي يوم آخـر الضعف والوهن، ويوماً يـذهب الحـزن والهمّ من القلـوب وآخـر

يكون باعثاً له.. وخلاصة الأمر أنّه في كلّ يوم ـ وطبقـاً لحكمتـه ونظامه الأكمل ـ يخلق ظـاهرة جديـدة وخلقـاً وأحـداثاً جديـدة.. والالتفات إلى هذه الحقيقة من جهة يوضّح إحتياجاتنا المستمرّة لذاته المقدّسة، ومن جهة اُخرى فإنّه يذهب اليأس والقنوط من القلوب، ومن جهة ثالثة فإنّـه يلـوي الغـرور ويكسـر الغفلـة في النفوس.. نعم، إنّه سبحانه له في كلّ يوم شأن وعمل) [1]

وهو ما يشير إليه ذلـك الـدعاء المعـروف الـذي يقولـه في صاحبه: (إلهي قـد علمتُ بـاختلاف الآثـار، وتنقّلات الأطـوار، أنّ مرادك منّي أن تتعـرّف إليّ في كـلّ شـيء؛ حتّى لا أجهلـك في شيء)

وقـد قـال بعض الحكمـاء معـبرا عن هـذا المعـنى وسـره: (اعلم أن الإيمـان على ثلاثـة أقسـام: إيمـان لا يزيـد ولا ينقص، وهو إيمان الملائكة[2]، وإيمـان يزيـد وينقص، وهـو إيمـان عامـة المسلمين، وإيمان يزيد ولا ينقص وهو إيمـان الأنبيـاء والرسـل، ومن كان على قدمهم من العـارفين الروحـانيين الراسـخين في علم اليقين، ومن تعلــق بهم من المريــدين الســائرين، فهــؤلاء إيمــانهم دائمــا فى الزيــادة، وأرواحهم دائمــا فى الــترقي فى المعرفة، يزيدون بالطاعة وينقصون بالمعصية؛ لتيقظهم وكمال توحيدهم) [3]

وإن شئت تقريبا لهذا المعنى ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن النفس المطمئنة تشبه ذلك التلميذ الصـادق الـذي اسـتطاع أن يظفـر برعايـة خاصـة من أسـاتذته؛ فلـذلك صـاروا يمنحونـه

1() تفسير الأمثل - مكارم الشيرازي (17/ 400)

2() هذا مجرد رأي من الكاتب، وإلا فإن الملائكة كغيرهم سائرون في طريق الكمال، بدليل تسبيحهم وحمدهم الله.. وهو لا حدود له.

3() البحر المديد، ج 2، ص: 305.

الفرص كـل حين ليسـتفيد من كـل العلـوم والمعـارف.. وبـذلك تزداد معارفه وكمالاته كل حين.

والأمر ليس مرتبطـا بالمعـارف فقـط.. بـل بتلـك المنـازل والمقامات والأحوال التي ذكرتها.. ذلـك أن كـل معرفـة جديـدة تكسب قيما جديدة.. وكل قيم جديدة تعطي أعماقـا أكـبر لتلـك المنازل والمقامات.

والأمر في ذلك يشبه شخصا يملك قصرا من القصور؛ فهو كلما ورد عليه مال جديـد، أضـاف لقصـره متاعـا جديـدا، يزيـده جمالا ورونقا.

وهكذا الأمر بالنسبة لتلك الصفات التي ذكرتهـا لـك؛ فإنهـا ليست على درجة واحدة.. بل لها درجات كثيرة..

وقد أشار إلى ذلك قوله ﷺ عند حديثه عن منزلـة الصـدق، حيث قال: (عليكم بالصدق فـإن الصـدق يهـدي إلى الـبر والـبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحـرى الصـدق حـتى يكتب عند الله صديقا)[1]

فهذا الحديث يشير إلى أن الصدق درجـات كثـيرة، إلى أن يصل صاحبها إلى مرتبة الصـديقية.. والـتي تـترقى هي الأخـرى إلى مراتب في الكمال لا يعلمها إلا الله.

بل إن الله تعالى أشار إلى ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَـدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَـاهُمْ تَقْـوَاهُمْ﴾ [محمـد: 17]، فهـو يشـير إلى أن الهدايـة تثمـر المزيـد من الهدايـة.. ولهـذا كلمـا ارتقى المـؤمن درجة رفعه الله تعالى بكرمه إلى درجة أخرى، وهكذا إلى مـا لا نهاية.

1() رواه مسلم 4721.

ولهذا يذكر الحكماء الدرجات المختلفة للأعمال بحسب مراتب العاملين فيها، ومن ذلك قول بعضهم: (الأعمال الصالحة على ثلاثة أقسام: عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة.. أو تقول: عمل الإسلام، وعمل الإيمان، وعمل الإحسان، أو تقول: عمل العبادة، وعمل العبودية، وعمل العبودة أي الحرية.. أو تقول: عمل أهل البداية، وعمل أهل التوسط، وعمل أهل النهاية) [1]

ثم ذكر الفروق بين هذه المراتب، وسرها؛ فقال: (الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده، أو تقول: الشريعة لإصلاح الظواهر، والطريقة لإصلاح الضمائر، والحقيقة لإصلاح السرائر)

وهذا لا يعني ـ أيها المريد الصادق ـ أن درجات الأعمال تتوقف على الثلاث التي ذكرها؛ فالأمر أكبر من ذلك، وقد قال الله تعالى عن درجات الآخرة التي جعلها صورة لدرجات الأعمال في الدنيا: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: 21]

وهكذا يقسم الحكماء الأعمال بحسب درجات صاحبها، فيذكرون أن (الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.. أما صوم العموم: فهو الكف عن قضاء الشهوة.. وأما صوم الخصوص: فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام.. وأما صوم خصوص الخصوص: فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية، وكفه عما سوى اللّه عز وجل بالكلية) [2]

1() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 26

2() إحياء علوم الدين، 3/ 428.

ثم يذكر أن انتهاك كل صوم بحسب درجة صـاحبه، والـذي يبدأ بالأكل والشرب، وهو صـوم العمـوم، وينتهي (بـالفكر فيمـا سوى اللَّه عز وجل واليوم الآخر، وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تـراد للدين، فان ذلـك من زاد الآخـرة وليس من الـدنيا)، وهـو صـوم خصوص الخصوص من أصحاب النفوس المطمئنة.

وهكذا يذكرون أن (للذكر ثلاثة مقامات: ذكر باللسان، وهو ذكر عامة الخلـق، وذكـر بـالقلب، وهـو ذكـر خـواص المؤمـنين، وذكر بالروح، وهو لخاصة الخاصة، وهـو ذكـر العـارفين بفنـائهم عن ذكرهم وشهودهم إلى ذاكرهم ومنّته عليهم) [1]

ويـذكرون أن أهـل الـورع على ثلاث طبقـات؛ أدناهـا (من تـورّع عن الشـبهات الـتى اشـتبهت عليـه، وهى مـا بين الحـرام البيّن والحلال البيّن، وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ولا اسـم حرام مطلق فيكون بين ذلك فيتورّع عنهما، وهـو كمـا قـال ابن سيرين ليس شيء أهون علىّ من الورع اذا رابنى شىء تركته) [2]

وأوسـطها: (من يتـورّع عمّـا يقـف عنـه قلبـه ويحيـك فى صدره عند تناولها وهذا لا يعرفه الّا أرباب القلـوب والمتحقّقـون وهو كما روى عن النبى ﷺ أنّه قال: (الإثم ما حاك فى صدرك)

وأعلاها (العارفون والواجدون، وهو كمـا قـال أبـو سـليمان الدارانى: كلّ ما شغلك عن الله فهو مشؤوم عليـك، وكمـا قـال سهل بن عبد الله حين سئل عن الحلال الصـافى: الحلال الـذى لا يعصى اللـه فيـه، والحلال الصـافى الـذى لا ينسـى اللـه فيـه؛ فالورع فيما لا ينسى الله فيه هو الورع الذى سئل عنه الشبلى، فقيل له: ما الورع؟ فقال: أن تتورّع أن لا يتشتّت قلبك عن الله

1() الله جل جلاله، القصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد، القصدالمجرد، ص: 47.

2() اللمع فى التصوف، النص، ص: 45.

عزّ وجلّ طرفة عين)

ويـــذكرون أن المتـــوكلين على ثلاث طبقـــات: توكـــل المؤمنين، وتوكل أهل الخصوص، وتوكل خصوص الخصوص[1].

أما توكل المؤمنين؛ فهو ما عبر عنه بعضهم بقولـه: (طـرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والانقطـاع إلى اللّـه بالكلية، فإن أعطى شكر، وإن منع صبر راضيا وموافقا للقدر)

وعبر عنـه آخـر بقولـه: (تـرك تـدبير النفس، والانخلاع من الحول والقوة)

وأما توكل الخصوص، فهو ما عبر عنه بعضهم بقولــه: (من توكل على اللّه بغير اللّه، لم يتوكل على اللّه، حتى يتوكــل على اللّه باللّه وللّـه، ويكـون متـوكلا على اللّـه في توكلـه، لا لسـبب آخر)

وقـال آخـر: (التوكـل مـوت النفس، وذهـاب حظوظهـا من أسباب الدنيا والآخرة)

و أمـا توكـل خصـوص الخصـوص، فقـد عـبر عنـه بعضـهم بقوله: (اعتماد القلوب على اللّه في جميع الأحوال)

وقال آخر: (أن تكون للّه كما لم تكن، فيكون اللّه لك كمــا لم يزل)

وقال آخر: (يعطي أهل التوكل ثلاثة أشياء: حقيقــة اليقين، ومكاشفة الغيوب، وقرب الرب)

وقـال آخـر معـبرا عن ذلـك بلغـة رمزيـة: (من عـزم على التوكل فليحفر لنفسه قبرا، ويدفن نفسه فيه، ويتوكل على اللّه

1() المقدمة فى التصوف، ص: 22.

في دفن نفسه، ثم إذا أخرج، توكل عليه في التوكل عليه)

وسئل آخر، وقد اشتهر بالتوكل: على ماذا أتيت أمـرك من التوكل على اللّه؟ فقال: (على أربع خصـال: علمت أن رزقي لا يأكله غـيري، فاطمـأنت بـه نفسـي. وعلمت أن عملي لا يعملـه غـيري، فأنـا مشـغول بـه، وعلمت أن المـوت يـأتي بغتـة، فأنـا أبـادره. وعلمت أني لا أخيـل من عين اللّـه حيث كنت، فأنـا أستحي منه)

ويذكرون أن الخشوع ثلاث درجات: (الدرجة الأولى التذلل للأمر والاستسلام للحكم والاتضاع لنظر الحق.. والدرجة الثانيـة ترقب آفات النفس والعمل ورؤيـة فضـل كـل ذي فضـل عليـك وتنسـم نسـيم الفنـاء.. والدرجـة الثالثـة حفـظ الحرمـة عنـد المكاشـفة وتصـفية الـوقت من مـراءآة الخلـق وتجريـد رؤيـة الفضل)[1]

ويذكرون أن التبتـل ثلاث درجـات: (الدرجـة الأولى تجريـد الانقطاع عن الحظـوظ واللحـوظ إلى العـالم خوفـا أو رجـاء أو مبالاة بحـال بحسـم الرجـاء بالرضـى وقطـع الخـوف بالتسـليم ورفض المبالاة بشهود الحقيقة.. والدرجة الثانية تجريد الانقطاع عن التعـريج على النفس بمجانبـة الهـوى وتنسـم روح الأنس وشـيم بـرق الكشـف.. والدرجـة الثالثـة تجريـد الانقطـاع إلى السـبق بتصـحيح الاسـتقامة والاسـتغراق في قصـد الوصـول والنظر إلى أوائل الجمع) [2]

ويـذكرون أن الرجـاء ثلاث درجـات: (الدرجـة الأولى رجـاء يبعث العامـل على الاجتهـاد ويولـد التلـذذ بالخدمـة ويوقـظ

1() منازل السائرين (ص: 28)

2() منازل السائرين (ص: 32)

لسماحة الطباع بـترك المنـاهي.. والدرجـة الثانيـة رجـاء أربـاب الرياضات أن يبلغوا موقفا تصفو فيه هممهم برفض الملـذوذات ولزوم شروط العلم واستقصاء حدود الحمية.. والدرجـة الثالثـة رجاء أرباب طيب القلوب وهو رجاء لقاء الحق عز وجل) [1]

ويذكرون أن الخوف ثلاث درجات: (الدرجة الأولى الخـوف من العقوبة وهو الخوف الذي يصح به الإيمان وهو خوف العامة وهو يتولد من تصديق الوعيـد وذكـر الجنايـة ومراقبـة العاقبـة.. والدرجة الثانية خوف المكر في جريان الأنفاس المستغرقة في اليقظـة المشـوبة بـالحلاوة.. وليس في مقـام أهـل الخصـوص وحشة الخوف إلا هيبة الإجلال وهي أقصى درجة يشار إليها في غايـة الخـوف وهي هيبـة تعـارض المكاشـف أوقـات المناجـاة وتصـون المشـاهد أحيـان المسـامرة وتقصـم المعـاين بصـدمة العزة) [2]

ويذكرون أن الإخلاص ثلاث درجات: (الدرجة الأولى إخـراج رؤية العمل من العمل والخلاص من طلب العـوض على العمـل والنزول عن الرضى بالعمل.. والدرجة الثانية الخجل من العمل مع بـذل المجهـود وتوفـير الجهـد بالاحتمـاء من الشـهود ورؤيـة العمل في نور التوفيق من عين الجود.. والدرجة الثالثـة إخلاص العمل بالخلاص من العمل تدعه يسير مسـير العلم وتسـير أنت مشاهدا للحكم حرا من رق الرسم) [3]

ويذكرون أن الشكر ثلاث درجات: (الدرجـة الأولى الشـكر في المحـاب، وهـذا شـكر شـاركت المسـلمين فيـه اليهـود والنصارى والمجوس ومن سعة بر البارئ أنه عده شـكرا ووعـد

1() منازل السائرين (ص: 34)

2() منازل السائرين (ص: 26)

3() منازل السائرين (ص: 41)

عليه الزيـادة وأوجب لـه المثوبـة.. والدرجـة الثانيـة الشـكر في المكاره، وهذا ممن يستوى عنده الحالات إظهار الرضـى وممن يميز بين الأحوال كظم الشكوى ورعايـة الأدب وسـلوك مسـلك العلم وهذا الشاكر أول من يدعى إلى الجنـة.. والدرجـة الثالثـة أن لا يشهد العبد إلا المنعم فـإذا شـهد المنعم عبـودة اسـتعظم منـه النعمـة وإذا شـهده حبـا اسـتحلى منـه الشـدة وإذا شـهده تفريدا لم يشهد منه شدة ولا نعمة) [1]

ويـذكرون أن الأنس ثلاث درجـات: (الدرجـة الأولى الأنس بالشواهد وهو استحلاء الذكر والتغـذي بالسـماع والوقـوف على الإشـارات.. والدرجـة الثانيـة الأنس بنـور الكشـف وهـو أنس شاخص عن الأنس الأول تشـوبه صـولة الهيمـان ويضـربه مـوج الفناء.. والدرجـة الثالثـة أنس اضـمحلال في شـهود الحضـرة لا يعبر عن عينه ولا يشار إلى حده ولا يوقف على كنهه) [2]

وهكذا الأمر بالنسـبة للمـواهب الإلهيـة، وقـد قـال بعضـهم مشيرا إلى ذلك: (الأنفال الحقيقة هى المواهب الـتي تـرد على القلوب، من حضرة علام الغيوب؛ من العلـوم اللدنيـة والأسـرار الربانية، لا تـزال تتـوالى على القلـوب، حـتى تغيب عمـا سـوى المحبوب، فيستغنى غناء لا فقر معه أبدا، وهذه غنـائم خصـوص الخصوص، وغنائم الخصوص: هى القرب من الحـبيب، ومراقبـة الرقيب، بكمـال الطاعـة والجـد والاجتهـاد، وهـذه غنـائم العبـاد والزهاد، وغنائم عوام أهل اليمين: مغفرة الذنوب، والستر على العيوب، والنجاة من النار، ومرافقة الأبرار) [3]

إذا عـرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن تلـك

1() منازل السائرين (ص: 53)

2() منازل السائرين (ص: 69)

3() البحر المديد، ج 2، ص: 305.

الـدرجات الثلاث الـتي يـذكرونها، هي مجـامع الحركـة، وليسـت حدودا لها.. ذلك أن لكل درجة منها مـا لا يحصـى من الـدرجات الفرعية التي تختلـف بـاختلاف السـالكين، وذلـك يشـبه الألـوان التي يحصرونها في عدد محدود في نفس الوقت الذي يــذكرون فيه أن لكل لون درجات كثيرة، لا يمكن إحصاؤها، ولا ضبطها.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ بعد هذا أن تلك الحركة الـتي تؤثر في النفس، وتسير بها في سيرها التكاملي، لا ترتبط فقط بالأعراض، وإنما بـالجواهر والحقـائق.. ولـذلك فـإن السـائر في طريقة التزكية يتحول إلى كينونة جديدة لا مجال للمقارنة بينهــا وبين كينونته القديمة، كما لا مجال للمقارنة بين المراحـل الـتي مر بها، وهو في رحم أمه، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُـونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر: 6]

فكما تحقـق للإنسـان في خلقتـه الجسـدية تلـك التغـيرات الكثيرة التي تصاعدت في طريق الكمـال إلى أن أصـبح إنسـانا سويا.. فهكذا بالنسـبة للجـزء الثـاني من مكوناتـه، وهـو روحـه؛ فهي تنتقل به من حال إلى حـال، وفي كـل حـال تتحصـل على كينونة جديدة متناسبة مع حالها الجديد.

هذا جوابي ـ أيها المريد الصادق ـ على أسئلتك؛ فاسـع لأن تصـعد سـلم الكمـال الـذي نصـبه اللـه تعـالى لخلقـه في هـذه النشـأة، ليقـدموا عليـه في النشـأة الأخـرى، ونفوسـهم بأجمـل وأكمل صورة.. فلا يدخل الجنـان الجميلـة إلا أصـحاب النفـوس الجميلة...

السلامة والصفاء

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن السلامة والصفاء التي ورد وصف القلوب بها في القرآن الكريم، وعلاقتها بالنفس المطمئنة، وكيفية التحقق بها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الصورة التي يكون عليها القلب في الدنيا والآخرة هي التي تحدد النجاة والفوز، كما تحدد الهلاك والخسارة.. فالله تعالى ـ كما ورد في الحديث الشريف ـ (لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم، وإنّما ينظر إلى قلوبكم) (1)

ولهذا يرد في القرآن الكريم تصنيف البشر بحسب قلوبهم؛ فهي من يحدد كونهم من أصحاب النفوس الأمارة، أو أصحاب النفوس المطمئنة.. وهي من يحدد النجاة والفوز، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88، 89]

بل اعتبر الله تعالى القلب السليم من صفات الأنبياء والمرسلين، فقال في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: 83، 84]

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ الأوصاف الدقيقة للقلوب وأنواعها، ففي الحديث عنه ﷺ قال: (القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السّراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفّح، فأمّا القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجه فيه نوره، وأمّا القلب الأغلف فقلب الكافر،

---

(1) رواه مسلم (4/ 1986)

وأمّـا القلب المنكـوس فقلب المنـافق، عـرف ثمّ أنكـر، وأمّـا القلب المصفّح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطّيّب، ومثل النّفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدّم، فأيّ المدّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه) [1]

وأخـبر عن السـبب الـذي تنقسـم بـه القلـوب إلى هـذه الأقسام، وهو موقفها من الامتحانات وأنواع البلاء الـتي تتعـرض لها، فقـال: (تعـرض الفتن على القلـوب كالحصـير عـودا عـودا، فأيّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سـوداء. وأيّ قلب أنكرهـا نكت فيه نكتة بيضاء حتّى تصير على قلـبين، على أبيض مثـل الصّـفا. فلا تضرّه فتنة ما دامت السّماوات والأرض، والآخر أسود مربـادّ كالكوز مجخّيّا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلّا ما أشـرب من هواه)[2]

وقال الإمام الصادق لبعض أصحابه: (ارعـوا قلـوبكم بـذكر الله عزّ وجـلّ واحـذروا النكت، فإنـه يـأتي على القلب سـاعات ليس فيه إيمان ولا كفر، شبه الخرقة الباليـة، أو العظم النخـر)، ثم قال به سائلا: (أليس ربما تفقدت قلبك فلا تذكر به خـيراً ولا شراً، ولا تدري أين هو؟).. فقال: بلى إنه ليصيبني وأراه يصـيب الناس، قال: (أجل ليس يعرى منه أحد، فإذا كان ذلـك فـاذكروا اللـه عـز وجـل، واحـذروا النكت، فإنـه إذا أراد بعبـد خـيراً نكت إيماناً، وإذا أراد به غير ذلـك نكت غـير ذلـك)، فقـال: (ومـا غـير ذلك؟)، فقال: (إذا أراد كفراً نكت كفراً)[3]

ولـذلك إن شـئت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تبحث عن الصفاء والسلامة؛ فلا تبحث عنها في الأعمال وحدها، بــل ابحث

1() أحمد (3/ 17)

2() مسلم (144)

3() بحار الأنوار: 67/59، والكافي 8/167.

عنها في قلبك؛ فهو التي يحدد حقيقتك ومكانتك ومرتبتك..

ذلـك أن كـل الأوزار والمظـالم والانغلاق الـذي يقـع فيـه البشر يعود إلى قلوبهم، بسبب تشـربها للآثـام، وإدمانهـا عليهـا، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَـا كَـانُوا يَكْسِـبُونَ ﴾ [المطففين: 14]

ولذلك تدعو النصوص المقدسة إلى مراعاة القلـوب، قبـل مراعاة الأعمال؛ فحقيقة الإنسان ليسـت في تلـك الصـورة، ولا تلك الحركات التي تبرز منها، وإنما في تلك الإدارة الخفية الـتي تكمن وراء كل عمل من الأعمال أو موقف من المواقف.

فــالمنغلقون المتعصــبون الــذين لا يســمعون الحجج، ولا يقتنعـون بهـا، لا يعـود ذلـك لخلـل في تفكـيرهم، ولا في أدوات إدراكهم، وإنما لخلـل في قلـوبهم، كمـا قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْـذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْـذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُـونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُـوبِهِمْ وَعَلَى سَـمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَـارِهِمْ غِشَـاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: 6، 7]

والذين يسخرون بالدين، ومن المؤمنين، ويســتهزئون بهم، ويتصورون أنهم يخادعونهم، لا يفعلون ذلك إلا طاعة لمـا تمليـه عليهم قلــوبهم، قــال تعــالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُــولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُـؤْمِنِينَ (8) يُخَـادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَـا يَشْـعُرُونَ (9) فِي قُلُـوبِهِمْ مَـرَضٌ فَــزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًــا وَلَهُمْ عَــذَابٌ أَلِيمٌ بِمَــا كَـانُوا يَكْـذِبُونَ ﴾ [البقرة: 8 - 10]

والذين يتبعون المتشابهات، ويتركون المحكمات، ويسعون إلى إثارة الفتن لا يفعلون ذلك إلا طاعـة لقلـوبهم، قـال تعـالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَـةِ

وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ [آل عمران: 7]

وأولئــك الــذين يســارعون في الكفــر، ويضــللون النــاس بألسنتهم، ويمارسون أثناء ذلك كل الموبقات، لا يفعلـون إلا مـا تطفح بــه قلــوبهم من قســوة وقــذارة، قــال تعــالى: يَاأَيُّهَـا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْـكَ الَّذِينَ يُسَـارِعُونَ فِي الْكُفْـرِ مِنَ الَّذِينَ قَـالُوا آمَنَّا بِـأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُـؤْمِنْ قُلُـوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَـادُوا سَـمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُـونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْـدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُـذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَـوْهُ فَاحْـذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَـهُ مِنَ اللَّهِ شَـيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِـزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِـرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [المائدة: 41]

وأولئـــك الـــذين يســـارعون إلى مـــوالاة المســـتكبرين، ويؤيـدونهم في مواجهـة المستضـعفين المظلـومين، لا يفعلـون ذلك إلا لتلك القيم القذرة الـتي تشـربتها قلـوبهم، قـال تعـالى: يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تَتَّخِـذُوا الْيَهُـودَ وَالنَّصَـارَى أَوْلِيَـاءَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَـرَضٌ يُسَـارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِـيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَـى اللَّهُ أَنْ يَـأْتِيَ بِـالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَـا أَسَـرُّوا فِي أَنْفُسِـهِمْ نَـادِمِينَ [المائدة: 51، 52]

وأولئك الـذين يغلقـون آذانهم عن كـل حجـة، ويسـتكبرون عن سماع كل دليل، ويسارعون إلى مواجهـة الحـق، لا يفعلـون ذلك إلا بقلوبهم، قال تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْـتَمِعُ إِلَيْـكَ وَجَعَلْنَـا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَـةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَـا حَتَّى إِذَا جَـاءُوكَ يُجَادِلُونَـكَ يَقُـولُ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25) وَهُمْ يَنْهَـوْنَ عَنْـهُ وَيَنْـأَوْنَ عَنْـهُ وَإِنْ

يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: 25، 26]

والذين ينظرون إلى المحـارم بعيـون الشـهوات، لا بعيـون الاحـترام، لا يفعلـون ذلـك إلا لخلـل في قلـوبهم، قـال تعـالى: ﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْـتُنَّ كَأَحَـدٍ مِنَ النِّسَـاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَـعْنَ بِـالْقَوْلِ فَيَطْمَـعَ الَّذِي فِي قَلْبِـهِ مَـرَضٌ وَقُلْنَ قَـوْلًا مَعْرُوفًـا ﴾ [الأحزاب: 32]

والــذين يمــرون بالآيــات البينــات، ثم يعرضــون عنهــا، لا يفعلـون ذلـك إلا بسـبب عمى العيـون الـتي في قلـوبهم، قـال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَـا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَـارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُـوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]

والممتلئون بالغفلة السـادرون في غيهم، الـذين يعرضـون عن ذكر الله، ويسخرون منه، لا يفعلون ذلك إلا للأمـراض الـتي تعتري قلوبهم، قال تعـالى: ﴿اقْتَـرَبَ لِلنَّاسِ حِسَـابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَـةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَـرُّوا النَّجْـوَى الَّذِينَ ظَلَمُـوا هَـلْ هَـذَا إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: 1 - 3]

والذين يكتمون الشهادة، ويعرضون الحقوق بسببها للضياع لا يفعلون ذلك إلا للإثم الذين يسـكن قلـوبهم، قـال تعـالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُـوا الشَّـهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَـا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُـهُ وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُـونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 283]

والمتكـــبرون والمتجـــبرون، لا يتكـــبرون ولا يتجـــبرون إلا بقلــوبهم، قــال تعــالى: ﴿الَّذِينَ يُجَـادِلُونَ فِي آيَـاتِ اللَّهِ بِغَيْـرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُـوا كَـذَلِكَ يَطْبَـعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: 35]

وهكذا ـ أيها المريد الصادق ـ يمكنك بالتأمل في كل هذه الصفات، والتي تشمل جميع التصرفات الآثمة، أن تعرف القلب السليم.. فهو قلب خلا من كل تلك الأمراض، ولذلك صار طاهرا طيبا مطمئنا، يسكن إلى الحق، ويسلم له، ويتبعه، ولا يرضى بديلا عنه، بل يضحي بكل شيء في سبيله.

لقد وصفه الله تعالى بذلك، فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، فذلك الوجل الذي أصاب القلوب السليمة الطاهرة هو الذي كان سببا في زيادة الإيمان.. وزيادة الإيمان هي التي أثمرت التوكل على الله.. وهو الذي أثمر بعد ذلك كل الصفات النبيلة، والتي منها ما عقب الله تعالى به تلك الآية، فقال: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: 3]

وهكذا الألفة والمودة التي تنتشر عبر المظاهر السلوكية المختلفة، لم تكن لتتحقق لولا وجود مادتها في القلب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: 62، 63]

وهكذا الخشوع؛ فمحله القلب، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16]

وهكذا الطهارة، فطهارة الجسد لا تكفي وحدها ما لم تصحبها طهارة القلب، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾

[الأحزاب: 53]

وهكذا الرأفة والرحمة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: 27]

وهكذا الإيمان، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحجرات: 14]

وهكذا التقوى، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32]

وهكذا الإنابة، قال تعالى: ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 32، 33]

ولهذا يأمر رسول الله ﷺ بعدم الاكتفاء بشعائر الدين الظاهرة التي تمارسها الجوارح، من دون إشراك القلب في ذلك، ففي الحديث عنه ﷺ قال: (القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله عزّ وجلّ أيّها النّاس، فسلوه وأنتم موقنون بالإجابة فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل)[1]

ويدعو إلى قراءة القرآن الكريم لا بالألسن فقط، وإنما بالقلوب أيضا، فيقول: (اقرؤوا القرآنَ، ولا يغرَّنَّكم هذهِ المصاحفُ المعلَّقةُ، فإنَّ اللهَ لنْ يعذِّبَ قلباً وعى القرآنَ)[2]

1() رواه أحمد (2/ 177)

ويدعو إلى عدم الاكتفاء باستفتاء المفـتين، وإنمـا يُسـتفتى القلب أيضـا، فقـد يغيب عن المفـتي من المعـاني مـا يجعلـه يتساهل في فتواه، قال ﷺ: (اسـتفتِ قلبـك، واسـتفتِ نفسـك، البِرُّ ما اطمأنت إليـه النفسُ، والإثمُ مـا حـاكَ في النفس وتـردد في الصدر، وإن أفتاكَ الناسُ وأفتوك)[1]

وبنـاء على هـذا كلـه يعتـبر رسـول اللـه ﷺ القلـوب هي المحـددة للأفضـلية، فقـد سـئل عن أفضـل النـاس، قـال: (كـل مخموم القلب، صدوق اللسان) قـالوا: صـدوق اللسـان نعرفـه، فما مخموم القلب؟ قال: (هو التقي النقي، لا إثم فيــه ولا بغي، ولا غل، ولا حسد) [2]

فهذا الحديث ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ يفسـر لـك سـلامة القلب التي سألت عنها، وهي تشـمل جـانبين.. أحـدهما مرتبـط بالتزكية، والثاني مرتبط بالترقيـة.. ذلـك أن القلب مثـل المـرآة الصافية التي لا يمكنها أن تعكس صور ما تراه إلا بعـد أن تُنقى، وتُطهر، وتُزكى من كل ما يحول بينها وبين الرؤية الدقيقة.

ولهذا كثرت وصايا أئمة الهدى بالدعوة إلى إصلاح القلوب، حتى لا يصبح الدين مجرد مظاهر وطقوس ورسوم لا علاقة لهـا بالوجدان الإنساني.

ومما يروى في ذلك عن الإمام علي أنه أوصى ابنه، فقال: (يا بني.. إن من البلاء الفاقة وأشدّ من ذلك مرض البدن، وأشد من ذلك مرض القلب.. وإنّ من النعم سعة المال، وأفضــل من ذلك صحة البدن، وأفضل من ذلك تقوى القلوب)[3]

2() الدارمي 3185..

1() أحمد 17320، والدارمي 2421.

2() رواه ابن ماجه: 4216
3()أمالي الطوسي 1/146.

وسئل الإمام الصادق عن قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَـعُ مَـالٌ وَلَا بَنُـونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَـلِيمٍ﴾ [الشـعراء: 88ـ 89]، فقـال: (السـليم الـذي يلقى ربـه، وليس فيـه أحـد سواه، وقال: (وكلُّ قلب فيه شكٌّ أو شـرك فهـو سـاقط، وإنمـا أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة)(1)

وقال: (القصـد إلى اللـه تعـالى بـالقلوب، أبلـغ من إتعـاب الجوارح بالأعمال)(2)

وقال الإمـام الرضـا: (إن للـه في عبـاده آنيـة وهـو القلب، فأحبّهـا إليـه أصـفاها وأصـلبها وأرقّهـا: أصـلبها في دين اللـه، وأصفاها من الذنوب، وأرقّها على الإخوان)(3)

هذا جوابي على سؤالك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع إلى تطهير قلبك وتصـفيته من كـل الـران الـذي علـق بـه من جـراء الذنوب والغفلة، واعلم أنك لن تظفر بحقيقتك، ولن تلبس ثوب إنسـانيتك إلا بعـد التخلص من كـل الشـوائب الـتي تحـول بينـك وبينها.. فالذهب لا يسمى ذهبا إلا بعـد أن يمـر على كـير الفتن، ليتخلص من كل المعادن الخسيسة التي تلتصق به.

1() بحار الأنوار: 67/59، وأسرار الصلاة.

2() بحار الأنوار: 67/60، ونوادر الراوندي.

3() بحار الأنوار: 67/56، وفقه الرضا.

الإشراق والاستنارة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عما ورد في النصوص المقدسة من استنارة القلوب وإشراقها، وعلاقة ذلك بالتزكية والترقية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن القلب الذي وصفته النصوص المقدسة ليس مرتبطا بالحقيقة الإنسانية وحدها، وإنما هو مرتبط بعالم الغيب أيضا، يستمد منه المواد التي تفيده أو تضره، ولذلك إن مد يده إلى عالم الظلمات صار مظلما، وإن مد يده إلى عالم الأنوار أشرقت عليه، واستنار بها.

ومثل ذلك مثل الشخص الذي يخير بين أن يسير في الدرب الذي يهديه إلى الخراب المظلم.. أو يسير في الدرب الذي يهديه إلى العمران المشرق.

وبما أن هذه الهداية تستدعي توفر أطراف خارجية، يعرف السالك من خلالها الطريق الذي يريد أن يسلكه؛ فهكذا الأمر بالنسبة للقلوب.. فقد جعل الله لها أنواعا كثيرة من الهداية.. تبدأ بكتبه المنزلة، وتنتهي بأولئك الذين جعلهم الله تعالى قرناء له، يدلونه على الطريق التي يريد اختيارها.

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (إن للشيطان لمة(1) بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله، ومن وجد الآخر فليتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم)، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ

1() اللمة: الهمة والخطرة تقع في القلب. كما في غريب الحديث.

وَاسِعٌ عَلِيمٌ [البقرة: 268]، فإذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئا فليحمد الله وليسأله من فضله، وإذا أحس من لمة الشيطان شيئا فليستغفر الله وليتعوّذ من الشيطان) [1]

وقال الإمام الصادق: (ما من قلب إلا وله أذنان: على إحداهما ملك مرشد، وعلى الأخرى شيطان مفتّن، هذا يأمره وهذا يزجره، الشيطان يأمره بالمعاصي والملك يزجره عنها، وهو قول الله عز وجل: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [ق: 17، 18])[2]

بل أخبر رسول الله ﷺ أن هذا ـ بناء على العدالة الإلهية في التكليف ــ جار على كل القلوب؛ حتى قلوب الأنبياء والمرسلين، كما قال ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة)، قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: (وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم، فلا يأمرنى إلا بخير) [3]

فهذه الأحاديث تشير إلى التواصل الدائم بين الإنسان وعالم الغيب من الملائكة والشياطين، كما تشير إلى أن الاستجابة الاختيارية لأحد الطرفين هي التي تحدد حقيقة الإنسان، وما يتنزل على قلبه.. فإن استجاب إلى الشيطان، صار قلبه مظلما كظلمته، وإن استجاب إلى الملاك أشرق قلبه كإشراقه.

فهذا المصدر الأول من مصادر النور ـ أيها المريد الصادق ـ

1() سنن الترمذي (5/ 219)، السنن الكبرى للنسائي (10/ 37)

2() بحار الأنوار: 67/34.

3() أحمد (1/385، رقم 3648)، ومسلم (4/2167، رقم 2814)

وهـو ذلـك الملاك الـذي وكـل بـك، والـذي تسـتطيع من خلال صحبتك له، واستجابتك لما يدعوك إليه من الخـير أن تـتزود من أنواره ما شاءت لك نفسك.

أما المصدر الثاني؛ فهو كلمات ربك المقدسة، فكل حـرف منه عالم من عوالم الأنـوار العظيمـة، الـتي يشـرق بهـا قلبـك، ليرى الكون جميعا بصـورته الحقيقيـة الـتي لم تزيـف ولم تغـير ولم تبدل.

فقد وصف الله تعالى كتابه بكونه نورا، فقال: ﴿قَدْ جَـاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُـورٌ وَكِتَـابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائـدة: 15]، وقـال: ﴿وَكَـذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَـابُ وَلَا الْإِيمَـانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْـدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: 52]

وهكذا غـيره من كتبـه المقدسـة ــ قبـل أن تمتـد إليهـا يـد المحـرفين بالتبديل والتغيير ـ كما قـال تعـالى عن التـوراة: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: 44]، وقـال: ﴿قُـلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِـهِ مُوسَـى نُـورًا وَهُـدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَـهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: 91]

وفي الحديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (عليـك بتلاوة القرآن، فإنّه نور لك في الأرض وذخر لك في السّماء) (1)

وقال للإمـام علي: (أُعلّمـك دعـاء لا تنسـى القـرآن، قـل: اللّهمّ ارحمـني بـترك معاصـيك أبـداً مـا أبقيتـني، وارحمـني من تكلّف ما لا يعنيني، وارزقني حسن النظر فيمـا يرضـيك، والـزم قلبي حفظ كتابك كمـا علّمتـني، وارزقـني أن أتلـوه على النحـو الّذي يرضيك عنّي.. اللّهمّ نوِّر بكتابك بصري، واشرح به صدري،

1() رواه ابن حبان، الترغيب والترهيب (2/ 349)

وأطلق به لسـاني، واسـتعمل بـه بـدني، وقـوّني بـه على ذلـك، وأعنّي عليه، إنّه لا يعين عليه إلاّ أنت، لا إله إلاّ أنت)(1)

وروي أنه بينما جبريل قاعد عند النّبيّ ﷺ، سمع نقيضـا من فوقه، فرفع رأسه فقال: «هذا بـاب من السّـماء فتح اليـوم، لم يفتح قطّ إلّا اليوم». فنزل منه ملك، فقال: «هذا ملك نـزل إلى الأرض لم يـنزل قـطّ إلّا اليـوم»، فسـلّم وقـال: أبشـر بنـورين أوتيتهما لم يؤتهمـا نـبيّ قبلـك، فاتحـة الكتـاب وخـواتيم سـورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلّا أعطيته»(2)

وقال الإمام عليٌ في وصف القرآن الكريم: (جعله الله ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاج لطرق الصـلحاء، ودواء ليس بعده داءٌ، ونورا ليس معه ظلمةٌ) (3)

وقـال في دعائـه عنـد ختم القـرآن الكـريم: (اللهم اشـرح بالقرآن صدري، واستعمل بالقرآن بدني، ونور بـالقرآن بصـري، وأطلق بالقرآن لساني، وأعني عليه ما أبقيتني، فإنه لا حول ولا قوة إلابك) (4)

وقال الإمام الحسن: (إن هـذا القـرآن فيـه مصـابيح النـور وشفاء الصدور، فليجل جال بضـوئه، وليلجم الصـفة قلبـه، فـإن التفكير حياة القلب البصير كما يمشـي المسـتنير في الظلمـات بالنور) (5)

1() بحار الأنوار: 89/209، وعدة الداعي.

2() مسلم (806)

3() نهج البلاغة: الخطبة 198.

4() بحار الأنوار: 89/ 209/ 6.

5() كشف الغمّة: 2/ 199.

وإن شئت ـ أيها المريد الصادق ـ أن تجرب ذلك؛ فاقرأ القرآن الكريم بصدق وإخلاص وتدبر، وسترى كيف يؤثر عليك تأثيره البليغ، بحيث ترى نفسك قد تغيرت كثيرا، وكأنها أبصرت بعد عمى، واهتدت بعد ضلالة، وذلك نفس ما تفعله الأنوار والسرج التي يهتدى بها في الظلمات.

ولهذا أخبر الله تعالى أن من أغراض تنزل القرآن الكريم إخراج العباد من الظلمات إلى النور، بتبصيرهم بالحقائق، ودلالتهم عليها، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: 1]

والمصدر الثالث من مصادر النور التواصل مع الله تعالى بكثرة الذكر والصلاة؛ فذلك مما يملأ القلب بالأنوار.. فـ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، ومن اتصل به، وتواصل معه بتلك الشعائر التعبدية نهل من الأنوار بحسب استعداده وحضوره وقابليته، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: 35]

ثم ذكر بعدها مصدرا من مصادر ذلك النور، فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: 36-37]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (بشّر المشّائين

في الظّلم إلى المساجد بالنّور التّامّ يوم القيامة) (1)

وقال: (الصلاة نور المؤمن، والصلاة نورٌ من الله)(2)

ومثلما يزداد نور المصباح بتزويده بمصادر الإضاءة القويـة، يزداد نور القلب بكثرة التواصل مع الله تعالى، كما قـال ﷺ في فضل صلاة الليل: (إن العبـد إذا تخلى بسـيده في جـوف الليـل المظلم وناجاه، أثبت الله النور في قلبه، ثم يقول لملائكتـه: يـا ملائكـتي، انظـروا إلى عبـدي، فقـد تخلى بي في جـوف الليـل المظلم والبطـالون لاهـون، والغـافلون نيـامٌ، اشـهدوا أني قـد غفرت له) (3)

وقال الإمام علي: (ما تركت صلاة الليل منذ سـمعت قـول النبي ﷺ: صلاة الليل نورٌ)، فقيل له: ولا ليلة الهريـر؟ قـال: (ولا ليلة الهرير) (4)

وقال الإمام الصـادق: (صـلاة الليـل تـبيض الوجـه، وصـلاة الليل تطيب الريح، وصلاة الليل تجلب الرزق) (5)

وقال الإمام السـجاد جوابـا لمن سـأله: مابـال المتهجـدين بالليل من أحسن الناس وجها؟: (لأنهم خلوا بالله فكساهم اللــه من نوره) (6)

1() أبو داود (561) والترمذي (1/ 223)

2() مستدرك الوسائل: ج 3، ص 92، ح 3098.

3() الأمالي للصدوق: 354/ 432.

4() بحار الأنوار: 41/ 17/ 10.

5() علل الشرائع: 363/ 1.

6() علل الشرائع: 366/ 1.

والمصدر الرابع من مصادر النـور ـ أيها المريـد الصـادق ـ تواصلك مع الصـالحين، لأن قلـوبهم وأرواحهم ممتلئـة بـالأنوار، ولذلك فإن كل من يجلس إليهم، تتنزل عليه أنوارهم.

ولهذا أخبر ﷺ عن فضل الصـلاة عليـه وعلى أئمـة الهـدى، فقال: (أكثروا الصـلاة عليَّ، فـإنّ الصـلاة عليّ، نـور في القـبر، ونور على الصراط، ونور في الجنة) (1)

بل ورد في الحديث ما يدل على أن التواصل مع النـبي ﷺ يثمر صلاة الله تعالى على بعده، كمـا قـال ﷺ: (من صـلى علي صلاة واحدة صلى الله عليـه عشـر صـلوات، وحـط عنـه عشـر خطيئات) (2)

وقال: (إنه أتاني الملك فقال: يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صـليت عليـه عشرًا، ولا يسلم عليك أحد من أمتـك إلا سـلمت عليـه عشـرًا؟ قلت: بلى) (3)

وقال يحكي عن الله تعالى: (من صلى عليك صليت عليـه، ومن سلم عليك سلمت عليه) (4)

وقد ورد في النصـوص المقدسـة مـا يـدل على دور صـلاة الله تعـالى على عبـاده في إخـراجهم من الظلمـات إلى النـور، قـال تعـالى: ﴿هُـوَ الَّذِي يُصَـلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُـهُ لِيُخْـرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43]

1() مستدرك الوسائل: ج 5، ص 332، ح 6017.

2() رواه أحمد.

3() رواه أحمد وابن حبان

4() رواه أحمد والحاكم

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن من صفات السـابقين الفـائزين العقلاء المسـارعة إلى شـحن أرواحهم بالأنوار الكافية في الدنيا، حتى يبصـروا الحقـائق رأي العين؛ فلا يرتابوا، ولا يضلوا، ولا يشكوا.. وهل يمكن لمن رأى الحقائق أن يشك فيها، أو يضل عنها؟

وقـد أخـبر ﷺ عن ذلـك، وإمكانيـة تحققـه لكـل النفـوس بشرط ابتعادها عن الحجب التي تحول بينهـا وبين ذلـك، فقـال: (لولا أن الشـياطين يحومـون على قلـوب بـني آدم لنظـروا إلى الملكوت)(1)

وقد روي أن رسول الله ﷺ سأل بعض أصحابه المنتجـبين، فقال: (كيف أصبحت يا حـارث؟)، فقـال: أصـبحت مؤمنـا حقـا، فقال ﷺ: (انظر ما تقول؟ فإن لكل شـيء حقيقـة، فمـا حقيقـة إيمانك؟) فقال: (قد عزفت نفسـي عن الـدنيا، وأسـهرت لـذلك ليلي، واطمأن نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكـأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهـل النـار يتضاغون فيها، فقال ﷺ: (يا حارث عرفت فالزم) (2)

بالإضافة إلى ذلك الفضل العظيم، فقد أخبر الله تعالى أن تلـك الأنـوار الـتي اكتسـبها المؤمنـون في الـدنيا هي الـتي يستضيئون بها في الآخـرة، قـال تعـالى: ﴿يَـوْمَ تَـرَى الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْـدِيهِمْ وَبِأَيْمَـانِهِمْ بُشْـرَاكُمُ الْيَـوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (12) يَـوْمَ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَافِقَـاتُ لِلَّذِينَ آمَنُـوا انْظُرُونَـا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُـوا نُـورًا فَضُـرِبَ

1() بحار الأنوار: 67/59، وأسرار الصلاة.

2() مصنف ابن أبي شيبة 6/ 170 ح (30425)، المعجم الكبير للطبراني 3/ 266 ح (3367)

بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَـالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَـكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَـرَّتْكُمُ الْأَمَـانِيُّ حَتَّى جَـاءَ أَمْـرُ اللـه وَغَـرَّكُمْ بِالله الْغَرُورُ﴾ [الحديد: 12 - 14]

فهذه الآيات الكريمة تبين أن نور المؤمنين يسعى أمــامهم وبين أيديهم، ليضيء لهم الظلمات التي تملأ ذلك الموقف، كمـا تــبين أن مبــدأ اكتســاب ذلــك النــور كــان في الــدنيا، وبالعمــل الصالح، ولهـذا يطلبـون من المنـافقين العـودة للـدنيا لاكتسـاب ذلك النور.

واحذر ـ أيها المريد الصادق ـ بعد هذا أن تسد تلــك الأنــوار الــتي تكتســبها، وتملأ قلبـك بهـا، بالـذنوب والمعاصـي، وخاصـة المتعدية منها، فإنها ظلمـات في الـدنيا والآخـرة، وقـد قـال ﷺ: (اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة) (1)

ولهـذا؛ فإنــه إن اختلطت الظلمـات بـالأنوار كـانت الغلبـة للمتغلب منهما، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ تقسيم القلوب على أساس ذلك، فقال: (القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثـل السّـراج يزهـر، وقلب أغلـف مربـوط على غلافـه، وقلب منكــوس، وقلب مصــفّح، فأمّــا القلب الأجــرد فقلب المــؤمن، سراجه فيه نوره، وأمّا القلب الأغلف فقلب الكافر، وأمّـا القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثمّ أنكـر، وأمّـا القلب المصـفّح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيـه كمثـل البقلـة يمـدّها المــاء الطّيّب، ومثـل النّفـاق فيــه كمثـل القرحـة يمـدّها القيح والدّم، فأيّ المدّتين غلبت على الأخرى غلبت عليه) (2)

1() رواه مسلم

2() أحمد (3/ 17)

وقال الإمام الباقر: (القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان، وقلب منكوس، وقلب مطبوع، وقلب أزهر أنور.. فأما المطبوع فقلب المنافق، وأما الازهر فقلب المؤمن إن أعطاه الله عزوجل شكر، وإن ابتلاه صبر، وأما المنكوس فقلب المشرك، ثم قرأ هذه الآية: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: 22]، وأما القلب الذي فيه إيمان ونفاق، فهم قوم كانوا بالطائف فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك، وإن أدرك على إيمانه نجا) (1)

وقال: (القلوب ثلاثة: قلب منكوس لا يعثر على شيء من الخير وهو قلب الكافر.. وقلب فيه نكتة سوداء فالخير والشر فيه يعتلجان، فما كان منه أقوى غلب عليه.. وقلب مفتوح فيه مصباح يزهر، فلا يطفأ نوره إلى يوم القيامة وهو قلب المؤمن) (2)

وقد قال بعض الحكماء يصور ذلك، ويقربه بالأمثلة: (اعلم أن القلب مثال قبة مضروبة، لها أبواب، تنصب إليه الأحوال من كل باب، ومثاله أيضا مثال هدف، تنصب إليه السهام من الجوانب، أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة، فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها، أو مثال حوض، تنصب فيه مياه مختلفة، من أنهار مفتوحة إليه، وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال، أما من الظاهر فالحواس الخمس، وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب، والأخلاق المركبة من مزاج الإنسان، فإنه إذا أدرك بالحواس شيئا حصل منه أثر في القلب، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الأكل، وبسبب قوة في المزاج، حصل منها في القلب أثر، وإن كف عن الإحساس. فالخيالات الحاصلة

1() معاني الاخبار 395.

2() بحار الأنوار: 67/51، ومعاني الأخبار ص395.

في النفس تبقى، وينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر، والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائما من هذه الأسباب) (1)

وذكر سبب إقبال النفس على مصدر الظلمات، وابتعادها عن مصدر النور، فقال: (القلب بأصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك، ولقبول آثار الشيطان، صلاحا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى، والإكباب على الشهوات، أو الإعراض عنها ومخالفتها. فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى، وصار القلب عش الشيطان ومعدنه، لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه. وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه، وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام، صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم. ولما كان لا يخلو قلب عن شهوة وغضب، وحرص وطمع وطول أمل، إلى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن الهوى، لا جرم لم يخل قلب عن أن يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة) (2)

ومما يروى في هذا عن بعض الحكماء أنه سئل عن الوسوسة، فقال: (إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص، فإن كان فيه شي ء عالجوه، وإلا مضوا وتركوه.. وكذلك القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان)

وهذا ما يدل عليه قوله تعالى مخاطبا الشيطان: ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 41، 42]

1() إحياء علوم الدين، 8/47.

2() إحياء علوم الدين، 8/49.

وسر ذلك أن الله تعالى ـ بعدله ورحمته ــ تـرك لكـل عبـد الحرية في اختياره؛ فإن آثر العبد عبودية اللـه، كـان في حمايـة الله وجواره، وفرت منه الشياطين.. ومن آثر عبادة هـواه، ومـا تمليـه عليـه نفسـه تركـه، ومـا هـوى، وحينهـا تتسـلط عليـه الشياطين بظلماتها، كما قـال تعـالى: ﴿أَفَـرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَـذَ إِلَهَـهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَـلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيـهِ مِنْ بَعْـدِ اللَّهِ أَفَلَا تَـذَكَّرُونَ﴾ [الجاثيـة: 23]

فالإضـلال الـواردة في الآيـة الكريمـة ليس إضـلالا قهريـا للعبد، وإنما هو استجابة لطلب العبد ورضاه، ذلك أن الله تعالى هداه النجدين، ثم ترك لـه بعـد ذلـك حريـة الاختيـار، والـتي من خلالها يحدد العبد مصيره.

هذا جوابي على سؤالك ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن تجعل من الدنيا سوقا لاكتساب الأنوار، وملئ قلبك بها، وسترى أن رؤيتك لكل شيء تتغير بحسب الأنوار التي تكسبها.. ذلك أن مصدر كل الهموم والغموم والكآبة والإحبـاط والوحشـة هي تلـك الظلمـات الـتي تسـكن القلب، وتجعلـه يـرى الكـون بصورة مرعبة على غير ما هو عليها، ولا علاج لذلك سوى أنــوار الإيمان والعمل الصالح.

الحكمة والاتزان

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن دور العقل في عالم النفس المطمئنة، وعن موقف أولئك الذين يذمونه، ويعتبرونه حجابا، ويعتبرون الكمال في عزله.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن ذلك الذم الذي قرع سمعك عن العقل، لا يقصد به تلك النعمة الإلهية العظمى التي أكرم الله تعالى بها نفوس عباده، حتى يميزوا بين الحق والباطل، والخير والشر، وليتحكموا في نزواتهم وشهواتهم وغرائزهم؛ فلا تتحرك إلا بما تقتضيه قيم الفطرة السليمة.

وإنما يقصدون به تلك الغريزة الشيطانية التي تلبس لباس العقل، والعقل منها براء.. وقد أشار إليها الإمام الصادق عندما سُئل ما العقل، فقال: «ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان» فقيل له: فالذي كان في معاوية، فقال: «تلك النكراء وتلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل، وليست بالعقل»[1]

والحكماء يسمونها [القوة الوهمية]، ويعرفونها بأن (القوّة التي من شأنها استنباط وجوه المكر والحيل، والتوصّل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع، ومن أي طريق كان محللًا أو محرّماً، جائزاً أو غير جائز)[2]

ويذكرون أنها إذا صارت في خدمة القوّة الغضبية أصبح الإنسان جبّاراً في الأرض، فيطغى، ويعيث فيها فساداً، ويتنكّر لكلّ خير، ويتنكّب كلّ شرّ.

1() المحاسن للبرقي، 195/ 15.

2() التربية الروحية؛ بحوث فى جهاد النفس، ص: 165

وإذا صارت في خدمة القوّة الشهوية فإنّها تهيئ لها كلّ وسيلة توصلها إلى غرضها، وتبحث لها عن كل طريق حتّى ما لا يخطر على بال الشيطان نفسه من أجل الوصول إلى تلك الشهوة.

وأمّا إذا صارت في خدمة القوّة العاقلة الحقيقية؛ فإنّها تبحث لها عن طرق الوصول إلى القرب الإلهي وسبل الرقي في درجات الكمال.

وهم يذمونها، لا لأجل دورها الأخير في خدمة العقل، وإنما لأدوارها في خدمة الغضب والشهوة، ولسيطرتها على أكثر النفوس.. بل بسببها تصبح النفوس أمارة.

والأخطر من ذلك كله هو جدلها وخصومتها وبحثها عن كل الحيل التي تصرف النفس عن بارئها، ولو بتغطية الحقائق والتلاعب بها، باسم الفلسفة أو الفكر أو العلم أو البراهين.. وغيرها من الأسماء التي تحتال بها لحجب الحقائق.

ومثل ذلك مكرها وحيلها في التلاعب بالقيم الروحية والأخلاقية، حيث تقلب الموازين، وتحول الخير شرا والشر خيرا، والمعروف منكرا، والمنكر معروفا.

وللأسف ـ أيها المريد الصادق ـ فإن هذه الأوصاف للقوة الوهمية هي ما يطلق عليه أكثر الناس قوة عقلية.. فيتوهمون أن كل تلك المدارس المادية والإلحادية والوجودية، والتي تدعو إلى الصراع مع كل شيء.. مدارس عقلية تنطلق من العقل، وإليه تعود.. ولذلك يعظمون سدنتها، مع أنهم لا يتلقون تلك المفاهيم والقيم إلا من وحي الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ

فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ [الأنعام: 112]

أما العقل الحقيقي ـ أيها المريد الصادق ــ فما كان لأحد من الناس أن يذمه، وكيف يذمه، وهو حجة الله تعالى على خلقه؟

وكيف يذمه، وقد ورد في النصوص المقدسة ما يدل على فضله، وأنه لولاه ما عرف الله، ولا سلك السائرون سبيلهم إليه؟

وكيف يذمه، ولولاه ما لجمت النفس الأمارة، وما استطاع الإنسان التحكم في غضبه وشهواته وأهوائه؛ فمعارف الإيمان هي الوحيدة التي تقمع سطوة تلك الغرائز، وتوجهها التوجيه الصحيح؟

وقد قال بعض الحكماء يرد على أولئك الذين لم يعطوه حقه من التشريف والفضل، متوهمين تناقضه مع الدين: (العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟ أو كيف يستراب فيه والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل، حتى إن أعظم البهائم بدنا وأشدها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه، لشعوره باستيلائه عليه، لما خص به من إدراك الحيل) [1]

ولهذا ترى القرآن الكريم يرجع كل المثالب التي تقع فيها النفوس الأمارة إلى عدم استخدامها للعقل، أو سوء استخدامها له، أو استخدامها للقوة الوهمية بدله.

ومن ذلك قوله تعالى في وصف الكفار المعرضين عن

1() إحياء علوم الدين، 1/141.

الحق مع وضوح أدلته: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (البقـرة: 171)

ومثـــل ذلـــك قولـــه في وصـــف من يســـخرون من القيم الروحية:﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة:58)

ومثـــل ذلـــك قولـــه في الـــذين يســـيرون في الأرض، أو يدرســـون التـــاريخ، ثم لا يعتـــبرون:﴿ أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:46)

ولهذا؛ فإن الوصف المناسب لهؤلاء هـو كـونهم دوابـا، لأن الفرق بينهم وبينها في العقل، ومـا دامـوا لم يسـتخدموها؛ فقـد عادوا إلى طورهم البهيمي، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَـرَّ الـدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (لأنفال:22)

وفي المقابل يثني الله تعالى على من اسـتعملوا عقـولهم في رحلة التعرف على ربهم.. فيسـميهم ذوي الألبـاب؛ فيقـول: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ لَآيـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:190)، ويقول:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَسَـلَكَهُ يَنَـابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْـرِجُ بِـهِ زَرْعـاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُـهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَـرَاهُ مُصْـفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُـهُ حُطَامـاً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:21)

وهكذا الذين يعتـبرون بالتـاريخ وعـبره، ويسـتفيدون منهـا، قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَـا كَـانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْـدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْـهِ وَتَفْصِـيلَ كُـلِّ شَـيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف:111)

وهكذا الذين يسلمون للبراهين والحجج الدالة على صدق رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الرعد:19)

وهكذا الذين تتحرك جوارحهم لكل الأعمال الصالحة والقيم النبيلة بناء على تأثير عقولهم فيهم، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:9)

ولذلك؛ فإن الفرق بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة يكمن في نوع العقل المتحكم فيها؛ فأما الأمارة، فتتحكم فيها تلك القوى الوهمية التي تزين لها الغرائز التي تتسلط عليها، وأما المطمئنة؛ فيتحكم فيها العقل المجرد، المسدد بنور الوحي، والمؤيد بالإلهام الرباني.

ولذلك كان كمال العقل دليلا على كمال الدين.. وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (يا أيّها النّاس اعقلوا عن ربّكم، وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه، واعلموا أنّه ينجدكم عند ربكم، واعلموا أنّ العاقل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر حقير الخطر دنيّ المنزلة رثّ الهيئة، وإنّ الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحا نطوقا، فالقردة والخنازير أعقل عند الله تعالى ممن عصاه) [1]

وقال: (ما قسّم الله للعباد شيئا أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله رسولا ولا نبيا حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من

1() رواه داود بن المحبر في كتاب العقل.

عقول جميع أمته، وما يضمر النبي في نفسه أفضل من اجتهـاد المجتهدين، وما أدّى العاقل فرائض الله حتى عقل منه، ولا بلـغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلـغ العاقـل، إنّ العقلاء هم أولوا الألبـاب الـذين قـال اللـه عـزّ وجـلّ: (إنمـا يتـذكر أولـوا الألباب)[1]

وقال: (إذا بلغكم عن رجل حُسن حاله، فانظروا في حُسن عقله، فإنما يجازى بعقله)[2]

وقال: (لكل شيءٍ آلةٌ وعدةٌ، وآلةُ المؤمن وعدّتـه العقـل.. ولكل شيءٍ مطيّةٌ، ومطيـةُ المـرء العقـل.. ولكـل شـيءٍ غايـةٌ، وغايةُ العبادة العقل.. ولكل قومٍ راعٍ، وراعي العابـدين العقـل.. ولكل تاجرٍ بضاعةٌ، وبضـاعة المجتهـدين العقـل.. ولكـل خـرابٍ عمارةٌ، وعمارةُ الآخرة العقـل.. ولكـل سـفرٍ فسـطاطٌ يلجـأون إليه، وفسطاطُ المسلمين العقل)[3]

وقال: (لكلّ شي ء دعامة ودعامـة المـؤمن عقلـه، فبقـدر عقله تكون عبادته، أ ما سمعتم قول الفجّـار في النّـار: (لَـوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ!) [4]

وقال: (إنّ أحبّ المؤمنين إلى اللَّه عزّ وجلّ من نصـب في طاعة اللَّه عـزّ وجـلّ ونصـح لعبـاده وكمـل عقلـه ونصـح نفسـه فأبصر، وعمل به أيّام حياته فأفلح وأنجح) [5]

1() بحار الأنوار: 1/92، والمحاسن.

2() بحار الأنوار: 1/93، والمحاسن.

3() بحار الأنوار: 1/95، وكنز الكراجكي.

4() رواه داود بن المحبر في كتاب العقل.

5() رواه داود بن المحبر في كتاب العقل وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

وقال: (أتمّكم عقلا أشدّكم للّه تعالى خوفا وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظرا، وإن كان أقلّكم تطوّعا) [1]

وقال: (أوّل ما خلق اللَّه العقل فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال اللّه عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم على منك، بك آخذ، وبك أعطى، وبك أثيب، وبك أعاقب) [2]

وقال: (ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويردّه عن ردى، وما تمّ إيمان عبد ولا استقام دينه حتّى يكمل عقله) [3]

و قال: (إنّ الرّجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصّائم القائم، ولا يتمّ لرجل حسن خلقه حتّى يتمّ عقله فعند ذلك تمّ إيمانه وأطاع ربّه وعصى عدوّه إبليس) [4]

وقال: (جدّ الملائكة واجتهدوا في طاعة اللّه سبحانه وتعالى بالعقل، وجدّ المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة اللَّه عزّ وجلّ أوفرهم عقلا) [5]

وروي أن المسائل كثرت يوما على رسول اللَّه ﷺ، فقال: يا أيّها النّاس إنّ لكلّ شي ء مطيّة ومطيّة المرء العقل، وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا) [6]

1() رواه داود بن المحبر في كتاب العقل.

2() الطبراني في الأوسط وأبو نعيم.

3() رواه داود بن المحبر في كتاب العقل في العقل.

4() رواه داود بن المحبر في كتاب العقل والترمذي.

5() رواه البغوي في معجم الصحابة.

6() رواه داود بن المحبر في كتاب العقل.

وسئل: بم يتفاضل النّاس في الدّنيا؟ فقال: بالعقل، فقيل: وفي الآخرة؟ قال: بالعقل، فقيل: أليس إنّما يجزون بأعمـالهم؟ فقال ﷺ: (وهل عملوا إلّا بقـدر مـا أعطـاهم عـزّ وجـلّ العقـل؟ فبقدر ما أعطـوا من العقـل كـانت أعمـالهم، وبقـدر مـا عملـوا يجزون) [1]

وروي أنـه لمّـا رجـع رسـول اللَّه ﷺ من غـزوة أحـد سـمع النّاس يقولون: فلان أشجع من فلان وفلان أبلى ما لم يبل فلان ونحو هذا، فقال رسول اللَّه ﷺ: أمّا هذا فلا علم لكم بـه، قـالوا: وكيف ذلك يا رسول اللَّه؟ فقال ﷺ: (إنّهم قـاتلوا على قـدر مـا قسـم اللَّه لهم من العقــل، وكـانت نصـرتهم ونيّتهم على قــدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منـازل شـتّى، فـإذا كـان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نيّاتهم وقدر عقولهم) [2]

وروي أن قوما أثنوا على رجل عنـد النـبيّ ﷺ حتّى بـالغوا، فقال ﷺ: كيف عقـل الرّجـل؟ فقـالوا: نخـبرك عن اجتهـاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال ﷺ: (إنّ الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر، وإنّما يرتفع العبـاد غـدا في الدّرجات الزّلفى من ربّهم على قدر عقولهم) [3]

وقد ضرب الإمام الصادق لـذلك مثـالا، فقـال: (إنّ الثـواب على قدر العقل، إنّ رجلا من بني إسـرائيل كـان يعبـد اللـه عـزّ وجلّ في جزيرة من جزائر البحر خضـراء نضـرة كثـيرة الشـجر طاهرة الماء، وإنّ ملَكاً من الملائكة مرّ به، فقال: يا رب.. أرني ثواب عبدك هذا، فـأراه اللـه عـزّ وجـلّ ذلـك، فاسـتقلّه الملـك، فأوحى الله عزّ وجلّ إليـه أن اصـحبه. فأتـاه الملـك في صـورة

1() رواه داود بن المحبر في كتاب العقل والترمذي الحكيم في النوادر.

2() رواه داود بن المحبر في كتاب العقل.

3() رواه داود بن المحبر في كتاب العقل في العقل، والترمذي الحكيم في النوادر.

أنسي، فقال له: (مَن أنت ؟).. قال: (أنا رجلٌ عابدٌ بلغنا مكانـك وعبادتك بهذا المكان، فجئت لأعبد معك، فكان معه يومـه ذلـك، فلما أصبح قال له الملـك: (إنّ مكانـك لنزهـة، قـال: ليت لربنـا بهيمة، فلو كان لربنا حمار لرعيناه في هـذا الموضـع، فـإنّ هـذا الحشيش يضيع، فقال له الملك: وما لربك حمـار ؟.. فقـال: لـو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش.. فأوحى الله عــزّ وجلّ إلى الملك: (إنما أثيبه على قدر عقله)[1]

وهكذا ورد في الروايات الكثيرة عن أئمـة الهـدى مـا يـدل على فضـل العقـل، وقيـام الـدين عليـه، وأنـه لا يمكن لأحـد أن يزكي نفسه، ولا أن يرقيها، وهو يعزل عقله، ومن ذلك مــا روي عن الإمـام علي أنـه قـال: (أصـل الإنسـان لبّـه، وعقلـه دينـه، ومروته حيث يجعل نفسه، والأيام دول، والنـاس إلى آدم شــرع سواء)[2]

وقال: (ليس الرؤية مع الأبصار، وقد تكـذب العيـون أهلهـا، ولا يغشّ العقل مَن انتصحه)[3]

وقال: (الحلم غطاءٌ ساترٌ، والعقل حسامٌ باترٌ، فاستر خلل خُلقك بحلمك، وقاتل هواك بعقلك)[4]

وقال: (الجمال في اللسان، والكمال في العقـل، ولا يـزال العقل والحمـق يتغالبـان على الرجـل إلى ثمـاني عشـرة سـنة، فإذا بلغها غلب عليه أكثرهما فيه)[5]

1() بحار الأنوار: 1/84، وأمالي الصدوق.

2() بحار الأنوار: 1/82، وأمالي الصدوق.

3() بحار الأنوار: 1/95، ونهج البلاغة.

4() بحار الأنوار: 1/95، ونهج البلاغة.

5() بحار الأنوار: 1/96، وكنز الكراجكي.

وقــال: (العقــول أئمــة الأفكــار، والأفكــار أئمــة القلــوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء)[1]

وقال الإمام الصادق: (دعامة الإنسان العقل، ومن العقــل: الفطنــة، والفهم، والحفــظ، والعلم.. فـإذا كـان تأييـد عقلـه من النور، كان عالما حافظا زكيا فطنا فهمـا، وبالعقـل يكمـل، وهـو دليله ومبصّره ومفتاح أمره)[2]

إذا عرفت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن العقـل الذي تحدثت عنه كل هذه النصوص لا يراد بـه مـا تعـارف عليـه النــاس من وفــرة الــذكاء، وحدتــه، وقــوة الحافظــة، ودقــة الملاحظة، وغير ذلك مما يتفـاخر النـاس بـه، ذلـك أن كـل تلـك الأمــور قــد تصــبح أدوات في يــد القــوة الوهميــة، لتمكــر بهــا، وتحتال، وتخادع.

ولهذا أخبر الله تعالى عن الانحراف الكبير الـذي وقـع فيـه من أوتــوا تلــك الأدوات، ولكنهم أســاءوا اســتخدامها، فقــال: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَــمْعًا وَأَبْصَــارًا وَأَفْئِدَةً فَمَــا أَغْنَى عَنْهُمْ سَــمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَــارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَــيْءٍ إِذْ كَـانُوا يَجْحَــدُونَ بِآيَـاتِ اللَّهِ وَحَـاقَ بِهِمْ مَـا كَـانُوا بِـهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف: 26]

فالآيــة الكريمــة تشـير إلى أن هــؤلاء الـذين أوتـوا من كـل القوى والطاقات، لم يسـتخدموها في محالهـا الصـحيحة، وإنمـا اكتفوا باستخدامها في شؤون الدينا، بينما راحوا يجحدون أبسط الحقائق المرتبطة بالدين، ولـو أنهم بـذلوا عشـر مـا بـذلوه في شؤون الدنيا لاهتدوا للإيمان، ولقيمه الرفيعة.

1() بحار الأنوار: 1/96).

2() بحار الأنوار: 1/90، والعلل.

ولذلك فإن تلك الأدوات من حدة الذكاء، ودقـة الملاحظـة، وقوة الذاكرة، وسعة الخيال، وغيرها يمكن استثمارها في الخير والشر، والحق والباطل.. وهي أدوات للعقل، وليس هي العقـل عينه.. ذلك أنه كما يستخدمها العقـل السـليم في الوصـول إلى الحقائق والقيم، تستخدمها القـوة الوهميـة، أو العقـل المخـادع في شؤون الحيـل والمكـر والـدهاء.. أو في تـرتيب مـا تفرضـه الغرائز من طلبات.

لذلك لا تنخدع ـ أيها المريد الصادق ـ بذلك الـذي يبـدو لـك عبقريـا في ذكائـه.. فقـد يكـون في منتهى الغفلـة والغبـاء إن عرضت عليه حقائق الدين، أو دعوته إلى قيمه.

وكيف لا يكون كذلك، وأنت تـرى أن بعض كبـار الفلاسـفة، وصل به الغباء والغفلـة إلى أن ينكـر قـوانين العقـل الضـرورية كالعلة والسببية وغيرها.. حتى لا تستخدم في الدلالة على الله.

ولذلك، فإن العقل الحقيقي الذي أثنت عليه تلك النصـوص المقدسة هو العقل الذي يتحكم في الأهواء، ويـزن التصـرفات، بحيث لا يبرز منه إلا ما تدعو إليه الحكمة، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ في صـفة العاقـل أنـه من (يحلم عمَّن جهـل عليه، ويتجاوز عمَّن ظلمه، ويتواضع لمَن هو دونه، ويسـابق مَن فوقـه في طلب الـبرّ، وإذا أراد أن يتكلّم تـدبّر فـإن كـان خـيرا تكلّم فغنم، وإن كان شراً سكت فسـلم، وإذا عرضـت لـه فتنـة استعصم بالله، وأمسك يده ولسانه، وإذا رأى فضيلة انتهـز بهـا، لا يفارقه الحياء، ولا يبدو منه الحرص، فتلك عشر خصال يُعرف بها العاقل) [1]

وكل هذه الصفات تدل على تحكم عقل صاحبها في نفسه وأهوائه وغرائزه، حتى لـو بـدا للنـاس أبلـه أو أحمـق أو مغفلا..

1() بحار الأنوار: 1/129، والتحف.

ذلك أن العبرة بالـذكاء الـذي يهـدي إلى الحـق، لا الـذكاء الـذي يستعمل مطية للأهواء، والذي نسبه قارون إلى نفسـه مفتخـرا، فقال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْـدِي﴾ [القصـص: 78]، وقـد رد الله تعالى عليه بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَـدْ أَهْلَـكَ مِنْ قَبْلِـهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: 78]

وقد روي في هذا أنّ رسول الله ﷺ مرّ بمجنون، فقال: ما له ؟.. فقيل: إنه مجنون، فقال: (بل هو مصـابٌ، إنمـا المجنـون مَن آثر الدنيا على الآخرة)[1]

ولهـذا أخـبر رسـول اللـه ﷺ عن صـفة الجاهـل، وأنـه من (يظلم مَن خالطـه، ويتعـدّى على مَن هـو دونـه، ويتطـاول على مَن هو فوقه، كلامـه بغـير تـدبرٍ، إن تكلم أثم وإن سـكت سـها، وإن عرضت له فتنةٌ سارع إليها فأردته، وإن رأى فضيلةً أعـرض وأبطأ عنهـا، لا يخـاف ذنوبـه القديمـة، ولا يرتـدع فيمـا بقي من عمره من الذنوب، يتوانى عن الـبر ويبطىء عنـه، غـير مكـترث لما فاته من ذلك أو ضيّعه، فتلك عشر خصال من صفة الجاهـل الذي حُرم العقل)[2]

وفي حديث آخـر اعتـبر رسـول اللـه ﷺ مراعـاة الجـوانب الاجتماعيـة، من أهم صـفات العقـل، فقـال: (رأس العقـل بعـد الإيمـان التـودد إلى النـاس.. وأعقـل النـاس محسـنٌ خـائفٌ، وأجهلهم مسيئٌ آمنٌ)[3]

وذكر في حديث آخر تنظيم العاقل لوقته، وجمعـه بين كـل المحاسن المرتبطة بالـدينا والآخـرة، وبـالروح والجسـد، فقـال:

1() بحار الأنوار: 1/131، وروضة الواعظين.

2() بحار الأنوار: 1/129، والتحف.

3() بحار الأنوار: 1/131، وروضة الواعظين، الغوالي.

(ينبغي للعاقل إذا كان عاقلا، أن يكون له أربع ساعات من النهار: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يأتي أهل العلم الذين ينصرونه في أمر دينه وينصحونه، وساعة يُخلي بين نفسه ولذتها من أمر الدنيا فيما يحلّ ويحمد)[1]

وهكذا ورد عن أئمة الهدى الكثير من أوصاف العقلاء، ومنها قول الإمام علي: (العاقل لا يُحدّث مَن يخاف تكذيبه، ولا يسأل مَن يخاف منعه، ولا يقدم على ما يخاف العذر منه، ولا يرجو مَن لا يوثق برجائه)[2]

وقال: (لا يُرى الجاهل إلا مفرطاً أو مفرِّطاً)[3]

وقال: (مَن أُعجب برأيه ضلّ، ومَن استغنى بعقله زلّ، ومَن تكبّر على الناس ذلّ)[4]

وقال: (عجباً للعاقل كيف ينظر إلى شهوةٍ، يعقبه النظر إليها حسرة)[5]

وقال: (همة العقل ترك الذنوب، وإصلاح العيوب)[6]

وقال: (ليس للعاقل أن يكون شاخصا إلا في ثلاث: مرمة

1() بحار الأنوار: 1/131، وروضة الواعظين.

2() بحار الأنوار: 1/130، والمحاسن.

3() بحار الأنوار: 1/159، ونهج البلاغة.

4() بحار الأنوار: 1/160، ونهج البلاغة.

5() بحار الأنوار: 1/161، ونهج البلاغة.

6() بحار الأنوار: 1/161، ونهج البلاغة.

لمعاش، أو حظوة (أي مكانة) في معاد، أو لـذ في غـير محـرّم) (7)

وغيرها من الأقوال الكثيرة؛ فاحرص ـ أيها المريد الصــادق ـ على التعرف عليها، والاسـتفادة منهـا في بنـاء عقلـك السـليم المؤيد بنور البصيرة، حتى لا يختطفك أصحاب العقـول الوهميـة المخادعة؛ فيحولوك عن السراط المستقيم الـذين يمثلـه كتـاب ربك، وسنة نبيك، وهدي أئمتك.

ولذلك لا تتحرك أي حركة، أو تقف أي موقف قبل أن تزنه بتلك الموازين.. فالعبرة ليست بكـثرة الأعمـال، وإنمـا بصـحتها وسلامتها وكون مصدرها الهدى، لا الهوى.

7() بحار الأنوار: 1/131، وروضة الواعظين.

العلم النافع

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن العلم، وحاجة النفس المطمئنة إليه، وهل يمكن اعتباره من منازلها؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن العلم النافع بشروطه التي فصلتها النصوص المقدسة ليس منزلة من منازل النفس المطمئنة فقط، بل هو شرط من شروط كونها كذلك.. فلا يمكن أن ترتقي النفس إلى تلك المرتبة السنية، وهي بجهلها وغفلتها.

ولا يمكن للنفس اللوامة أن تجاهد صاحبها في قلع مثالب نفسه الأمارة، واستئصالها، ما لم تستعمل سلاح العلم في سبيل ذلك.

بل لا يمكن أن يعرف السالك ربه، ولا الطريق الذي يريد سلوكه، ولا الغاية التي يرنو إليها ما لم يكن دليله في كل ذلك العلم النافع.

ولذلك ورد في النصوص المقدسة بيان فضله العظيم، بل اعتباره من أشرف أنواع العبادة، بل ورد تفضيله على الشعائر التعبدية نفسها.. فالتعرف على الله الذي هو جوهر الدين وأصله وغايته وموضوعه لا يمكن أن يتم من دون العلم، كما قال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(محمد:19)

والقرآن يعتبر وظيفة الرسل هي وظيفة المعلمين، كما قال تعالى:﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ (آل عمران:164)

وأخبر أن كل الأنبياء جاءوا أقوامهم بالبينـات، وهي العلـوم الواضحات التي قويت أدلتها، قـال تعـالى: أَلَمْ يَـأْتِكُمْ نَبَـأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْـدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْـدِيَهُمْ فِي أَفْـوَاهِهِمْ وَقَـالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُـرِيبٍ (ابراهيم:9)

بل إن القرآن فوق ذلك كله أخبر عن مزيـة الإنسـان الـتي أهلته للخلافة في الأرض، وأهلته للتكـريم الربـاني، فقـال يقص قصة بداية خلق الإنسان: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَـا ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَـا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَـالَ يَـا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَـأَهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ قَـالَ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَـا تُبْـدُونَ وَمَـا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (البقرة:31 ـ 33)

وهكـــــذا ورد في الســــنة المطهــــرة الحض على العلم والترغيب فيه ورفع مكانة أهله؛ فقد أخبر ﷺ بأن العلم نـوع من أنواع العبادة، بل هو من أفضلها، فقال: (أفضـل العبـادة الفقـه، وأفضل الدين الورع)[1]

وقـال: (قليـل العلم خـير من كثـير العبـادة، وكفى بـالمرء فقها إذا عبد الله، وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه)[2]

وقال: (ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ولفقيــه واحـد أشـد على الشـيطان من ألـف عابـد، ولكـل شـيء عمـاد وعماد هذا الدين الفقه)[3]

1() رواه الطبراني في معاجيمه الثلاثة.

2() الطبراني في الأوسط.
3() الدارقطني والبيهقي.

وقايس بين بعض النوافل وبين طلب العلم، فقال لأبي ذر، وقد رأى حرصه على النوافل: (يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آيــة من كتاب الله خير لك من أن تصـلي مائـة ركعـة، ولأن تغـدو فتعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة)[1]

وقال: (من تعلّم بابا من العلم ـ عمل به أو لم يعمل ـ كان أفضل من أن يصلي ألف ركعة تطوعاً)[2]

وقال: (مَن طلب العلم فهو كالصـائم نهـاره، القـائم ليلــه، وإنّ باباً من العلم يتعلّمه الرجـل خـيرٌ لـه من أن يكـون لـه أبـو قبيس ذهباً، فأنفقه في سبيل الله)[3]

وقـال: (إنّ العبـد إذا خـرج في طلب العلم نـاداه اللـه عـزّ وجـلّ: مرحبـا بـك يـا عبـدي.. أتـدري أي منزلـة تطلب ؟.. وأي درجة تـروم ؟.. تضـاهي ملائكـتي المقـرّبين لتكـون لهم قرينـا، لأُبلّغنّك مرادك ولأُوصلنّك بحاجتك)، فقيل للإمـام السـجاد راوي الحديث: ما معنى مضاهاة ملائكة الله عزّ وجلّ المقرّبين ليكون لهم قريناً ؟.. فقال: أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿شَــهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، فبدأ بنفســه، وثنّى بملائكتــه، وثلّث بأُولي العلم الذين هم قرناء ملائكته)[4]

بل ورد ما هو أعظم من ذلـك كلـه، ففي الحـديث عنـه ﷺ

1() ابن ماجه.

2() بحار الأنوار: 1/180، وروضة الواعظين.

3() بحار الأنوار: 1/184، ومنية المريد.

4() بحار الأنوار: 1/180، وأمالي الطوسي.

قال: (مَن خرج يطلب باباً من علم ليردّ به باطلاً إلى حق أو ضلالةً إلى هدىً، كان عمله ذلك كعبادة متعبّد أربعين عاما)[1]

وأخبر ﷺ أن تعليم العلم لا يختلف عن الصدقات، فقال: (أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم)[2]

وأخبر أن تعلم العلم وتعليمه لا يختلف عن الحج والعمرة، فقال: (من غدا إلى المسجد لا يريد إلا ليتعلّم خيرا أو ليعلّمه كان له أجر معتمر تام العمرة، ومن راح إلى المسجد لا يريد إلا ليتعلّم خيرا أو ليعلّمه، فله أجر حاجٍّ تامّ الحجّة)[3]

ويروى أنه ذُكر له رجلان، أحدهما عابد والآخر عالم، فقال: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)، ثم قال: (إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير)[4]

وطلب العلم لذلك دليل على خيرية العبد الطالب للعلم، بل دليل على اجتباء الله له، قال: (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)[5]، وقال: (يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، و﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28])[6]

1() بحار الأنوار: 1/182، وأمالي الطوسي.

2() رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

3() بحار الأنوار: 1/185، ومنية المريد.

4() الترمذي.

5() البخاري ومسلم وابن ماجه.

6() الطبراني في الكبير.

وهذا الاجتباء هو الـذي يؤهلـه للجنـة ولهـذا التكـريم الـذي أخـبر رسـول اللـه ﷺ عنـه، ففي الحـديث الـذي ورد في فضـل طالب العلم، قال ﷺ: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سـهل الله له طريقا إلى الجنـة، وإن الملائكـة لتضـع أجنحتهـا لطـالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السـموات ومن في الأرض حـتى الحيتـان في المـاء، وفضـل العـالم على العابـد كفضـل القمـر على سـائر الكـواكب، وإن العلمـاء ورثـة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينـارا ولا درهمـا إنمـا ورثـوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[1]

وقـال: (مـا من رجـل تعلم كلمـة، أو كلمـتين، أو ثلاثـا، أو أربعا، أو خمسا مما فرض الله عـز وجـل فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة)[2]

ويخـبر ﷺ عن بعض صـور التكـريم الـتي يقابـل بهـا الملأ الأعلى أهل العلم، فعن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد متكىء على برد له أحمر، فقلت لـه: يـا رسـول اللـه إني جئت أطلب العلم، فقـال: (مرحبـا بطـالب العلم إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يـركب بعضـهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب)[3]

بل إن رسول الله ﷺ يرفع درجـة أهـل إلى درجـة الأنبيـاء، فيقول: (من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيـين إلا درجة النبوة)[4]

1() أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي.

2() أبو نعيم.

3() أحمد والطبراني، وابن حبان في صحيحه، والحاكم.

4() الطبراني في الأوسط.

أما الأجور المعدة لأهل العلم، فإنها أضعاف مضاعفة، فقد قال رسول الله ﷺ: (من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجـر، ومن طلب علمـا فلم يدركـه كتب اللـه لـه كفلا من الأجر)[1]

ومن أكبر مـيزات أجـر العلم أن أجـره غـير منقطـع، قـال رسـول اللـه ﷺ: (إذا مـات ابن آدم ٱنقطـع عملـه إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[2]

وفي حديث آخر مفصل، قال ﷺ: (إن ممـا يلحـق المـؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمـا علمـه ونشـره وولـدا صـالحا تركه أو مصحفا ورثه، أو مسجدا بناه أو بيتـا لابن السـبيل بنـاه، أو نهـرا أجـراه، أو صـدقة أخرجهـا من مالـه في صـحته وحياتـه تلحقه من بعد موته)[3]

وقـد ورد وصـف مفصـل لفضـل العلم وفضـل أهلـه، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (تعلمـوا العلم، فـإن تعلمـه لله خشية وطلبه عبادة، ومذاكرتـه تسـبيح، والبحث عنـه جهـاد، وتعليمـه لمن لا يعلمـه صـدقة، وبذلـه لأهلـه قربـة لانـه معـالم الحلال والحــرام ومنــار ســبل أهــل الجنــة، وهــو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلـوة، والـدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة قائمة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكــة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويسـتغفر لهم كـل رطب ويـابس، وحيتـان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامـه لأن العلم حيـاة القلـوب من

1() الطبراني في الكبير.

2() مسلم وغيره.

3() ابن ماجه والبيهقي، وابن خزيمة في صحيحه.

الجهل، ومصابيح الأبصـار من الظلم، يبلـغ العبـد بـالعلم منـازل الأخيار والدرجات العلى في الـدنيا والآخـرة، التفكـر فيـه يعـدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصـل الأرحـام وبـه يعـرف الحلال من الحـرام، وهـو إمـام العمـل، والعمـل تابعـه، يلهمـه السعداء، ويحرمه الأشقياء)[1]

وهكـذا وردت الكثـير من الروايـات عن أئمـة الهـدى تحض على العلم، وتــبين منزلتــه الرفيعــة من الــدين، وأنــه لا يمكن للنفس أن تنال مكارمها، أو ترتقي في درجات الكمـال المتاحـة لها ما لم تتخذه مطية لذلك.

ومن ذلك قول الإمام علي: (كفى بـالعلم شـرفا أن يدّعيـه مَن لا يحسنه، ويفرح إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل ذمّاً يبرأ منــه من هو فيه)[2]

وقال: (العلم أفضل من المـال بسـبعة: الأول: أنـه مـيراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة.. الثـاني: العلم لا ينقص بالنفقـة والمـال ينقص بهـا.. الثـالث: يحتـاج المـال إلى الحافـظ والعلم يحفظ صـاحبه.. الرابـع: العلم يـدخل في الكفن ويبقى المـال.. الخـامس: المـال يحصـل للمـؤمن والكـافر والعلم لا يحصـل إلا للمؤمن خاصة.. السادس: جميـع النـاس يحتـاجون إلى صـاحب العلم في أمر دينهم، ولا يحتاجون إلى صاحب المــال.. السـابع: العلم يقوّي الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه)[3]

وقال: (كل وعاء يضيق بما جعل فيـه إلا وعـاء العلم، فإنـه

1() رواه ابن عبد البر في كتاب العلم.

2() بحار الأنوار: 1/185، ومنية المريد.

3() بحار الأنوار: 1/185، ومنية المريد.

يتّسع)[1]

وقال: (الكلمة من الحكمة يسمعها الرجل، فيقول أو يعمل بها خيرٌ من عبادة سنة)[2]

وقال: (إنّ أولى الناس بالأنبيـاء أعلمهم بمـا جـاؤوا بـه، ثم تلا: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُـوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 68])[3]

وقـال: (قـوام هـذه الـدنيا بأربعـة: عـالمٌ يسـتعمل علمـه، وجاهلٌ لا يستنكف أن يتعلّم، وغنيٌ جوادٌ بمعروفه، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنيا غيره)، ثم قال: (فإذا كتم العـالم العلم أهلـه، وزهـد الجاهل في تعلّم ما لابدّ منه، وبخل الغني بمعروفه، وباع الفقير دينه بدنيا غيره، حلّ البلاء وعظم العقاب)[4]

وقـال: (الشـاخص في طلب العلم كالمجاهـد في سـبيل الله، إنّ طلب العلم فريضـةٌ على كـلّ مسـلم، وكم من مـؤمن يخرج من منزله في طلب العلم فلا يرجع إلا مغفورا)[5]

وسـئل عن الخـير مـا هـو؟.. فقـال: (ليس الخـير أن يكـثر مالك وولدك، ولكنّ الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك)[6]

وقال الإمام السـجاد: (لـو يعلم النـاس مـا في طلب العلم

1() بحار الأنوار: 1/183، والنهج.

2() بحار الأنوار: 1/183.

3() بحار الأنوار: 1/183، والنهج.

4() بحار الأنوار: 1/178، وتفسير الإمام العسكري.

5() بحار الأنوار: 1/179، وروضة الواعظين.

6() بحار الأنوار: 1/183، والنهج.

لطلبوه ولو بسفك المهج، وخـوض اللّجج، إنّ اللـه تعـالى أوحى إلى دانيال: (أنّ أمقت عبيدي إليّ الجاهل المستخفّ بحقّ أهـل العلم، التـارك للإقتـداء بهم، وأنّ أحبّ عبـادي عنـدي التقي الطالب للثواب الجزيل، اللازم للعلماء، التـابع للحكمـاء، القابـل عن الحكماء)[1]

وقال الإمام البـاقر: (مـا من عبـدٍ يغـدو في طلب العلم أو يروح، إلا خاض الرحمة، وهتفت به الملائكة: مرحبـاً بزائـر اللـه، وسلك من الجنة مثل ذلك المسلك)[2]

وقـال الإمـام الصـادق: (كمـال المـؤمن في ثلاث خصـال: (تفقّه في دينه، والصبر على النائبة، والتقدير في المعيشة)[3]

وسـئل عن قولـه تعـالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَـةُ﴾ [الأنعـام: 149]، فقال: (إنّ اللـه تعـالى يقـول للعبـد يـوم القيامـة: أكنت عالما ؟.. فإن قال: نعم، قال له: أفلا عملت بمـا علمت ؟.. وإن قال: كنت جاهلا، قال له: أفلا تعلّمت حـتى تعمـل ؟.. فيخصـمه وذلك الحجة البالغة)[4]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن هذا الفضل العظيم الذي أتاحه الله لأهل العلم، سـواء كـانوا من المتعلمين أو المعلمين لا يُقصد به إلا العلم النافع الذي تعـود منفعتـه على صاحبه أو على المجتمع الذي يعيش فيه أو على البشر جميعا.

ولذلك؛ فإن كل العلـوم يمكن أن تكـون كـذلك بشـرط أن

1() بحار الأنوار: 1/186، ومنية المريد.

2() بحار الأنوار: 1/174.

3() بحار الأنوار: 1/182، وأمالي الطوسي.

4() بحار الأنوار: 1/ 178، ومجالس المفيد.

تتحقق منفعتها الدينية أو الدنيوية.. ولذلك لا تسمع لأولئك الذين يحصــرون العلم في الفقــه ونحــوه، ويعتقــدون أن غيرهــا من العلوم لا علاقة لها بالأجور التي أخبر عنها رسول الله ﷺ.

وقــد قــال بعض الحكمــاء يــرد على ذلــك، ويــبين الحكم الشــرعي المرتبــط بهــا: (أمــا فــرض الكفايــة فهــو كــل علم لا يستغني عنه في قوام أمور الدنيا: كالطب، إذ هــو ضــروري في حاجة بقــاء الأبــدان، وكالحســاب فإنــه ضــروري في المعــاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما. وهذه هي العلوم الــتي لــو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحــد كفي وســقط الفــرض عن الآخــرين، فلا يتعجب من قولنــا إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فان أصول الصناعات أيضــا من فروض الكفايــات: كالفلاحــة والحياكــة والسياســة بــل الحجامــة والخياطة، فإنه لو خلال البلــد من الحجّــام تســارع الهلاك إليهم، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فان الذي أنــزل الــداء أنــزل الدواء وأرشد إلى استعماله، وأعدّ الأســباب لتعاطيــه، فلا يجــوز التعرض للهلاك باهماله وأما ما يعد فضــيلة لا فريضــة فــالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغني عنه) (1)

بل ذكــر أن كــل العلــوم مرتبطــة بأفعــال اللــه، ويمكن من خلالها التعرف على الله، فقال: (ثم هذه العلوم ما عددناها ومــا لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإن جميعها مغترفــة من بحر واحد من بحار معرفة اللــه تعــالى، وهــو بحــر الأفعــال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد) (2)

1() إحياء علوم الدين، 1/28.

2() جواهر القرآن (ص: 45)

ثم ذكر بعض النماذج على ذلك، وهـو الطب، فقـال: (فمن أفعال الله تعالى الشفاء والمرض، كما قـال اللـه تعـالى حكايـة عن إبراهيم عليه السـلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْـتُ فَهُـوَ يَشْـفِينِ﴾،. وهـذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عـرف الطب بكمالـه، إذ لا معـنى للطب إلا معرفـة المـرض بكمالـه وعلاماتـه، ومعرفـةُ الشـفاء وأسبابه) (1)

ومنهـا علم الفلـك، فــ (من أفعالـه تعـالى تقـديرُ معرفـة الشـمس والقمـر ومنازِلِهمـا بِحُسـبان، وقـد قـال اللـه تعـالى: ﴿الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ﴾؛ وقال: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَـدَدَ السـنين والحسـاب﴾؛ وقـال: ﴿وَخَسَـفَ القمـر وَجُمِـعَ الشـمس والقمر﴾؛ وقال: ﴿يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل﴾؛ وقـال: ﴿والشـمس تَجْـرِي لِمُسْـتَقَرٍّ لَّهَـا ذَلِـكَ تَقْـدِيرُ العزيـز العليم﴾.. ولا يعـرف حقيقـة سَـيْر الشـمسِ والقمـرِ بِحُسـبان، وخُسوفِهما وَوُلُوجِ الليلِ في النهـار، وكيفيـةَ تَكَـوُّرِ أحـدهما على الآخر، إلا من عرف هيئاتِ تركيبِ السَّماوَات والأرض، وهو علم برأسه) (2)

وهكذا كل العلـوم، يمكن أن تصـبح مرايـا للتعريـف باللـه، والدلالة عليه، ولا يمكن للنفس المطمئنة أن تُحجب بأمثال تلك العلوم، وكيف تحجب بها، وهي لم تصل إلى تلك المرتبة السنية إلا بعد أن تجلت في مرآة قلبهـا الحقـائق العظيمـة الـتي دلتهـا على وحدانية الله، والتي تقتضي أن يكون كل ما في الكون أثـر من آثار صفاته وأسمائه الحسنى.. ولذلك كـان كـل شـيء دليلا لها إلى الله، ومذكرا لها بالله.

ومثـل ذلـك، تلـك العلـوم الـتي تسـتعين بهـا النفس على

---

(1) جواهر القرآن (ص: 46)

(2) جواهر القرآن (ص: 47)

التحقق بقيم الدين وأخلاقه الرفيعة؛ فهي من العلوم الضرورية، التي يضر الجهل بها.. ذلك أن الله تعالى لا يُعبد إلا بما شرع، ولا يمكن معرفة الشرع من دون علم.. ولذلك وجب على كل من يُقدم على أي أمر أن يسبقه بمعرفة حكم الله تعالى فيه.

وقد قال الإمام الصادق مشيرا إلى ذلك: (وجدت علم الناس كلهم في أربع: أولها: أن تعرف ربك، والثانية: أن تعرف ما صنع بك، والثالثة: أن تعرف ما أراد منك، والرابعة: أن تعرف ما يخرجك من دينك)(1)

وقيل له: (إنّ لي ابنا يحب أن يسألك عن حلال وحرام لا يسألك عمّا لا يعنيه، فقال: (وهل يسأل الناس عن شيء أفضل من الحلال والحرام ؟)(2)

وقال: (ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الحلال والحرام)(3)

قال: (تفقّهوا في دين الله ولا تكونوا أعرابا، فإنه مَن لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة، ولم يزك له عملا)(4)

وقال: (ثلاث هن من علامات المؤمن: (علمه بالله، ومن يحب، ومن يبغض)(5)

وقال: (ما من أحد يموت من المؤمنين أحب إلى إبليس

1() بحار الأنوار: 1/212، ومعاني الأخبار، الخصال.

2() بحار الأنوار: 1/ 213، والعلل.

3() بحار الأنوار: 1/213، والمحاسن.

4() بحار الأنوار: 1/ 214، والمحاسن.

5() بحار الأنوار: 1/215، والمحاسن.

من موت فقيه)[1]

وقال: (إذا مات المـؤمن الفقيـه، ثلم في الإسـلام ثلمـةٌ لا يسدها شيء)[2]

ومثـل ذلـك تلـك العلـوم المرتبطـة بالحيـاة، كالسياسـة والاقتصاد والإعلام وغيرها.. ذلك أن الجهل بها قد يجعل المؤمن ضحية لشياطين الإنس والجن، يتلاعبـون بـه، وبمواقفـه، مثلمـا حصل لأولئك الذين راحوا يسفكون الـدماء المحرمـة، ويخربـون أوطانهم في سبيل خدمـة مشـاريع الشـياطين، ولـو أنهم كـانوا يعرفون خدع السياسة والإعلام، لما وقعوا في تلك المصايد.

أما العلوم التي لا منفعة فيها، لا في الدنيا، ولا في الآخرة؛ فهي مجرد لغـو، لا يفعلـه العقلاء، ذلـك أن وقتهم أعظم من أن يضيعوه في اللغو.

وقد روي أن رسول الله ﷺ دخل المسجد فإذا جماعـة قـد أطافوا برجل، فقال: ما هذا؟.. فقيل: علاّمة، قال: ما العلاّمة؟.. قالوا: (أعلم الناس بأنساب العرب ووقائعهـا، وأيـام الجاهليـة)، فقال النبي ﷺ: (ذلك علمٌ لا يضرّ مَن جهله، ولا ينفع مَن علمـه)[3]

وقـال الإمـام الكـاظم: (إنمـا العلم ثلاثـة: آيـةٌ محكمـةٌ، أو فريضةٌ عادلةٌ، أو سـنةٌ قائمـةٌ، ومـا خلاهن هـو فضـل)[4].. وهـو يقصد بالآية المحكمة كل العلوم النافعة، ذلك أنها جميعا تغترف من بحر القرآن الكريم، وتدل على الله تعالى وصفاته.

1() بحار الأنوار: 1/220، ومنية المريد.

2() بحار الأنوار: 1/220، ومنية المريد.

3() بحار الأنوار: 1/211، وأمالي الصدوق.

4() بحار الأنوار: 1/211، والغوالي.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لطلب العلم النافع، وابدأ بالأولى فالأولى، فالعمر لا يتسع لجميع العلوم، ولذلك لا تضيعه فيما لا يفيدك، أو يفيد إخوانك؛ فكل علم لا يؤثر في تصحيح السلوك، أو في التعريف بالله، أو في منفعة الخلق، علم قد لا يضر لكنه لا ينفع.

واحذر من تلك الخدع التي ينصبها الشيطان لتضليل العباد، وصرفهم عن العلوم التي تنفعهم في دنياهم وأخراهم، فهو لا يجتهد في شيء، كما يجتهد في هذا الجانب..

وقد ذكر بعض الحكماء تلك الخدع التي لبس بها الشيطان على أهل عصره؛ فراح يحرف العلوم، بتسميتها بغير أسمائها، وضرب مثالا على ذلك بالفقه، الذي ورد الحث عليه في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]، حيث (تصرفوا فيه.. إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الأفقه)(1)

بينما اسم الفقه الحقيقي لم يكن يطلق في العصر الأوّل إلا على (علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، وما يحصل به الإنذار والتخويف.. دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له) (2)

1() إحياء علوم الدين، 1/54.
2() إحياء علوم الدين، 1/54.

وممـا يـروى في هـذا عن بعضـهم أنـه سـئل عن شـيء، فأجـاب بخلاف مـا كـان يظن السـائل، فقـال لـه: إن الفقهـاء يخالفونك، فقال الحكيم: (ثكلتك أمّك، وهل رأيت فقيها بعينــك! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصـير بدينـه، المـداوم على عبـادة ربـه، الـورع الكـافّ نفسـه عن أعـراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم)

ومثل ذلك علم التوحيد، والذي تحـول إلى (صـناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والإحاطة بطرق مناقضـات الخصـوم، والقـدرة على التشـدق فيهـا بتكثـير الأسـئلة وإثـارة الشـبهات، وتأليف الالزامات، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العـدل والتوحيد، وسمى المتكلمون، العلماء بالتوحيد) [1]

مــع أن علم التوحيــد الحقيقي أعظم من أن يختصــر في ذلك، لأنه العلم الذي يعرف بالله تعـالى، ويعمـق بـه، وبأسـمائه الحسـنى وصـفاته، ومن آثـاره في نفس المتعلم لـه (أن يـرى الأمور كلها من اللّه عز وجل رؤيـة تقطـع التفاتـه عن الأسـباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جـل جلالـه.. وهـذا مقام شريف إحدى ثمراتـه التوكـل.. ومن ثمراتـه تـرك شـكاية الخلــق، وتــرك الغضــب عليهم، والرضــا والتســليم لحكم اللّه تعالى) [2]

وهكذا ـ أيها المريد الصـادق ــ يمكنـك أن تجـد الكثـير من فروع العلم الـتي نشـأت في عصـرك، وكلهـا تـدخل في البـاب الذي يقال عنه [علم لا ينفع، وجهل لا يضر]

ولهـذا لا تـرى آثـار العلم النـافع على المقبلين على أمثـال

---

(1) إحياء علوم الدين، 1/56.

(2) إحياء علوم الدين، 1/56.

تلـك العلـوم، لأنهم مثـل ذلـك المـريض الـذي تنهش جسـمه الأمـراض، وبـدل أن يبحث عن كيفيـة علاجهـا، راح يتعلم كيفيـة قـراءة الفنجـان، أو الضـرب على الرمـل؛ فلا داءه عالجـه، ولا العلوم التي تعلمها نفعته.

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تطلب العلم النافع، وتبحث عن أهله، لتتعلم على أيديهم، مثلمـا فعل موسى عليه السلام عندما رحل تلـك المسـافات الطويلـة ليلاقي أستاذه..

وإياك أن تضع علمك بيد قوتك الوهميـة وعقلـك المخـادع، فتجعـل منـه وسـيلة لاقتنـاص الـدنيا، بمـا فيهـا من جـاه ومـال وسلطة.. بدل أن تقتنص به المكارم والحقائق التي تسعدك في الدنيا والآخرة.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن أقرب الطرق للعلم النافع تقـوى اللـه تعـالى.. فاللـه تعـالى يـرزق من اتقـاه من العلـوم والمعارف ما لا يمكن أن يظفر بـه في أي جامعـة من جامعـات الـدنيا، فقـد قـال تعـالى: ﴿وَاتَّقُـوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقـرة: 282]، فـانظر كيـف قـرن اللـه التقـوى بالعلم؛ فلا يتعلم حقيقة العلم إلا من اتقى الله حق التقوى.

وقد قال بعض الحكماء يشير إلى هـذه المدرسـة الربانيـة: (إن المتأهب الطالب للمزيد، المتعرض لنفحـات الجـود بأسـرار الوجود إذا لزم الخلوة والذكر، وفـرَّغ المحـل من الفكـر، وقعـد فقيراً لا شيء له عند باب ربه، حينئذ يمنحه الله تعالى، ويعطيـه من العلم به والأسرار الإلهية والمعارف الربانية التي أثـنى اللـه سبحانه بها على عبده خضر فقال: ﴿عبْداً مِنْ عِبادِنا آتيناهُ رحمَةً مِنْ عندِنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا علماً﴾ [الكهـف: 65]. وقـال تعـالى: ﴿واتَّقوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللـهُ﴾ [البقـرة: 282]. قـال تعـالى: ﴿إنْ

تتَّقوا اللهَ يَجعَـلْ لكُمْ فُرقانـاً ﴾ [الأنفـال: 29]. وقـال: ﴿ويجعـلْ لَكُمْ نُوراً تمشونَ به﴾ [الحديـد: 28].. فيحصـل لصـاحب الهمـة في الخلوة مع الله وبه جلَّت هيبته وعظمت منته، من العلوم ما يغيب عنـدها كـل متكلم على البسـيطة، بـل كـل صـاحب نظـر وبرهان، ليست له هذه الحالة) (1)..

1() الفتوحات المكية، (1/ 280)

المعرفة اليقينية

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن المعرفة، والفرق بينها وبين العلم، وعلاقة ذلك بالتزكية والترقية، وعلاقته قبل ذلك بالنفس المطمئنة، وهل هي من منازلها؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الفرق بين العلم والمعرفة ـ هو الفرق بين مراتب العلم، والتي اهتم القرآن الكريم بها كثيرا، ومن أمثلتها ما ورد في قوله تعالى في سورة التكاثر: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 3،ـ 4]، وهذا يدل على أن العلم الثاني ليس هو نفس العلم الأول، لا في حقيقة المعلوم، وإنما في درجة اليقين به، ولهذا رتب بينهما ترتيبا متراخيا، ليدل على أن الانتقال إلى مرحلة أخرى في إدراك المعلوم تحتاج وقتا طويلا.

ثم فسر ذلك، فقال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: 5 ـ 7]، وهذا يدل على أن العلم الأول كان علما ذهنيا مجردا، وأما العلم الثاني، فانتقل من الذهن إلى البصر والبصيرة، بحيث أصبح مكشوفا مشاهدا.

وقد ذكر الله تعالى درجة أخرى للعلم أكبر من تينك الدرجتين، وهي درجة حق اليقين، وقد ذكرها بعد إيراده لأحوال المحتضرين من السابقين وغيرهم، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: 95]

وهو يشير بذلك إلى أن الجزاء المعد للمؤمنين وغيرهم، باختلاف درجته، سيعيشونه حقيقة في تلك اللحظات قبل الاحتضار.. وهذه هي المعرفة القصوى، وهي المطلوب الأكبر

لأصحاب النفوس المطمئنة.

وليتضح لك ذلك ــ أيها المريد الصادق ــ أذكر لك أن للمعلومات بحسب رسوخها في النفس درجات مختلفة، منها ما يكون مجرد طلاء خفيف في العقل، لا أثر له في الحياة، ولا في السلوك.. ومنها ما يتعمق في العقل، وبقدر تعمقه يكون تأثيره.. ومنها ما يجعل صاحبه منشغلا به عن كل شيء، لتذوقه للمعلوم، وتحققه به، ولا شك في كون هذا هو الأكثر تأثيرا من كل الدرجات السابقة.

ولهذا قال تعالى عن بعض الأعراب: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: 14)، أي أن إيمانكم لم يصل بعد إلى الدرجة التي يستحق بها هذا الاسم.. وإنما هو مجرد استسلام للحقائق دون تسليم وإذعان مطلق لها.

ولهذا أيضا نفى الله تعالى تلك الدعاوى التي تدعي الإيمان من دون تحقق بمقتضياته، وأولها تغلغل الإيمان ومعارفه في النفس، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:8)، وقال عن غيرهم من المنافقين وأهل الكتاب: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ (المائدة: 41)

ولهذا؛ فإن المراد من طلب زيادة العلم الذي نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، لا يقصد به زيادة عدد المعلومات فقط، وإنما زيادة اليقين بها، حتى تصبح، وكأنها رأي العين، أو حتى تندمج مع النفس اندماجا كليا.

ولهذا يخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام، أنه مع

علمه بإحياء الله تعالى للموتى، كما نص على ذلك قولـه تعـالى على لسـانه في حجاجـه مـع الملـك: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]

إلا أنه ـ ومع ذلك اليقين ـ طلب المزيد، بتحويـل علمـه من علم اليقين إلى عين اليقين، كمـا قـال تعـالى حاكيـا عنـه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَـوْتَى قَـالَ أَوَلَمْ تُـؤْمِنْ قَـالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260]

وهذا يدل على أن الطمأنية الإيمانية لا تتحقق بمجــرد علم اليقين، وإنما تتحقق بعين اليقين.. فبقـدر المشـاهدة والكشـف بقدر ما تتحقق الطمأنينة.

ولصعوبة المسالك المؤدية إليها أمر إبراهيم عليــه السـلام بأوامر شديدة حتى تتحقق له تلـك الرؤيـة، قـال تعـالى: ﴿قَـالَ فَخُذْ أَرْبَعَـةً مِنَ الطَّيْـرِ فَصُـرْهُنَّ إِلَيْـكَ ثُمَّ اجْعَـلْ عَلَى كُـلِّ جَبَـلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَـكَ سَـعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260]

فمع أنه كان في الإمكان أن يحصل ذلك في محـل واحـد.. لكن الله تعالى أراد أن يعلم عباده أن تحصيل هذه المرتبــة من اليقين يحتاج مجاهدات كثيرة، كما نص على ذلـك قولـه تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَـعَ الْمُحْسِـنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]

ومثل ذلـك مـا حصـل لموسـى عليـه السـلام عنـدما طلب زيادة في العلم؛ فقد أُمـر بـأن يسـير مسـافات طويلـة، وهنـاك رأى من الحقائق المرتبطة بالقدر ما لم يكن يعلمـه بهـذا النـوع من العلم.

وقد عبر عن هذا المعنى، وعلاقته بالمعرفة بعض الحكماء،

فقال: (فموسى الكليم مع ما له من المقـام العظيم في النبـوّة مـا اقتنـع بـذلك المقـام ومـا توقـف في مقـام علمـه الشـامخ، وبمجرد أن لاقى شخصـاً كـاملاً قـال لـه بكـل تواضـع وخضـوع: ﴿هَـلْ أَتَّبِعُـكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْـدًا﴾ [الكهـف: 66]، وصار ملازماً لخدمته حتى أخذ منه العلوم التي لا بد من أخـذها، وإبراهيم لم يقتنع بمقام شامخ الإيمـان والعلم الخـاص للأنبيـاء، بل قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَـوْتَى﴾ [البقـرة: 260]، فـأراد أن يرتقي من الإيمـان القلـبي إلى مقـام الاطمئنـان الشـهودي، وأعظم من ذلك أن الله تبـارك وتعـالى يـأمر نبيّـه الخـاتم وهـو أعـرف خلـق اللـه بالكريمـة الشـريفة ﴿وَقُـلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًـا﴾ [طه: 114]) (1)

ومثـل ذلـك يقـال في الحـواريين أصـحاب المسـيح عليـه السلام، والذين طلبوا المائدة من نـبيهم، لا شـكا في نبوتـه، ولا طلبا للتحقـق منهـا، وإنمـا كـان طلبهم للخـروج من علم اليقين إلى عين اليقين، قال تعـالى: ﴿إِذْ قَـالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَـى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْـتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَـزِّلَ عَلَيْنَـا مَائِدَةً مِنَ السَّـمَاءِ قَـالَ اتَّقُـوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (112) قَـالُوا نُرِيـدُ أَنْ نَأْكُـلَ مِنْهَـا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَـا وَنَعْلَمَ أَنْ قَـدْ صَـدَقْتَنَا وَنَكُـونَ عَلَيْهَـا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 112، 113]

وقـد أخـبر اللـه تعـالى أن طلبهم ذلـك، لم يكن إلا بقصـد تحصيل الطمأنينة، وهي المرتبـة الأعلى في المعرفـة، والـتي لا تكتفي بالرؤيـة، وإنمـا بالمعايشـة، والـتي عـبرت عنهـا الآيـات الكريمـة بالأكـل.. ذلـك أن أكلهم من تلـك المائـدة، يجعلـون لا يرون النعيم فقط، وإنما يعيشونه أيضا.

لا تحسب ـ أيها المريد الصادق ـ أني من خلال إيـرادي لـك

1() القرآن الثقل الأكبر، ص 45.

لهذه الأمثلة أن المعرفة اليقينية لا تتحقق إلا للأنبياء أو أتبـاعهم ممن عاصرهم.. فليس الأمر كذلك، ورحمة الله تأبى ذلك.

ولذلك جعل الكثير من السـبل المؤديـة للمعرفـة اليقينيـة، وأولها الذكر الكثـير.. ذلـك أنـه بكـثرة ترديـد ألفـاظ الـذكر مـع حضـور القلب، بقـدر ترسـخها في النفس إلى أن تتحـول إلى مشاهد مرئية.. بل حتى يغيب الذاكر عن نفسه؛ فيعيش معـاني الذكر بكل كيانه، كمـا عـبر بعض الحكمـاء عن ذلـك، فقـال: (لا تترك الـذكر لعـدم حضـور قلبـك مـع اللـه فيـه، لأن غفلتـك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسـى أن يرفعـك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظـة، ومن ذكـر مـع وجـود يقظـة إلى ذكـر مـع وجـود حضـور، ومن ذكـر مـع وجـود حضور إلى ذكر مع غيبة عن ما سـوى المـذكور، ومـا ذلـك على الله بعزيز) [1]

وقد ورد في الحديث ما يشـير إلى دور الـذكر في تحصـيل هذا النوع من المعرفة؛ فقد روي أن بعض أصحاب رسـول اللـه ﷺ شكا له حاله، فقـال: (يـا رسـول اللـه، نكـون عنـدك تـذكرنا بالنـار والجنـة كأنـا رأي العين؛ فـإذا خرجنـا من عنـدك عافسـنا الأزواج والأولاد والضيعات، ونسينا كثيرا)، فقال رسول اللـه ﷺ: (والذي نفسي بيده، لـو تـدومون على مـا تكونـون عنـدي، وفي الـذكر، لصـافحتكم الملائكـة على فرشـكم وفي طـرقكم، لكن ساعة وساعة) [2]

ومثل ذلك الفكر والتأمل، والذي أشار إليه قوله تعالى عن الغـرض من إشـهاد إبـراهيم عليـه السـلام لملكـوت السـموات والأرض: ﴿وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

1() إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، ص 60.

2() مسلم 8/ 94 (2750) (12)

وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام:75)

فالمعرفة اليقينية التي تحققت لإبراهيم عليه السلام كان سببها ـ كما تذكر الآية الكريمة ـ ما رآه من ملكوت السموات والأرض، والقرآن الكريم يعبر عن رؤيته بـ نُرِي، وفي ذلك إشارة إلى أن رؤية إبراهيم عليه السلام كانت رؤية بالله، لا بنفسه، أي أنه صار باقيا بالله بعد أن فنى عن نفسه.

وقد ذكر الله تعالى بعض ما أريه إبراهيم عليه السلام وما قرأه، فقال: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (الأنعام:76)، ثم رأى القمر بازعا، قالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (الأنعام: 77))، ثم رأى الشمس بازغة قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (الأنعام: 78)

والكثير قد يتصور أن ما ذكره إبراهيم عليه السلام هو من باب التمثيل والاحتيال لإرشاد قومه، ونحن لا ننكر هذا، ولا ننكر كذلك أن الله تعالى يصف لنا الطريق الذي سلكه إبراهيم عليه السلام للوصول إلى الله، لا إلى اعتقاد وجوده أو تفرده بالألوهية فحسب، وإنما إلى معان أخرى أعمق وأجل.

ولهذا يرتبط اليقين في القرآن الكريم بأصحاب الدرجات العالية من المؤمنين، من أمثال الأنبياء وأئمة الهدى، كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ (السجدة:24)

بل إن الله تعالى يذكر أن الغرض من تنويع الآيات في الكون وتكثيرها تحقيق اليقين، ذلك أنه كلما كثرت المظاهر الدلة على القدرة الإلهية أو غيرها من الصفات كلما كان اليقين

بها أعظم، كما قال تعالى عن آيـات اللـه الكونيـة المتجليـة في الأرض: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ (الذريات:20)

وقال عن خلق الإنسان وعـالم الحيـاة: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَـا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:4)

وقـال عن عـالم الأفلاك: ﴿رَبِّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الدخان:7)

وهكذا الأمر بالنسبة لكتاب الله الناطق، فحقائقه التي هي بصائر البصائر لا يراها ولا يعرفها ولا يهتـدي بهـا غـير الموقـنين، قال تعالى: ﴿هَذَا بَصَـائِرُ لِلنَّاسِ وَهُـدىً وَرَحْمَـةٌ لِقَـوْمٍ يُوقِنُـونَ﴾ (الجاثية:20)

ومثل ذلك أحكام الله لا يدرك حكمها، ويسـتكنه أسـرارها، ويعـرف وجـوه المنـافع والمصـالح فيهـا سـوى الموقـنين، قـال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُـونَ﴾ (المائـدة:50)، والآيـة تشـير إلى أن إدراك الحسـن المتغلغل في ثنايا الأحكام لا يقلب صفحاته سوى الموقنين.

ومن الطرق المؤدية لهذه المعرفة اليقينية التقوى، والـتي أشار إليها قولـه تعـالى: ﴿واتَّقـوا اللـهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللـهُ﴾ [البقـرة: 282]، وقال: ﴿إنْ تتَّقوا اللهَ يَجعَلْ لكُمْ فُرقاناً﴾ [الأنفـال: 29]. وقال: ﴿ويجعلْ لَكُمْ نُوراً تمشونَ به﴾ [الحديد: 28]

وقد عبر بعض الحكماء عن ذلك، فقال: (على قـدر قـربهم من التقوى أدركوا من اليقين، وأصل التقـوى مباينـة النهي وهـو مباينة النفس فعلى قدر مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين)

وسر ذلك يعود إلى مـا سـبق أن ذكرتـه لـك من أن القلب في حقيقته يشبه المرآة الـتي تتجلى عليهـا الحقـائق، والـذنوب

والمعاصي تشبه الحجاب والغشاوة التي تغطي المرآة، فتمنع الأشياء من التجلي فيها.. ولذلك كانت التقوى التي تعني الورع عن الذنوب هي الطريق الأقرب لتصفية مرآة القلب، حتى تشاهد الحقائق رأي العين.

ولهذا كله كان اليقين أرفع الدرجات، باعتبار كل تلك السبل من الذكر والفكر والتقوى وغيرها وسائل تؤدي إليه.

وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام الباقر عندما سئل عن الإيمان والإسلام فقال: (إنما هو الإسلام، والإيمان فوقه بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، ولم يقسم بين الناس شيء أقل من اليقين، فسئل: (فأي شيء اليقين؟)، قال: (التوكل على الله، والتسليم لله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله)[1]

وما ذكره الإمام الباقر من المقامات والأحوال القلبية يدل على تغلغل الإيمان في القلب إلى الدرجة التي يستسلم فيها استسلاما كليا لله ثقة به، ورضا عنه، ومحبة له، وقد قال بعضهم مبينا سر ارتباط ذلك باليقين: (تفسير اليقين بما ذكر من باب تعريف الشيء بلوازمه وآثاره، فإنه إذا حصل اليقين في النفس بالله سبحانه ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته، وتقديره للأشياء، وتدبيره فيها، ورأفته بالعباد ورحمته يلزمه التوكل عليه في أموره، والاعتماد عليه والوثوق به، وإن توسل بالأسباب تعبدا، والتسليم له في جميع أحكامه، ولخلفائه فيما يصدر عنهم، والرضا بكل ما يقضي عليه على حسب المصالح من النعمة والبلاء والفقر والغنى والعز والذل وغيرها، وتفويض الأمر إليه في دفع شر الأعادي الظاهرة والباطنة، أو ردّ الأمر

(1) الكافي 2/52.

بالكلية إليه في جميع الأمـور، بحيث يـرى قدرتـه مضـمحلة في جنب قدرته، إرادته معدومة عند إرادته، كما قـال تعـالى: ﴿وَمَـا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29])[1]

ولهذا عرف الإمام الصادق التوكل، بأنه اليقين، فسـئل عن حده، فقال: (أن لا تخاف مع الله شيئا)[2]، وذلك لأن خوف غـير الله يدل على عدم المعرفة؛ فمن عرف عظمـة اللـه، يسـتحيل أن يخاف غيره، مثلمـا حصـل للسـحرة الـذين اكتشـفوا ضـعف فرعون بمجرد إيمانهم بالله.

ويذكر الإمام الصادق الكثير من الثمار الطيبة الـتي تنتجهـا هذه المعرفة اليقينة، فيقول: (من صحة يقين المرء المسلم أن لا يُرضي الناس بسخط الله، ولا يلومهم على مـا لم يؤتـه اللـه، فإنّ الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية كـاره، ولـو أنّ أحدكم فرّ من رزقه كما يفـر من المـوت لأدركـه رزقـه كمـا يدركه الموت)، ثم قال: (إنّ اللـه بعدلـه وقسـطه جعـل الـروح والراحــة في اليقين والرضــا، وجعــل الهم والحــزن في الشــك والسخط)[3]

ويقول: (اليقين يُوصل العبـد إلى كـل حـال سـنيّ، ومقـام عجيب)[4]

ويـروي عن رسـول اللـه ﷺ في ذلـك أنـه صـلّى بالنـاس، الصبح فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفـق ويهـوي برأسـه مصفرّا لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه، فقال له

1() بحار الأنوار: 67/138.

2() الكافي 2/57.

3()الكافي 2/57.

4()مصباح الشريعة ص59.

رسول الله ﷺ: (كيـف أصـبحت يـا فلان ؟).. قـال: (أصـبحت يـا رسول الله موقنا)، فعجب رسوله الله ﷺ من قولـه، وقـال لـه: (إنّ لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟).. فقال: (فإنّ يقيني يا رسول الله هـو الـذي أحزنـني، وأسـهر ليلي، وأظمـأ هـواجري، فعَزَفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني أنظـر إلى عـرش ربي وقد نصب للحساب، وحشر الخلايق لذلك وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة ويتعارفون على الأرائـك متكئــون، وكــأني أنظــر إلى أهــل النــار وهم فيهــا معــذبون مصطرخون، وكأني الآن أسمع زفير النـار يـدور في مسـامعي، فقال رسول الله ﷺ: (هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمـان)، ثم قـال له: (الزم ما أنت عليه)، فقال الشاب: (ادع اللـه لي يـا رسـول الله أن أرزق الشهادة معك، فدعا له رسول اللــه ﷺ، فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النـبي ﷺ فاستشـهد بعـد تسـعة نفـر وكان هو العاشر)[1]

وهكذا يذكر الإمـام علي دور اليقين في تيسـير المجاهـدة، فيقول في وصف المتقين: (هجم بهم العلم على حقائق الأمور، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المـترفون، وأنسـوا بمـا اسـتوحش منـه الجـاهلون، وصـحبوا الـدنيا بأبـدان أرواحهـا معلقة بالملاء الأعلى) [2]

وبنـاء على هـذا؛ يعتـبر اليقين الوسـيلة الـتي تملأ الأعمـال الصالحة بالبركة، كما عبر الإمـام الصـادق عن ذلـك بقولـه: (إنّ العمل الـدائم القليـل على اليقين، أفضـل عنـد اللـه من العمـل الكثير على غير يقين)[3]

1() الكافي 2/53.

2() نهج البلاغة، رقم 147

3() الكافي 2/57.

وذلك لأنه يجعل من العامل مقبلا على عملـه بكـل إخلاص وتفان، بخلال الملل الذي يجـده من يفتقـد اليقين، قـال الإمـام علي: (قليل مدوم عليه، خير من كثير مملول منه)[1]

ويذكر أن الإيمان الحقيقي، أو التدين الحقيقي لا يذوقـه إلا أصحاب اليقين، فيقول: (لا يجد أحدكم طعم الإيمـان حـتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)[2]

وروي أنه بينما كـان يعبّيء الكتـائب يـوم صـفين، ومعاويـة مستقبله على فـرس لـه يتأكّـل تحتـه تـأكّلا، والإمـام علي على فرس رسول الله ﷺ المرتجـز، وبيـده حربـة رسـول اللـه، وهـو متقلّد سيفه ذا الفقـار.. فقـال رجـل من أصـحابه: (احـترس يـا أمير المؤمنين.. فإنا نخشى أن يغتالك هذا الملعـون)، فقـال لـه الإمام: (لئن قلت ذاك إنه غير مـأمون على دينـه، وإنـه لأشـقى القاسطين، وألعن الخـارجين على الأئمـة المهتـدين، ولكن كفى بالأجـل حارسـا، ليس أحـد من النـاس إلا ومعـه ملائكـة حفظـة يحفظونه، من أن يتردى في بئر، أو يقع عليـه حائـط، أو يصـيبه سوء، فإذا حان أجله خلـوا بينـه وبين مـا يصـيبه، وكـذلك أنـا إذا حان أجلي انبعث أشقاها، فخضّـب هـذه من هـذا ــ وأشـار إلى لحيته ورأسه ـ عهدا معهودا ووعداً غير مكذوب)[3]

وروي أن قنبر غلام الإمام علي كان يحبه حبا شـديدا، فـإذا خرج علي خرج على أثره بالسيف، فرآه ذات ليلة فقال: يا قنبر ما لك؟.. فقال: جئت لأمشـي خلفـك يـا أمـير المؤمـنين، قـال: (ويحك.. أمن أهل السماء تحرسني أو من أهل الأرض؟..فقـال: لا، بل من أهل الأرض، فقال: (إنّ أهل الأرض لا يستطيعون لي

1() نهج البلاغة، 4/103.

2() الكافي 2/57.

3() التوحيد ص367.

شيئا إلا بإذن الله من السماء فارجع)[4]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تطلب هذا المقام الرفيع من الإيمان؛ فـإن ظفـرت بـه ظفـرت بالإكسـير الأحمـر الـذي يرفعـك إلى أقصـى الـدرجات.. فابـذل جهدك لتتحقق باليقين، وترفع عن عين قلبك كل ألوان الغشاوة والريب، حتى تعيش الحقـائق، ولا تكتفي بـالعلم بهـا، أو رؤيتهـا من بعيد...

4()الكافي 2/59.

الأذواق السامية

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسـألني عن تلـك الأذواق السامية الرفيعة التي يذكر السـالكون إلى اللـه، والـتي تختلـف باختلاف درجاتهم في التزكية، وعن علاقتها بـالنفس المطمئنـة، وكيفية تحققها بها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الله تعـالى بلطفـه ورحمتـه بعبـاده، يملأ قلـوب قاصـديه والصـادقين معـه بحلاوة يجـدونها في قلـوبهم، تـدفعهم لمواصـلة السـير، وتهـون عليهم عقبات التزكية.

ولـذلك يسـخرون من أولئـك الـذين يتصـورون أن تطهـير النفس من رذائلها، يحول بينها وبين سرورها وسعادتها، ذلك أن السعادة التي وضعها الله في طاعتـه، لا يمكن أن يوجـد غيرهـا في أي محل من المحال.

وقد عبر رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّا، وبالإسلام دينا، وبمحمّد رسولا) (1)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمـان: أن يكـون اللـه ورسـوله أحب إليـه ممـا سـواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفـر بعـد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار) (2)

وقال الإمام الصادق مشيرا إلى الأثر الـذي تحدثـه معرفـة الله تعالى في النفس: (من عرف اللـه تعـالى صـفا لـه العيش،

1() مسلم (34)

2() البخارى (1/14، رقم 16)، ومسلم (1/66، رقم 43)

وطــابت لــه الحيــاة، وهابــه كــلّ شــيء، وذهب عنــه خــوف المخلوقين، وأنس بالله) [1]

وعندما رأى بعض الزهد في هذا النـوع من المعرفـة قـال: (لو يعلم الناس مـا في فضـل معرفـة اللـه عـز وجـل مـا مـدوا أعينهم إلى مـا متـع اللـه بـه الأعـداء من زهـرة الحيـاة الـدنيا ونعيمهـا، وكـانت دنيـاهم أقـلَّ عنـدهم ممـا يطوونـه بـأرجلهم، ولنَعِمُوا بمعرفة الله عز وجل وتلذذوا بهـا تلـذذ من لم يـزل في روضات الجنان مع أولياء الله) [2]

ثم فصل بعض آثار ذلك بقوله: (إن معرفـة اللـه عـز وجـل أنْسٌ من كـل وحشـة، وصـاحبٌ من كـل وحـدة، ونـورٌ من كـل ظلمة، وقوةٌ من كل ضعف، وشفاءٌ من كل سقم)[3]

ثم بين دور تلـك الأذواق الحلـوة اللذيـذة في الصـبر على البلاء الذي يتعرض له المؤمنـون، فقـال: (قـد كـان قبلكم قـوم يقتلـون ويحرقـون وينشـرون بالمناشـير، وتضـيّق عليهم الأرض برحبها، فما يردّهم عما هم عليـه شـي ء ممـا هم فيـه من غـير تـرة وتـروا من فعـل ذلـك بهم، ولا أذى ممـا نقمـوا منهم إلاّ أن يؤمنوا باللّه العزيـز الحميـد، فاسـألوا ربّكم درجـاتهم، واصـبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم) [4]

وعلى هذا اتفق كل الصالحين والحكماء الـذين جربـوا أثـر الإيمان في النفس، وذاقوا المشاعر الطيبة المرتبطـة بـه، وقـد قال بعضهم معبرا عن ذلك: (من عـرف اللـه قـرّت عينـه باللـه

1() بصائر ذوي التمييز ج 4 ص 52.

2() الكافي:8/ 247.

3() الكافي:8/ 247.

4() الكافي: ج 8 ص 247.

وقرّت به كلّ عين، ومن لم يعرف الله تقطّع قلبه على الدّنيا حسرات، ومن عرف الله لم يبق له رغبة فيما سواه) [1]

وقال آخر: (ليس في الدّنيا ولا في الآخرة أطيب عيشا من العارفين بالله تعالى، فإنّ العارف به مستأنس به في خلوته، فإن عمّت نعمة علم من أهداها، وإن مرّ مرّ حلا مذاقه في فيه لمعرفته بالمبتلي، وإن سأل فتعوّق مقصوده، صار مراده ما جرى به القدر، علما منه بالمصلحة، بعد يقينه بالحكمة، وثقته بحسن التّدبير) [2]

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن لذلك الذوق الرفيع درجات كثيرة، تختلف باختلاف المرتبة التي وصل إليها السالك؛ فبقدر تعمقه في السير تكون لذته وفرحه وسروره.

أو بقدر درجته في السلوك وتفانيه فيه يكون نوع الطعام الروحي المقدم له، كما أشار إلى ذلك قوله ﷺ عندما سئل عن سبب مواصلته للصوم، مع نهي غيره عنه، فقال: (إني لست مثلكم، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني) [3]

وقد رد بعضهم على الفهم الخاطئ لهذا الحديث، فقال: (وقد غلظ حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حسّي للفم، ولو كان كما ظنه هذا الظان لما كان صائما، فضلا عن أن يكون مواصلا. ولما صح جوابه بقوله (إني لست كهيئتكم)، فأجاب بالفرق بينه وبينهم.. ولو كان يأكل ويشرب بفيه الكريم حسا، لكان الجواب أن يقول: وأنا لست أواصل أيضا؛ فلما أقرهم

1() بصائر ذوي التمييز ج 4 ص 52.

2() صيد الخاطر ص 158.

3() مسلم (1103) (58)

على قولهم (إنك تواصل) علم أنـه ﷺ كـان يمسـك عن الطعـام والشراب، ويكتفي بذلك الطعـام والشـراب العـالي الروحـاني، الذي يغني عن الطعام والشراب المشترك الحسي)

ولهذا؛ فإن الواصل إلى تلك الدرجات الرفيعـة الـتي أخـبر عنها رسـول اللـه ﷺ قـد يغفـل عن كـل شـيء، حـتى عن أكلـه وشربه وحياته.. مثلمـا حصـل لأولئـك النسـوة اللاتي أخـبر اللـه تعالى عن تأثير نظرهن إلى يوسف عليـه السـلام فيهن، فقـال: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: 31)

وأول تلك الدرجات التي يجدها السالكون ذلك الفرح الذي يجدونه في نفوسـهم عنـدما يطـالعون الفضـل الإلهي المرتبـط بالأعمـال الصـالحة.. فيهـون على جـوارحهم تحمـل مشـقتها، انتظارا لثوابها وفضلها.

وممـا يـروى في هـذا أن امـرأة صـالحة قطـع أصـبعها، فضحكت، فقيل لها: يقطع أصبعك فتضحكين، فقـالت: (أحـدثك على قدر عقلك: حلاوة أجرها أنستني مرارة قطعها)

وكانت أخـرى تقـول عنـدما تشـاهد حالهـا وفقرهـا: (إلهي سـلبتني، أجعتـني وأجعت أولادي وأعريتـني وأعـريت أولادي، وقـديماً كنت تفعـل هـذا بأنبيائـك وأوليائـك وعبـادك الصـالحين، فبأي خصلة من خصال الخير تقربت بها إليك يـا مـولاي فقبلتهـا مني حتى أداوم عليها؟)

وهذا يدل على أن ملاحظة الجزاء الـذي أعـده اللـه تعـالى للمبتلين الصابرين هو الذي جعـل تلـك النفـوس لا تكتفي فقـط بالحسرة والجرع على ما حل بها، وإنما تستبدله بالفرح، لعلمهـا بـالعوض الإلهي عن تلـك الآلام، والـذي لا يمكن مقارنتـه بـأي

عوض آخر.

ولهذا؛ فإن الصادقين من المريدين يشعرون بتلك النصوص المقدسة، وهي تشجعهم على السير في طريق الله، وتحمل كل المشاق في سبيلها.

وكيف لا يفعلون ذلك، وهم يرون أهل الدنيا، يمارسون كل أنواع المجاهدات من أجل الظفر ببعض الجوائز المحدودة البسيطة الفانية، والتي قد يخسرونها في آخر لحظة، ولا ينالون منها شيئا.

وكيف لا يفعلون ذلك، وهم يرون البشر يلهثون وراء ما يسمونه عملة صعبة.. وقد يضيعون في سبيل ذلك صحتهم وراحتهم وكل أنواع لذاتهم.. فلذلك بدل اللهث وراء تلك العملة الفانية، راحوا يلهثون في جمع الحسنات التي لا يمكن لأي عملة في الدنيا أن تعوضها.

وقد أشار إلى هؤلاء قوله ﷺ: (الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله) (1)

وأشار إليهم الشاعر في قوله:

إن لله عبادا فطنا   طلقوا الدنيا

نظروا فيها فلما   أنها ليست لحي

جعلوها لجة   صالح الأعمال

وقد أعانهم على هذه الرؤية أمران: أولهما ذلك اليقين الذي ملأ قلوبهم بوعد الله ووعيده، حتى صاروا، وكأنهم يرونه رأي العين.

(1) الترمذي (2577)

والثاني: ذلك اليقين الذي عرفوا به الدنيا وحقارتها وهوانها مقارنة بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: 32]

وقال: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه: 131]

وقال: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص: 60، 61]

وقال: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 64]

وقال: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: 16، 17]

وقال: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ [الضحى: 4]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تدعو العقلاء إلى المقارنة بين ذلك النعيم الباقي الخالد الخالي من كل الغصص بنعيم الدنيا الفاني الممتلئ بكل أنواع الكدر، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (لو أن الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة من رأى في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيء)

وقال آخر: (نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة: أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا)

فإذا استشعر المريد الصادق هذه المعاني، وامتلأ بها قلبه هان عليه بذل نفسه وجهده في سبيل تحصيل كل ذلك الجزاء العظيم الذي أعده الله تعالى للصالحين من عباده.

فإذا استمر على هذا الطريق، رزقه الله تعالى ــ بفضله وكرمه ـ لذة أعظم وأكبر، وهي لذة التواصل مع الله تعالى، والتي قد تشغله عن كل أنواع النعيم.. ذلك أن من عرف الله، وأحبه، وأنس به، لم يعد له شعور بأي شيء آخر.. وهل يمكن مقارنة الجنة بربها.. وهل يمكن مقارنة نعيم التواصل مع الله بأي نعيم آخر.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يشتاق للصلاة، ويقول لبلال: (أرحنا بها يا بلال) [1]، وكان يعتبر الصلاة قرة عينه[2].

وقد روي أن رجلا سأل بعض الصالحين عن كثرة مجاهداته في الله، وقال له: (أخبرني أي شيء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق؟) فسكت، فقال: ذكر الموت، فقال: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: (وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا)

وقال آخر متأسفا على الغافلين وتفريطهم في جنب الله: (مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيب نعيمها) فقيل له: (وما هو؟) فيقول: (محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه)

1() رواه أحمد وأبو داود.

2() أما تلك الزيادة الواردة: (حبب إلي من دنياكم النساء)، فأرى أنها موضوعة، فرسول الله ﷺ هو سيد الزاهدين، وأعظم الزهد الزهد في هذا الجانب، وقد طبقه رسول الله ﷺ في أحسن صوره كما شرحنا ذلك بتفصيل في كتاب [النبي المعصوم]

وإن شئت ـ أيها المريد الصادق ـ أن تعرف آثار هـذا النـوع السـامي من الـذوق على أصـحابه؛ فطـالع تلـك الأشـعار الـتي عبروا بها عن أحوالهم.

فقد عبر عن ذلك بعضهم، وهو يقارن بين تلك اللذات التي كان يجدها في نعيم الـدنيا مـع نعيم التواصـل مـع اللـه، فقـال ـ مقارنا بين حاله قبل التعرف على الله وبعدهاـ:

كانت لقلبي أهواءٌ

فصار يحسدني من | وصرتُ مولى الورى مُذْ
ما لامني فيك أحبابي | إلّا لغفلتهم عن عظم
تركتُ للناس دنياهم | شغلاً بحبك يا ديني ودنيائي
أشعلتَ في كبدي | بين الضلوع وأخرى بين

وهكذا ذكر بعضهم ذلك عن نفسه عندما سئل عن سر مجاهداته:

تـــركت هـــوى ليلى | وعـدت إلى مصحوب
ونـادتني الأشـواق مهلا | منـــازل من تهـــوى

وقال آخر معبرا عن ذلك بلغة رمزية(1):

ومقعد قوم قـد مشـى | وأعمى سقيناه ثلاثاً
وأخـــرسٌ لم ينطـــق | أدرنـا عليـه الـراح
وآخـــر بين النـــاس لا | ســقى قطــرة من
وميت دعا الساقي بـه | وســـبح للصـــهباء
فلـــو عـــاين الرهبـــان | لصـــلوا لـــه مثـــل

وإياك ـ أيها المريد الصادق ــ أن تفهم من هذه الكلمات ظواهرها؛ فهم لا يريدون بالخمرة تلك التي حرمتها الشريعة، وإنما يقصدون بها تلك النشوة الروحية التي لم يجدوا تعبيرا مقربا لائقا بها مثل هذه اللفظة، وكأنهم يقولون لمن سكروا بخمر الدنيا: (إن نشوة تلك الخمرة لا تساوي شيئا أما النشوة

---

(1) محمد أبو المواهب الشاذلي، قوانين حكم الإشراق، ص 92

التي يجدها المتواصلون مع الله) (2)

وقد قال بعضهم مشيرا إلى ذلك:

وقالوا: شربتَ الإثمَ! كلّا، وإنّما شربتُ الّتي، في تركها عنديَ الإثمُ

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ـــ فاسـع لأن تعيش هـــذه الأذواق، وتشـــرب من هـــذه الكـــؤوس الطـــاهرة المقدسة، فمن لم يشرب منها في الـدنيا، لن يشـرب منهـا في الآخرة.. فلن تلاقي في الآخرة إلا ما عملته في دنياك.

واعلم أنك لن تصل إلى تلـك الـدرجات إلا بعـد تحمـل آلام الصبر على المجاهدات.. فالعسل لا يعطي حلاوتـه الحقيقيـة إلا بعــد وضــعه في الآنيــة الطــاهرة.. وإلا فــإن وضــعه في الآنيــة الممتلئة بالقاذورات، سيجعل طعمـه مشـابها لهـا.. فاجتهـد في أن تزكي نفسك، ليصفو قلبك للعسل المنزل عليه من ربك.

2() وقد قال القشيري معبرا عن هذا المعنى: (من جملة ما يجري في كلامهم الـذوق والشــرب، ويعــبرون بــذلك عمــا يجدونــه من ثمــرات التجلي ونتــائج الكشــوف وبــوادر الواردات.. وأول ذلـك الـذوق ثم الشـرب ثم الـري.. فصـفاء معـاملاتهم يـوجب لهم ذوق المعـاني ووفـاء منـازلاتهم يـوجب لهم الشـرب، ودوام مواصـلاتهم يقتضـي لهم الـري.. فصاحب الذوق متساكر، وصاحب الشرب سكران، وصاحب الـري صـاح، ومن قـوي حبـه تسرمد شربه، فإذا دامت به تلك الصفة لم يورثه الشرب سكراً، فكان صاحياً بالحق فانياً عن كل حظ) [الرسالة القشيرية، ص 65]

الحب المقدس

كتبت إلي ـ أيها المريـد الصـادق ــ تسـألني عن حب اللـه، وحقيقته، ومنزلته، وأسبابه الميسرة لتحصيله، وعلاقته بـالنفس المطمئنة ومراتبها، وعلاقته بعد ذلك وقبله بالتزكية والترقية.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن محبة اللـه أشـرف المراتب، وأعلاها، وهي أم لكل المكارم، ومن تحلى بها، تحقـق بالسعادة التي لا شـقاوة بعـدها، وبـالفرح الـذي لا حـزن بعـده، وبالرضا الذي لا يكتنفه سخط، وبالأنس الذي لا تعتريه وحشة.

ولهذا وصف اللـه تعـالى بهـا المؤمـنين الصـادقين، فقـال: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ أَعِـزَّةٍ عَلَى الْكَـافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَـةَ لَائِمٍ ذَلِـكَ فَضْـلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 54]

فانظر كيف بدأ اللـه تعـالى بالمحبـة، ثم عقبهـا بكـل تلـك الصفات الطيبة، ليدل على أنها البذرة الطيبة الـتي أثمـرت كـل تلك الخلال الزكية.

وهكذا أخبر القرآن الكـريم عن شـدة حب المؤمـنين للـه، وهو وصف لم يصفهم به إلا في هـذا الموضـع، للدلالـة على أن شرف المحبة بقدر شدتها، قالت تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِـذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْـدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُـوا أَشَـدُّ حُبّـاً لِلَّهِ) (البقرة: 165)

بل إن اللـه تعـالى أخـبر أن الإيمـان الحقيقي لا يتحقـق إلا للمحبين، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَـاؤُكُمْ وَإِخْـوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِـيرَتُكُمْ وَأَمْـوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَـا وَتِجَـارَةٌ تَخْشَـوْنَ

كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَـوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهَـادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَـأْتِيَ اللَّهُ بِـأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: 24]

ولهذا ربط رسول الله ﷺ الإيمان الحقيقي بالمحبـة، فقـال لمن سأله عن الإيمان: (أن يكون الله ورسـوله أحبّ إليـك ممّـا سواهما)[1]

وأكد ذلـك في حـديث آخـر، فقـال: (لا يـؤمن أحـدكم حتّى يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما)[2]

وكل ذلك بسبب الآثار العظيمة التي تحـدثها المحبـة، فبهـا يتحول الإيمان ومقتضـياته من تكـاليف شـاقة مملـوءة بـالحرج، إلى معاني رقيقة سامية ممتلئة بكل أصناف الراحة والسـعادة، كما عبر الإمام علي عن ذلك بقوله: (حبّ اللـه نـار لا يمـرّ على شيء إلّا احترق، ونور الله لا يطلع على شيء إلّا أضـاء، وسـماء الله ما ظهر من تحته من شيء إلّا غطّاه، وريح الله ما تهبّ في شيء إلّا حرّكته وماء الله يحيى به كلّ شـيء، وأرض اللـه ينبت منها كـلّ شـيء، فمن أحبّ اللـه أعطـاه كـلّ شـيء من الملـك والملك)[3]

وقال الإمام الصـادق معـبرا عن منزلـة المحب من الـدين، وآثارها على النفس: (حبّ الله إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كلّ شاغل وكلّ ذكر سوى الله، والمحبّ أخلص الناس سرّا للـه وأصـدقهم قـولا وأوفـاهم عهـدا وأزكـاهم عملا وأصـفاهم ذكـرا وأعبدهم نفسا يتباهى به الملائكة عند مناجاتـه وتفتخـر برؤيتـه،

1() رواه أحمد ج 4 ص 11.

2() رواه النسائي ج 8 ص 94، وأحمد ج 3 ص 172.

3() مصباح الشريعة، ص192.

وبه يعمر الله تعالى بلاده وبكرامتـه يكـرم اللـه عبـاده، يعطيهم إذا سألوه بحقّه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، فلو علم الخلـق مـا محلّـه عنـد اللـه ومنزلتـه لديـه لمـا تقرّبـوا إلى اللـه إلّا بـتراب قدميه) [1]

وقد اتفق على منزلة المحبـة، وآثارهـا التربويـة والروحيـة الكثيرة كل الحكماء والعقلاء، وقد قال بعضهم معـبرا عن ذلـك: (إن المحبــة للَّه هي الغايــة القصــوى من المقامــات، والــذروة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبـة مقـام إلا وهـو ثمـرة، من ثمارهـــا، وتـــابع من توابعهـــا، كالشـــوق، والأنس، والرضـــا وأخواتها، ولا قبل المحبة، مقـام إلا وهـو مقدمـة من مقـدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها) [2]

وقـــال آخـــر: (المحبـــة هي المنزلـــة الـــتي فيهـــا تنـــافس المتنافســـون، وإليهـــا شـــخص العـــاملون، وإلى علمهـــا شـــمر الســـابقون، وعليهـــا تفـــانى المحبـــون، وبـــروح نســـيمها تـــروّح العابـدون، فهي قـوت القلـوب، وغـذاء الأرواح، وقـرة العيـون، وهي الحيـاة الـتي من حرمهـا فهـو من جملـة الأمـوات، والنـور الـذي من فقـده فهـو في بحـار الظلمـات، والشـفاء الـذي من عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة الـتي من لم يظفـر بهـا فعيشـــه كلـــه همـــوم وآلام، وهي روح الإيمـــان والأعمـــال، والمقامات والأحوال، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيـه، تحمـل أثقـال السـائرين إلى بلاد لم يكونـوا إلا بشـقّ الأنفس بالغيهـا، وتوصـلهم إلى منـازل لم يكونـوا بـدونها أبـدا واصليها، وتبوّؤهم من مقاعد الصدق مقامـات لم يكونـوا لولاهـا داخليها، وهي مطايا القـوم الـتي مسـراهم على ظهورهـا دائمـا إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الـذي يبلغهم إلى منـازلهم الأولى

1() مصباح الشريعة، ص192.

2() إحياء علوم الدين (4/ 294)

من قريب، تاللّه لقد ذهب أهلها بشـرف الـدنيا والآخـرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب) [1]

واتفقــوا على أن تلــك المشــاعر الرقيقــة الــتي يجــدها المحبون للـه، هي الـتي تعطي الطعم الحقيقي للـدين؛ فالـدين الخالي من المحبة مجرد رسوم وطقـوس، قـد تحـرك الجسـد، لكنها لا تصل إلى القلب.

وقد عبر بعضهم عن ذلك، فقال: (إنّ من خلق اللـه تعـالى خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدّنيا)

وقال آخر: (المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه، وإذا أحبه أقبل إليه، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظـر إلى الـدنيا بعين الشهوة، ولم ينظر إلى الآخـرة بعين الفـترة، وهي تحسـره في الدنيا وتروحه في الآخرة)

وقــال آخــر: (عفــوه يســتغرق الــذنوب فكيــف رضــوانه، ورضـوانه يسـتغرق الآمـال فكيـف حبـه، وحبـه يـدهش العقـول فكيف وده، ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه)

وقــال آخــر: (مثقــال خردلــة من الحبّ أحبّ إلى اللــه من عبادة سبعين سنة بلا حبّ)

وقال مخاطبا ربه:(إلهي إنّي مقيم بفنائك، مشـغول بثنائـك صـغيرا أخـذتني إليـك وسـربلتني بقربـك، وشـرّفتني بمعرفتـك، وأمكنتني من لطفك، ونقلتني في الأحوال، وقلبتني في الأعمال سترا وتوبـة وزهـدا وشـوقا ورضـا وحبّـا فسـقيتني من حياضـك ونعّمتني في رياضك ملازما لأمرك ومشـعوفا بقولـك ولمـا طـرّ شاربي ولاح طائلي فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتـدت

[1] () مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (3/ 8)

هذا منك صغيرا فلي ما بقيت حولك زمزمة وبالضراعة إليك همهمة، لأنّي احبّك وكلّ حبيب بحبيبه مشعوف، وعن غير حبيبه مصروف)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن المحبة المقدسة المقصودة في هذه النصوص ليس ما يتوهمه الناس من ادعائهم محبة الله، مع الانشغال التام عنه، وعن ذكره وطاعته.. فذلك مجرد دعوى، وليس كل دعوى بصادقة، ولذلك قال بعض الحكماء: (إذا قيل لك أ تحب اللّه تعالى فاسكت، فإنك إن قلت لا كفرت، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين، فاحذر المقت)

فالمحبة الصادقة لا يمكن ألا تنشئ آثارها في السلوك والمواقف وكل شيء، كما عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

و كلّ يدّعى وصلا بليلى.. وليلى لا تقر لهم بذاك

إذا اشتبكت دموع في عيون.. تبيّن من بكى ممّن تباكى

وقال آخر:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه.. هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته.. إن المحب لمن يحب مطيع

ولهذا شرط الله تعالى على المدعين لمحبة الله اتباع رسول الله ﷺ، ذلك أنه يستحيل على من يدعي محبة أحد ألا يحب رسوله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: 31]

وقد عبر بعض الحكماء عن ضرورة ذلك، فقال: (اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى، فلا

ينبغي أن يغتر الإنسان بتلـبيس الشـيطان وخـدع النفس، مهمـا ادعت محبة اللَّه تعالى، مـا لم يمتحنهـا بالعلامـات، ولم يطالبهـا بالبراهين والأدلة. والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعهـا في السماء، وثمارها تظهـر في القلب، واللسـان، والجـوارح، وتـدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالـة الدخان على النار، ودلالة الثمار على الأشجار) [1]

ومن تلك الثمار التي تدل على المحبـة، والـتي تُمتحن بهـا النفس لتثبت صدق دعواها، [حب لقاء اللـه]، كمـا قـال تعـالى: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ ﴾ [العنكبوت: 5]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره اللـه لقـاءه)، فقيـل لـه: إنـا لنكــره المــوت، فقــال: (ليس ذاك؛ ولكن المــؤمن إذا حضــره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شـيءٌ أحب إليـه ممـا أمامه؛ فأحب لقاء الله وأحب الله لقـاءه، وإن الكـافر إذا حضـر بشر بعذاب الله وعقوبتـه فليس شـيء أكـره إليـه ممـا أمامـه؛ فكره لقاء الله وكره الله لقاءه) [2]

وقبل ذلك يدل عليه قوله تعالى مخاطبـا اليهـود: ﴿قُـلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْـدَ اللَّهِ خَالِصَــةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَــوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَــادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَــدًا بِمَــا قَــدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 94، 95]

ثم بين علـة ذلـك، فقـال: ﴿وَلَتَجِـدَنَّهُمْ أَحْـرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَـنَةٍ وَمَـا هُـوَ بِمُزَحْزِحِــهِ مِنَ الْعَــذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِــيرٌ بِمَــا يَعْمَلُــونَ﴾

1() إحياء علوم الدين (4/ 329)

2() البخاري (ح6142)، ومسلم (2683 و2684)

[البقرة: 96]

وهي تـدل على أن كـراهتهم للمـوت ناشـئة من حرصـهم الشديد على الحياة، وليس طلبـا للاسـتزادة من أعمـال الخـير؛ ذلك أنها لا تدل على كراهية لقاء الله.

ولهـذا اعتبرهـا الحكمـاء من الأسـباب المشـروعة لكراهـة الموت، ذلـك أنـه لا يكرهـه لذاتـه، ولكونـه محـل اللقـاء، وإنمـا (يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء اللّه، فذلك لا يدل على ضعف الحب، وهـو كـالمحب الـذي وصـله الخـبر بقـدوم حبيبـه عليـه، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ لـه داره، ويعـد لـه أسـبابه، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل، خفيـف الظهـر عن العوائـق. فالكراهـة بهـذا السـبب لا تنـافي كمـال الحب أصـلا، وعلامته الدؤوب في العمل، واستغراق الهم في الاستعداد) [1]

ومن علامات المحبة الصادقة الاجتهاد في الطاعة، وإيثارها على أهواء النفس، (فيلزم مشاق العمل، ويجتنب اتبـاع الهـوى، ويعـرض عن دعـة الكسـل. ولا يـزال مواظبـا على طاعـة اللّه، ومتقربا إليه بالنوافل، وطالبا عنـده مزايـا الـدرجات كمـا يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه) [2]

كما عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

و أترك ما أهوى لما قـد هويتـه.. فأرضـى بمـا ترضـى وإن سخطت نفسي

ومن علامات المحبة الصادقة كثرة ذكر الله تعـالى، فــ (لا يفـتر عنـه لسـانه، ولا يخلـو عنـه قلبـه، فمن أحب شـيئا أكـثر

1() إحياء علوم الدين (4/ 331)

2() إحياء علوم الدين (4/ 331)

بالضرورة من ذكره، وذكر ما يتعلقـه بـه، فعلامـة حب اللَّه حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسـول اللَّه ﷺ، وحب كـل من ينسـب إليـه؛ فـإن من يحب إنسـانا يحب كلب محلتـه، فالمحبـة إذا قـويت تعـدت من المحبـوب إلى كـل مـا يكتنـف بالمحبوب ويحيـط بـه ويتعلـق بأسـبابه، وذلـك ليس شـركة في الحب، فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله، وكلامـه لأنـه كلامه، فلم يجاوز حبه إلى غيره، بل هو دليـل على كمـال حبـه. ومن غلب حب اللَّه على قلبـه أحب جميـع خلـق اللَّه، لأنهم خلقه، فكيف لا يحب القرءان، والرسول، وعباد اللَّه الصـالحين)[1]

إذا عرفت هذا ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ فـاعلم أن حقيقـة المحبة التي سألت عنها، هي نفس تلـك المشـاعر الـتي تجـدها في نفسـك عنـدما تميـل إلى أي شـخص أو شـيء ميلا شـديدا، بحيث لا تريد أن يفارقك، مع شعورك بالراحة التامة عند لقائـك بـه، أو حصـولك عليـه، وبالشـوق الشـديد عنـد غيابـه عنـك، أو فقدانك له.

فالمحبـة واحـدة.. والعـبرة بالوجهـة الـتي تتوجـه إليهـا.. فبحسب القبلـة الـتي يتوجـه لهـا الحب يكـون حالـه.. وبحسـب لباسـه يكـون شـكله.. فـإن توجـه إلى قبلـة الجمـال والخلـود والسمو ظفر بسلام الحب ولذته وجميع نشواته.. وإن توجه إلى قبلة الدمامـة المصـبوبة في قـوالب الجمـال، والفنـاء المتسـتر بأوهام الخلود، والانتكاسـة المصـورة في صـورة الرفعـة، ظفـر بالحب المملوء بالصراع والذلة والجنون.

ولذلك أجاب الإمام الصادق من سأله عن العشـق، فقـال:

1() إحياء علوم الدين (4/ 331)

(قلوب خلت عن ذكر الله، فأذاقها الله حب غيره) [1]

ولذلك؛ فإن الفـرق بين الحب المقـدس والحب المـدنس، ليس في حقيقــة الحب، ولكن في القبلــة الــتي يتوجــه إليهــا، والثمار التي يثمرها.

أمـا قبلـة الحب المـدنس، فهي تلـك الأهـواء المزينـة لـه، والتي سرعان ما تتحول إلى عـذاب يتعـذب بـه في الـدنيا قبـل الآخرة، وقد قال بعض الحكماء في ذلك: (انقلاب الصفة مؤذيــة يضاهي انقلاب العشق مؤذيـا عنـد مـوت المعشـوق، فإنـه كـان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما، حـتى يـرد بـالقلب من أنواع العذاب مـا يتمـنى معـه أن لم يكن قـد تنعم بالعشـق والوصال. بل هذا بعينه هو أحـد أنـواع، عـذاب الميت، فإنـه قـد سلط العشق في الدنيا على نفسه، فصار يعشق ماله، وعقاره، وجاهه، وولده، وأقاربه، ومعارفه، ولو أخذ جميع ذلك في حياتــه من لا يرجو، استرجاعه منه فما ذا ترى يكون حاله؟ ليس يعظم شقاؤه، ويشتد عذابه، ويتمنى ويقول ليته لم يكن لي مال قــط، ولا جاه قط، فكنت لا أتأذى بفراقه؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعه واحدة.. فما حـال من لا يفـرح إلا بالدنيا، فتؤخذ منه الدنيا وتسلّم إلى أعدائه، ثم ينضاف إلى هـذا العذاب تحسّـره على مـا فاتـه من نعيم الآخـرة، والحجـاب عن اللّه عز وجل، فإن حب غير اللّه يحجبه عن لقاء اللّه والتنعم به، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته، وحسـرته على مـا فاتـه من نعيم الآخرة أبد الآباد، وذل الرد والحجـاب عن اللّـه تعـالى) [2]

وبخلاف ذلك الحب المقدس، الذي هو حب الله تعالى، وما

1() أمالي الصدوق: 396.

2() إحياء علوم الدين (4/ 501)

ينتج عنــه من حب للأنبيــاء والأوليــاء والصــالحين وغــيرهم من المؤمنين؛ فإنه حب مبارك، مملوء بالثمار الطيبة، بالإضـافة إلى خلوه من كل المنغصات التي تكتنف الحب المدنس.

أما ما سألت عنه من كيفية التحقـق بهـذا النـوع من الحب الشريف؛ فاعلم أن لذلك طريقين:

أولهما، وأشرفهما: المحبة الذاتيـة، والـتي تنطلـق من معرفة المحبوب وكماله وجماله وعظمته.. وبقدر تلك المعرفــة تكـون المحبـة.. وهـل هنـاك أعظم أو أكمـل أو أجمـل من اللـه تعالى؛ ولذلك فـإن الثمـرة الضـرورية لصـدق المعرفـة بـه، هي صدق المحبة له.

وقد قال بعضهم معبرا عن ذلك:

هب الرسل لم تأت من عنده.. ولا أخبرت عن جمال الحبيب

أليس من الواجب المست.. حق محبته في اللقا والمغيب

فمن لم يكن عقله آمرا.. بذا. ما له في الحجى من نصيب

وإن العقول لتدعو إلى.. محبة فاطرها من قريب

أليست على ذاك مجبولة.. ومفطورة لا بكسب غريب

أليس الجمال حبيب القلوب.. لذات الجمال، وذات القلوب

أليس جميلا يحب الجمال.. تعالى إله الورى عن نسيب

أما بعد ذلك إحسانه.. بداع إليه لقلب المنيب

أليس إذا كملا أوجبا.. كمال المحبة للمستجيب

فمن ذا يشابه أوصافه.. تعالى إله الورى عن ضريب

ومن ذا يكافئ إحسانه.. فيألهه قلب عبد منيب

وهذا دليل على أنه.. إلى كل ذي الخلق أولى حبيب

وفي الحـديث أن رسـول اللـه ﷺ قـال: (بكى شـعيب من حب الله عزوجل حتى عمي، فرد الله عز وجل عليه بصــره، ثم بكى حتى عمي فرد الله عليـه بصـره، ثم بكى حـتى عمي فـرد الله عليه بصره، فلما كـانت الرابعـة أوحى اللـه إليـه: ياشـعيب إلى متى يكون هذا؟ أبدا منك؟ إن يكن هذا خوفا من النار فقــد آجرتــك، وإن يكن شــوقا إلى الجنــة فقــد أبحتــك، فقــال: إلهي وسـيدي أنت تعلم أنى مـابكيت خوفـا من نـارك، ولا شـوقا إلى جنتك، ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أوأراك) [1]

وهو مـا عـبر عنـه بعض الصـالحات عنـدما سـئلت عن حقيقـة محبتهـا، فقـالت: مـا عبدتـه خوفـاً من نـاره ولا حبـاً لجنتـه فـأكون كالأجير السوء، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه، ثم أنشدت:

أحبك حبين حب الهوى	وحباً لأنك أهْلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له	فكشـفك لي الحجب حـتى أراكا
فلا الحمـــد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لـــك الحمـــد في ذا وذاكا

وأما الطريق الثاني للمحبة؛ فهو علمك بأن جميع مصالحك في الدنيا والآخرة مرتبطة به، فلولاه ما كان لك وجود، ولا كــان

1() بحار الأنوار (12/ 380)

لك أي شيء.. ومن عرف نفسه وعرف ربه علم (أنه لا وجـود لـه من ذاته، وإنما وجـود ذاتـه ودوام وجـوده وكمـال وجـوده من اللـه وإلى الله وباللـه، فهـو المخـترع الموجـد لـه وهـو المبقي لـه وهـو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسـباب، وإلا فالعبـد من حيث ذاتـه لا وجود له من ذاته، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضـل اللـه تعالى عليه بالإيجاد)[1]

ثم هو بعد هذا الوجود المسـتفاد من اللـه هالـك عقيب وجـوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، ثم هو نـاقص بعـد الوجـود لـولا فضـل الله عليـه بالتكميـل، فليس في الوجـود من يقـوم بنفسـه إلا اللـه الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به.

فلهذا إذا أحب العاقل ذاته أحب من يقوم بها، فإن كان لا يحبـه فهو لجهله بنفسه وبربه، فالمحبة ثمـرة المعرفـة تنعـدم بانعـدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوّتها.

ومثال هذا المبتلى بحرّ الشـمس، فإنـه لمـا كـان يحب الظـل، فإنه بالضرورة يحب الأشجار التي بهـا قـوام الظـل، (وكـل مـا في الوجود بالإضافة إلى قدرة اللـه تعـالى فهـو كالظـل بالإضـافة إلى الشجر والنور بالإضـافة إلى الشـمس فـإنّ الكـل من آثـار قدرتـه، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشـمس ووجـود الظل تابع للشجر) [2]

ويدل لهذا ما جبلت عليه القلـوب من حب من أحسـن إليهـا، وبغض من أساء إليها، كما قال الشاعر معبرا عن ذلك:

وَقّيَّدْتُ نفســــي في ذراك   ومن وجــدَ الإِحســانَ قيــداً

1() الإحياء: 4/301.

2() الإحياء: 4/301.

محبةً	تقيدا

وقال الآخر:

أحسنْ إلى النـاسِ تَسْـتَعبِدْ قلوبَهمُ	فطالمــا اســتعبدَ الإنســانَ إِحسانُ
من جادَ بالمالِ مالَ النــاسُ قاطبةً	إليه والمالُ للإنسانِ فتانُ

وقد قال رسول الله ﷺ مشـيرا إلى ذلـك:(إن اسـتطعت أن لا يكون لفاجر عندك يدا فافعل)[1]

وكان مما يقوله ﷺ في دعائه:(اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يدا ولا نعمة، فـإني وجـدت فيمـا أوحيتـه إلي: لا تَجِـدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ [المجادلـة: 22])[2]

ولـذلك؛ فـإن الـذي يتأمـل في النعم الـتي أغـدقت عليـه، سيكتشف أنه ليس هناك من نعمة في الوجـود إلا واللـه سـببها الأول والمباشـر.. فاللـه هـو المحسـن الوحيـد، وكـل من عـداه محسن إليه.. وقـد قـال اللـه تعـالى يـذكر ذلـك: وَمَـا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (النحل:53)

وأخبرنا عن استحالة عدنا لنعمه علينـا، فقـال: َآتَـاكُمْ مِنْ كُلِّ مَـا سَـأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُـدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُـوهَا إِنَّ الْأِنْسَـانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (ابراهيم:34)

وهكـذا فـإن كـل إحسـان ورد إليـك من أي واسـطة من

1() الفردوس بمأثور الخطاب.

2() رواه أبو أحمد العسكري.

الوسائط ليس إلا إحسانه، وفضله، كما أن الملـك إذا أمـر بعض خدمه بأن يهبك ما تشاء من الأمـوال والقصـور وأنـواع المتـاع.. لم يكن ذلك النعيم من الخـدم، وإنمـا من الملـك.. أمـا الخـادم فليس إلا عبد مأمور.

هذا جوابي على أسئلك ـ أيها المريد الصـادق ــ فاسـع لأن تظفر بهذه المنزلة الرفيعـة من منـازل النفس المطمئنـة؛ فهي وحدها من يزكي نفسك، ويطهرهـا، ويرفعهـا إلى أعلى درجـات الكمال.. وفوق ذلك كله يحميها من كل تلك المهالك التي يوقـع فيها الحب المدنس الممتلئ بالمثالب والعيوب والأمراض.

..

..

..

الأنس والشوق

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن تلك الأحــوال الناتجــة عن المحبــة الإلهيــة، والــتي يــذكرها الســالكون عن أنفســهم، من الأنس بــالمحبوب، والشــوق إليــه، والخــوف من القطيعة والهجر، وغير ذلك.

وجوابـا على سـؤالك الوجيـه أذكـر لـك أن تلـك الأحـوال، والتي قد تختلف باختلاف درجات المحبة، علامات على صـدقها؛ ذلـك أن من مقتضـيات الحب الأنس بـالمحبوب حـال حضـوره، والشوق إليه حال غيابه، والخوف من الهجر والقطيعـة، والهيبـة منهمـا.. وغـير ذلـك ممـا يـذكره المحبـون عن أنفسـهم، مهمـا اختلفت الجهات التي توجهوا إليها بحبهم.

ذلك أن الحب واحد في الجميع، والفرق بين أنواع المحبة، ليس في ذاتها، وإنما في الجهة التي يتوجه إليها.

وقد أخبر الله تعالى عن شوق يعقوب عليه السلام الشديد لابنه إلى الدرجة التي أصيب فيها بـالعمى.. ثم أخـبر عن عـودة بصره إليه بعد ذلك بمجرد أن شم قميصه.. وكل ذلك دليل على شدة محبته له.. ذلك أنه يسـتحيل أن يتحقـق الشـوق أو الأنس أو غيرهمـا من الأحـوال من دون أن تكـون هنـاك محبـة تـدفع لذلك.

ولذلك ترى الصالحين قد يستشهدون للتعبـير عن أحـوالهم بمـا قالـه غـيرهم من المحـبين، لا لكـونهم قـد وقعـوا في ذلـك الحب المــدنس الــذي وقــع فيــه غــيرهم، وإنمــا لأن الأحــوال متشابهة، وإن كان المحبوب مختلفا.

ولـو أنـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تـأملت تلـك المناجـاة

العظيمة التي كان يرددها الإمـام السـجاد، والـتي يطلـق عليهـا [مناجاة المحبين]، لوجدته يذكر فيها الكثير من تلك المعاني.

فمما ورد فيها قوله: (إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتـك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي آنس بقربـك، فـابتغى عنـك حـولا، إلهي فاجعلنا ممن اصـطفيته لقربـك وولايتـك، وأخلصـته لـودك ومحبتك، وشوقته إلى لقائك، ورضيته بقضائك، ومنحتـه بـالنظر إلى وجهك، وحبوتـه برضـاك، وأعذتـه من هجـرك وقلاك وبوأتـه مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهلتـه لعبادتـك، وهيمتــه لإرادتــك، واجتبيتــه لمشــاهدتك، وأخليت وجهــه لــك، وفـرغت فـؤاده لحبـك، ورغبتـه فيمـا عنـدك، وألهمتـه ذكـرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صـالحي بريتـك، واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شئ يقطعه عنك) [1]

بل إنـه يتجـاوز ذلـك كلـه؛ فيـذكر مـا يـذكره المحبـون من التعبير عن أشواقهم، فيقول: (اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتيــاح إليــك والحــنين، ودهــرهم الزفــرة والانين، جبــاههم ســاجدة لعظمتك، وعيـونهم سـاهرة في خـدمتك، ودمـوعهم سـائلة من خشــيتك، وقلــوبهم متعلقــة بمحبتــك، وأفئــدتهم منخلعــة من مهابتـك، يـا من قدسـه لأبصـار محبيـه رائقـة، وسـبحات وجهـه لقلوب عارفيه شائقة، يا منى قلوب المشتاقين، ويا غايـة آمـال المحبين، أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمـل يوصـلني إلى قربك، وأن تجعلك أحب إلي ممـا سـواك، وأن تجعـل حـبي إياك قائدا إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائدا من عصيانك، وامنن بالنظر إليـك علي وانظـر بعين الـود والعطـف إلي، ولا تصـرف عـني وجهـك، واجعلـني من أهـل الاسـعاد والحظـوة عنـدك، يـا مجيب يا أرحم الراحمين) [2]

1() الصحيفة السجادية الكاملة: 315

2() الصحيفة السجادية الكاملة: 315

ولذلك لا تستعجل ـ أيها المريد الصادق ـ بالإنكــار على من هذا حاله؛ حتى لا تحـرم من تلـك الأحـوال السـنية، بـل كن من المشتاقين إليها، الحريصين على تحصيلها، الـذين ملأهم الحـزن على خلو قلوبهم منها، لعل الله تعـالى يحـول من ذلـك الشـوق واقعا تعيشه، فيمتلئ قلبك بتلك المشاعر النبيلة التي عبر عنهـا بعضهم، فقال:

القلب محترق والـدمع مسـتبق.. والكـرب مجتمـع والصـبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له.. ما جناه الهـوى والشّـوق والقلق

يا ربّ إن يك شيء فيه لي فـرج.. فـامنن عليّ بـه مـا دام بي رمق

وقال آخر مخاطبا ربه:

أيها السيد الكريم.. حبك بين الحشا مقيم

يا رافع النوم عن جفونى.. أنت بما مر بى عليم

وقال آخر يذكر الأحوال التي يمر بها المحبون:

عجبت لمن يقـول ذكـرت إلفى.. وهـل أنسـى فـأذكر مـا نسيت؟

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا.. ولو لا حسن ظنى ما حييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقا.. فكم أحيا عليك! وكم أموت!

شربت الحب كأسا بعد كأس.. فما نفد الشراب وما رويت

وقال آخر: دخلت على بعض المحـبين غرفتـه، وهـو يكنس بيته بخرقة ويقول[1]:

و ما رمت الدّخول عليه حتّى.. حللت محلّة العبد الذّليل

و أغضـيت الجفـون على قـذاها.. وصـنت النّفس عن قـال وقيل

وقال آخر في وصف المحـبين وأحـوالهم: (عبـد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظرا إليه بقلبه أحـرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أسـتار غيبـه، فـإن تكلم فباللّـه، وإن نطـق فعن اللّـه، وإن تحرك فبأمر اللّه، وإن سكن فمع اللّه فهو باللّه وللّه ومـع اللّـه)[2]

وقـال آخـر: صـحبت رجلا يعـرف بالوالـه، مـدة سـنة، فلم أسأله عن مسألة، ثم قلت لـه يومـا: إيش المعرفـة الـتي ليس فوقها معرفة؟ فقال: أن تجد اللّـه أقـرب إليـك من كـل شـي ء وأن تمحي من سرائرك وظواهرك كل شي ء غـيره، فقلت لـه: بأي شي ء يوصل إلى هذا؟ فقال: بزهدك فيك وبرغبتك فيه.

إذا عـرفت هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن تلـك الأحوال التي يذكرها هؤلاء عن أنفسهم، لا تعني علو المنزلـة أو نزولها، وإنما تعبر عن الحالة النفسية التي يمر بها السـالك إلى الله، كما عبر عن ذلـك بعضـهم، فقـال في التفريـق بين الأنس والهيبة: (هما حالتان من أحوال السالكين، وذلك أنه حين يتجلى الحق تعالى على قلب العبد بشاهد الجلال يكون نصيبه في ذلك الهيبة، وحين يتجلى على قلبه بشاهد الجمـال يكـون نصـيبه في

1() اللمع في التصوف (ص: 263)

2() اللمع في التصوف (ص: 263)

ذلك الأنس، ليكون أهل الهيبة من جلاله في تعب، وأهـل الأنس من جماله في طرب، وفرق بين القلب الذي يحـترق من جلالـه في نــار المحبــة، والقلب الــذي يضــيء من جمالــه في نــور المشاهدة)[1]

وهذا لا يعـني تفضـيل الأنس على الهيبـة، بـل لكـل منهمـا محله الخـاص، والمرتبـط بمـا ورد في النصـوص المقدسـة من تقلب القلوب بناء على الخواطر والإلهامات التي تخطر عليها.

الأنس بالله:

ومن ألذ تلك الأحوال ـ أيها المريد الصـادق ــ الأنس باللـه، ذلـك أن النفس تشـعر فيـه بقربهـا من ربهـا، وعـدم وجـود أي حجـاب بينهـا وبينـه، كمـا عـبر الإمـام عليّ عن ذلـك بقولـه في وصف الصالحين: (هم قـوم هجم بهم العلم على حقيقـة الأمـر، فباشروا روح اليقين واستلانوا ما اسـتوعره المـترفون، وأنسـوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدّنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدّعاة إلى دينه)[2]

وهذا يدل على أن الأنس هبة من اللـه تعـالى للـذين بـذلوا مهجهم في المجاهدات والرياضات التي تؤهل نفوسهم للتقـرب من الله تعالى، كما عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

الأنس بالله لا يحويه بطال.. وليس يدركه بالحول محتال

و الآنسون رجال كلهم نجب.. وكلهم صفوة لله عمال

ولذلك فإنه فضـل إلهي يغمـر القلـوب بـالفرح والسـعادة لقرب ربهـا منهـا، وشـعورها بــ (الاعتمـاد على اللـه، والسـكون

1() محمد هشام، مدارج السالكين عند الصوفية، ص 548..

2() نهج البلاغة، رقم 147.

إليه، والاستعانة به)[1]. و(الفرح بوجدان حضرته، والسكون إلى عنايته، والاستعانة به على وجد معيته)[2]

وهــذا الأنس يبــدأ من أول مراحــل الســلوك، ويبقى مــع المريد مصاحبا له في كل منزل يـنزل فيـه.. وقـد كتب بعضـهم إلى مريد له يقول: (ليكن أنسك بالله، وانقطاعك إليه، فإن للـه تعالى عباداً استأنسوا بالله فكـانوا في وحـدتهم أشـد استئناسـاً من النــاس في كــثرتهم، وأوحش مــا يكــون النــاس، مــا آنس يكونون، وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون)

وحكي عن آخر أنه رؤي مرة مبتسماً فقيل له: من أين لك هذا الانشراح ؟ فقال: (أعطوني الصباح شراباً يقال لـه شـراب الأنس، فاليوم يوم عيد أسلمت نفسي للابتهاج فيه)

لكن هذا الحال مع شرفه وفضله إلا أنـه يحتـاج إلى الهيبـة والتعظيم حـتى لا يتحـول إلى الإدلال، أو سـوء الأدب مـع اللــه، مثلما وقع من بعضهم حين صاروا يتحدثون عن الله أو معه بمــا لا يتناسب مـع جلالـه وعظمتـه، وذلـك دليـل على فقـدانهم لمـا يدعونه، كما قال بعضهم معبرا عن ذلك: (لا يكــون الأنس باللّـه إلا ومعه التعظيم، لأن كـل من استأنسـت بـه سـقط عن قلبـك تعظيمه إلا اللّه تعالى فإنك لا تتزايد به أنسا إلا ازددت منه هيبة وتعظيما) [3]

ولهـذا لا تلتفت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ لمـا يروونـه في الإســرائيليات من أن بعض صــالحي بــني إســرائيل راح يقــول مخاطبـا ربـه، طالبـا السـقيا: (مـا هـذا من فعالـك، ولا هـذا من

1() اللمع في التصوف، ص 64.

2() السيد محمود أبو الفيض المنوفي، معالم الطريق إلى الله، ص 392.

3() عوارف المعارف (ص: 570)

حلمك، وما الـذي بـدا لـك؟ أنقصـت عليـك عيونـك! أم عانـدت الريـاح عن طاعتـك! أم نفـد مـا عنـدك! أم اشـتد غضـبك على المذنبين ألست كنت غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمــة، وأمرت بالعطف، أم ترينا أنك ممتنع؟ أم تخشى الفوت فتعجــل بالعقوبة) [1]

فمثل هذه الأحوال لا يستحسـن الاسـتدلال بهـا، أو نشـرها بين عامة الناس؛ فذلك ممـا أدى إلى تلـك الطامـات العظيمـة، التي شوهت علم التزكية، وحولته إلى مجال ممتلئ بالدعاوى.

وقد ذكر بعض الحكماء ذلك، منتقدا له، فقـال عنـد حديثـه عن ظاهرة [الشطح]: (أحدهما: الدعاوي الطويلة العريضــة في العشق مع اللّه تعالى، والوصال المغني عن الأعمـال الظـاهرة، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا وقلنـا كـذا، ويتشبهون فيـه بالحسـين بن منصـور الحلاج الـذي صـلب لأجـل إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقولـه: أنـا الحـق. وبما حكى عن أبي يزيد البسطامي أنه قال: سبحانى سـبحانى، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعــة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوي، فان هـذا الكلام يسـتلذه الطبـع، إذ فيـه البطالـة من الأعمـال مـع تزكيـة النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا تعجـز الأغبيـاء عن دعـوى ذلك لأنفسهم، ولا عن تلقـف كلمـات مخبطـة مزخرفـة، ومهمـا أنكر عليهم ذلك لم يعجـزوا عن أن يقولـوا: هـذا إنكـار مصـدره العلم والجــدل، والعلم حجــاب، والجــدل عمــل النفس. وهــذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق. فهـذا ومثلـه مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره حــتى

1() ذكره الغزالي ووافق عليه، لكنا نرى أن ذلك لا يصح، وأنه مقدمة لمـا حصـل بعـد ذلك من التهتك والشطح وغيره، انظر: إحياء علوم الدين،14/119.

من نطــق بشــي ء منــه فقتلــه أفضــل في دين اللَّه من إحيــاء عشرة) [1]

ومثله تلك الكلمات غير المفهومة التي (لها ظواهر رائقــة، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بـل يصـدرها عن خبـط في عقلـه وتشـويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكـثر. وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقــدر على تفهيمهــا وإيرادهــا بعبـارة تـدل على ضـميره، لقلـة ممارسـته للعلم وعـدم تعلمـه طريق التعبـير عن المعـاني بالألفـاظ الرشـيقة، ولا فائـدة لهـذا الجنس من الكلام إلا أنــه يشــوش القلــوب ويــدهش العقــول، ويحير الأذهان، أو يحمـل على أن يفهم منهـا معـانى مـا أريـدت بها، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه) [2]

والأنس بالله مختلف عن هذا تماما، لأنه ينشـر في صـاحبه كل القيم الرفيعة الناتجة من شعوره بحضور الله، وهو الحضور الــذي يملــؤه بكــل المكــارم والآداب، وأولهــا الأدب مــع اللــه، بالإضافة إلى الأدب مع خلقه، والذي يدعوه إلى احترام أحوالهم ومقاماتهم وعدم خطابهم بما لا يفهمونه أوتطيقه عقولهم، وقـد قال رسول الله ﷺ: (ما حدّث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلّا كان فتنة عليهم) [3]

و قـال: (كلّمــوا النّــاس بمــا يعرفــون ودعــوا مــا ينكــرون، أتريدون أن يكذب اللَّه ورسوله؟)[4]

1() إحياء علوم الدين، 1/61.

2() إحياء علوم الدين، 1/62.

3() رواه العقيلي في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم.

4() رواه البخاري موقوفا على على ورفعه أبو منصور الديلمي في مسـند الفـردوس من طريق أبي نعيم.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ بعد هذا أن الأنس يبدأ من أول مراحل السير إلى الله تعالى، ذلك أن الله بفضله وكرمه يجعل السائرين إليه ممتلئين بالأنس، إما بالأوراد التي يرددونها، أو بالمعاني التي تخطر على بالهم حال الذكر، أو بغيرها من المعاني.. لكن الدرجة العظمى هي الأنس بالله.. وهي مرحلة تحتاج الكثير من التزكية.

ولهذا ترى الحكماء يصنفون دوافع الأنس بحسب المرتبة التي يكون فيها السالك، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (الأنس على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: الأنس بالشواهد، وهو استحلاء الذكر، والتغذي بالسماع، والوقوف على الإشارات.. والدرجة الثانية: الأنس بنور الكشف، وهو أنس شاخص عن الأنس الأول، تشوبه صولة الهيمان، ويضربه موج الفناء. وهذا الذي غلب قوماً على عقولهم، وسلب قوماً طاقة الاصطبار، وخل عنهم قيود العلم.. والدرجة الثالثة: أنس اضمحلال في شهود الحضرة، لا يعبَّر عن عينه، ولا يشار إلى حده، ولا يوقف على كنهه)[1]

وقال آخر: (أهل الأنس في الأنس على ثلاثة أحوال: فمنهم: من أنس بالذكر، واستوحش من الغفلة، وأنس بالطاعة، واستوحش من الذنب.. والحال الثاني من الأنس: فهو لعبد قد استأنس بالله، واستوحش مما سواه من العوارض والخواطر المشغلة.. والحال الثالث من الأنس: هو الذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس، كما ذكر عن بعض أهل المعرفة أنه قال: إن لله عباداً أوجدهم من الهيبة له ما أخذهم به عن الأنس بغيره)[2]

1() منازل السائرين، ص 69، 70.

2()اللُّمَع في التصوف، ص 65، 66.

الشوق إلى الله:

أما الشوق إلى الله ـ أيها المريد الصادق ـ فهو على خلاف الحال السابق؛ ذلك أن المشتاق يشعر بنوع من الغربة والبعد عن محبوبه، ولذلك يتلهف قلبه للقائه، ويتألم لذلك التلهف.

وهو لا يعني أن حاله أقل من حال من يشعر بالأنس بالله، ذلك أن لكل منهما دوافعه وثماره الخاصة.. فالأنس يدفع صاحبه إلى السكينة والطمأنينة، والشوق يدفعه إلى الحركة والمجاهدة.

ولذلك لا تلتفت لما ذكره بعضهم عندما ذكر له الشوق إلى الله، فقال: (إنما يشتاق إلى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته)

ذلك أن المشتاق قد يكون صاحب رتبة أرفع من صاحب الأنس، فـ (شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة، فيكون في حال الغيبوبة مشتاقا إلى اللقاء، ويكون في حال اللقاء والمشاهدة مشتاقا إلى زوائد ومبار من الحبيب وأفضاله) [1]

ولهذا ورد عن النبي ﷺ دعاء الله تعالى أن يرزقه الشوق إلى لقائه، قال ﷺ: (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، وأعوذ بك من ضراء مضرة، ومن فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهديين) [2]

---

(1) عوارف المعارف (ص: 568)

(2) رواه أحمد (30/265) والنسائي (رقم/1305)

وعن الإمام الصادق أنه قال: (المشتاق لا يشتهي طعاماً ولا شراباً، ولا يستطيب رقاداً ولا يأنس حميماً، ولا يأوي داراً، ولا يسكن عمراناً، ولا يلبس ثياباً، ولا يقر قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً، راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه، ويناجيه بلسان الشوق معبراً عما في سريرته، كما أخبر الله تعالى عن موسى في ميعاد ربه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: 84]، وفسر النبي ﷺ عن حاله: أنه ما أكل، ولا شرب، ولا نام، ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربه.. فإذا دخلت ميدان الشوق، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا، وودع جميع المألوفات، واصرفه عن سوى مشوقك ولتبين حياتك وموتك ... ومثل المشتاق مثل الغريق: ليس له همة إلا إخلاصه) [1]

ولذلك كان للشوق دور كبير في التزكية والترقية، بخلاف الأنس الذي يجعل صاحبه ساكنا هادئا مطمئنا راضيا بما هو فيه، وقد قال بعض الحكماء في ذلك: (الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق به ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات، وهو ناشئ عن المحبة، فإذا بلغه العبد استبطأ الموت شوقاً إلى ربه، وأخذ في التواجد والتطاير إلى حضرة قربه)[2]

ولهذا كان الشوق هو الحادي المحرك للسائر إلى الله في كل مراحل سيره، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (شوق العامة: هو إلى زخارف جنانه.. وشوق الخاصة: إلى نيل رضوانه.. وشوق خاصة الخاصة: إلى حضرة عيانه)[3]

1() مصباح الشريعة، ص: 196

2() رشيد الراشد، الدر المنظم في وجوب محبة السيد الأعظم، ص 74، 75.

3() أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 12.

وقال آخـر: (الشـوق على قسـمين: شـوق العـوام: للحـور والقصور.. وشوق الخواص: للشهود والحضور)

وقال آخر: (شوق العوام لنعيم الأشـباح، وشـوق الخـواص لنعيم الأرواح)[1]

وقال آخر: (المشتاقون على مراتب: مشتاق يسعى بقــدم الملامة على مركب المعذرة في وادي التوبة، مقصده القبـول.. وآخــر يسـعى بقــدم الاجتهــاد على مــركب الافتقــار في وادي الرغبــة، مقصــده النــوال.. وثـالث يسـعى بقـدم التهـذيب على مــركب الخشــوع في وادي الإشــفاق، مقصــده الأمــان.. ورابــع يســعى بقــدم الإخلاص على مــركب النجــاة في وادي الإنابــة، مقصـده الإكـرام.. وخـامس يسـعى بقـدم المحبـة على مـركب الشوق في وادي الهيمان، مقصده المحبوب)[2]

وقـال آخـر: (أهـل الشـوق في الشـوق على ثلاثـة أحـوال: فمنهم: من اشتاق إلى ما وعد اللـه تعـالى لأوليائـه من الثـواب والكرامة والفضل والرضـوان.. ومنهم: من اشـتاق إلى محبوبـه من شــدة محبتــه وتبرمــه ببقائــه شــوقاً إلى لقائه.. ومنهم: من شاهد قرب سيده أنه حاضر لا يغيب، فتنعم قلبه بذكره)[3]

وقال آخر: (الشوق وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: شوق العابد إلى الجنـة ليـأمن الخـائف ويفـرح الحـزين ويظفـر الأمل.. والدرجة الثانية: شوق إلى الله تعالى زرعه الحب الــذي نبت على حافات المنن، فعلق قلبه بصفاته المقدســة، فاشــتاق

1() أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 2 ص 281.

2() السهروردي، الرحيق المختوم، ص 163.

3() اللمع في التصوف، ص 64.

إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وأعلام فضله. وهذا الشوق تفثأه المبار، وتخالجه المسار، ويقاويه الاصطبار.. والدرجة الثالثة: نار أضرمها صفو المحبة فنغَّصت العيش، وسلبت السلوة، ولم يُنَهْنَهْهَا معزٍ دون اللقاء)[1]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تطهر أرض قلبك من كل الآفات التي تحول بينه وبين هذه المشاعر النبيلة.. فهي مشاعر ممتلئة بالسمو والقداسة والجمال، وهي وحدها من يجعلك تعيش السعادة الحقيقية في دنياك وأخراك.. بل هي التي تعجل بإدخالك الجنة في الدنيا قبل الآخرة.. فاسع لأن تكون من أهلها، واحذر من أن تكون كأولئك المخدولين الذين قصروا أنسهم بالتراب، وشوقهم للتراب...

..

....

1() منازل السائرين، ص 91، 92.

الرضا المطلق

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الرضا عن الله تعالى، وحقيقته، وعلاماته، ومجالاته، ودرجاته، وكيفية تحصيله، وسر كونه من منازل النفس المطمئنة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الرضا عن الله تعالى من المنازل الضرورية لأصحاب النفوس المطمئنة؛ فلا يمكن أن تطمئن نفس تعارض ربها، أو تختار ما لم يختر لها، أو تتمنى أن تكون على حال غير التي أنزلها فيها، أو تتعرض لامتحانات غير التي امتحنها بها.

ولذلك بين الله تعالى أن هذه المنزلة هي منزلة الصادقين مع ربهم، فلا يزال رضاهم بالله ورضاهم عنه رائد علاقتهم بربهم إلى يوم يلقونه، قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: 119]

وللآثار الحميدة التي يتركها الرضا في النفس، على خلاف تلك الآثار التي يتركها الجزع والاعتراض، نجد ارتباط كل الآيات التي تتحدث عن الرضوان المتبادل بين الله تعالى وعباده الصالحين، بالجنة؛ وكأنها تشير إلى أن الرضوان جنة أخرى من جنان الله، وهي جنة لا تختص بالآخرة، بل تعجل للمؤمنين في الدنيا.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: 8]

وقد علق عليها بعض الحكماء بقوله: (ثبت عند أرباب الألباب أن جملة الجنة بما فيها بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف والجنة مرغوب الشهوة، والرضوان صفة الحق وأي مناسبة بينهما)[1]

ويدل على هذا قوله تعالى، وهو يخاطب النفس المطمئنة التي لا تقبض انتزاعا ـ كما تقبض أرواح المتمردين على الله ـ وإنما تقبض بأمرها، بالرجوع إلى بارئها فتطير شوقا إليه، قال تعالى: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27 - 30]

ومثل ذلك قوله تعالى، وهو يخبر عن حزبه الذي اعتبر رضوانه فوق كل رضوان: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: 22]

وهكذا يقترن الرضا عن الله تعالى بالراحة والفرح في أحاديث رسول الله ﷺ، ومن ذلك قوله ﷺ: (إن اللّه بحكمته

1() مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (12/ـ 469)،، والفخر الرازي يخالف ــ بهذا ـ الأسلوب الجاف الذي يتعامل به المتكلمون عادة مع مثل هذه الأمور، وقد عقب على قوله هذا بقوله:(وهذا الكلام يشمئز منه طبع المتكلم الظاهري، ولكن كل ميسر لما خلق له)

وقد بين الغزالي علة إنكار بعض المتكلمين للرضى بقوله:(اعلم أنّ من قال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر؟ فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة، فأما إذا ثبت تصوّر الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى أنّ الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب)، الإحياء: 4/347.

وجلاله جعـل الـرَّوح[1] والفـرح في الرضـا واليقين وجعـل الهم والحزن في الشك والسخط)[2]

وأخـبر ﷺ أن هـذه المنزلـة الرفيعـة لا ينالهـا لفضـلها إلا العلماء بالله، الذين أداهم علمهم إلى الثقـة فيـه، وفي تـدبيره، فقـد روي أنـه ﷺ جـاءه بعض النـاس، فقـال: (مَنْ القـوم ؟).. قالوا: (مؤمنون يا رسول الله)، قـال: (مـا بلـغ من إيمـانكم ؟)، قالوا: (الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بالقضـاء)، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (حلمـاء.. علمـاء.. كـادوا من الفقـه أن يكونوا أنبياء، إن كنتم كما تصفون، فلا تبنـوا مـا لا تسـكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتّقوا الله الذي إليه ترجعون)[3]

وقال ﷺ: (طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان رزقه كفافا، ورضي به) [4]

وقال: (من رضي من اللَّه تعالى بالقليل من الـرزق رضـي اللَّه تعالى منه بالقليل من العمل) [5]

وقال: (إذا أحب اللَّه تعالى عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه)

وقال: (إذا كان يـوم القيامـة أنبت اللـه لطائقـة من أمـتي أجنحــة فيطــيرون من قبــورهم إلى الجنــان، يســرحون فيهــا ويتنعمـون كيـف شـاؤوا قـال: فتقـول لهم الملائكـة: هـل رأيتم

1() بفتح الراء أي الراحة وطيب النفس.

2() رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي.

3() بحار الأنوار: 68/153، والتمحيص.

4() رواه الترمذي.

5() رواه الكليني في الكافي ج 2 ص 137.

الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً فيقولون: هل جزتم الصراط فيقولون: ما رأينا الصراط فيقال لهم: رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً فتقول الملائكة: من أمة مَنْ أنتم؟ فيقولون مِنْ أمة محمد ﷺ فيقولون: نشدناكم الله، حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته فيقولون: وما هما؟ فيقولون كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير مما قسم الله لنا، فتقول الملائكة: يحقّ لكم هذا) [1]

وقال: (يا معشر الفقراء أعطوا اللَّه، الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا)

وفي الحديث القدسي، أنّ اللّه تعالى قال: (أنا اللّه لا إله إلّا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي ولم يشكر نعمائي فليتّخذ ربّا سواي) [2]

وفي رواية أخرى: (قدّرت المقادير ودبّرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضي فله الرّضا عنّي حتّى يلقاني، ومن سخط فله السخط منّي حتّى يلقاني)

وفي حديث آخر: (يقول اللّه عزّ وجلّ: خلقت الخير والشرّ فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلقته للشرّ وأجريت الشرّ على يديه، وويل ثمّ ويل لمن قال: لم وكيف) [3]

وقال: (من أحبّ أن يعلم ماله عند اللّه عزّ وجلّ فلينظر ما للَّه تعالى عنده فإنّ اللّه تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله

1() رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي.

2() رواه الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء

3() رواه ابن شاهين في شرح السنة، ورواه الكليني في الكافي ج 1 ص 154.

العبد من نفسه) [1]

وروي أنّ موسى عليه السّلام قال: يا ربّ دلّني على أمر فيه رضاك حتّى أعمله فأوحى اللّه تعالى إليه: رضاي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره، فقال: يا ربّ دلّني عليه؟ فقال: إنّ رضاي في رضاك بقضائي.

وروي في مناجاته عليه السّلام: أي ربّ أيّ خلقك أحبّ إليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمني، قال: فأيّ خلقك أنت عليه ساخط، قال: من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له كره قضائي.

وفي أخبار داود عليه السّلام: (ما لأوليائي والهمّ بالدّنيا إنّ الهمّ يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، يا داود إنّ محبّتي من أوليائي أن يكونوا روحانيّين لا يغتمّون) [2]

ويروى أن اللَّه تعالى أوحى إليه: (يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد. وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد) [3]

وسئل عيسى عليه السّلام: ما أفضل الأعمال؟ فقال: الرّضا عن اللّه والحبّ له.

وهكذا روي عن أئمة الهدى بيان فضل الرضا، وعظم مكانته، فقد روي من حكم الإمام علي في الترغيب فيه وبيان دوره في تحصيل الراحة والسكينة في الدنيا قبل الآخرة قوله:

1() رواه الحاكم

2() المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء (ص: 2758)

3() إحياء علوم الدين (ص: 2535)

(مَن رضيَ مِن الله بما قسم له استراح بدنه) (1)

وقال: (إرضَ تَستَرِح) (2)

وقال: (الرضا ينفي الحزن) (3)

وقال: (إنّ أهنأ الناس عيشاً مَن كان بما قسم اللهُ له راضياً) (4)

وقال: (نِعم الطاردُ للهَمّ الرضا بالقضاء) (5)..

وعن الإمام الصادق أنه قال: (إنّ الله بعدله وحكمته وعلمه، جعل الرَّوح والفرح في اليقين والرضا عن الله، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ، فارضوا عن الله وسلّموا لأمره)(6)

وقال: (الرضا بمكروه القضاء من أعلى درجات اليقين)(7)

وقال: (أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا) (8)

وقال: (مَنْ أراد أن يعرف كيف منزلته عند الله، فليعرف

1() الخصال:632

2() غرر الحكم:60

3() غرر الحكم: 31

4() عيون الحكم 58:6

5() غرر الحكم:320

6() بحار الأنوار: 68/152، والتمحيص.

7() بحار الأنوار: 68/152، والتمحيص.

8() الكافي 62:2

كيف منزلة الله عنده، فإنّ الله ينزّل العبد مثل مـا يـنزّل العبـد الله من نفسه)[1]

قال: (اعلموا أنّه لن يؤمن عبدٌ من عبيده حتّى يرضـى عن الله فيما صنع الله إليه وصنع به، على ما أحَبّ وكَرِه، ولن يصنع الله بمَن صبر ورضيَ عن الله إلاّ ما هو أهلُه وهو خـيرٌ لـه، ممّـا أحبّ وكرِه) [2]

وقال: (لقي الحسن بن علي عبد الله بن جعفر، فقال: (يـا عبد الله!.. كيف يكون المؤمن مؤمناً وهو يسخط قسَمْه ويحقّر منزلته والحاكم عليه الله، فأنا الضـامن لمن لا يهجس في قلبـه إلا الرضا أن يدعو الله فيُستجاب له)[3]

وهكذا اتفق جميع الحكماء على علو مرتبـة اليقين، وكونـه علامة على الإيمان الحقيقي، وقد قال بعضهم معـبرا عن ذلـك: (الرضـا: هـو ثمـرة من ثمـار المحبـة، وهـو من أعلى مقـام المقربين..فهـو سـبب دوام النظـر، فـإنهم رأوه، غايـة الغايـات، وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر)[4]

وقال آخر: (الرضا هو نهاية المقامات وبداية الأحوال، وهذا محـل أحـد طرفيـه الكسـب والاجتهـاد، وطرفـه الآخـر المحبـة وغليانهـا، وليس فـوق ذلـك مقـام، وتنتهي المجاهـدة عنـدها. فبدايتها في المكاسب، ونهايتها في المواهب)[5]

1() بحار الأنوار: 68/156، وعدة الداعي ص106.

2() بحار الأنوار 217:78 / ح 93 ـ عن: الكافي

3() بحار الأنوار: 68/159، ومشكاة الأنوار ص34.

4() إحياء علوم الدين، ج 4 ص 317.

5() د. قاسم غني، تاريخ التصوف في الإسلام، ص 450.

وقال آخر: (الرضا: اسم للوقوف الصادق، حيث ما وقف العبد، لا يلتمس متقدماً، ولا متأخراً، ولا يستزيد مزيداً، ولا يستبدل حالاً، وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص، وأشقها على العامة)[1]

أما حقيقة الرضا التي سألت عنها، فهي ما عبر عنه بعض الصالحين بقوله: (لا يبلغ العبد إلى مقام الرضا حتى يقيم نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به، يقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت)[2].

وقال آخر: (الرضا: هو سكون القلب إلى أحكامه، وموافقة القلب بما رضى الله واختاره)[3]

وقال آخر: (الرضا أن يكون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله تعالى)[4].

وقال آخر: (الرضا: هو أن تحسن أحكامه عندك حتى تكون كالحجر)[5].

وقال آخر: (ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا: أن لا تعترض على الحكم والقضاء)[6].

وقال آخر: (الرضا: هو سكون القلب إلى الحكيم، وترك

1() عبد الله الهروي، منازل السائرين، ص 51.

2() نجم الدين داية الرازي، منار السائرين ومطار الطائرين، ص 136، بتصرف.

3() القشيري، الرسالة القشيرية، ص 152.

4() اللمع في التصوف، ص 53.

5() أبو طالب المكي، علم القلوب، ص 230.

6() الغنية لطالبي طريق الحق، ج 1 ص 617.

الاختيـار مـع التسـليم، ولا شـيء أشـد على النفس من الرضـا بالقضــاء؛ لأن الرضــا بالقضــاء يكــون إلى خلاف رضــا النفس وهواها)[1]

وقال آخر: (الرضا: هو تلقي النفس لما يأتي به القــدر من الحوادث الجرمانية على وجـه لا يتـألم بوقوعـه، بـل مـع ابتهـاج لطيف نظراً إلى العلة السابقة العجيبة)[2]

وقال آخـر: (الرضـا: سـكون القلب تحت مجـاري الأقـدار، بنفي التفرقة حالاً، وعلم التوحيد جمعاً، فيشهد القـدرة بالقـادر، والأمر بالآمر، وذلك يلزمه في كل حال من الأحوال)[3]

أما مجالات الرضا؛ فقد تبين لك من خلال هـذه التعريفـات أنه شامل لكل ما جاء عن الله تشريعا كان أم قضــاء، فلا فــرق بينهما؛ فكلاهما مقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

وقــد قــال تعــالى عن الأول، وهــو الرضــى عن شــريعته، وأحكامها، وتكاليفها: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَــى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُـونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: 36]

وقال عن الثاني، وهـو التسـليم بربوبيـة اللـه على عبـاده، وحاكميته وتدبيره لهم: ﴿ قُلْ أَغَيْـرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّـاً وَهُـوَ رَبُّ كُـلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:164)

وقـال في أول السـورة: ﴿قُـلْ أَغَيْـرَ اللَّهِ أَتَّخِـذُ وَلِيّاً فَـاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ

1() أحمد الرفاعي،حالة أهل الحقيقة مع الله، ص 177

2() سليمان سليم علم الدين، التصوف الإسلامي، ص 209.

3()بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، ص 379.

أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام:14)

وقد جمع هذه المعاني بعض الحكماء، فقال: (الرضا بالحق، والرضا له، والرضا عنه.. فالرضا به: مدبراً ومختاراً.. والرضا عنه: قاسماً ومعطياً.. والرضا له: إلهاً ورباً)[1]

وقال آخر: (الرضا على قسمين: رضا به، ورضا عنه.. فالرضا به: مُدَبِّراً، والرضا عنه: فيما يقتضي حاكماً وفاصلاً)[2]

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ بعد هذا أن تقع فيما وقع فيه بعض من أعرض عن النصوص المقدسة، وأئمة الهدى؛ فراح يضع للرضا مجالات لا تتفق مع العقل، ولا مع الفطرة، ولا مع عدالة الله، ولا مع رحمته، ولا مع التزكية السليمة وفق السراط المستقيم.

ومن الأمثلة على ذلك قوله بعضهم: (الرضا: هو أن لا تسأل الله الجنة، ولا تعوذ به من النار)[3]

فهذا مخالف للنصوص المقدسة الكثيرة الدالة على أن المؤمنين يطلبون من الله تعالى الجنة، وبإلحاح شديد، ومنها قوله ﷺ في الدعاء المشهور، والذي كان يعلمه لأصحابه: (اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم، اللهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما عاذ به عبدك ونبيك، اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته

1() نجم الدين داية الرازي، منار السائرين ومطار الطائرين، ص 75.

2() الغنية لطالبي طريق الحق، ج 2 ص 617.

3() جامع الأصول في الأولياء، ج 2 ص 326.

لي خيرا) [1]

ومثل ذلك قول بعضهم في تعريف الرضا: (الرضا عن الله: هو إذا ابتلاه في بدنه لم يحب العافية، فإن عافاه لم يحب أن ينقله حتى يكون هو الذي يحوله، وإن أغناه لم يحب أن يفقره، وإن فقره لم يحب أن يغنيه وأن يرضى ما يرضاه ويهوى ما يهواه)[2]

فهذا كله مخالف للفطرة السليمة، والتي تحب العافية، وتسأل الله أن يرزقها إياها، ولكنها لا تعترض عليه إن أنزل بها البلاء.. وفرق كبير بين الأمرين، وقد كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك من أن أغتال من تحتي) [3]

وروي أن بعض أصحابه سأله، فقال: يا رسول الله، علمني شيئا أسأله الله عز وجل، فقال: (سل الله العافية)، ثم مكث أياما، ثم سأله نفس السؤال، فقال ﷺ: (سل الله، العافية في الدنيا والآخرة) [4]

1() رواه ابن ماجه (3846)

2() أبو عبد الرحمن السلمي، المقدمة في التصوف وحقيقته، ص 37.

3() البخاري في الأدب المفرد (1200)، وأبو داود (5074)، والنسائي في المجتبى (8/ 282)

4() الترمذي (3514)

وقال ﷺ: (اسألوا الله العفو والعافيـة، فـإن أحـدا لم يعـط بعد اليقين خيرا من العافية)[5]

وقال: (ما من دعوة أحب إلى الله أن يـدعوه بهـا عبـدٌ من أن يقول: اللهم إني أسألك المعافاة أو قـال: العافيـة في الـدنيا والآخرة) [2]

والأخطر من ذلـك كلـه مـا ادعـاه بعضـهم من أن الرضـى يقتضي ترك الدعاء، وعدم إنكار المنكر، وهذا مخالف للنصـوص المقدسة.

أما الدعاء، فكثرة دعوات رسول اللَّه ﷺ وأئمة الهــدى من بعـده تـدل عليـه، وقـد أثـنى اللَّه تعـالى على عبـاده الصـالحين بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: 90]

وأمـا إنكـار المعاصـي وكراهتهـا، وعـدم الرضـا بهـا، فمن أوجب الواجبات، بل إن الله تعالى ذم الراضين عن المعاصي أو أسبابها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَاطْمَـأَنُّوا بِهَـا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَـا غَـافِلُونَ (7) أُولَئِكَ مَـأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 7، 8]

وقال عن المخلفين: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِـعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من شهد منكـرا فرضي به فكأنه قد فعله)، وقال: (الدال على الشر كفاعله) [3]

أما ما سألت عنه من درجـات الرضـا، فهي ــ أيهـا المريـد

5() الترمذي (3558

2() المعجم الكبير (346)

3() أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس

الصـادق ــ أكـثر من أن تعـد أو تحصـى، لأنهـا تختلـف بـاختلاف درجات السالكين، وهي لا نهاية لها.

وقد ذكر بعضهم مجامعها، فقال: (الرضا على ثلاثة أقسـام هي: رضا العام بدين الله، وهو موافقة في الدين.. رضا الخـاص بثواب الله، وهو أن يعمل لوجه الله رجـاء ثوابـه.. رضـا الأخص، وهو الله بالله)[1]

وقال آخر: (الرضا قسمان: قسم: يكون لكل مكلـف، وهـو ما لا بد منه في الإيمان، وحقيقته: قبـول مـا يـرد من قبـل اللـه تعالى من غير اعتراض على حكمه وتقـديره.. وقسـم: لا يكـون إلا لأربـــاب المقامـــات. وحقيقتـــه: ابتهـــاج القلب، وســـروره بالمقضي)[2]

وقـال آخـر: (أهـل الرضـا في الرضـا على ثلاثـة أحـوال: فمنهم: من عمل في إسقاط الجزع، حتى يكـون قلبـه مسـتوياً لله تعالى فيما جرى عليه من حكم اللـه من المكـاره والشـدائد والراحات والمنع والعطـاء.. ومنهم: من ذهب عن رؤيـة رضـائه عن الله تعـالى برؤيـة رضـا اللـه عنـه.. ومنهم: من جـاوز هـذا، وذهب عن رؤية رضا الله عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا)[3]

وقال آخر: (الرضا على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: رضـا العامة: وهو الرضا بالله رباً بسخط عبادة ما دونـه، وهـذا قطب رحى الإسلام، وهو يطهر من الشرك الأكـبر، وهـذا يصـح بثلاثـة شـرائط: أن يكـون اللـه تعـالى أحب الأشـياء إلى العبـد، وأولى

1() جامع الأصول في الأولياء، ج 1 ص 200، 201.

2() أبهى القلائد في تلخيص أنفس الفوائد، ص 56.

3() اللمع في التصوف، ص 54.

الأشـياء بـالتعظيم، وأحـق الأشـياء بالطاعـة.. والدرجـة الثانيـة: الرضا عن الله تعالى، وبهذا الرضى نطقت آيات التنــزيل، وهـو الرضـا عنـه في كـل مـا قضـى، وهـذا من أوائـل مسـالك أهـل الخصوص. ويصح بثلاثـة شـرائط: باسـتواء الحـالات عنـد العبـد، وبسـقوط الخصـومة مـع الخلـق، وبـالخلاص من المسـألة والإلحاح.. والدرجة الثالثـة: الرضـا برضـى اللـه، فلا يـرى العبـد لنفسـه سـخطاً، ولا رضـا، فيبعثـه على تـرك التحكم، وحسـن الاختيار، وإسقاط التمييز ولو أدخل النار)[1]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن ترقى بنفسك إلى هـذه المرتبـة الرفيعـة، فلا يمكن أن تصحح علاقتك بالله من دون أن تكـون من الراضـين عنـه، وقـد قال بعضهم يوماً عند بعض الصالحين: اللهم ارض عني، فقـال لـه: أما تستحي من الله أن تسأله الرضا، وأنت عنه غير راض؟ فقـال: أستغفر الله، فقيل له: فمتى يكـون العبـد راضـياً عن اللـه تعـالى؟ قال: (إذا لم يعترض عن الله في أي قضاء نزل به)

ويروى عن بعض العباد أنه قـال: إني أذنبت ذنبـاً عظيمـاً، فأنا أبكي عليه منذ سـتين سـنة ــ وكـان قـد اجتهـد في العبـادة لأجل التوبة من الذنب ـ فقيـل لـه: ومـا هـو؟ قـال: (قلت مـرة لشيء كان، ليته لم يكن)

1() منازل السائرين، ص 51، 52.

التسليم والاستسلام

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن التسليم والاستسلام الذي وصف الله تعالى به عباده الصالحين، والمعارف المرتبطة به، والرياضات المؤدية إليه.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن التسليم والاستسلام لله تعالى من أعلى الدرجات العملية للإيمان، والحقائق المقدسة المرتبطة به.. ذلك أنه يستحيل على من عرف الله وعظمته وعلمه وقدرته ورحمته ولطفه بعباده ألا يسلم له تسليما مطلقا، وفي كل شيء.

ولذلك، لم يجادل إبراهيم عليه السلام ربه عندما أُمر بذبح ابنه، لأنه يعلم أن رحمة الله تعالى تأبى أن تأمر بأمر ليس فيه مصلحة، ولا فيه رحمة ولطف، ولذلك سارع إلى التنفيذ، ومن دون أي تردد، مثلما يسارع أحدنا لاستعمال الحمية أو الدواء الذي يصفه الطبيب الخبير، ولو لم يشرح لنا سره.

وهكذا فعل إسماعيل عليه السلام، فهو ــ لثقته العظمى بالله تعالى، وبنبوة أبيه ـ راح يأمره بأن ينفذ وعد الله تعالى، ومن دون أن يسأل عن سره ولا عن مقصده.

وقد وصف الله تعالى فعلهما بأنه تسليم، فقال: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 103]، ثم بين عاقبة ذلك التسليم، فقال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ

الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ [الصافات: 104 - 113]

فالله تعالى في هذه الآيات الكريمة بين أنه لم يكتف بأن يرسل الفداء العظيم لإبراهيم عليه السلام، وإنما أضاف إليه أولئك الأولاد المباركين، الذين جعلهم الله تعالى مكافأة على مسارعته لتنفيذ الأمر الإلهي.

وهكذا كان حاله عندما أرادوا حرقه؛ فقد روي أن جبريل عليه السلام قاله له حينها: هل لك من حاجة ؟.. فقال: أمّا إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل، فجاءه ميكائيل فقال: إن أردت أخمدت النار، فإنّ خزائن الأمطار والمياه بيدي، فقال: لا أريد.. وأتاه ملك الريح، فقال: لو شئت طيّرت النار، قال: لا أريد، فقال جبريل عليه السلام: فاسأل الله.. فقال: (حسبي من سؤالي علمه بحالي)(1)

وقد ورد في الرواية عن الإمام الباقر أنه قال: (مرضت مرضا شديدا فقال لي أبي: ما تشتهي؟ فقلت: أشتهي أن أكون ممن لا اقترح على الله ربي سوى ما يدبره لي، فقال لي: أحسنت، ضاهيت إبراهيم الخليل صلوات الله عليه حيث قال له جبرائيل: هل من حاجة؟ فقال: لا أقترح على ربي، بل حسبي الله ونعم الوكيل) (2)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن الطريق الذي يجعلك تسلم لله تعالى تسليما مطلقا هو معرفتك به، ويقينك برحمته ولطفه وكرمه وكل الصفات الدالة على إحسانه، والتي أثبتها الواقع، ودل عليها.

---

(1) بحار الأنوار: 68/156، وبيان التنزيل.

(2) دعوات الراوندي 168، والمستدرك 1/ 95.

ومن الأمثلة القرآنية على ذلك ما ذكره الله تعالى عن نوح عليه السلام، وكيف أمره الله تعالى ببناء سفينة في البر، وكيف سارع نوح عليه السلام لتنفيذ الأمر الإلهي، وقد كان في ذلك نجاته مع المؤمنين به، على الرغم من سخرية قومه منه، قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: 38، 39]

وقد روي عن الإمام الصادق في تفسير قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42]: (لم يفزع يوسف عليه السلام في حاله إلى الله فيدعوه؛ فأوحى الله إلى يوسف في ساعته تلك: (يا يوسف.. من أراك الرؤيا التي رأيتها؟).. فقال: (أنت يا ربي).. قال: فمن حبّبك إلى أبيك؟).. قال: (أنت يا رب).. قال: (فمن وجّه السيارة إليك؟).. قال: (أنت يا رب).. قال: (فمن علّمك الدعاء الذي دعوت به حتى جعل لك من الجب فرجاً؟).. قال: (أنت يا رب).. قال: (فمن جعل لك من كيد المرأة مخرجاً؟).. قال: (أنت يا رب).. قال: (فمن انطق لسان الصبي بعذرك؟).. قال: (أنت يا رب).. قال: (فمن صرف كيد امرأة العزيز والنسوة؟).. قال: (أنت يا رب).. قال: (فمن ألهمك تأويل الرؤيا؟).. قال: (أنت يا رب).. قال: (فكيف استعنت بغيري ولم تستعن بي؟.. وتسألني أن أخرجك من السجن، واستعنت وأمّلت عبداً من عبادي ليذكر إلى مخلوق من خلقي في قبضتي ولم تفزع إليّ، البثْ في السجن بذنبك بضع سنين بإرسالك عبداً إلى عبد)[1]

1() تفسير العياشي 2/176.

وما ذكره الإمام الصادق عن يوسف عليه السلام لا يتنافى مـع عصـمته، بـل يـدل على تربيـة اللـه تعـالى لأنبيائـه عليهم السلام، ليرتقي بهم في المراتب المستحقة لهم، والتي تجعلهم لا يلجؤون إلى الله، ذلك أن ما قام به شيء عادي ومقبـول من عوام الناس، لكنه يتنافى مع الكمال المخصص للأنبياء.

ومن الأمثلة المقاربة ذلك ما روي عن الإمـام السـجاد أنـه قال يحدث عن نفسـه: (خـرجت حـتى انتهيت إلى هـذا الحائـط فاتكأت عليـه، فـإذا رجـل عليـه ثوبـان أبيضـان ينظـر في تجـاه وجهي، ثم قـال: (يـا علي بن الحسـين.. مـا لي أراك كئيبـا حزينا؟..أعلى الدنيا؟!..فرزق الله حاضـر للـبرّ والفـاجر)، قلت: (ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقـول)، قـال: (فعلى الآخـرة؟!.. فوعدٌ صادق يحكم فيه ملك قاهر)، قلت: (مـا على هـذا أحـزن، وإنه لكما تقول)، فقال: (مما حزنك؟)..قلت: (ممـا يُتخـوف من الفتنـة، ومـا فيـه النـاس)، فضـحك، ثم قـال: (يـا علي بن الحسـين!..هـل رأيت أحـدا دعـا اللـه فلم يجبـه؟).. قلت: (لا)، قال: (فهل رأيت أحدا توكل على الله فلم يكفـه؟).. قلت: (لا)، قال: (فهل رأيت أحدا سـأل اللـه فلم يعطيـه؟).. قلت: (لا)، ثم غاب عني)[1]

ويروي الإمام الصادق عن داود عليه السلام أن الله تعـالى أوحى إليه: (ما اعتصم بي عبـد من عبـادي دون أحـد من خلقي عرفت ذلك من نيّته ثمّ تكيده السماوات والأرض ومن فيهنّ، إلاّ جعلت له المخرج من بينهنّ، وما اعتصـم عبـد من عبـادي بأحـد من خلقي عرفت ذلـك من نيّتـه، إلاّ قطعت أسـباب السـماوات من يديه وأسخت الأرض من تحته، ولم أبال بأيّ واد هلك)[2]

1() الكافي 2/63.

2()الكافي 2/63.

ويروى عن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه: (يا بنيّ.. ثق بالله عزّ وجلّ، ثم سل في الناس: هل من أحد وثق بالله فلم ينجه؟.. يا بنيّ..توكل على الله، ثم سل في الناس: من ذا الذي توكل على الله فلم يكفه؟.. يا بني.. أحسن الظن بالله ثم سل في الناس: من ذا الذي أحسن الظن بالله فلم يكن عند حُسْن ظنّه به)(1)

ومن أحاديث الإمام علي عنه قوله: (كان فيما وعظ به لقمان ابنه أن قال له: (يا بنيّ.. ليعتبر من قصُر يقينه، وضَعُفت نيّته في طلب الرزق، أنّ الله تبارك وتعالى خلقه في ثلاثة أحوال من أمره وآتاه رزقه، ولم يكن له في واحدة منها كسبٌ ولا حيلة أنّ الله تبارك وتعالى سيرزقه في الحال الرابعة.. أمّا أوّل ذلك فإنّه كان في رحم أمه، يرزقه هناك في قرار مكين، حيث لا يؤذيه حرّ ولا برد، ثمّ أخرجه من ذلك وأجرى رزقاً من لبن أمّه يكفيه به ويربّيه وينعشه من غير حول به ولا قوة، ثمّ فُطِم من ذلك فأجرى له رزقاً من كسب أبويه برأفة ورحمة له من قلوبهما لا يملكان غير ذلك، حتى أنّهما يؤثرانه على أنفسهما في أحوال كثيرة، حتى إذا كبر وعقل واكتسب لنفسه ضاق به أمره، وظنّ الظّنون بربّه، وجحد الحقوق في ماله، وقتّر على نفسه وعياله، مخافة إقتار رزقه، وسوء يقين بالخَلَف من الله تبارك وتعالى في العاجل والآجل، فبئس العبد هذا يا بنيّ !.)(2)

ويذكر الإمام الصادق أنه مما أوحى الله تعالى به لبعض أنبيائه: (وعزّتي وجلالي ومجدي.. لأقطعنّ أمل كلّ مؤمّل من الناس أمّل غيري باليأس، ولأكسونّه ثوب المذلّة عند الناس، ولأنحيّنّه من قربي، ولأبعّدنّه من وصلي.. أيؤمّل غيري في

1() بحار الأنوار: 68/156، وكنز الكراجكي.

2() الخصال 1/60.

الشدائد والشدائد بيدي، ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غـيري، وبيــدي مفــاتيح الأبــواب وهي مغلقــة، وبــابي مفتــوح لمن دعاني..فمن ذا الّذي أمّلـني لنوائبـه فقطعتـه دونهـا؟!..ومن ذا الّذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاه منّي؟!.. جعلت آمال عبادي عندي محفوظـة فلم يرضـوا بحفظي، وملأت سـماواتي ممّن لا يمـلّ من تسـبيحي، وأمـرتهم أن لا يغلقـوا الأبـواب بيـني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي، ألم يعلم من طرقتـه نائبـة من نوائـبي أنّه لا يملـك كشـفها أحـد غـيري إلاّ من بعـد إذني، فمـا لي أراه لاهياً عنّي؟!.. أعطيته بجـودي مـا لم يسـألني، ثمّ انتزعتـه عنـه فلم يسـألني ردّه وسـأل غـيري!.. أفـيراني أبـدأ بالعطايـا قبـل المسـألة، ثمّ أسـأل فلا أجيب سـائلي؟!.. أبخيـل أنـا فيبخّلـني عبدي؟!.. أو ليس الجود والكرم ليّ؟!..أو ليس العفـو والرحمـة بيـدي؟!..أوليس أنـا محـلّ الآمـال فمن يقطعهـا دوني؟!.. أفلا يخشى المؤمّلـون أن يؤمّلـوا غـيري؟!..فلـو أنّ أهـل سـماواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً ثمّ أعطيت كلّ واحد منهم مثل ما أمّل الجميع، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرّة، وكيف ينقص مُلْـك أنا قيّمـه؟!.. فيـا بؤسـاً للقـانطين من رحمـتي.. ويـا بؤسـاً لمن عصاني ولم يراقبني!.)(1)

وقال الإمام الباقر: (وقع مصحف في البحـر فوجـدوه وقـد ذهب مــا فيــه إلا هــذه الآيــة: ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِــيرُ الْأُمُــورُ﴾ [الشورى: 53] ﴾)(2)

فتأمــل ـــ أيهــا المريــد الصــادق ـــ في هــذه الحكايــات والروايات، فهي ليست للتسـلية، وإنمـا هي للعـبرة، ولتعريفـك بالحقائق الـتي تعينـك على التسـليم لربـك؛ فلا يفـوز في الـدنيا والآخرة إلا من سلم واستسلم له استسلاما مطلقا.

(1) الكافي 2/66.

(2) بحار الأنوار: 68/121، والكافي.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن لله تعالى في لطفة في تدبير الأمور من العجائب ما لا يمكن لعقلك أن يستوعبه، أو يحيط به.. ولذلك كان تسليمك لله مرتبطا بثقتك فيه.

وقد حكى الله تعالى عن الخضر عليه السلام، وكيف خرق السفينة، وقد كان ذلك في الظاهرة مصيبة لهم، لكنه كان في الحقيقة رحمة عظيمة بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: 79]

وهكذا ما حصل ليوسف عليه السلام، فقد كان في ظاهرة مصيبة، لكنه في باطنه كان يختزن رحمات كثيرة، ليس لأبيه فقط، وإنما لخلق كثير، ولهذا قال يوسف عليه السلام مخاطبا أباه بعد تلك الرحلة الطويلة: ﴿يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100]

وهكذا يمتلئ القرآن الكريم بذكر هذه المعاني المملوءة بالعبر، ومن أهم عبرها الثقة في الله تعالى وتدبيره، كما روي عن الإمام علي قوله: (كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإنّ موسى بن عمران عليه السلام خرج يقتبس لأهله ناراً، فكلّمه الله عزّ وجلّ فرجع نبياً، وخرجت ملكة سبأ فأسلمت مع سليمان عليه السلام، وخرج سحرة فرعون يطلبون العزّة لفرعون، فرجعوا مؤمنين)[1]

ولذلك كان الاعتراض على الله تعالى، وطلب اختبارات خاصة منه، دليلا على الجهل البالغ، فالله تعالى أعلم بعباده، ولذلك يختبر كل واحد منهم بما يتناسب معه، قال تعالى: ﴿أَلَا

1() أمالي الصدوق ص107.

يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الملك: 14]

وفي الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إنّ من عبـادي المؤمـنين لعبـاداً لا يصـلح لهم أمـر دينهم إلا بالفاقـة والمسـكنة، والسـقم في أبـدانهم، فـأبلوهم بالفاقـة والمسـكنة والسـقم، فيصـلح لهم عليـه أمـر دين عبـادي.. وإنّ من عبـادي المؤمـنين لمن يجتهـد في عبـادتي، فيقـوم من رقـاده ولذيـذ وساده، فيتهجد لي الليالي، فيُتعب نفسه في عبـادتي، فأضـربه بالنعاس الليلة والليلتين نظرا مني له وإبقـاء عليـه، فينـام حـتى يصبح فيقرأه وهو ماقت لنفسه، زارٍ عليها، ولو أُخلّي بينـه وبين ما يريد من عبادتي لدخله من ذلك العجب، فيصيره العجب إلى الفتنة بأعماله، فيأتيـه من ذلـك مـا فيـه هلاكـه لعجبـه بأعمالـه، ورضاه عن نفسه عند حدّ التقصير، فيتباعد مني عند ذلك، وهـو يظن أنـه يتقـرّب إليّ فلايتكـل العـاملون على أعمـالهم الـتي يعملونها لثوابي، فإنهم لواجتهدوا وأتعبوا أنفسـهم أعمـارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيمـا يطلبون عندي من كرامـتي، والنعيم في جنـاتي، ولكن برحمـتي فليثقـوا، ولفضـلي فلـيرجوا، وإلى حسـن الظن بي فليطمئنـوا، فإن رحمتي عند ذلك تداركهم، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي يلبسهم عفوي، فاني أنا الله الرحمن الرحيم بذلك تسميت)[1]

ولذلك لا تتعجب ـ أيها المريـد الصـادق ــ إن رأيت تخلـف بعض ما تطلبه من الله تعالى؛ فالله تعالى لم يحرمك طلبـك إلا لمصلحتك، أو ليعوضك بدل طلبك ما هو خير منه، وقـد ورد في الحديث عن الإمام الصادق أنه قال: (إن العبد الـولي للـه يـدعو في الأمر ينوبه فيقول الله للملـك الموكـل بـذلك الأمـر: (اقض لعبدي حاجته ولاتعجل فـاني أشـتهي أن أسـمع نـداءه وصـوته)، وإن العبد العدو لله ليـدعو اللـه في الأمـر ينوبـه فيقـال للملـك

1() بحار الأنوار: 68/151، والتمحيص.

الموكل به: (اقض حاجته وعجلها، فـإني أبغض أن أسـمع نـداءه وصوته)، فيقول النـاس: مـا أعطي هـذا حاجتـه وحـرم هـذا، إلا لكرامة هذا على الله وهوان هذا عليه) [1]

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ بعد كل هذا أن الله تعالى قد يختبرك ببعض ما لا يرضـيك، رحمـة بـك، فلـذلك لا تعـترض، ولا تنفـر، فهـو رحمـة من رحمـات اللـه، ولطـف من خفي ألطافـه سـاقه إليـك في ثـوب مـا تكـره ليمتحن عبوديتـك، ويملأ قلبـك بحسن الظن به، كما قال الشاعر:

رب أمر تتقيه   جر أمرا ترتضيه

خفي المحبوب منه   وبدا المكروه فيه

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَعَسَـى أَنْ تَكْرَهُـوا شَـيْئاً وَهُـوَ خَيْـرٌ لَكُمْ وَعَسَــى أَنْ تُحِبُّوا شَــيْئاً وَهُــوَ شَــرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:216)، وقـال: ﴿ فَـإِنْ كَرِهْتُمُـوهُنَّ فَعَسَـى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ (النساء: 19)

ولهذا قال ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خـير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سـراء شـكر وكـان خـير لـه إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[2]

وهكذا قال العبد الصالح الذي لم تغره مباهج جنة صــاحبه، بل قال في ثقة المؤمن: ﴿ عَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِـكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ (الكهـف: 40)

وقد قال بعض الصالحين في ذلك: (لا تعترض على الله؛ فـإن

1() بحار الأنوار (71/ 152)

2() رواه مسلم.

من ظن انفكـاك لطفــه عن قــدره، فــذلك لقصــور نظــره، فــإن العارفين يشهدون المنن في المحن، والعطايا في البلايا)

وقـال آخـر: (لا تعـترض.. فـإن من تمـام عبوديتـك أن تجـري عليــك مقــادير اللــه بأنواعهــا، وتهب عليــك ريــاح البلاء لتمتحن عبوديتك)

وقــال آخــر: (كيــف تعــترض، وأنت لن تــرقى في مقامــات العبودية إلا بهـذا الـذي تعـترض عليـه؟.. وكيـف تعـترض، وأنت لن تكون صابرا، ولا متوكلا ولا راضـيا ولا متضـرعا ولا مفتقــرا ولا ذليلا ولا خاضـعا إلا باسـتقبالك لمقـادير اللـه ببصـيرة الإيمـان؟.. وكيـف تعترض، وأنت تعلم أن رضاك عن ربك زرع لرضى ربـك عنـه، بـل رضاك عن ربك علامة على رضا ربك عنك، فلو لم يــرض عنـك لم ترض عنه)

وقال آخر: (لا تعترض.. فإن جميع مـا يحـدث في الكـون أثـر من آثـار أسـماء اللـه وصـفاته، وفيض من فيوضـات مشـيئة اللـه وحكمته، فإن لم ترض بمقادير الله خاصمت أسماء اللــه وصــفاته، وخاصمت الله بمخاصمتها؟)

وقال آخر: (لا تعترض.. فإن حكمه تعالى فيك ماض، وقضاؤه فيـك عـدل، كمـا أخـبرك الناصـح الأمين ﷺ في قولـه: (مـاض في حكمك عدل في قضـاؤك)[1].. وكيـف لـك أن تعـترض، وأنت تعلم أنه لا تبديل لكلماته ولا راد لحكمه، وأنه ما شاء اللـه كـان، ومـا لم يشـأ لم يكن.. وكيـف لـك أن تعـترض، وقـد علمت كمـال حكمتـه ورحمته ولطفه وحسن اختياره)

وقال آخر: (لا تعترض.. وسلم لربك، فقد فوضت أمرك إليــه، ومن ضرورات التفويض الرضى التام باختيارات المفـوض.. وكيـف

1() رواه أحمد والطبراني والحاكم.

لك أن تعترض، وأنت عبد محض، والعبد المحض لا يسخط جريـان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن، بل يتلقاها بالرضى به وعنه.. وكيف لك أن تعترض، وأنت تدعي محبته، والمحب الصادق من رضي بما يعامله به حبيبه)

وقال آخر: (لا تعترض.. فإنك باعتراضك تعبد الله على حرف، فتتلون كما تتلون رياح المقادير، والعبد الكامل ثابت على عبودية سيده، لا تزعزعه الرياح، ولا تجتثه عن غايته الأعاصير؟)

وقال آخر: (لا تعترض.. فإن أول معصية عصي الله بها في هذا العالم حصاد نبات الاعتراض، فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كونا من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم)

وقال آخر: (لا تعترض.. فإن اعتراضك عن اختيار الله لك ناشئ من جهلك بالله، وأنه كلما قويت معرفتك صرت كالريشة في مهب الرياح، تقلبها الرياح كما شاءت، فلا تعترض ولا تختار)

وقال آخر: (لا تعترض.. فإن من عرف أن البلايا من مولاه وسيده الذي هو أرحم به من والدته ووالده، كيف يبقى له بالألم إحساس؟ أم كيف لا يتلذذ به كما يتلذذ بالنعمة سائر الناس؟)

وقد أشار الشاعر إلى هذا المعنى، فقال:

وخفف عني ما ألاقي من العنا ... بأنك أنت المبتلي والمقدر

وما لامرئ عما قضى الله معدل ... وليس له منه الذي يتخير

وقال آخر: (ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي عودك حسن الاختيار)

وقـال آخـر: (لا تعـترض.. فـإن السـكون والهـدوء والرتابـة والعطالة نوع من العدم والضرر، وبعكسه الحركة والتبدل وجودٌ وخير، فالحياة تتكامل بالحركة، وتـترقى بالبلايـا، وتنـال حركـات مختلفة بتجليات الأسماء، وتتصفى وتتقوى وتنمـو وتتسـع، حـتى تكون قلماً متحركاً لكتابـة مقـدراتها، وتفى بوظائفهـا، وتسـتحق الأجر الأخروي)

هذا جوابي على سؤالك ـ أيها المريد الصادق ـ فتأمل هـذه الحكم والدرر التي وردت في النصوص المقدسة، وشـرحها لـك أئمـة الهـدى، وورثتهم، فهي وحـدها من يملأ قلبـك بالاستسـلام لربك، والتسليم له في كل الشؤون، وفي جميع المجالات، وهـو وحــده من يملأ نفســك بالطمأنينــة، وقلبــك بالرضــا، وحياتــك بالســعادة؛ فلا يمكن أن تطمئن نفس تعــترض على ربهــا، أو تجادل في تدبيره ومشيئته...

....

التفويض والتوكل

كتبت إلي ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ تسـألني عن التفـويض والتوكل، ومنزلتهما، وحقيقتهما، وكيفية التحقـق بهمـا، ومـراتب ذلك ودرجاته.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن التفـويض والتوكـل من المنـازل الضـرورية للنفس المطمئنـة، والـتي لا يمكن أن تكون مطمئنة من دونها، ذلك أنهـا ترتبـط بتصـديق اللـه تعـالى فيما أخبر عبـاده عنـه من قيامـه بشـؤون خلقـه، ورحمتـه بهم، وتدبيره لأمورهم.

وكل ذلك يجعل النفس ممتلئة بالراحة لتـدبير اللـه تعـالى، ولذلك تكل كل شؤونها إليه رضى وثقـة بكونـه أدرى بمصـالحها منهـا.. وذلـك مـا يُطلـق عليـه التفـويض، وهـو (ألطـف إشـارة، وأوسع معنى من التّوكّل، فالتّوكّل يكون بعد وقوع السّـبب، أمّـا التّفويض فإنّه يكون قبـل وقـوع السّـبب وبعـده، والتّفـويض هـو عين الاستسلام، أمّا التّوكّل فهو شعبة منه)[1]

ويشير إلى ذلك قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعـون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَـادِ﴾ [غـافر: 44]، أي أن مــؤمن آل فرعــون بعــد أن أدى رسالته، تخلص من كل ألوان التدبير الـتي تـدعوه لإنقـاذ نفسـه من بطشه، وقد ذكر اللـه تعـالى عاقبـة ذلـك التفـويض، فقـال: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُـوءُ الْعَـذَابِ﴾ [غافر: 45]

ولهذا يعتبر الحكماء التفـويض أعلى درجـات التوكـل، كمـا

1() مدارج السالكين 2/، 143.

قال بعضهم معبرا عن ذلك: (التوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض؛ فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى.. والتوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية.. والتوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين.. فالتوكل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خواص الخواص)[1]

وقال آخر: (التوكل على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: التوكل مع الطلب، ومعاطاة السبب على نية شغل النفس ونفع الخلق وترك الدعوى.. والدرجة الثانية: التوكل مع إسقاط الطلب، وغض العين عن السبب اجتهاداً في تصحيح التوكل وقمع تشرف النفس وتفرغاً إلى حفظ الواجبات.. والدرجة الثالثة: التوكل مع معرفة التوكل النازعة إلى الخلاص من علة التوكل، وهو أن يعلم أن ملكية الحق تعالى للأشياء ملكية عزة لا يشاركه فيها مشارك فيكل شركته إليه، فإن من ضرورة العبودية أن يعلم العبد أن الحق هو مالك الأشياء وحده)[2]

وقال آخر: (التوكل ثلاث درجات: الدرجة الأولى أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل.. والثانية وهي أقوى: أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها.. والثالثة وهي أعلاها: أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل)[3]

1() القشيري، الرسالة القشيرية، ص 131، 132.

2() عبد الله الهروي، منازل السائرين، ص 44.

3() الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 4 ص 243.

وغيرها من مقـولاتهم الـتي تـدل على المـراتب المرتبطـة بكل منزلة من المنازل، وذلك بحسب الحالة الـتي تكـون عليهـا النفس المطمئنة.. وهي درجات لا نهاية لها.

وإياك ـ أيها المريد الصـادق ــ أن تكـون من الـذين حُجبـوا بالألفـاظ عن المعـاني، فتتـوهم أن هـذه الاصـطلاحات الـتي اُصـطلح عليهـا، والـتي أُعتـبر التوكـل بموجبهـا أدنى درجـة من التفـــويض والتســـليم، منطبقـــة على مـــا ورد في النصـــوص المقدسة، من الألفاظ، وتتوهم بذلك أن حال مؤمن آل فرعـون أفضل من حال غيره من الأنبياء والصالحين، لأنه ذكر التفويض، وهم ذكروا التوكل.

فلفظ التوكل يشمل الجميع، ذلـك أن التفـويض والتسـليم وغيرها من الألفاظ تدل على معنى واحد، وهو تسليم الأمر إلى الوكيل ثقة به وبتدبيره.

وقد وصـف اللـه تعـالى أفضـل عبـاده وأشـرفهم بـالتحقق بهذه المعاني السامية علما وعملا وحالا، وفي أصعب الظــروف وأشدها، والتي يُمتحن فيها التوكل الحقيقي الصادق.

ومن ذلك ما أخبر الله تعالى عنه من تحـدي الأنبيـاء عليهم السلام لأقـوامهم، فلم يبهـرهم مـا أعـد لهم من صـنوف الفتن، قال تعالى ذاكرا قول هود عليه السلام لقومه بعد تكـذيبهم لـه: ﴿إِنِّي أُشْـهِدُ اللَّهَ وَاشْـهَدُوا أَنِّي بَـرِيءٌ مِمَّا تُشْـرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِـرُونِ (55) إِنِّي تَـوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56)﴾ (هود)

وأخبر الله تعالى عن موقـف موسـى عليـه السـلام عنـدما وقع بين البحر وجيش فرعون، فقال بكـل هـدوء: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ

رَبِّي سَيَهْدِينِ (الشعراء: 62)، فموسى عليه السلام لم يثق في ذلك الموقف الحرج بنفسه، وقد أُعطي من المعجزات وخوارق العادات ما أعطي، وإنما كانت ثقته بتوكله على الذي يستطيع أن يجعله فوق الإمكانات البشرية.

ومثل ذلك أخبر عن رسول الله ﷺ والذين معه عند معاينتهم للأحزاب الذي تجمعوا لحربهم: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إلاَّ إيْماناً وَتَسْلِيماً﴾ (الأحزاب: 22)

وذكر موقفهم من تلك التهديدات التي كانت توجه لهم كل حين: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173)فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174)﴾ (آل عمران)

ولم يقتصر الأمر في النصوص المقدسة على الثناء على المتوكلين، وإنما ورد الأمر به، باعتباره شعيرة من الشعائر التعبدية الباطنية التي لا تختلف في وجوبها عن الشعائر التعبدية الظاهرية.

ويدل على ذلك الوجوب قوله تعالى:﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: 159)

ومثلها تلك النصوص التي تخاطب رسول الله ﷺ باللجوء إلى الله في كل حين؛ فالمراد منها جميع الأمة، لا شخص رسول الله ﷺ فقط، ومنها قوله تعالى:﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: 51)، وقوله:﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: 129)

وهكـــذا ورد في الســـنة المطهـــرة الحث والـــترغيب في التوكـل، ومن تلـك الترغيبـات العظيمـة إخبـاره ﷺ عن إعفـاء المتوكلين من الحساب يـوم القيامـة، لـدور التوكـل في تطهـير صحائفهم من الـذنوب بأنواعهـا، قـال ﷺ: (عرضـت علي الأمم، فرأيت النـبي ومعـه الرهيـط، والنـبي ومعـه الرجـل والـرجلان، والنـبي وليس معـه أحـدٌ إذ رفـع لي سـوادٌ عظيمٌ فظننت أنهم أمـتي، فقيـل لي: هـذا موسـى وقومـه ولكن انظـر إلى الأفـق، فنظرت فإذا سـوادٌ عظيمٌ، فقيـل لي: انظـر إلى الأفـق الآخـر، فإذا سـوادٌ عظيمٌ، فقيـل لي: هـذه أمتـك، ومعهم سـبعون ألفـاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عـذابٍ)، ثم ذكـر سـبب دخـولهم الجنة بغير حساب، فقـال: (هم الـذين لا يرقـون، ولا يسـترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون) [1]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن تحصـيل التوكـــل ليس شـــديدا، ولا صـــعبا، بـــل هـــو يســـير لمن التمس أسبابه.. ذلك أنـه لا يحتـاج سـوى ترسـيخ الثقـة في اللـه، وفي علمه وقدرتـه وفضـله وكرمـه، ممـا يملأ النفس سـكونا وراحـة وطمأنينة لمقـاديره، وكـل ذلـك ممـا يجعـل سـلوكها ومواقفهـا منسجمة مع تلك المعارف والأحوال.

التوكل والمعرفة:

أما الركن الأول الذي يقوم عليه التوكل، ولا يمكن تحصيله من دونه؛ فواضح للعقول، ذلك أنها لا تكل أمورها عـادة إلا لمن تثـق فيهم، وفي قـدراتهم.. ولـذلك إن عمقت النفس معرفتهـا باللـه، بالتأمـل والتفكـير والنظـر، وصـلت إلى المعـارف الـتي تملؤها ثقة به، وبتدبيره، وحينها تسلم أمورها إليه.

ومما يعينك على ذلك ـ أيها المريد الصادق ــ ترديـدك لمـا

1() رواه البخاري ومسلم.

ورد في السنة المطهرة من أذكار وأدعية؛ فهي مليئة بالمعـاني الراقيـة الـتي تفيـدك في التأمـل، وترسـخ فيـك معـنى التوكـل والتسليم والتفويض لله.

وقد ورد في السنة المطهرة الكثيرة منها، ولعـل أيسـرها، وأسهلها ما دعا إليه رسول الله ﷺ بقوله لبعض أصحابه:(ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله)[1]

وهذا الكنز من كنوز الجنة هو ما يشير إليه قوله تعالى في حوار المؤمن مع صاحب الجنـتين:﴿ وَلَـوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَـكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (الكهـف: 39) أي هلا إذا أعجبتـك جنتك حين دخلتها ونظـرت إليهـا حمـدت اللّـه على مـا أنعم بـه عليك، واعتبرته من مشيئة الله وقوته لا من مشـيئتك وقوتـك.. وفي هذا دليل على ما تكسبه هذه الكلمة من تواضـع في نفس قائلها وتأدبه مع ربه تعالى.

ومن الأذكار الواردة في السنة، والـتي يتـبرأ فيهـا المـؤمن من حولـه وقوتـه إلى حـول اللـه وقوتـه مـا ورد في دعـاء الاستخارة، فهو كله تفويض ورجـوع إلى اللـه، وتـبرؤ من حـول العبد وقوته إلى حول الله وقوته.

وقد روي أن رسول الله ﷺ كـان يعلم أصـحابه الاسـتخارة في الأمور كما يعلمهم السـورة من القـرآن، ويقـول ﷺ:(إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غـير الفريضـة ثم ليقـل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسـألك من فضـلك العظيم فإنك تقدر ولا أقـدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيـوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمـر ويسـميه باسـمه خـير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمـري فاقـدره لي ويسـره، ثم بـارك لي فيه، اللهم وإن كنت تعلمه شرا لي في ديني ومعاشـي وعاقبـة

1() رواه البخاري ومسلم.

أمري فاصرفني عنه، واصرفه عني واقـدر لي الخـير حيث كـان ثم رضني به)[1]

فكل الألفاظ الواردة في هذه الاستخارة تدل على تبرؤ العبـد من حوله وقوته إلى حول اللـه وقوتـه.. والاسـتخارة نفسـها دليـل على تفويض المؤمن أموره لله، استغناء بتدبيره واختياره.

ومثـل ذلـك مـا ورد في الأدعيـة الكثـيرة.. الـتي تـدل على الحقائق الإيمانيـة المثمـرة للتفـويض والتوكـل والـبراءة من حـول العبد وقوته إلى حول الله وقوته..

ففي دعـاء النـوم علمنـا رسـول اللـه ﷺ أن نقـول:(اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجـأت ظهـري إليـك رغبة ورهبة إليك لا ملجـأ ولا منجى منـك إلا إليـك آمنت بكتابـك الذي أنزلت ونبيك الـذي أرسـلت)[2]، وأخـبر أن من مـات على هذا مـات على الفطـرة، والفطـرة تعـني انسـجام الإنسـان مـع السـنن الإلهيـة، كمـا قـال تعـالى:﴿ فَـأَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ حَنِيفـاً فِطْـرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:30)

وكـان رسـول اللـه ﷺ إذا قـام إلى الصـلاة كـبر، ثم قـال: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْـرِكِينَ ﴾ [الأنعـام: 79]، ﴿ إِنَّ صَـلَاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَـايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَـرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَـا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: 162ـ، 163]، اللهم أنت الملـك لا إلـه إلا أنت، أنت ربي وأنـا عبـدك، ظلمتُ نفسـي واعـترفتُ بـذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًـا، إنـه لا يغفـر الـذنوب إلا أنت، واهـدِني

1() رواه البخاري.

2() رواه البخاري ومسلم.

لأحسنِ الأخلاق لا يَهدي لأحسنِها إلا أنت، واصرِفْ عـني سـيِّئَها، لا يصرف عني سـيِّئَها إلا أنت، لبَّيـك وسَـعْدَيك، والخـير كلُّه في يـديك، والشـر ليس إليـك، أنـا بـك وإليـك، تبـاركت وتعـاليت، أستغفرك وأتوب إليك)[1]

و كان إذا خرج من بيته قال: (بسم الله، توكلت على اللـه، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي)[2]

وغيرها من الأذكار والأدعية الكثيرة التي يـؤدي الاسـتمرار في ترديدها والتأمل فيها إلى ترسيخ معارف التفـويض والتوكـل في النفس.

ومثل ذلك ما ورد من أدعية عن أئمة الهدى الـذين أوصـى رسول الله ﷺ باتباع سننهم، فهي مملـوءة بنفس تلـك المعـاني القرآنية والنبوية.. وهي امتداد لها، وتأكيـد وتفصـيل للكثـير ممـا ورد فيها.

ومنها ما ورد من أدعية عن الإمام الحسين، فقد كان يقول في دعاء القنوت: (اللهم منك البدء ولـك المشـية، ولـك الحـول ولك القوة، وأنت الله الذي لا إله إلا أنت، جعلت قلوب أوليائـك مسـكنا لمشـيتك، ومكمنـا لارادتـك، وجعلت عقـولهم مناصـب أوامرك ونواهيك، فأنت إذا شئت ما تشاء حركت من أسـرارهم كوامن مـا أبطنت فيهم، وأبـدأت من إرادتـك على ألسـنتهم مـا أفهمتهم بـه عنـك في عقـودهم بعقـول تـدعوك وتـدعو إليـك بحقــائق مــا منحتهم بــه، وإنى لأعلم ممــا علمتــني ممــا أنت المشكور على ما منه أريتني، وإليه آويتنى. اللهم وإني مع ذلـك

1() رواه مسلم وغيره.

2() رواه أبو داود، والترمذي وغيرهما.

كله عائذ بك، لائذ بحولك وقوتك، راض بحكمك الذى سـقته إلى في علمك، جار بحيث أجريتني، قاصـد مـا أممتـني، غـير ضـنين بنفسي فيما يرضيك عنى إذبه قد رضيتني، ولاقاصر بجهدي عما إليـه نـدبتنى، مسـارع لمـا عرفتـني، شـارع فيمـا أشـرعتني، مستبصـر في مـا بصـرتني، مـراع مـا أرعيتـني، فلا تخلـني من رعايتـك، ولا تخرجـني من عنايتـك، ولا تقعـدني عن حولـك، ولا تخرجـني عن مقصـد أنـال بـه إرادتـك، واجعـل على البصـيرة مدرجتي، وعلى الهداية محجتي، وعلى الرشـاد مسـلكي، حـتى تنيلـني وتنيـل بي امنيـتي، وتحـل بي على مـا بـه أردتـني، ولـه خلقتني، وإليـه آويتـني، وأعـذ أوليـاءك من الإفتتـان بي، وفتنهم برحمتـك لرحمتـك في نعمتـك تفـتين الاجتبـاء، والاسـتخلاص بسلوك طريقتي، واتباع منهجي، وألحقني بالصـالحين من آبـائي وذوى رحمي)(1)

وكل كلمات هذا الدعاء ممتلئة بالتوكل على الله وتفــويض الأمر إليه، والشعور بأن الحاجات كلها لديه، وأن من وجده فقـد وجد كل شيء، ومن فقده فقد كل شيء، كما عبر عن ذلك في القطعة المنسوبة إليه في دعاء عرفة.

ونجد نفس هذه المعاني في دعـاء القنـوت الآخـر المـأثور عنه، والذي يقول فيه: (اللهم من أوى إلى مأوى فـانت مـأواي، ومن لجأ إلى ملجـأ فـأنت ملجـأى، اللهم صـل على محمـد وآل محمــد، واسـمع نـدائي، وأجب دعـائي، واجعـل مـآبي عنـدك ومثــواي، واحرســني في بلــواي من إفتنــان الامتحــان، ولمــة الشيطان، بعظمتـك الـتى لا يشـوبها ولـع نفس بتفـتين، ولاوارد طيف بتظنين، ولا يلم بها فرج حـتى تقلبـني إليـك بارادتـك غـير ظــنين ولا مظنــون، ولامــراب ولا مرتــاب، إنــك أنت أرحم

1() مهج الدعوات: 48، بحار الأنوار 85: 214.

الراحمين)(1)

ونجـد نفس هـذه المعـاني السـامية في قولـه في دعـاء الصباح والمسـاء المـأثور عنـه، والـذي يقـول فيـه: (بسـم اللـه الـرحمن الـرحيم بسـم اللـه وباللـه، ومن اللـه والى اللـه، وفي سبيل الله وعلى ملة رسول اللـه، وتـوكلت على اللـه، ولاحـول ولاقوة الا بالله العلى العظيم. اللهم انى اسـلمت نفسـي اليـك، ووجهت وجهي اليك، وفوضت امري اليـك، ايـاك اسـأل العافيـة من كل سوء في الدنيا والاخرة. اللهم انك تكفيني من كـل احـد ولا يكفينى احـد منـك، فـاكفني من كـل احـد مـا اخـاف واحـذر واجعل لي من امري فرجا ومخرجا، انـك تعلم ولا اعلم، وتقـدر ولا اقدر، وانت على كل شئ قدير، برحمتك يا ارحم الـراحمين)(2)

وغيرها من الأدعيـة والأذكـار الكثـيرة الـتي يكفيـك التأمـل فيها ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ في ترسـيخ معـارف التوكـل في نفسك، فلا يمكنك أن تتوكل على الله إلا بعد ترسخها وثبوتها.

التوكل والسلوك:

أما الركن الثـاني للتوكـل، فهـو السـلوك الـذي تـدعو إليـه المعرفة، وينسجم معها، وإياك أن تظن ـ أيها المريـد الصـادق ـ أن ذلـك السـلوك هـو مـا قـام بـه من تركـوا الأسـباب جملـة، وتوهموا أنهم من المتوكلين؛ فلا علاقة لذلك بالتوكل.

ولهذا ذم الله تعالى أولئك الذين كان بإمكانهم أن يخرجــوا من الحال التي وجدوا أنفسهم عليها، لكنهم قصروا أو أبوا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَـةُ ظَـالِمِي أَنْفُسِـهِمْ قَـالُوا فِيمَ

1() مهج الدعوات: 49، بحار الأنوار 85: 214.

2() مهج الدعوات: 157، بحار الأنوار 86: 313.

كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (النساء:97)

وهكذا يدعو الله تعالى عباده لاختيار البيئة المناسبة التي تساعدهم على أن يعيشوا حياتهم بصورة طبيعية، تمكنهم من عبادة ربهم، وأداء التكاليف التي كلفوا بها، قال تعالى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (العنكبوت:56)، وقال: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (الزمر:10)

وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ بعث سريّة إلى خثعم، فاعتصم ناس منهم بالسّجود فأسرع فيهم القتل، فبلغ ذلك النّبيّ ﷺ فقال: (أنا بريء من كلّ مسلم يقيم بين أظهر المشركين) [1]

ولهذا أيضا ورد في الحديث عدم استجابة الله تعالى لدعاء من قدر على أن يخرج من البلاء، لكنه لم يفعل، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن أصنافا من أمتي لا يستجاب لهم دعاؤهم: رجل يدعو على والديه، ورجل يدعو على غريم ذهب له بماله فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه، ورجل يدعو على امرأته وقد جعل الله عزّ وجلّ تخلية سبيلها بيده، ورجل يقعد في بيته ويقول: يا رب ارزقني، ولا يخرج ولا يطلب الرزق، فيقول الله عزّ وجلّ له: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والتصرف في الأرض، بجوارح صحيحة، فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتباع أمري، ولكيلا تكون كلا على أهلك، فإن شئت رزقتك، وإن شئت قترت عليك، وأنت معذور عندي، ورجل

1() أبو داود حديث (2645)، الترمذي (1604)

رزقه الله مالا كثيرا فأنفقه ثم أقبل يدعو: يا رب ارزقني، فيقول الله عزّ وجلّ: ألم أرزقك رزقا واسعا، فهلا اقتصدت فيه كما أمرتك، ولم تسرف، وقد نهيتك عن الاسراف؟ ورجل يدعو في قطيعة رحم) (1)

ولهذا حذر أئمة الهدى من تلك الظاهرة التي وقعت في المجتمعات الإسلامية نتيجة التأثر برهبان النصارى وغيرهم، حيث أصبح التدين مرتبطا بالقعود عن الرزق، انتظارا لفضل الله، فقد روي عن الإمام الصادق أنه سئل عن رجل قيل له: أصابته الحاجة، فقال: فما يصنع اليوم؟ قيل: في البيت يعبد ربه، قال: فمن أين قوته؟ قيل: من عند بعض إخوانه، فقال: (والله للذي يقوته أشد عبادة منه) (2)

وقال: (لا تَدَع طلب الرزق من حلّه، فإنّه عون لك على دينك، واعقل راحلتك وتوكّل)(3)

وقد اتفق على هذا كل الحكماء، واعتبروا خلافه خلافا للسنة، وقد قال بعضهم في ذلك: (قد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين؟)(4)

وقال آخر فيمن ترك الطلب والسعى، وتواكل بحجة أن الرزق يطلب العبد كما يطلبه أجله: (إن كانوا قعدوا ينبغى لهم

1() الكافي: 5 / 67.

2() التهذيب 6: 324 / 889.

3() بحار الأنوار: 68/138، وأمالي الطوسي 1/196.

4() الإحياء: 4/265.

أن يقومـوا وأن يطلبـوا، تحـرزا من الطمـع وفسـاد القلب، فلا يضـيع حـق الزوجـة والولـد، بـرغم أن أرزاقهم على اللَّه، فهـذا تارك للسبيل والسنة، لقوله تعالى: وَعَلَى الْمَوْلُـودِ لَـهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (البقرة: 233)[1]

وقال آخر: (من طعن فى الحركـة، فقـد طعن فى السـنة، ومن طعن فى التوكـل فقـد طعن فى الإيمـان، والتوكـل حـال النبى ﷺ، والكسب سنته، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته)[2]

وقال آخـر: (إن هنـاك أقوامـاً كثـيرة يزعمـون أن السـعي للرزق يتعارض مع التوكل، وهم في الواقـع إنمـا جهلـوا حقيقـة السنة وسر الأنبياء في كل زمان مما يرويه لنا القرآن)[3]

وقـال آخـر: (التوكـل لا ينـافي السـبب: لأن التوكـل هـو الاعتماد على الله تعـالى وهـو من أعمـال القلب، والسـبب من أعمال الجوارح، فإذا كان الإنسان معتمدا بقلبه على الله تعـالى يرى الأمور كلها من اللـه تعـالى، ويعتقـد أن اللـه تعـالى يخلـق الرزق عند السبب)[4]

ومما يروى في هذا أن بعض الزهاد فـارق الأمصـار وأقـام في سفح جبل سبعا، وقال: لا أسأل أحدا شيئا حتى يـأتيني ربي برزقي، فقعد سبعا، فكاد يموت ولم يأته رزق. فقال: يا رب إن أحييتنى فـأتني بـرزقي الـذي قسـمت لي، وإلا فاقبضـنى إليـك،

1() آداب المريدين وبيان الكسب، للحكيم الترمذى، ص168.

2() طبقات الصوفية، ص465.

3() الإمام عبد الحليم محمود، أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي، ص 183.

4() حياة القلوب في كيفية الوصـول إلى المحبـوب (هـامش قـوت القلـوب ج 2) ص 144.

فـأوحى اللّـه جـل ذكـره إليـه. وعـزتي لا رزقتـك حـتى تـدخل الأمصـار وتقعـد بين النـاس.. فـدخل المصـر وقعـد، فجـاء هـذا بطعام، وهـذا بشـراب، فأكـل وشـرب، وأوجس في نفسـه من ذلك، فأوحى اللّه تعالى إليـه: أردت أن تـذهب حكمـتى بزهـدك في الدنيا. أما علمت أنى أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلى من أن أرزقه بيد قدرتى.

وهكذا لو تتبعت ـ أيها المريد الصادق ـ سير الرسـل عليهم السلام الواردة في القرآن الكريم تجد أنهم مع ما أتاح الله لهم من الكرامـات والمعجـزات، إلا أنهم لم يسـتخدموا تلـك الصلاحيات في مواجهة أعدائهم، أو فيما يتعرضون له من البلاء، بل مارسوا أدوارهم الرسالية بجهودهم البشرية، ولم يدخلوا أي قوة غيبية فيها، حتى يكونوا أسوة لغيرهم.

فرسول الله ﷺ الذي أسرى الله به إلى بيت المقـدس في لحظـات معـدودات، وعـرج بـه إلى السـموات العلا في ليلـة واحدة، لم يستعمل البراق، ولا أي وسيلة غيبية عندما هاجر إلى المدينة المنورة، بل هاجر إليها كسائر الناس، وتلقى من العنـاء ما تلقى حتى يكون أسوة لغيره من الدعاة.

وهكذا كان يقاوم هجمـات أعدائـه بمـا أتيح لـه من سـلاح، ومن عـدد قليـل، وعـدة قليلـة، ولم يسـتعمل الوسـائل الغيبيـة المتاحة له، إلا إذا أراد الله ذلك، ولذلك حصل نـوع من الهزيمـة يوم أحد، واستشهد عمـه حمـزة، وكـان في الإمكـان ألا يحصـل ذلك كله لـو أن رسـول اللـه ﷺ اسـتخدم مـا أتيح لـه من ولايـة تكوينية، ومن دعـاء مسـتجاب، لكنـه لم يفعـل، لأن اللـه تعـالى جعله أسوة للأمة، بل للبشر جميعا.

وقد ورد في الرواية أن بعضهم أنكـر على الإمـام السـجاد حاجتـه وفاقتـه، وعـدم قدرتـه على تسـديد بعض حاجـات

المسلمين المادية، وقال: (عجبا لهؤلاء يدّعون مـرّة أنّ السـماء والأرض وكلّ شيء يطيعهم، وأنّ اللـه لا يـردّهم عن شـيء من طلبـاتهم، ثمّ يعـترفون أخـرى بـالعجز عن إصـلاح حـال خـواصّ إخوانهم)، فرد عليه الإمام السجاد بقوله: (هكـذا قـالت قـريش للنبي ﷺ: كيف يمضـي إلى بيت المقـدس ويشـاهد مـا فيـه من آثار الأنبياء من مكّة ويرجع إليها في ليلة واحـدة من لا يقـدر أن يبلغ من مكة إلى المدينة إلّا في اثني عشـر يومـا؟! وذلـك حين هاجر منها.. جهلوا والله أمر الله وأمر أوليائه معه، إنّ المـراتب الرفيعة لا تنال إلّا بالتسليم لله جلّ ثناؤه، وترك الاقـتراح عليـه، والرضـا بمـا يـدبرهم بـه، إنّ أوليـاء اللـه صـبروا على المحن والمكاره صبرا لم يساوهم فيه غيرهم، فجازاهم الله عـزّ وجـلّ عن ذلك بأن أوجب لهم نجح جميـع طلبـاتهم، لكنّهم مـع ذلـك لا يريدون منه إلّا ما يريده لهم)[1]

ولـذلك كـانت التضـحيات الرسـالية هي النمـوذج المثـالي الـذي مارسـه الأنبيـاء عليهم السـلام وورثتهم من أئمـة الهـدى، حتى يكونوا أسوة للأجيال.

وإن شئت ـ أيها المريد الصادق ـ أن ترى مثالا عمليا لذلك، فانظر إلى الإمام الحسين وأصـحابه في كـربلاء، لـترى مواقـف التوكل وتفويض الأمر للـه بصـورتها المثاليـة الجميلـة، والـتي لا زالت إلى الآن نبراسا يشـجع الرسـاليين على القيـام بـأدوارهم الإصلاحية، اقتداء بأبي الثوار، وسيد الشهداء.

ومن الأمثلـة على ذلـك مـا روي عنـه من مواقـف قبيـل شهادته، وبعد أن رأى بعينه مـا رأى من مـآس، فقـد حـدث أبـو مخنف قال: بقي الحسين ثلاث ساعات من النهار ملطّخا بدمـه رامقا بطرفه إلي السماء ويناديني: (ياإلهي، صبرا علي قضـائك،

1()أمالي الصدوق: 367.

ولامعبود سواك، ياغيات المستغيثين)[1]

وفي تلـك اللحظـات الشـديدة، دعـا بابنـه عبـد اللـه، وهـو صـغير، فأجلسـه في حجـره، فرمـاه حرملـة بن كاهـل الأسـدي بسهم فذبحه، فتلقي الحسين دمه حتّى امتلأت كفّه، ثمّ رمي به إلي السماء، وقال: (إلهي إن كنت حبست عنّـا النصـر، فاجعلـه لما هو خيرمنه، وانتقم لنا من الظالمين، واجعل ما حـلّ بنـا في العاجل ذخيرة لنا في الآجـل)، وقـد ذكـر الإمـام البـاقر أنـه (لم يسقط من ذلك الدم قطرة واحدة إلى الأرض)[2]

وقبــل ذلــك، وفي المدينــة المنــورة، وقبــل مســيره إلى كــربلاء، لتنفيــذ الأمــر الإلهي، زار قــبر جــدّه ﷺ، وراح يودعــه، ويشكو إليه قائلاً: (السلام عليك يا رسول الله ! أنا الحســين بن فاطمــة، أنـا فرخـك وابن فرختـك، وسـبطك في الخلـف الـذي خلفت على أمتك، فاشهد عليهم يا نبى اللــه. أنهم قــد خــذلوني وضيعوني وأنهم لم يحفظوني، وهذا شكواي إليك حتى ألقــاك)، ثم وثب قائما وصف قدميه، ولم يزل راكعا وساجدا[3].

فلمــا كــانت الليلــة الثانيــة خــرج الى القــبر أيضــا فصــلى ركعتين، فلما فـرغ من صـلاته جعـل يقـول: (اللهم إن هـذا قـبر نبيك محمد وأنا ابن بنت محمد وقـد حضـرني من الأمـر مـا قـد علمت، اللهم وإني احب المعروف وأكره المنكر، وانا أسألك يـا ذا الجلال والاكرام بحق هذا القبر ومن فيه ما اخترت من أمري

1() ينابيع المودة، ج 2، ص 417.

2() بحارالأنوار، ج 54، ص 74-46، وقد رُوي هذا الـدعاء بعبـارات أخـرى منهـا: (ربّ أن تك حبست عنّا النصـر من السـماء، فاجعـل ذلـك لمـا هـو خـير، وانتقم لنـا من هـؤلاء الظالمين)، ومنها: (إلهي تري ماحلّ بنا في العاجل، فاجعـل ذلـك ذخـيرة لنـافي الآجـل)، ومنها: (اللهمّ إن كنت حبست عنّا النصر، فاجعل ذلك لما هو خيرلنا)

3() الفتوح 5: 19،، وفيه بدل في الخلف (والثقل)، العوالم 17: 177.

هذا ما هو لك رضى) [1]

وقد روي أنه غلبه النوم حينها؛ فرأى جدّه الرسـول ﷺ قـد أقبلَ في كتيبـة مِن الملائكـة، فضـمّه إلى صـدره وقبّـل مـا بين عينيه، وهو يقـول لـه: (يـا بُـني، كـأنّي عن قـريب أراك مقتـولاً مذبوحاً بأرض كربٍ وبلاء، بين عصابة مِنْ أُمّتي، وأنت مـع ذلـك عطشـان لا تُسـقى، وظمـآن لا تـروى، وهم مـع ذلـك يرجـون شفاعتي، مالهم لا أنالهم اللـه شـفاعتي يـوم القيامـة؛ فمـا لهم عند الله من خلاق، حبيبي يا حسـين إن أبـاك وأمـك وأخـاك قـد قدموا علي وهم إليك مشتاقون، وإن لك في الجنـة درجـات لن تنالها إلا بالشهادة)[2]

و عن الإمام السجاد أنّه قال: لمّا أصبحت الخيل تقبل على الحسين، رفع يديه وقال: (اللهمّ أنت ثقتي في كلّ كـرب، وأنت رجائي في كلّ شدّة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقـة وعـدّة، كم من همّ يضعف فيه الفـؤاد، وتقـلّ فيـه الحيلـة، ويخـذل فيـه الصديق، ويشمت فيه العدّو، أنزلتـه بـك، وشـكوته إليـك، رغبـة منّي إليك عمّن سواك، ففّرجته وكشفته، فأنت وليّ كـلّ نعمـة، وصاحب كلّ حسنة، ومنتهي كلّ رغبة)[3]

وهذا كله يدل على مدى توكل الإمـام الحسـين على اللـه، وتفويضه الأمر إليه، وأنه لا يختلف في سلوكه ذلـك عن سـلوك إبـراهيم، عنـدما قـدم ولـده قربانـا للـه، من دون أن يجـزع أو يضجر.

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن

1() مقتل الحسين للخوارزمي 1: 186.

2() الفتوح 5: 20.

3() تاريخ الأمم والملوك، ج 6، ص 350..

تنزل نفسك هذه المنزلة العظيمة، ليكفيك الله كل شؤونك في الدنيا والآخرة؛ فما فـاز إلا من فـوض أمـوره إلى ربـه، وتوكـل عليه في كل شيء، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْـبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: 3]

الإخلاص والتجرد

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الإخلاص والتجرد، وحقيقتهما، ومنزلتهما، وكيفية التحقق بهما.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الإخلاص والتجرد من المنازل الضرورية للنفس المطمئنة، فلا يمكن أن تتحقق بطمأنينتها، ولا أن تصل إليها ما لم تتخلص من كل الشوائب التي تحول بينها وبين التوجه الصادق إلى ربها.. وما لم تتجرد من كل الدوافع والغايات والأهداف سوى غاية واحده هي ربها.

فالإخلاص هو تخلص الأعمال والأحوال والمواقف وكل ما يبرز من النفس من كل شائبة تحول بينها وبين التوجه الصادق إلى ربها، مثلما يتخلص اللبن من كل الشوائب التي مر عليها، كما قال تعالى: مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) (النحل)، فخلوص اللبن أن لاَ يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به.. وهكذا الإخلاص فإن فرثه ودمه هو الإشراك، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك..

وبما أن الشرك منه خفي، ومنه جلي، فهكذا الإخلاص، فمنه خفي وجلي.. ولذلك اختلفت درجات المخلصين بقدر تخلصهم من تلك الشوائب، كما عبر عن ذلك بعض الحكماء، فقال: (تتشعب إرادات الإخلاص إلى: إرادة الإخلاص على التعظيم لأمر الله.. وإرادة الإخلاص لطلب الأجر والثواب.. وإرادة الإخلاص في تصفية العمل عن الشوائب لا يراعي فيه غير ذلك.. وكل هذه الإرادات.. فمن تمسك بواحدة منها، فهو مخلص، هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ [آل عمران: 163])[1]

1() احمد بن محمد بن عباد، الموارد الجلية في أمور الشاذلية، ص 101.

وعبر آخر عن تلك الدرجات، فقـال: (إخلاص كـل عبـد في أعمالــه على حســب رتبتــه ومقامــه: فأمــا من كــان منهم من الأبــرار، فمنتهى درجــة إخلاصــه: أن تكـون أعمالـه سـالمة من الرياء الجلي والخفي، وقصد موافقة أهواء النفس طلبا لما وعد الله تعالى به المخلصين من جزيل الثواب وحسن المآب.. وهذا من التحقيق بمعـنى قولـه تعـالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُـدُ﴾ [الفاتحـة: 5].. وحاصل أمره إخراج الخلق عن نظره في أعمال بـره مـع بقـاء رؤيته لنفسه في النسبة إليهـا والاعتمـاد عليهـا.. وأمـا من كـان منهم من المقربين، فقد جاوز هـذا إلى عـدم رؤيتـه لنفسـه في عمله، فإخلاصه إنما هو في شهود انفراد الحـق تعـالى بتحريكـه وتسكينه من غير أن يرى لنفسه في ذلك حـولا ولا قـوة، ويعـبر عن هذا المقام: بالصدق الذي يصح به مقام الإخلاص.. وهو من التحقق بمعنى قولـه تعـالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ ﴾ [الفاتحـة: 5].. فعمل الأول هو العمل لله تعالى، وعمل الثاني هو العمل باللـه)[1]

وعبر آخـر عن تلـك الـدرجات بقولـه: (الإخلاص على ثلاث درجــات: الدرجــة الأولى: إخــراج رؤيــة العمــل من العمــل، والخلاص من طلب العـوض على العمـل، والنــزول عن الرضـا بالعمل.. والدرجة الثانية: الخجل من العمل مـع بـذل المجهـود، وتوفـير الجهـد بالاحتمـاء من الشـهود، ورؤيـة العمـل في نـور التوفيــق من عين الجــود.. والدرجــة الثالثــة: إخلاص العمــل بــالخلاص من العمـل، تدعــه يسـير مسـير العلم، وتسـير أنت مشاهداً للحكم، حراً من رق الرسم)[2]

وقال آخر: (الإخلاص على ثلاثة أقسام هي: إخلاص العــام: وهو تصفية العمل من الكدورات.. وإخلاص الخاص: وهو إخــراج

[1] غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج 1 ص 75.

[2] منازل السائرين، ص 40، 41.

الخلــق من المعــاملات.. وإخلاص الأخص: وهــو نســيان رؤيــة الخلق بدوام رؤية القلب إلى عالم الخفيات)[1]

وقسمها آخــر إلى أربــع درجــات، فقــال: (درجــات الإخلاص أربـــع: درجة المتقين.. ودرجة المحـــبين.. ودرجة العـــارفين.. ودرجة الفانين)[2]

وقال آخر: (الإخلاص يتشعب إلى أربــع: إرادة الإخلاص في العمــل على التعظيم للـــه.. إرادة الإخلاص على التعظيم لأمــر اللــه.. وإرادة الإخلاص لطلب الأجــر والثــواب.. وإرادة الإخلاص في تصفية العمل عن الشوائب أن لا يراعي فيه غير ذلك)[3]

وقســمها آخــر إلى خمس درجــات، وهي: (إخلاص الــدين، للمســلمين.. وإخلاص الإيمــان، للمؤمــنين.. وإخلاص الأفعــال، للمتقين.. وإخلاص الأقـــــوال، للمحـــــبين.. وإخلاص الأخلاق، للعارفين)[4]

وقال آخر: (للاخلاص رتب منها: أن يفعل الطاعة خوفاً من عـذاب اللـه.. ومنهـا: أن يفعلهـا رجـاءً لثـواب اللـه.. ومنهـا: أن يفعلهـا حيـاءً من اللـه.. ومنهـا: أن يفعلهـا حبـاً للـه.. ومنهـا: أن يفعلها تعظيماً لله ومهابة وانقياداً وإجابة)[5]

وقال آخر: (الإخلاص يدور على أوجه خمسة: إخلاص الملة

1() جامع الأصول في الأولياء، ج 1 ص 201.

2() إمام السالكين وشيخ المجاهدين أرسلان الدمشقي، ص 57.

3() جامع الأصول في الأولياء، ج 1 ص 149.

4() علم القلوب، ص156.

5() تحفة العبّاد وادلـة الـورّاد لكتـاب الـدر المنتقى المرفـوع في اوراد اليـوم والليلـة والأسبوع، ص 11.

من بين جملة الملل.. وإخلاص الدين القيم من الشـبع والأهـواء والبـدع.. وإخلاص العمـل من دقـائق الآفـات وخفايـا العلـل.. وإخلاص الأقوال من اللغو والباطـل والمحـال.. وإخلاص الأخلاق باتباع مرضاة الملك الخلاق[1]

وغيرها من التقسيمات، والتي لا يمكن حـدها، ولا ضـبطها، ذلك أنها تختلـف بـاختلاف درجـات السـالكين وأحـوالهم.. ولكن يمكن ضبطها في منزلـتين: الإخلاص الأعلى، والإخلاص الأدنى.. أو إخلاص المقربين، وإخلاص أهل اليمين، ولكـل مقـام أحكامـه الخاصة به.

أمـا الأدنى، وهـو إخلاص أهـل اليمين، فـأدنى درجاتـه ألا يقصد بالعمل غير الله، وإلا كان ذلك شركا ورياء وسـمعة، وهـو من أعظم مثـالب النفس الأمـارة، والـتي لا يمكن أن تصـل النفس إلى درجة الطمأنينة ما لم تتخلص منها.

وأما الأعلى، وهـو إخلاص المقـربين، فلـه مـراتب مختلفـة بحسب درجة القـرب، ولـذلك اختلفت التعبـيرات المعرفـة بـه؛ فقد عرفه بعضهم بقوله: (الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص)

وقال آخر: (الإخلاص أن يكون سـكون العبـد وحركاتـه للـه تعالى خاصة)

وقال آخر: (الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين)

وقال آخر: (الإخلاص نسيان رؤية الخلق بـدوام النظـر إلى الخالق فقط)

---

[1] ()علم القلوب، ص 145، 146.

ولذلك، فإن العمل لأجل الظفر بالجنة، أو لأجل النجاة من النار قادح في هذا النوع من الإخلاص.. وهو واضح للعقول، ذلك أنه لو كان لك صديق تحبه وتقربه إليك، فقـال لـك يومـا: أنـا لا أحب الجلوس إليك، ولا المكث معك إلا لأجل ذلك الطعام الذي تطعمني إيـاه، أو لأجـل أنـك تستضـيفني.. أو لأجـل أن أسـتفيد منك شيئا، فإن مثل هذا الشخص لا يستحق ذلك التقريب الـذي وضعته فيه.

وهذا ما لاحظه الصديقون.. فقد رأوا أن الذي يعمل لرجـاء الجنة وخوف النار مخلص بالإضـافة إلى الحظـوظ العاجلـة، وإلا فهو في طلب حظوظ آجلـة.. والمطلـوب الحـق لـذوي الألبـاب وجه الله تعالى فقط.

ولذلك قيـل لبعض الصـالحين:(كيـف رغبتـك في الجنـة؟)، فقالت:(الجار ثم الدار)

وهو نفس ما رددته امرأة فرعون عنـدما قـالت: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْـدَكَ بَيْتـاً فِي الْجَنَّةِ ﴾ (التحـريم:11) فقـدمت الجـار قبـل الدار.

ولا يمكن أن يصـل إلى هــذه الدرجــة إلا المحبــون الــذي شغلهم محبوبهم عن كـل شـغل.. وحـال هـؤلاء كحـال العاشـق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بـالنظر إلى وجهـه والفكـر فيـه، فإنـه في حـال الاسـتغراق غافـل عن نفسـه لا يحس بمـا يصيبه في بدنه، لم يبق في قلبه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه، كما أشار الله تعالى إلى ذلك عندما ذكر النسوة في قصة يوسـف، فقـال: ﴿ فَلَمَّا سَـمِعَتْ بِمَكْـرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُـلَّ وَاحِـدَةٍ مِنْهُنَّ سِـكِّينًا وَقَـالَتِ اخْـرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَـهُ أَكْبَرْنَـهُ وَقَطَّعْنَ أَيْـدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31)﴾ (يوسف)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فـاعلم أن النصـوص المقدسة تعتبر الإخلاص والتجرد ـ بأدنى درجاته ـ من الواجبـات الشـرعية، الـتي لا تختلـف عن الصـلاة والصـيام وغيرهـا من الشعائر التعبديـة.. بـل إنـه لا يصـح أي عمـل، ولا يقبـل، مـا لم يتوفر فيه هذا الشرط.

ومن تلك الآيات التي تجمع بين الأمر بالإخلاص وغــيره من العبادات قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُـوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَـدَأَكُمْ تَعُـودُونَ (29)﴾ (الأعراف)

وهكذا اعتبر الله تعـالى الإخلاص واجبـا في كـل العبـادات، بل اعتبر الدين الصحيح هو الدين الخالص لله، قـال تعـالى:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2) أَلا لِلَّهِ الـدِّينُ الْخـالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيـاءَ مـا نَعْبُـدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونـــا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مـــا هُمْ فِيـــهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (3)﴾ (الزمر)

وهكـذا يقـترن الإخلاص بالـدين والعبـادة في آيـات كثـيرة، ليـدل على أن الـدين لا يشـمل فقـط تلـك الشـعائر الظاهريـة، وإنما يشمل أيضا تلك المعاني الباطنية، التي لا يصح من دونهـا، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12)﴾ (الزمر)

وقال: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُـدُ مُخْلِصـاً لَـهُ دِينِي (14) فَاعْبُـدُوا مـا شِــئْتُمْ مِنْ دُونِــهِ قُــلْ إِنَّ الْخاسِــرِينَ الَّذِينَ خَسِــرُوا أَنْفُسَــهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَــوْمَ الْقِيامَــةِ أَلا ذلِــكَ هُــوَ الْخُسْــرانُ الْمُبِينُ (15)﴾ (الزمر)

وهكذا أخبر الله تعـالى أن الإخلاص شـريعة إلهيـة في كـل

الأديان، قال تعالى: وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتـابَ إِلَّا مِنْ بَعْـدِ مـا جـاءَتْهُمُ الْبَيِّنَـةُ (4) وَمـا أُمِـرُوا إِلَّا لِيَعْبُـدُوا اللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُـوا الزَّكـاةَ وَذلِـكَ دِينُ الْقَيِّمَـةِ (5) (البينة)

وأشار إلى أن سبب وقوع المنـافقين في النفـاق فقـدانهم للإخلاص، قال تعـالى: إِنَّ الْمُنـافِقِينَ فِي الـدَّرْكِ الْأَسْـفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِـــدَ لَهُمْ نَصِـــيراً (145) إِلَّا الَّذِينَ تـــابُوا وَأَصْـــلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (146) (النساء)

بل إن الله تعالى يعتبر فقدان الإخلاص شركا، قال تعـالى: فَمَنْ كَـانَ يَرْجُـو لِقَـاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَـلْ عَمَلًا صَـالِحًا وَلَا يُشْـرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110) (الكهف)

وفي الحــديث أن رســول اللــه قــال: (إن أدنى الريــاء شـرك، وإن أحب العبـاد إلى اللـه، عـز وجـل، الأتقيـاء الأخفيـاء الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن شهدوا لم يعرفـوا، أولئـك أئمـة الهدى مصابيح العلم)[1]

و في الحديث القدسي، قال ﷺ حاكيـا عن ربـه عـز وجـل: (أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك، من عمل عملا أشرك فيــه معي غيري تركته وشركه)[2]

وفي حديث قدسي آخر: (تضمّن اللّه لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلّا جهـادا في سـبيلي، وإيمانـا بي، وتصـديقا برسـلي، فهو عليّ ضامن أن أدخلـه الجنّـة، أو أرجعـه إلى مسـكنه الّـذي

1() رواه أحمد بن منيع.

2() رواه مسلم.

خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة)[1]

وقال: (إن أولى الناس أن يُقضى يوم القيامة عليـه، رجـل استشـهد فـأُتي بـه فعرّفـه نِعَمَـه فعرفهـا، قـال: (فمـا عملت فيهـا ؟). قـال: (قـاتلتُ فيـك حـتى استشـهدت، قـال: (كـذبت، ولكنّك قاتلت ليقال: (جريء فقد قيل ذلك، ثم أُمـر بـه فسـحب على وجهه حتى أُلقي في النار.. ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقـرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نِعَمه فعرفها، قال: (فما عملت فيها ؟). قال: (تعلّمت العلم وعلمته وقرأت فيك القـرآن، قـال: (كـذبت ولكنـك تعلمت ليقـال: (عـالم، وقـرأت القـرآن ليقـال: (قـارئ القرآن فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهـه حـتى أُلقي في النار)[2]

ولهـذا كـان يحـذر من الريـاء بكـل أنواعـه، وفي كـل المجـالات، فقـد روي أنـه سـئل عن رجـل غـزا يلتمس الأجـر والذّكر، ما له؟ فقال رسول اللّه : (لا شيء له)، ثمّ قـال: (إنّ اللّه لا يقبل من العمل إلّا ما كان له خالصا وابتغي به وجهه)[3]

وهكذا حـذر من الريـاء المرتبـط بـالعلم، فقـال: (من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عـز وجـل لا يتعلمـه إلا ليصـيب بـه عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)[4]

وقـال:(من تعلم العلم ليبـاهي بـه العلمـاء أو ليمـاري بـه السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار)[5]

1() رواه البخاري ومسلم.

2() بحار الأنوار: 67/249، ومنية المريد.

3() رواه النسائي والبيهقي.

4() رواه أحمد وأبو داود والبيهقي والحاكم وابن ماجة.

5() رواه الطبراني في الأوسط، والدارقطني في الأفراد، وسعيد بن منصور.

وقال:(أنزل الله في بعض كتابــه وأوحى إلى بعض أنبيائــه: قل للذين يتفقهون بغير الـدين ويتعلمـون لغـير العلم ويطلبـون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون لباس مسوك[1] الكبـاش وقلـوبهم قلـوب الـذئاب ألسـنتهم أحلى من العسـل وقلـوبهم أمـر من الصبر، إياي يخدعون أو بي يسـتهزؤون فـبي حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران)[2]

وفي أخبار داود عليه السلام أنه مما اوحى الله تعالى إليه: (إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمــه لذيذ مناجاتي، يـا داود لا تسـأل عـني عالمـاً قـد أسـكرته الـدنيا فيصدك عن طريق محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي، يـا داود، إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً؛ يا داود من رد إليَّ هارباً كتبته جهبذاً ومن كتبته جهبذاً لم أعذبه أبداً)

ويـروى أن رجلاً كـان يخـدم موسـى عليـه السـلام فجعـل يقـول: حـدّثني موسـى صـفي اللـه، حـدّثني موسـى نجي اللـه، حدثني موسى كليم الله، حتى أثرى وكثر مالـه، ففقـده موسـى عليه السلام فجعـل يسـأل عنـه ولا يحس لـه خـبراً حـتى جـاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود، فقـال لـه موسى عليه السلام: أتعرف فلاناً؟ قال: نعم. هـو هـذا الخـنزير، فقال موسى عليـه السـلام: يـا رب أسـألك أن تـرده إلى حالـه حتى أسأله بم أصابه هذا؟ فأوحى الله عز وجل إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتـك فيـه، ولكن أخـبرك لم صنعت هذا به؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين.

ويروى عن عيسى عليه السلام قوله:(كيف يكون من أهـل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيـف

1() مسوك: المسك: الجلد، والجمع مسوك مثل فلس وفلوس.

2() أبو سعيد النقاش في معجمه، وابن النجار.

يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به؟)

وهكـذا وردت الروايـات الكثـيرة عن أئمـة الهـدى، والـتي تدعو إلى الإخلاص، وتعتبره شرطا لقبول أي عمل، ومنهـا قـول الإمام علي: (الدنيا كلها جهل إلا مواضع العلم، والعلم كلّه حجـة إلا ما عمل به، والعمل كله ريـاء إلا مـا كـان مخلصـاً، والإخلاص على خطر حتى ينظر العبد بما يختم له)[1]

وقال: (طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يُشــغل قلبه بما ترى عينـاه، ولم يَنْسَ ذكـر اللـه بمـا تسـمع أذنـاه، ولم يحزن صدره بما أُعطي غيره)[2]

وقـال الإمـام: (إن ربكم لـرحيم، يشـكر القليـل، إنّ العبـد ليصلي الركعتين يريد بها وجه الله فيدخله الله به الجنة)[3]

وقال: (إنّ المؤمن ليخشع له كل شيء ويهابه كل شــيء.. ثم قال: (إذا كان مخلصاً لله أخاف اللـه منـه كـل شـيء، حـتى هوام الأرض وسباعها وطير السماء)[4]

وغيرهــا من النصــوص الكثــيرة الــتي تحــذر من الريــاء والسمعة والعجب، وكل ما يقدح في الإخلاص.

أما كيفية التحقق بالإخلاص ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فقـد ســبق لي أن ذكــرت لــك في رســائلي الســابقة مــا ورد من النصـوص المقدسـة حـول كيفيـة التخلص من الريـاء والعجب والغرور، وغيرها من المثـالب.. وهي معينـة للتحقـق بالـدرجات

1() بحار الأنوار: 67/242، وأمالي الصدوق.

2()الكافي 2/16.

3()المحاسن ص253.

4()جامع الأخبار ص117.

الأولى من الإخلاص.

وأهمها ما أشار إليه الإمام الصادق بقولـه: (لا يصـير العبـد عبداً خالصاً لله عزّ وجلّ حتّى يصير المـدح والـذمّ عنـده سـواء، لأنّ الممدوح عند الله عزّ وجلّ لا يصير مـذموماً بـذمّهم وكـذلك المذموم، فلا تفرح بمدح أحد فإنّه لا يزيد في منزلتك عند اللــه، ولا يغنيك عن المحكوم لك والمقدور عليك.

ولا تحـزن أيضـاً بـذمّ أحـدٍ فإنّـه لا ينقص عنـك بـه ذرّة، ولا يحطّ عن درجـة خـيرك شـيئاً، واكتـفِ بشـهادة اللـه تعـالى لـك وعليك، قـال اللـه عـزّ وجـلّ: (وكفى باللـه شـهيداً .. ومَن لا يقدر على صرف الذمّ عن نفسه ولا يستطيع على تحقيق المدح له، كيف يُرجى مدحـه أو يُخشـى ذمّـه ؟.. واجعـل وجـه مـدحك وذمّك واحداً، وقف في مقامٍ تغتنم به مـدح اللـه عـزّ وجـلّ لـك ورضاه، فإنّ الخلق خُلقوا من العجين من ماء مهين، فليس لهم إلاّ ما سعوا.).. قال الله عزّ وجـلّ: (وأن ليس للإنسـان إلاّ مـا سعى ، وقال عزّ وجلّ: (ولا يملكون لأنفسهم نفعـاً ولا ضـراً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً)[1]

وعــبر بعض الحكمــاء عن هــذا المعــنى، فقــال: (علامــة إخلاصك أنك لا تلتفت إلى حمد الخلق، ولا إلى ذمهم، ولا تطمع فيمــا في أيــديهم، بــل تعطي الربوبيــة حقهــا، تعمــل للمنعم لا للنعمة، للمالك لا للملك، للحق لا للباطل)[2]

وقــال آخــر: (علامــة الإخلاص: أن يغيب عنــك الخلــق في

1()مصباح الشريعة ص31.

2()الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص 190، 191.

0

مشاهدة الحق، وبقاء الأبد في فنائك عنك)[1]

وقال آخر: (علامة الإخلاص ثلاثة: أحدها: أن يخاف المحمدة، لئلا يبطل عمله، ويضيع عمره في الأعمال الرديئة.. والثاني: لا يخاف ملامة الناس، لأن من خاف ملامة الناس ترك كثيرا من أعمال الخير وكلام الحق.. والثالث: لا يحب المعذرة، لأن صاحب المعذرة لا يكون مخلصا)[2]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاحرص على أن تنزل نفسك هذه المنزلة العظيمة، وبأعلى درجاتها، حتى تكون من المقربين، فلا ينال القرب إلا من صح منه الإخلاص والتجرد، ولم يطلب من عوض على عمله سوى ربه.. فمن وجده فقد وجد كل شيء، ومن فقده فقد كل شيء.

1()محمد بن يحيى التادفي الحنبلي، قلائد الجواهر، ص 96.

2()حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب (بهامش قوت القلوب لأبي طالب المكي)، ج 2 ص 215.

الصدق الخالص

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الصدق الخالص، وحقيقته، ومنزلته، ودرجاته، وكيفية التحقق به.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الصدق من المنازل الضرورية للنفس المطمئنة، وبقدر ترسخه فيها تكون درجتها ومرتبتها في سلم الكمال الإنساني، وخلوها منه، أو من بعضه دليل على تسلط الأهواء والشياطين عليها، كما ذكرت لك ذلك في رسائلي عن مثالب النفس الأمارة.

وهو في حقيقته يعني المطابقة التامة للواقع، وفي كل شيء.. ولذلك كان الصادق الحقيقي هو الذي لا ينحرف عن حقيقته قيد أنملة.. فإن تعدى حقيقته بادعاء حقيقة أخرى، فإنه يعتبر كاذبا في تلك الدعوى.

وبما أن حقيقة الإنسان ليست سوى عبوديته لله؛ فإن تخلفه عن هذه العبودية في أي سلوك أو موقف؛ أو بأي دعوى من الدعاوى، يعني تخلفه عن الصدق، وتحول المدعي بموجبه إلى كاذب ومفتر.

ولهذا اتفق كل الحكماء على شمول الصدق لكل التصرفات القولية والفعلية والوجدانية وغيرها، وعدم انحصاره فيما اُشتهر فيه من الصدق في الأقوال وحدها.

وقد اختلفت تعبيراتهم في ذلك، وكلها تؤول إلى ما ذكرت لك.. ومن أمثلتها قول بعضهم: (الصدق على ثلاثة أقسام هي: صدق العام: وهو في الأقوال.. وصدق الخاص: وهو في الأفعال.. وصدق الأخص: في الأحوال)[1]

1() جامع الأصول في الأولياء، ج 1 ص 201.

وقال: (الصدق ثلاثة أقسام: صدق النيـة، وصـدق اللسـان، وصدق العمل.. فصدق النية: أن لا يريـد بجميـع أقوالـه وأفعالـه وأحواله إلا الله.. وصدق اللسان: معـروف.. وصـدق العمـل: أن يكون حريصاً عليه لا يقطعه إلا قهراً واضطراراً)[1]

وقال آخر: (الصدق في الأقوال: هو موافقة الضمير القول في وقتـه.. والصـدق في الأعمـال: إقامتهـا على رؤيـة الحــق سبحانه وتعالى ونسيان رؤيتها.. والصـدق في الأحـوال: إقامتهـا على رؤية الخواطر للحق فلا يكدرها مطالعـة رقيب ولا منازعـة فقيه)[2]

وقال آخر: (الصـدق يسـتعمل في سـتة معـان: صـدق في القول.. وصدق في النية والإرادة.. وصـدق في العـزم.. وصـدق في الوفـاء بـالعزم.. وصـدق في العمـل.. وصـدق في تحقيـق مقامات الدين كلها.. فمن اتصف بالصدق في جميـع ذلـك: فهـو صدّيق لأنه مبالغة في الصدق)[3]

وقال آخـر: (الصـدق: يقـال على معنـيين: أحـدهما: صـدق الخبر، وهـو أن يكـون نطـق اللسـان موافقـاً لمـا في الجنـان.. وثانيهما: تمام قوة الشيء.. وعند الطائفة: الصدق هو الموافقة للحق في الأقوال والأفعال والأحوال)[4]

وقال آخر: (الصدق اسم من تحقـق بـه صـدق في أقوالـه، ثم صــدق في أعمالــه، ثم صــدق في أخلاقــه، ثم صــدق في أحواله، ثم صدق في أنفاسه.. فصـدقه في القـول: ألا يقـول إلا

1() المرجع السابق، ج 2 ص 329.

2() الفتح المبين فيما يتعلق بترياق المحبين، ص 38.

3() الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 4 ص 356.

4() كمال الدين القاشاني، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 354.

عن برهان، وصدقه في العمل: ألا يكون للبدعة عليـه سـلطان، وصــدقه في الأخلاق: ألا يلاحــظ إحســانه مــع الكافــة بعين النقصـان، وصـدقه في الأحـوال: أن يكـون على كشـف وبيـان، وصدقه في الأنفاس: ألا يتنفس إلا عن وجود كالعيان)[1]

ولهـذا يقسـمون درجـات الصـدق بحسـب المجـالات الـتي يشملها؛ فإن شمل بعضـها فقـط كـان دنيـا، وإن شـمل الجميـع صار صاحبه صديقا.

وبما أن تلك الدرجات لا نهاية لها، فقد اختلفـوا في عـدها، أو في عد مجامعها، وقد قـال بعضـهم في ذلـك: (الصـدق على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: صدق القصـد، وبـه يصـح الـدخول في هذا الشـأن، ويتلافى بـه كـل تفريـط، ويتـدارك كـل فـائت، ويعُمر كل خراب. وعلامة هذا الصادق: أن لا يحتمل داعيةً تدعو إلى نقض عهد، ولا يصبر على صـحبة ضـدٍ، ولا يقعـد على الجـد بحالٍ.. والدرجة الثانية: أن لا يتمنى الحيـاة إلا للحـق، ولا يشـهد من نفســه إلا أثــر النقصــان، ولا يلتفت إلى ترفيــه الــرخص.. والدرجـة الثالثـة: الصـدق في معرفـة الصـدق فـإن الصـدق، لا يستقيم في علم الخصوص إلا على حرف واحـد: وهـو أن يتفـق رضى الحق بعمل العبد أو حاله أو وقتـه وإتيـان العبـد وقصـده، فيكون العبد راضياً مرضياً فأعماله إذاً مرضـية وأحوالـه صـادقة وقصوده مستقيمة، وإن كان العبـد كسـي ثوبـاً معـاراً، فأحسـن أعماله ذنبٌ، وأصدق أحواله زورٌ، وأصفى قصوده قعودٌ)[2]

وبما أن الصدق في الأقوال هو المشهور عند عامة الناس؛ فقد اهتموا بذكر حقيقة الصدق في غيره.. ومنه صدق الأحوال، وقـد عرفـه بعض الحكمـاء بقولـه: (الصـدق في الأحـوال: هـو

1() القشيري، تفسير لطائف الإشارات، ج 6 ص 155.

2() منازل السائرين، ص 55، 57.

تصفيتها من غير مداخلة إعجاب)[1]

وقال آخر: (الصدق في الأحوال: هو مضيها بإقامة الخواطر الحق، فلا يكدرها مطالعة رقيب، ولا منازعة فقيه)[2]

وقال آخر: (صدق الأحوال: هو اجتماع الهم على الحق، بحيث لا تختلج في القلب تفرقة عن الحق بوجهٍ)[3]

وعرفوا صدق الأعمال بـ (إقامتها على رؤية الحق سبحانه وتعالى ونسيان رؤيتها)[4]

وقال آخر: (صدق الأعمال: هو ركوب الجهد)[5]

وقال آخر: (صدق الأفعال: هو الوفاء لله تعالى بالعمل من غير مداهنة)[6]

وعرفوا الصدق الباطن بأنه (صفاء الضمير، ومحو ما فيه من شهود الصور الكونية، حتى تنطبع صور الجمالات الحقية في لوح ضميره المحفوظ، وتتجلى مرآته، وتتجلى له فيها حقائق جواهر البحر المسجور، مسطرة بمعاني الرق المنشور، وعند انتفاء كل غير باطناً واثبات الحق ظاهراً في الخلق)[7]

وعرفوا صدق التوحيد بأنه (قطع العلاقات، ومفارقة

1()تفسير لطائف الاشارات، ج 5 ص 153.

2()بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 276.

3()لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 355.

4()بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 276.

5()نهج الخواص إلى جناب الخاص - ص 70.

6()لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 355.

7() شراب الأرواح - ص 168.

العادات، وهجران المعهودات، والاكتفاء بالله في دوام الحالات)[1]

وحتى صدق الأقوال؛ فإن درجاته مختلفة؛ فما يبـدو صـدقا عند أصـحاب الـدرجات الـدنيا قـد يكـون كـذبا عنـد غـيرهم من الدرجات، قال بعض الحكماء: (الصدق في الأقوال: هو سـلامتها من المعاريض فيما بينك وبين نفسك، وفيمـا بينـك وبين النـاس التباعد عن التلبيس، وفيمـا بينـك وبين اللـه بإدامـة التـبري من الحول والقـوة، ومواصـلة الاسـتعانة، وحفـظ العهـود معـه على الدوام)[2]

وقال آخر: (الصدق في الأقوال: هو موافقة الضمير القول في وقته)[3]

وقال آخر: (صـدق الأقـوال: هـو موافقـة الضـمير للنطـق، بحيث يكون الصادق من وصف ما في قلبه بما نطق به لسـانه)[4]

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى كل هذه المعاني عنـدما ذكـر أن الصـدق هـو البـاب الـذي تفتح بـه أبـواب الـبر، فقـال: (إنّ الصّدق يهدي إلى البرّ، وإنّ الـبرّ يهـدي إلى الجنّـة، وإنّ الرّجـل ليصدق حتّى يكون صدّيقا، وإنّ الكـذب يهـدي إلى الفجـور، وإنّ الفجور يهدي إلى النّار، وإنّ الرّجل ليكذب حتّى يكتب عند اللّـه كذّابا)[5]

1() تفسير لطائف الإشارات، ج 2 ص 18.

2()،تفسير لطائف الاشارات، ج 5 ص 153.

3()،بهجة الأسرار ومعدن الأنوار - ص 276.

4() لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 354.

5() رواه البخاري ومسلم.

فهذا الحديث يشير إلى أن حرص الصادق على الصدق في كل شيء يهديه إلى البر، ذلك أن أصول البر كلها من إيمان.. وإحسان.. وتقوى.. وتوكل.. وخوف.. ورجاء.. وإنابة.. وتسليم وغيرها ترجع إلى الصدق.. فكل عمل صالح ظاهر وباطن فمنشؤه الصدق.

وأضداد ذلك من الرياء.. والعجب.. والكبر.. والفخر.. والخيلاء.. والبطر.. والأشر.. والعجز.. والكسل.. والجبن، وغيرها كلها نوع من أنواع الكذب.. وبذلك فإن كل عمل فاسد ظاهر وباطن يرجع إلى الكذب ويؤول إليه.

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هداية الصدق إلى كل أنواع البر إلى الدرجة التي يصبح فيها الصادق صديقا، وذلك لتدخل العناية الإلهية مع الصادقين.. فلذلك لا يسلك الصادق سبيلا إلا صحبه فيه توفيق الله وبركاته.. بينما الكاذب أهل للخذلان لا للتوفيق.. ولهذا أمر الله تعالى رسوله ، فقال: وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (80) (الإسراء)

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن النصوص المقدسة اعتبرت الصدق أشرف المنازل، وأكثرها ضرورة لتحقيق العبودية، ولهذا وصف الله تعالى به أنبياءه وأولياءه، فقال في إبراهيم عليه السلام: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (مريم: 41)

وقال في إدريس عليه السلام: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (مريم: 56)

وقال في إسماعيل عليه السلام: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (مريم: 54)

وقال في يوسف عليه السلام:﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (يوسف: 46)

ووصف أولياءه الصالحين، فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:15)

وقال:﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر:8)

وقال:﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: 23)

وأخبر تعالى بأن الغرض من أنواع البلاء هو تمحيص الصادقين وتمييزهم عن غيرهم، فقال:﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت:3)

وأخبر عن الجزاء العظيم المعد للصادقين، فقال:﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (المائدة:119)

ولهذا كله أمر الله تعالى بالصدق، وبالكينونة مع الصادقين، فقال:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: 119)

ومثل ذلك وردت الأحاديث الشريفة في الترغيب في الصدق، وفي كل المجالات، ومنها ما ورد في الحديث من اعتباره ﷺ الصدق طمأنينة، وهو دليل على أن من أسرار طمأنينة النفوس صدقها مع نفسها ومع ربها ومع كل شيء، قال ﷺ: (دع ما يريبك

إلى ما لا يبريبك؛ فإن الصدق طمأنينةٌ، والكذب ريبةٌ)[1]

وأخبر عن تعامل الله تعالى مع عباده بحسب صدقهم؛ فقــال في الذي يسأل الله تعالى الشهادة صادقا: (من سأل اللــه تعـالى، الشهادة بصدقٍ بلغه الله منازل الشـهداء، وإن مـات على فراشـه)[2]

وقال في المعاملات الماليـة وغيرهـا:(البيعـان بالخيـار مـا لم يتفرقا، فإن صـدقا وبينـا بـورك لهمـا في بيعهمـا، وإن كتمـا وكـذبا محقت بركة بيعهما)[3]

ولذلك أخبر ﷺ أن جزاء الصادقين هو الجنة، وبين سبب ذلك، فقال لمن سأله عن عمل الجنة: (الصدق، إذا صدق العبد بــر، وإذا بر آمن، وإذا آمن دخل الجنة)، ثم قال لمن سـأله عن عمـل النـار: (الكذب، إذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار)[4]

وحـذر ﷺ في مقابـل ذلـك من الكـذب، واعتـبره من خصـال المنافقين، فقال:(أربعٌ من كن فيهن كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن، كانت فيه خصلةٌ من نفاقٍ حتى يــدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[5]

وأخبر عن بعض عقوبات الكاذبين، فقــال ﷺ:(من تحلم بحلمٍ لم يره، كلف أن يعقـد بين شـعيرتين ولن يفعـل، ومن اسـتمع إلى حديث قومٍ وهم له كـارهون، صـب في أذنيـه الآنـك يـوم القيامـة،

1() رواه الترمذي وقال: حديثٌ صحيحٌ.

2() رواه مسلم.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه أحمد من رواية ابن لهيعة.

5() رواه البخاري ومسلم.

ومن صور صورةً، عذب، وكلف أن ينفخ فيها الـروح، وليس بنـافخٍ)[1]

وهكذا ورد عن أئمة الهدى الـدعوة إلى الصـدق، وفي كـل مجالات الحياة، ومن أمثلة ذلك قول الإمام الصـادق: (لا تغـترّوا بصلاتهم ولا بصيامهم، فـإنّ الرجـل ربمـا لهج بالصـلاة والصـوم، حتى لو تركه اسـتوحش، ولكن اختـبروهم عنـد صـدق الحـديث، وأداء الأمانة)[2]

وقال: (كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع) [3]

وقال: (إن الصادق أول من يصدقه الله عزوجـل، يعلم أنـه صادق، وتصدقه نفسه تعلم أنه صادق)[4]

وقال: (إنما سمي إسماعيل صـادق الوعـد لانـه وعـد رجلا في مكان فانتظره في ذلك المكان سنة، فسماه اللـه عزوجـل صادق الوعد ثم إن الرجل أتـاه بعـد ذلـك فقـال لـه إسـماعيل: مازلت منتظرا لك) [5]

وقال: (من صدق لسانه زكا عمله) [6]

أما ما سألت عنه ـ أيها المريد الصادق ـ من كيفية التحقق بالصدق، فهو في تحققك بعبوديتك؛ فبقدر تحققك بها، وتخلصك

1() رواه البخاري.

2() بحار الأنوار: 68/2، والكافي 2/104.

3() الكافى ج 2 ص 105

4() الكافى ج 2 ص 104.

5() الكافى ج 2 ص 105.

6() الكافى 2 ص 104.

من دنس نفسك وأهوائها، بقدر ما تنال هـذه المنزلـة الرفيعـة.. ذلـك أنـك حينهـا تصـبح مطابقـا تمامـا لواقعـك.. والصـدق هـو مطابقة الواقع.

وقد أشار الحكماء إلى العلامـات أو المعـاني الـتي توصـل النفس إلى ذلــك، فقــال أحــدهم: (ثلاث من علامــات الصــدق والوصـول إلى منـازل الأنبيـاء: أول ذلـك: إسـقاط قـدر الـدنيا والمال من قلبـك، حـتى يصـير الـذهب والفضـة عنـدك كالمـدر والتراب.. والثاني: إسقاط رؤية الخلق عن قلبـك، حـتى لكـأنهم كلهم أموات وأنت وحدك على وجه الأرض تعبد ربك.. والثـالث: إحكـام سياسـة نفسـك بخـالص العـداوة لهـا وقطـع الشـهوات واللذات عنها)(1)

وقـال آخـر: (علامـة الصـدق: اسـتواء السـر والعلانيـة، فلا يبالي صاحب الصدق بكشـف مـا يكـره اطلاع النـاس عليـه، ولا يستحي من ظهوره لغيره واكتفاءً بعلم الله به)(2)

وقال آخـر: (الصـدَّيق: هـو الكثـير الصـدق الـذي لا يمـازج صدقه شوب.. وهو الـذي لا ينـاقض سـره علنـه.. وهـو الـذي لا يشهد غير الله مثبتاً ولا نافياً.. وهـو المسـتجيب لمـا يطـالب بـه جملةً وتفصيلاً.. وهو الواقف مـع اللـه في عمـوم الأوقـات على حد الصدق)(3)

ويقول: (الصديق: هو كثير الصـدق لا يشـوب صـدقه مَـذْقٌ

1() حقائق التفسير، ص 1100، 1101.

2() معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 11.

3() تفسير لطائف الإشارات، ج 2 ص 430، 431.

[1]، ويكون قائماً بالحق للحق، ولا يكون فيه نفس لغير الله)[2]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاحرص على أن تنزل نفسك هذه المنزلة الرفيعة؛ لتعيش الطمأنينة والراحة والسعادة في الدنيا والآخرة، فقد وعد الله تعالى الصادقين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 54، 55]؛ فلا يجلس في مقاعد الصدق إلا الصادقون.

1() مذق الودّ: شابه بكدر ولم يخلصه.

2() تفسير لطائف الإشارات، ج 2 ص 434.

اليقظة والإرادة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن اليقظة والإرادة التي يذكرها الحكماء، ويعتبرون أنهما من المنازل الضرورية للسالكين.. وهل هما متعلقان بالنفس اللوامة فقط، أم أنهما من منازل النفس المطمئنة؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن كل المناهج التي ذكرتها لك في رسائلي حول النفس اللوامة، هي منازل لأصحاب النفوس المطمئنة.. والفرق بينهما هو في طمأنينة النفس للمنزل، واستقرارها فيه؛ فإن كانت مطمئنة مستقرة، فهي نفس مطمئنة، وإن كانت متذبذبة يشق عليها الاستقرار، فهي نفس لوامة.. وإن لم يكن لها فيه أي رغبة، بل تنفر منه نفورا كليا؛ فهي نفس أمارة.

ولذلك فإن اليقظة والإرادة من المنازل الضرورية للنفس المطمئنة؛ فلا يمكن أن تترقى في معارج الكمال ما لم تتحقق بهما.. فالنائم لا يمكن أن يتحرك أو يسير.. والعاجز الذي فقد الإرادة لا يختلف عن النائم.

ولذلك كانا من المنازل والمناهج الضرورية، ولهذا خاطب الله تعالى رسوله ﷺ في أول النبوة بالقيام، لأنه لا يمكن أن يتحقق أي شيء للمدثر أو المزمل ما لم يقم.. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: 1، 2]، وهو أمر بالعبادة والتواصل الروحي مع الله.

ثم قال له بعدها: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [المدثر: 1، 2]، وهو أمر بأداء رسالة الله، وإنقاذ خلقه، وتخليصهم من نفوسهم الأمارة.

وكل ذلك إيذان بالمشقات التي قد تلاقي القائم الذي ينفض عنه كل ما يسببه النوم من راحة ودعة وكسل ليستقبل ما تتطلبه الإرادة من مجاهدة وتكاليف، ولهذا ذكر الله تعالى من علل أمره بالقيام في سورة المزمل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: 5]

وبما أنك ـ أيها المريد الصادق ـ طلبت مني الحديث في كلام الحكماء عنهما، وتجاربهم حولهما؛ فسأذكر لك ما ذكروه، وما يؤيده من النصوص المقدسة، والفطرة السليمة.

اليقظة:

أما أولهما، وهي اليقظة، وهي السابقة والمقدمة للإرادة.. فإنها لا تختلف كثيرا عن تلك اليقظة التي يخرج بها الإنسان من عالم النوم والأحلام إلى عالم الواقع والحياة.. ذلك أن الإنسان الغافل عن ربه ومصيره ونفسه وحقائق الوجود لا يختلف عن النائم، كما وردت الإشارة إلى ذلك بقوله ﷺ: (إن خياركم أولوالنهى)، قيل: يا رسول الله ومن أولوالنهى؟ قال: (هم أولوالاخلاق الحسنة، والأحلام الرزينة، وصلة الأرحام، والبررة بالأمهات والآباء والمتعاهدين للفقراء، والجيران واليتامى، ويطعمون الطعام، ويفشون السلام في العالم، ويصلون والناس نيام غافلون) [1]

وعبر عنه في حديث آخر، فقال: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) [2]

وسبب ذلك هو أن الحقائق المصيرية التي يدعي الغافلون

[1] () الكافى ج 2 ص 240.

[2] () بحار الأنوار (4/ـ 43)، وقال العراقي في تخريج الإحياء (3611): لم أجده مرفوعًا، ويُعزى إلى علي بن أبي طالب.

الإيمان بها، لا تـؤثر في حيـاتهم، وإنمـا هي منحصـرة في زوايـا مهملة من أذهانهم.. ولا يمكن للحقائق أن تؤتي ثمارهـا النافعـة إلا بعد أن تصبح رأي العين.. فـ (ليس الخبر كالعيان)[1]؟

ولهذا طلب إبراهيم الرؤية ليعايش تلك الحقـائق الإيمانيـة، ويطمئن بها ولها.. قال تعالى يذكر ذلك: وَإِذْ قَالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَـلٍ مِّنْهُنَّ جُـزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَـكَ سَـعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ (260) (البقرة)؟

وهذا ليس خاصا بإبراهيم عليه السلام، بـل إن اللـه تعـالى لكل إنسـان إذا مـا اسـتيقظ من نـوم غفلتـه أن يـرى الحقـائق بقلبه، ويطمئن لها، وتلك اليقظة.

وقد ورد في الحديث أن بعض الصحابة قـال لرسـول اللـه ﷺ:يا رسول اللّه، نكون عنـدك تـذكّرنا بالنّـار والجنّـة، حتّى كأنّـا رأي عين، فـــإذا خرجنـــا من عنـــدك، عافســـنا الأزواج والأولاد والضّيعات، نسينا كثـيرا، فقـال رسـول اللّـه : (والّـذي نفسـي بيــده إن لــو تــدومون على مــا تكونــون عنــدي، وفي الــذّكر، لصافحتكم الملائكـة على فرشـكم وفي طـرقكم، ولكن سـاعة وساعة)[2]

ولهذا، فـإن اليقظـة تتطلب أمـرين لا يمكن أن تحقـق من دونهما:

أولهما: التعرف على الحقـائق الـتي يقـوم عليهـا الكـون،

1() روى كثيرون منهم أحمـد وابن حبـان قولـه :(يـرحم اللـه موسـى ليس المعـاين كالمخبر أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعـاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ما تكسر)

2() رواه مسلم.

مثلما يتعرف المستيقظ على المحل الذي هو فيه، والـذي كـان غافلا عنه بالنوم..

والثاني: أن يتعرف على نفسه وحقيقته ومحلـه وكـل مـا يرتبط به، ليؤدي الوظائف المناطة به، والتي كـان النـوم يحـول بينه وبينها.

وكل هذا يشبه المسـتيقظ من النـوم تمامـا.. فالمسـتيقظ يعرف حقيقته وحقيقة ما يحيط به.. بخلاف النائم الـذي انشـغل عن كلا المعنيين.

ولتعلم حقيقة هذا تحتاج إلى التعرف على الفرق بين رؤية الحقائق والعلم بها.. فالعلم قد تجده عند أكثر النـاس، بـل عنـد أغلظهم طبعا.. لكن الكثـير ينشـغل عن العلم بالجهـل، فيغطي جهله علمه.. فلـذلك يحتـاج إلى أن يبصـر الحقـائق حـتى يتغلب علمه على جهله.

ومن الأمثلة على ذلك الموت، فإنه عند كل الناس ما عــدا المستيقظ لا ينطبق عليه إلا تلك المقولـة المشـهورة: (لم نجـد يقينا أشـبه بالشـك من المـوت)، أمـا المسـتيقظ؛ فـإن المـوت عنده حقيقة حاضرة يعيشـها.. ويلـتزم بلوازمهـا.. فلا يـركن إلى الدنيا ولا يركن إلى الأهواء، ولا ينشغل بالعاجلة عن الباقية..

وقد روي عن بعض الصـالحين، وحالـه في اسـتيقاظه، أنـه قـال: (مثّلت نفسـي في الجنـة آكـل من ثمارهـا، وأشـرب من أنهارها، ثم مثّلت نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صـديدها، وأعـالج سلاسـلها وأغلالهـا، فقلت لنفسـي: أي شـيء تريـدين؟ قـالت: أريـد أن أرد إلى الـدنيا فأعمـل صـالحا. قـال: قلت: فأنت في الأمنية فاعملي)

وحدثوا عن آخر أنه كان يقرأ الآيـة ويكررهـا، ويتلـذذ بـذلك

كما يتلذذ أحدنا بالعسل، وعندما سئل عن سر ذلك قـال: (كنت أقـرأ القـرآن ولا أجـد لـه حلاوة، فقلت لنفسـي: اقرئيـه كأنـك سمعتيه من رسول الله ، فجاءت حلاوة قليلة، فقلت لنفسـي: اقرئيـه كأنـك سـمعتيه من جبريـل ﷺ حين يخـبر بـه النـبي فازدادت الحلاوة، ثم قلت لها: اقرئيـه كأنـك سـمعتيه حين تُكِّلم به، فأتت الحلاوة كلها)

انظر ـ أيها المريد الصادق ـ إلى هذا المستيقظ كيف صـار يسمع الكلام من ربه.. هذه هي اليقظة الحقيقية التي دعـا اللـه تعالى خلقه إليها، وبلغ دعوته أنبياءه ورسله وأولياءه.

وهي اليقظـة الـتي ذكرهـا الحكمـاء، واعتنـوا بـالبحث في حقيقتها، ومجالاتها، ودرجتها، وكيفية تحصيلها.

وقد قال بعضهم يذكر حقيقتهـا: (حقيقـة اليقظـة: هي نـور قدحه الله تعـالى بزيـادة الإيمـان بيـد اليقين في حـراق الـوهم، فأشعل مصباح البصيرة في ليل الظلمة الطبيعية)[1]

وقـال آخـر: (اليقظـة: هي القومـة للـه من سـنة الغفلـة، والنهـوض من ورطـة الفـترة. وهي أول مـا يسـتنير قلب العبـد بالحياة لرؤية نور التنبيه [2]

وقال آخـر: (اليقظـة: هي الفهم عن اللـه في زجـره، فـإذا فهمت عن الله انتبهت)[3]

وقـال آخـر: (اليقظـة: هي انتبـاه النفس من سـنة الغفلـة

1() الباعث على الخلاص في أحوال الخواص، ص 1.

2() منازل السائرين، ص 11 (بتصرف).

3() الفتوحات المكية، ج 2 ص 128.

بداعية الموعظة الحسنة، بلسان المخيلة الصالحة)[1]

وقال آخر: (اليقظة: هي الانتباه من الغفلة والطريق المؤدي لصحة المجاهدة)[2]

وذكر آخر غايتها، فقال (وغايتها: النظر في تحصيل أسباب النجاة)[3]

وذكر آخر المنبهات التي تعين النائم على الاستيقاظ، فقال: (اليقظة هي ثلاثة أشياء: الأول: لحظ القلب إلى النعمة على الإياس من عدها، والوقوف على حدها، والتفرغ إلى معرفة المنة بها والعلم بالتقصير في حقها.. والثاني: مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها، والتشمر لتداركها والتخلص من ربقها، وطلب النجاة بتمحيصها.. والثالث: الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان في الأيام، والتنصل عن تضييعها، والنظر إلى الظن بها ليتدارك فائتها ويعمر باقيها)

ثم شرح كيفية تحصيل كل واحد منها، فقال: (فأما معرفة النعمة فإنها تصفو بثلاثة أشياء: بنور العقل، وشيم برق المنة، والاعتبار بأهل البلاء.. وأما مطالعة الجناية فإنها تصح بثلاثة أشياء: بتعظيم الحق، ومعرفة النفس، وتصديق الوعيد.. وأما معرفة الزيادة والنقصان في الأيام فإنها تستقيم بثلاثة أشياء: بسماع العلم، وإجابة دواعي الحرمة، وصحبة الصالحين. وملاك ذلك كله: خلع العادات)[4]

1() الباعث على الخلاص في أحوال الخواص، ص 1.

2() معالم الطريق إلى الله، ص 309.

3() معالم الطريق إلى الله، ص 1.

4() منازل السائرين، ص 11، 13.

الإرادة:

أما الإرادة؛ فإنها ذلك الانزعاج الـذي يصـيب النفس نتيجـة تقصيرها، وخوفا من مصيرها، وشوقا للجمال الـذي كـان مغيبـا عنهـا بسـبب نومهـا.. ولـذلك تحث صـاحبها وتدفعـه بقـوة إلى استعمال كل الوسائل للتغيـير والتجـدد وتصـحيح كـل مـا فـرط فيه.

وقد عرفها بعضـهم، فقـال: (الإرادة: هي توديـع الوسـادة.. وأن تحمل من الوقت زاده.. وأن يألف سهاده، ويهجـر رقـاده.. وهي لوعة تهون كل روعة.. وهي اهتجاج اللب، وانزعاج القلب)[1]

وقال آخر: (الإرادة: هي قصد الوصول إلى المحبوب بنعت المجاهدة، أو التحبب إلى الله بما يرضى، والخلوص في نصـيحة الأمة، والأنس بالخلوة، والصبر على مقاساة الأهوال، ومنـازلات الأحوال، والإيثار لأمره، والحياء من نظـره، وبـذل المجهـود في محبوبه، والتعرض لكل سبب يوصل إليه، وصحبة من يدل عليه، والقناعـــة بـــالخمول، وعـــدم ســـكون القلب إلى شـــيء دون الوصول. وهي أول منـزلة القاصدين، وبدء طريق السالكين)[2]

وقال آخـر: (الإرادة: حبس النفس عن مراداتهـا، والإقبـال على أوامر الله، والرضا بموارد القضاء عليه)[3]

وقـال آخـر: (الإرادة: سـمو القلب لطلب المـراد، وحقيقـة

1() أربع رسائل في التصوف لأبي القاسم القشيري، ص 64.

2() معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 13.

3() طبقات الصوفية، ص 351.

0

الإرادة استدامة الجد وترك الراحة)[1]

وقال آخر: (الإرادة: هي لوعة في الفؤاد، لدغة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تتأجج في القلوب)[2]

وقـال آخـر: (الإرادة: هي إرادة الطلب من اللـه تعـالى، وإرادة الحظ من الله تعالى، وإرادة الله سبحانه. فإرادة الطلب موضع التمني، وإرادة الحظ موضع الطمع، وإرادة الحق موضـع الإخلاص)[3]

وقـال آخـر: (الإرادة: انبعـاث القلب إلى مـا يـراه موافقـاً للغرض، أما في الحال أو في المآل)[4]

وهي تصحب السـالك في كـل مراحـل سـلوكه إلى نهايتـه التي لا نهاية لها.. بـل لولاهـا لم يتحقـق سـلوك السـالكين.. فلا يمكن أن يتم سلوك من دون إرادة، كما عـبر بعضـهم عن ذلـك بقوله: (الإرادة: بدء طريـق السـالكين، وهي إسـم لأول منـزلة القاصدين إلى الله تعالى، وإنما سـميت هـذه الصـفة إرادة: لأن الإرادة مقدمة كل أمر، فما لم يرد العبـد شـيئاً لم يفعلـه، فلمـا كـان أول الأمـر لمن سـلك طريـق اللـه عـز وجـل سـمي إرادة تشبيهاً بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها)[5]

وهي بذلك ليست مرتبطة بالمؤمنين السـالكين فقـط، بـل

1() غنية الطالبين في إيضاح طريق المشايخ العارفين، ص 35.

2() الرسالة القشيرية، ص 158.

3() الرسالة القشيرية، ص 56، 57

4() إحياء علوم الدين، ج 4ص 336.

5() الرسالة القشيرية، ص 156، 157.

هي عامة لكل الخلق.. فحقيقة الإنسان تكمن في مراداته الـتي يختارها بمحض حريته، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَـانَ يُرِيـدُ الْعَاجِلَـةَ عَجَّلْنَـا لَـهُ فِيهَـا مَـا نَشَـاءُ لِمَنْ نُرِيـدُ ثُمَّ جَعَلْنَـا لَـهُ جَهَنَّمَ يَصْـلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَـا سَـعْيَهَا وَهُـوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كُلًّا نُمِدُّ هَـؤُلَاءِ وَهَـؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَـاءُ رَبِّكَ مَحْظُـورًا﴾ [الإسـراء: 18 - 20]

فالله تعالى ــ كما تـذكر الآيـات الكريمـة ــ يمـد الجميـع بحسب ما تقتضيه رغباتهم في الدنيا.. ثم يعاينون بعد ذلك نتائج اختياراتهم التي لم يظلموا فيها، ولم يرغموا عليها.

وحين ذاك يعرف الخلـق جميعا قيمـة الـذين اختـاروا اللـه وأرادوه، والذين كانوا ربما من المحتقرين في الـدنيا، كمـا قـال تعالى:﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَـابِهِم مِّن شَـيْءٍ وَمَـا مِنْ حِسَـابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)﴾ (الأنعام)

واعتبر أهلهـا من المفلحين، فقـال:﴿ فَـآتِ ذَا الْقُـرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْـكِينَ وَابْنَ السَّـبِيلِ ذَلِـكَ خَيْـرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيـدُونَ وَجْـهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38)﴾ (الروم)

ولهذا ذكرها رسول الله ﷺ في أحاديث كثـيرة، واعتـبر أنهـا مثـل النيـة هي المحـددة لقيمـة الأعمـال، قيم أصـحابها، ففي الحديث عن جابر قـال: كنـا مـع النـبي ﷺ في غـزاة فقـال: (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم؛ حبسهم المرض)، وفي رواية: (إلا شركوكم في الأجر)[1]

وقال ﷺ: (من سأل الله تعالى الشـهادة بصـدق بلَّغـه اللـه

---

(1) رواه مسلم.

منازل الشهداء وإن مات على فراشه)[1]

وهكـذا أخـبر رسـول اللـه ﷺ أن الإرادة يمكنهـا أن تـنزل الإنسان أي منزلة يريـدها، حـتى لـو لم يكن معهـا عمـل.. فهي تنزل المؤمن منازل الشهداء حتى لو مات على فراشه.. وتنزله منازل الكرماء حتى لو لم ينفق دينـارا ودرهمـا.. وتنزلـه منـازل المجاهدين حتى لو لم يخرج من بيته.

بل إن رسول الله ﷺ قسم أصـناف النـاس على أساسـها، فقال: (إنما الدنيا لأربعة نفر: عبـد رزقـه اللـه مـالا وعلمـا فهـو يتقي فيـه ربـه، ويصـل فيـه رحمـه، ويعلم للـه فيـه حقـا، فهـذا بأفضـل المنـازل، وعبـد رزقـه اللـه علمـا ولم يرزقـه مـالا فهـو صادق النية يقول: لو أن لي مـالا لعملت بعمـل فلان فهـو بنيتـه فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغـير علم لا يتقي فيـه ربـه، ولا يصـل فيـه رحمـه، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيـه بعمـل فلان فهـو بنيته فوزرهما سواء)[2]

فقـد أخـبر رسـول اللـه ﷺ بـأن النيـة الصـادقة، والرغبـة الأكيدة، والإرادة الجازمة، يمكنها أن تصل بالإنسـان وحـدها إلى أرقى المراتب.

وبما أن مراتب السالكين لا نهاية لهـا.. فكـذلك مـراداتهم، تكـون تابعـة للمنـازل الـتي يحلـون بهـا.. وفضـلهم يكـون على أساسها.

ولهـذا صـنف الحكمـاء الإرادة بحسـب نـوع المـرادات إلى

1() رواه مسلم.

2() رواه الترمذي (2325)، وأحمد (18031)

درجات كثيرة، عبر عنها بعضـهم بقولـه: (الإرادة: حليـة العـوام، وهي تجريـد القصـد إلى اللـه تعـالى، وجـزم النيـة والجـد في الطلب له، وذلك في طريق الخواص نقص وتفـرق ورجـوع إلى الأســباب والنفس، فــإن إرادة العبــد عين حظــه وهــو رأس الدعوى. وإنما يراد بالعبد من الله لا فيما يريد، قال الله تعـالى: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: 107]، فيكون مراده ما يراد به ممـا ورد في الشـرع بإرادتـه واختيـاره مـا يختـار لـه بالشـرع، إذ لا اختيـار للعبـد مـع ربـه وسـيده، ولا إرادة لـه مـع إرادته)[1]

أمـا كيفيـة التحقـق بهـا، فقـد أشـار إلى مجامعهـا الإمـام الصادق، فقال:

(أُوصيك بتسعة أشياء فإنّها وصـيّتي لمريـدي الطريـق إلى الله تعالى، واللـه أسـأل أن يوفّقـك لاسـتعماله، ثلاثـةٌ منهـا في رياضـة النفس، وثلاثـةٌ منهـا في الحلم، وثلاثـةٌ منهـا في العلم، فاحفظها وإيّاك والتهاون بها، أمّا اللّواتي في الرياضة: فإيّاك أن تأكل مالا تشتهيه فإنّه يـورث الحماقـة والبلـه، ولا تأكـل إلّا عنـد الجوع، وإذا أكلت فكل حلالاً وسمّ الله، واذكـر حـديث الرسـول ﷺ: مـاملأ آدميٌّ وعـاءاً شـرّاً من بطنـه فـإن كـان ولابـدّ فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشـرابه وثلثٌ لنفسـه.. وأمّـا اللّـواتي في الحلم: فمن قـال لـك: إن قلت واحـدةً سـمعت عشـراً فقـل: إن قلت عشراً لم تسمع واحدةً، ومن شـتمك فقـل لـه: إن كنت صـادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذبـاً فيمـا تقـول فالله أسأل أن يغفر لـك، ومن وعـدك بـالخنى فعـده بالنصـيحة والرعـاء.. وأمّـا اللّـواتي في العلم: فاسـأل العلمـاء مـاجهلت، وإيّاك أن تسألهم تعنّتاً وتجربةً وإيّاك أن تعمل برأيك شيئاً، وخـذ بالاحتياط في جميع ماتجد إليه سبيلاً، واهـرب من الفتيـا هربـك

1() محاسن المجالس، ص 76، 77.

من الأسد، ولاتجعل رقبتك للناس جسراً) [1]

ومما يعين على ذلك أيضا مـا ذكـره بعض الحكمـاء، فقـال مخاطبا تلاميذه[2]: (اعلموا يا من اصطفاكم الله لإرادته أن أول الطريق باعث قـوي يقـذف في قلب العبـد يــحثه على الإقبـال على اللـه والـدار الآخـرة، والإعـراض عن الـدنيا وعمـا الـخلــق مشغولون به من عمارتـها وجمعها والتـمتع بشـهواتها والاغـترار بزخارفها.. وهذا الباعث من جنود الله الباطنة، وهو من نفحــات العنايــة وأعلام الهدايــة، وكثــيرا مــا يفتح بــه على العبــد عنــد التخويف والترغيب والتشويق، وعند النظر إلى أهل اللـه تعـالى والنظر منهم، وقد يقع بدون سبب.. والتعرض للنفحـات مـأمور به ومرغب فيه والانتظار والارتقاب بدون التعرض ولزوم البــاب حمق وغباوة)

وقال آخـر ذاكـرا كيفيـة التعامـل مـع هـذا الفضـل الإلهي: (ومن أكرمه الله بهذا الباعث الشريف فليعرف قـدره المـنيف، وليعلم أنـه من أعظم نعم الله تعالى عليه الـتي لا يقـدر قـدرها ولا يـبلغ شـكرها فلــيبالغ في شـكر اللـه تعـالى على مـا منحـه وأولاه، وخصه به من بين أشـكاله وأقرانـه فكم من مسـلم بلـغ عمره ثمانين سنة وأكثر لم يجد هـذا البـاعث ولم يطرقـه يومـا من الدهر)

وقـال آخـر ذاكـرا كيفيـة تقويتـه لنيـل المزيـد من بركاتـه: (تقوونه بكثرة ذكر لله، والفكر فيما عند الله، والمجالسة لأهــل الله.. وتحفظونه بالبعد عن مجالسة المحجوبين، والإعراض عن وسوســة الشــياطين، وبــأن تبــادروا بالإنابــة إلى اللــه تعــالى،

1() بحار الأنوار (1/ 226)

2() الكلام الوارد هنا منقول بتصرف من [رسالة آداب سلوك المريد] للشيخ الحبيــب عبد الله بن علوي الحداد الحضرمي الشافعي.

وبالصدق في الإقبال عليه)

وقال آخر داعيا إلى عدم الاهتمام بالذرائع التي تتـذرع بهـا النفس: (سيروا إلى اللـه عرجـا ومكاسـير ولا تنتظـروا الصـحة فـإن انتظـار الصـحة بطالـة.. فـإن إحـالتكم العمـل على وجـود الفراغ من رعونات النفوس)

وقال آخر داعيا إلى تفعيل الإرادة في تصحيح كل الأخطـاء السابقة: (أول شـيء يبـدأ بـه المريـد الصـادق في طريـق اللـه تصحيح التوبة إلى الله تعالى من جميع الذنوب، وإن كـان عليـه شيء من المظالم لأحد من الخلق فليبادر بأدائها إلى أربابها إن أمكن وإلا فيطلب الإحلال منهم، فإن الذي تكون ذمــته مرتهنـة بحقوق الخلق لا يمكنـه السـير إلى الحـق.. وليكن المريـد على الـدوام في غايـة من الاعـتراف بالتقصـير عن القيـام بمـا يجب عليه من حق ربه، ومتى حـزن على تقصـيره وانكسـر قلبـه من أجله فليعـلم أن الله عنده إذ يقول سبحانه: أنا عنـد المنكسـرة قلوبهم من أجلي)

وقال آخر داعيا إلى مراقبة القلب وكل ما يؤثر فيه: (على المريد أن يحترز من أصغر الـذنوب فضـلا عن أكبرهـا أشـد من احترازه من تناول السم القاتل، ويكـون خوفـه لـو ارتكب شـيئا منها أعظم من خوفه لو أكل السم، وذلك لأن المعاصـي تعمـل في القلوب عمل السم في الأجسام، والقلب أعز على المؤمن من جسمه بل رأس مـال المريـد حفـظ قلبـه وعمارتـه.. وعلى المريــد أن يجتهــد في حفــظ قلبــه من الوســاوس والآفــات والخواطر الرديـة، وليــقم على بـاب قلبـه حاجبـا من المراقبـة يمنعها من الدخول إليه فإنهـا إن دخلتـه أفسـدته، ويعــسر بعـد ذلك إخراجها منه.. وليبالغ في تـنقية قلبه الذي هو موضـع نظـر ربه من الميل إلى شــهوات الـدنيا، ومن الحقـد والغـل والغش

لأحـد من المسـلمين، ومن الظـــن السـوء بأحـد منهم، وليكن ناصحا لهم رحيما بهم مشفقا عليهم، معتقـدا الخـير فيهم، يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم مـا يكـره لنفسـه من الشر.

وقال آخر داعيا إلى مراقبة الجـوارح، وكـل مـا ينتج عنهـا: (على المريد أن يجتهد في كف جوارحه عن المعاصـي والآثـام، ولا يحرك شيئا منها إلا في طاعـة، ولا يعمـل بهـا إلا شـيئا يعـود عليه نفعـه في الآخـرة. وليبـالغ في حفـظ اللسـان فـإن جرمـه صغير وجرمه كبـير، فليكفـه عن الكـذب والغيبـة وسـائر الكلام المحظـور، وليحـترز من الكلام الفـاحش، ومن الخـوض فيمـا لا يعنيـه، وإن لم يكن محرمـا فإنـــه يقـــسي القلب، ويكــون فيـه ضياع الوقت، بل ينبغي للمريـد أن لا يحـرك لسـانه إلا بتلاوة أو ذكر أو نصح لمسلم أو أمر بمعروف أو نهي عن منكـر أو شـيء من حاجات دنياه التي يستعين بها على أخراه)

وقال آخر يصف المريـدين الصـادقين[1]: (لا يكـون المريـد مريدا حتى يجد في القرآن كل مـا يريـد، ويعـرف النقصـان من المزيد، ويسـتغني بـالمولى عن العبيـد، ويسـتوي عنـده الـذهب والصـعيد.. والمريـد من حفـظ الحـدود، ووفى بـالعهود، ورضـي بالموجود، وصبر عن المفقود.. والمريد من شكر على النعمــاء، وصبر على البلاء، ورضي بمـر القضـاء، وحمـد ربـه في السـراء والضــراء، وأخلص لــه في الســر والنجــوى.. والمريــد من لا تسـترقه الأغيـار، ولا تسـتعبده الآثـار، ولا تغلبـه الشـهوات، ولا تحكم عليه العادات. كلامه ذكر وحكمـة، وصـمته فكـرة وعـبرة، يسبق فعله قوله ويصدق علمه عمله، شعاره الخشوع والوقــار، ودثاره التواضع والانكسار، يتبع الحق ويـؤثره، ويـرفض الباطـل وينكره، يحب الأخيار ويواليهم، ويـبغض الأشرار ويعاديهم، خبره

1() هذه كلمات متفرقة من علامات المريد الصادق.

أحسن من خـبره، ومعاشـرته أطيب من ذكـره، كثـير المعونـة، خفيف المؤونة، بعيد عن الرعونة)

وقـال آخـر: (المريـد الصـادق أمين مـأمون، لا يكـذب ولا يخون، لا بخيلا ولا جبانا، ولا سبابا ولا لعانا، ولا يشتغل عن بــده، ولا يشح بما في يده، طيب الطوية، حسن النية، ساحته من كل شر نقية، وهمته فيما يقربه من ربـه عليـة، ونفسـه على الـدنيا أبية، لا يصر على الهفوة، ولا يقدم ولا يحجم بمقتضى الشــهوة، قرين الوفاء والفتوة، حليف الحياء والمروة، ينصف كل أحد من نفسه ولا ينتصف لها من أحد. إن أعطي شـكر، وإن منـع صـبر، وإن ظلم تـاب واسـتغفر، وإن ظلم عفـا وغفـر، يحب الخمـول والاستتار، ويكره الظهور والاشتهار، لسانه عن كـل مـا لا يعنيـه مخزون، وقلبه على تقصيره في طاعـة ربـه محـزون، لا يـداهن في الدين ولا يرضـي المخلـوقين بسـخط رب العـالمين، يـأنس بالوحدة والانفراد، ويستوحش من مخالطـة العبـاد، ولا تلقـاه إلا على خير يعمله، أو علم يعلمه، يرجي خـيره، ولا يخشـى شـره، ولا يؤذي من آذاه، ولا يجفو من جفاه)

وقال آخر: (المريد الصادق كالنخلة ترمى بـالحجر فـترمي بالرطب، وكالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخـرج منهـا إلا كـل مليح، تلوح أنوار صدقه على ظاهره، ويكاد يفصح مـا يـرى على وجهه عما يضـمر في سـرائره، سـعيه وهمتـه في رضـا مـولاه، وحرصه ونهمته في متابعة رسوله وحبيبه ومصطفاه، يتأسى بـه في جميع أحواله، ويقتدي به في أخلاقه وأفعاله وأقواله)

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على التحقــق بهــذه الصــفات، لتنــال أعلى الــدرجات، وتفــوز بأسمى الغايات؛ فلا سعادة إلا لمن وجه إرادته إلى عــالم النــور والجمال، ولم يتثاقل إلى الدنيا، ولم يركن إلى الأهواء.

الهمة العالية

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الهمة العالية وعلاقتها بـالإرادة والعزيمـة، والصـدق والإخلاص، وعلاقتهـا بعـد ذلك كله بالنفس اللوامة والمطمئنة.. وكيفية التحقق بها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لـك أن الهمـة العاليـة من مراتب كمال النفس المطمئنة، وليست من الضرورات اللازمـة لها إلا في حدها الأدنى..

ذلـك أن النفس المطمئنـة يختلـف أصـحابها ــ كمـا تـذكر النصـوص المقدسـة ــ بين الصـالحين من أصـحاب اليمين من الذين اكتفوا بتزكية أنفسهم وتطهيرهـا لتتحقـق لهم النجـاة من النار، والفوز بالجنة ورضوان الله.. وبين المقربين الذين أضافوا إلى ذلك الاهتمام بالرقي للتعـرف على اللـه، والتواصـل الـدائم معه، وجعلـوا ذلـك همهم الأكـبر، وغـايتهم القصـوى، فلـذلك لم يكتفـوا بـالطمع في فضـل اللــه، وإنمـا راحـوا يسـيرون إليـه ويجاهدون أنفسهم لتصبح أهلا لذلك.

والفرق بينهما ـ أيها المريد الصادق ـ واضح؛ فالذي يتقـرب من ملـك من ملـوك الـدنيا ليحقـق بعض المكاسـب البسـيطة لنفسه، يختلف عن الذي لا يكتفي بـذلك، وإنمـا يريـد أن يقربـه الملك منه.. فالتقريب يحتاج همة أعظم، ومجاهدة أكبر.

ولهـذا؛ فـإن الهمـة العاليـة هي الـتي تحـدد وجهـة الإرادة ونهايتها.. ذلك أن الإرادة هي تلك الدوافع المحركة للعمل، وهي تختلف باختلاف درجات أصحابها وهممهم.

وهي كذلك التي تحدد درجة الصدق.. وتفـرق بين الصـادق والصديق.. فالصادق هو الذي يكتفي بالصدق في حدوده الدنيا..

والصديق هـو الـذي لا يكتفي بـذلك.. بـل يظـل متلهفـا للتحقـق التام بحقيقته، كما هي في الواقع.. وذلك ما يقتضي منه السـير الدائم الذي لا توقف فيه ولا كسل ولا ملل.

وهي كذلك التي تحدد درجة الإخلاص.. فالمخلص قد يطمع في فضل اللـه، وقـد يكـون ذلـك الفضـل هـو المحـرك لـه إلى العمل والمجاهدة، بينما صاحب الهمة العالية، لا يحركـه إلا اللـه نفسه.. رغبة في التعرف عليه والتواصل معه.

وبذلك؛ فإن الهمة العالية ـ أيها المريد الصادق ـــ هي الـتي تفرق بين أصحاب الدرجات العليا ومن دونهم من الذين يكتفون بالحدود الدنيا من أي محـل أو مـنزل أو مقـام أو حـال يكونـون عليه.

ولهذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ بألا يصبر صبرا عاديا، وإنما يصبر صبر أولي العزم من الرسـل، فقـال: ﴿فَاصْـبِرْ كَمَـا صَـبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، وفي ذلـك إشـارة إلى أن الصبر يختلف باختلاف همم أصحابه.

ومثل ذلك أخبر عن إبراهيم عليه السلام، وأثنى عليـه ثنـاء كثيرا، بل اعتبر أنه كان أمة قائمـة، قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ إِبْـرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًـا وَلَمْ يَـكُ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (120) شَـاكِرًا لِأَنْعُمِـهِ اجْتَبَـاهُ وَهَـدَاهُ إِلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَـاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّـالِحِينَ ﴾ [النحـل: 120 - 122]

وكل ذلك لهمته العالية، والتي عبر عنها القرآن الكريم عند ذكره لتأملاته في الكون، عندما رغب عن الآفلين، قـال تعـالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُـونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْـهِ اللَّيْـلُ رَأَى كَوْكَبًـا قَـالَ هَـذَا رَبِّي

فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَـرَ بَازِغًـا قَـالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَـلَ قَـالَ لَئِنْ لَمْ يَهْـدِنِي رَبِّي لَأَكُـونَنَّ مِنَ الْقَـوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَـرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْـرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَـرَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًـا وَمَـا أَنَـا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 75 - 79]

وقـد ذكـر بعض الحكمـاء المعـنى الـذي تشـير إليـه هـذه الآيات، وارتباطه بهمـة إبـراهيم عليـه السـلام، ودور الهمـة في ذلك، فقال: (وليس المعنى بالكواكب التي رآهـا هـذه الأجسـام المضيئة، فإنه كـان يراهـا في الصـغر، ويعلم أنهـا ليسـت آلهـة، وهي كثيرة وليست واحدا.. والجهال يعلمـون أن الكـوكب ليس بإله. فمثل إبراهيم عليه السّـلام لا يغـره الكـوكب الـذي لا يغـر السـوادية.. ولكن المـراد بـه أنـه نـور من الأنـوار الـتي هي من حجب اللّـه عـز وجـل، وهي على طريـق السـالكين، ولا يتصـور الوصـول إلى اللّـه تعـالى إلا بالوصـول إلى هـذه الحجب، وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض، وأصـغر النـيرات الكـوكب، فاستعير له لفظه، وأعظمها الشمس، وبينهما رتبـة القمـر. فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السـموات يصـل إلى نور بعد نور، ويتخيل إليه في أوّل ما كان يلقاه أنه قد وصل، ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا، فيترقى إليه ويقـول قـد وصـلت، فيكشف له ما وراءه حتى وصـل إلى الحجـاب الأقـرب الـذي لا وصول إلا بعده، فقال هذا أكبر.. فلما ظهـر لـه أنـه مـع عظمـه غير خال عن الهوى في حضـيض النقص، والانحطـاط عن ذروة الكمال قال: يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْـرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَـرَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًـا وَمَـا أَنَـا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 78ـ 79]، وسالك هذه الطريق قد يغـتر في الوقوف على بعض هذه الحجب، وقد يغـتر بالحجـاب الأول.

وأول الحجب بين اللّـه وبين العبـد هـو نفسـه. فإنـه أيضـا أمـر ربانى، وهو نور من أنـوار اللّـه تعـالى، أعـنى سـر القلب الـذي تتجلى فيـه حقيقـة الحـق كلـه، حـتى أنـه ليتسـع لجملـة العـالم ويحيط به، وتنجلي فيـه صـورة الكـل. وعنـد ذلـك يشـرق نـوره إشراقا عظيما، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليـه، وهـو في أول الأمـر محجـوب بمشـكاة هي كالسـاتر لـه، فـإذا تجلى نوره، وانكشف جمال القلب بعد إشراق نـور اللّـه عليـه، وربمـا التفت صـاحب القلب إلى القلب، فـيرى من جمالـه الفـائق مـا يدهشه، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول: أنا الحـــق. فإن لم يتضح له ما وراء ذلك اغتر به، ووقف عليه وهلك، وكـان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية، ولم يصـل بعـد إلى القمر فضلا عن الشمس. فهو مغرور) [1]

وهكذا؛ فإن السالكين طريق الله، وإن اتفقـوا في الوجهـة إلا أنهم يختلفون في المحال الـتي يـنزلون فيهـا، فبينمـا يكتفي بعضهم بالمحال الدنيا، يرتقي آخرون إلى ما فوقهـا.. إلى مـا لا نهاية لذلك.

وليس ذلك خاصا بالمعارف أو بـالقيم الروحيـة فقـط، بـل يشمل كل شيء ابتـداء من القيم الأخلاقيـة والسـلوكية؛ ففـرق كبير بين من يكتفي بكظم الغيض عندما يؤذى، وبين من يتفضل على من آذاه بالأحسان، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِـرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـهَا السَّـمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِـدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُـونَ فِي السَّـرَّاءِ وَالضَّـرَّاءِ وَالْكَـاظِمِينَ الْغَيْـظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: 133، 134]

وفـرق كبـير بين من يكتفي بالصـفح، ومن يصـفح الصـفح

[1]() إحياء علوم الدين، 11/127.

الجميـــل، قـــال تعـــالى: ﴿وَإِنَّ السَّـــاعَةَ لَآتِيَـــةٌ فَاصْـــفَحِ الصَّـــفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: 85]

وفـــرق كبـــير بين من يكتفي بالصـــبر، ومن يصـــبر الصـــبر الجميل، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [المعارج: 5]

وهكذا؛ فإن لكل قيمـة من القيم الأخلاقيـة مـراتب كثـيرة، وصاحب الهمة العاليـة هـو الـذي لا يكتفي بالحـد الأدنى.. وإنمـا تدعوه همته إلى المزيد الذي لا نهاية له.

وهكذا في القيم الروحية؛ فصاحب الهمـة العاليـة لا يكتفي بالفرائض، وإنما يضم إليها النوافـل.. ولا يكتفي بالـذكر القليـل، بل يسارع إلى الذكر الكثير.. ويكـون حالـه كحـال أولئـك الـذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَـا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًـا وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـرَّةِ أَعْيُنٍ جَـزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 15 - 17]

ولهذا لا يكتفي باتباع عامـة النـاس البسـطاء، وإنمـا يكـون قدوتـه الرسـل وورثتهم من الـذين اكتملت لهم الهدايـة، وكمـل عندهم الصدق، كما قال تعالى ـ بعد ذكره للأنبياء عليهم السلام ـ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]

وهكـذا في وظائفـه الرسـالية، لا يقـف موقـف المحايـدين السـاكنين الخاضـعين الـذين يتملصـون من مسـؤولياتهم اتباعـا للرخص، وإنما يضحي بكل شيء في سبيل رسـالته اتباعـا للأنبيـاء عليهم السلام وورثتهم الصادقين.

ولهذا لم ينصر اللـه تعـالى رسـله عليهم السـلام بـالمعجزات التي تقطع دابر المعتدين، وإنما نصرهم بجهودهم الشخصية، وبتلك

الهمم العالية الـتي لا تبـالي في سـبيل اللـه مـا يصـيبها من ضـيق وضنك وألم حتى يصبحوا حججا لأممهم في ذلك.

ولهذا قال الله تعالى على ألسنة رسـله مخـاطبين أقـوامهم: ﴿ وَلَنَصْــبِرَنَّ عَلَى مَــا آذَيْتُمُونَــا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُــونَ ﴾ (إبراهيم:12)

أما محمد ﷺ.. قـدوتنا الأكـبر، وأسـوتنا الأعظم، فـأنت تعلم ـ أيها المريد الصادق ـ ما حصل لـه.. لقـد أُخـرج من داره من مكـة، ورُجم بالحجارة في الطائف حتى سـال دمـه، وهـاجر إلى المدينـة فارًا بدعوته، وجاهد حتى كسرت رباعيته، وشج وجهه، وكان يــؤذى في صلاته، وهو بمكة قبل الهجرة، ويوضع السلى على ظهره أثنـاء ركوعه وسجوده، وما زاده ذلك إلا إصرارًا وعزمًا وثباتًا وصبرًا.

لقد أنـزل على رسـول اللـه ﷺ في تلـك المواقـف الشـديدة آيات كثيرة لا تدعوه إلا إلى الثبات والصبر.. فبهما وحـدهما يتحقـق التمكين..

وفي بعض تلــك المواقــف الشــديدة جــاءه خبــاب بن الأرت فقال: ألا تستنصـر لنـا؟ ألا تـدعو لنـا؟ فقـال: (قـد كـان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفـر لـه في الأرض فيجعـل فيهـا، فيجـاء بالمنشـار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشـاط من حديـد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه)[1]

فرســول اللــه ﷺ دعــاهم بــذلك إلى رفــع هممهم والاقتــداء بالصادقين من أتباع الأنبياء عليهم السلام، باعتبارهم المثل الأعلى.

ولهذا أخبر ﷺ عن الفرق بين طاقات التحمل، والـتي تحـددها أنــواع الهمم، فقــال: (إن عظم الجــزاء مــع عظم البلاء، وإن اللــه تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضـي فلـه الرضـا، ومن سـخط

1() رواه البخاري.

فله السخط)[2]

وأخبر الله تعالى عن الفرق بين المؤمنين من أصـحاب الهمم العالية ومن دونهم، فقال: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَـا عَاهَـدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَـا بَـدَّلُوا تَبْـدِيلاً (الأحزاب:23)

وهكـذا أخـبر عن الفـروق بين المؤمـنين بسـبب أعمـالهم ومواقفهم التابعة لهممهم، ومن ذلـك قولـه: لَا يَسْـتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَـلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَـةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُـوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا [الحديد: 10]

وقـال: لَا يَسْـتَوِي الْقَاعِـدُونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ غَيْـرُ أُولِي الضَّـرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِـدِينَ بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ عَلَى الْقَاعِـدِينَ دَرَجَـةً وَكُلًّا وَعَـدَ اللَّهُ الْحُسْـنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 95، 96]

وقال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَـدُوا بِـأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَـاجِرُوا مَـا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ حَتَّى يُهَـاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَـرُوكُمْ فِي الـدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْـرُ إِلَّا عَلَى قَـوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [الأنفال: 72]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تدعو المؤمـنين إلى الاهتمـام بالترقي بهممهم إلى أرفع المراتب، وعدم اتباع الرخص التي تـنزل بهم عنها.

ولهذا يقسم الله تعـالى المؤمـنين بحسـب مـراتبهم وهممهم إلى مقربين وأصـحاب اليمين.. ويـذكر فضـل نعيم المقـربين على

2() رواه الترمذي وحسنه.

نعيم غيرهم مع كونهم جميعا في الجنـة، حـتى يحث النفـوس على الترقي، وعدم الاكتفاء بالدون، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَـةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَـةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَـةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَـةِ مَـا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَـةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَـا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11)﴾ [الواقعة: 1 - 11]

وهكذا ورد في سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَـانِ تَجْرِيَـانِ (50) فَبِـأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (51) فِيهِمَـا مِنْ كُـلِّ فَاكِهَـةٍ زَوْجَـانِ (52) فَبِـأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَـا مِنْ إِسْـتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِـرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَـانٌّ (56) فَبِـأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَـانُ (58) فَبِـأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (59) هَـلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الـرحمن: 46 ـ 61]، ويدل على هـذا أن اللـه تعـالى قـال بعـد ذكـره لهـذا النعيم: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَـــا جَنَّتَـــانِ﴾ [الـــرحمن: 62]، أي تحتهمـــا في الفضل، وهذا يدل على أن الجنة الأولى هي جنة المقربين.

وقد ورد في الحديث أن موسى عليه السلام سأل ربه عن أدنى أهـل الجنـة منزلـة أجابـه، لكن عنـدما سـأله عن أعلاهم منزلة قال: (أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيـدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسـمع أذن ولم يخطـر على قلب بشـر) (1)

---

(1) رواه مسلم (1/ 120 و121)

وفي الحديث القدسي قال ﷺ: (قال اللّه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) [1]

ولهذا عندما ذكر الله هؤلاء المقربين العارفين بربهم الساجدين بكل كيانهم له، فقال ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 15، 16] ذكر بعدها ما أعد لهم من النعيم، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]

وقد عبر الحكماء عن الكثير من هذه المعاني، وأسراها، فقال بعضهم: (الهم لا يكون له من القلب جهة مخصوصة، بل قد يكون تارة إلى فوق، وتارة إلى تحت، وعن اليمين، وعن الشمال على قدر صاحب ذلك القلب.. فإن في الناس من يكون همه أبداً إلى فوق، أي: لتلقي التجليات والواردات كالعارفين.. ومنهم: من يكون همه من تحت أبداً، كأهل الدنيا فيكون لهمها وجلبها وجمعها.. ومنهم: من يكون همه أبداً إلى الشمال، وأكثر البطالين لا يكون لهم إلا أنفسهم.. وأما المحققون فما لهم هم، بل يقابلون بالكلية والأسماء والصفات، فلا يختص وقتهم باسم ولا بغيره، لأنهم ذاتيون؛ فهم مع الحق بالذات لا بالأسماء والصفات)[2]

وقال آخر يذكر درجات الهمة: (أدناها: أن لا يكون لك بغير الله حاجة.. وأوسطها: أن تترك حوائجك وتدبيرك ومصلحتك

1() رواه البخاري، 1/ 32، ومسلم، 3/ 1.

2() جامع الأصول في الأولياء، ج 2 ص 290، 291.

إليه.. وأعلاها: أن لا تلتفت منه إلى ما سواه)[1]

وقال آخر: (الهمة على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: همة تصون القلب من خسة الرغبة في الفاني، وتحمله على الرغبة في الباقي، وتصفيه من كدر التواني.. والدرجة الثانية: همة تورث أنفةً من المبالاة بالعلل، والنزول على العمل، والثقة بالأمل.. والدرجة الثالثة: همة تصاعد عن الأحوال والمقامات، وتُزري بالأعواض والدرجات، وتنحو عن النعوت نحو الذات)[2]

وقال آخر في بيان حقيقتها: (الهم: هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل من خير أو شر)[3]

وقال آخر: (الهم: هو اسم لتوجه القلب إلى أي محل كان، إما قاص وأما دان)[4]

وقال آخر: (الهم: ثاني الحركات النفسية الخمسة التي تتقدم الفعل، وهي: الخاطر، ويقال: نقر الخاطر. ويقال: الهاجس. ويقال السيد الأول. ثم الهم، ثم العزم، ثم القصد، ثم النية تقارن الفعل الظاهر.والهم يعطي الحيرة في الأمر الفعل والترك، ولا يكون إلا في المعاني لا يكون في الأعيان)[5]

وقال آخر: (الهمة: هي تنزيه القصد عما له ضد أو ند.. وهي سمو الأفكار إلى علو الأقدار.. وهي ترقي الأسرار عن

1()معالي الهمم في التصوف، ص 43.

2()منازل السائرين، ص 86، 87.

3() الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 278.

4()الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، ج 2 ص 23.

5()المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج 2 ص 819.

مساكنة الأغيار.. وهي شرف الطلب، والأنفة من كل أرب.. وهي الإسراع إلى المعالي والنزاع إلى شرف المعاني)[1]

وقال آخر: (الهمة: هي ما يملك الانبعاث للمقصود صرفاً، لا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها)[2]

وقال آخر: (الهمة: هي ما يبعثك من نفسك على طلب المعاني، وقيمة كل امرئ على قدر همته)[3]

وقال آخر: (الهمة: حالة الرجل مع الله، يتفاوت علو مرتبة الإيمان بعلو الهمة، من أيقن أن الله الفعال المطلق صرف همته عن غيره. من علت في الله همته صحت إلى الله عزيمته، وانفصلت عن غير الله هجرته)[4]

وقال آخر: (الهمة: هي نور في القلب متوجه إلى العالم الأعلى)[5]

وقال آخر: (الهمة: هي القدرة والإرادة والطلب للشيء بكليتك)[6]

وقال آخر: (الهمة: حالة للقلب، وهي إرادة وغلبة انبعاث إلى نيل مقصود ما، وتكون عالية إن تعلقت بمعالي الأمور،

1()أربع رسائل في التصوف لأبي القاسم القشيري، ص 69.

2()منازل السائرين، ص 86.

3()آداب المريدين، ص12.

4()الحكم الرفاعية، ص 12.

5()شرح الأنفاس الروحية، ص 49.

6()كوكب الشاهق الكاشف للسالك، ص 89.

وسافلة إن تعلقت بأدانيها)[1]

وقال آخر: (الهمة: هي توجـه القلب وقصـده بجميـع قـواه الروحانية إلى جانب الحق، لحصول الكمال له أو لغيره)[2]

وقال آخر: (الهمة: قوة انبعاث في النفس إلى مقصود مـا تعلو بعلوه، وتسفل باستفاله)[3]

وقال آخر: (الهمـة: قـوة انبعـاث القلب في طلب الشـيء والاهتمام به، فإن كـان ذلـك الأمـر رفيعـاً كمعرفـة اللـه وطلب رضاه سميت: همة عالية، وإن كان أمـراً خسيسـاً كطلب الـدنيا وحظوظها سميت: همة دنية)[4]

وقال آخر: (الهمة.. اصطلاحاً هي الباعث الطلـبي المنبعث من النفوس والأرواح لمطالب كمالية ومقاصد غائية)[5]

وقـال آخـر: (الهمـة: وهي التوجـه إلى الحـق بالكليـة، مـع الأنفـة من المبـالاة بحظـوظ النفس من الأغـراض والأعـواض وبالأسباب والوسائط، كالعمل والأمل والوثوق به)[6]

وغيرها من التعريفات التي تبين حقيقتها، ودرجاتها وغايتهـا وارتباطها بكل نواحي السلوك إلى الله تعالى.

1()غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج 1 ص 55.

2() الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 278.

3() أحمد زروق، شرح الحكم العطائية، ص 14.

0

4() أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 1 ص 15.

5()المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، ج 3 ص 1226.

6()جامع الأصول في الأولياء، ص 249 (بتصرف).

فاسع ـ أيها المريد الصادق ـ لأن تكون من أصــحاب الهمم العاليـة، ومـا تتطلبـه من مجاهـدات ورياضـات؛ فالهمـة ليسـت كلمـات تـردد، ولا شـعارات ترفـع، ولا قصـائد تنشـد، وإنمـا هي عمل ومجاهدة بكل شيء، وفي كل مجال. ....

البصيرة النافذة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن البصيرة النافذة المنورة بنور الإيمان، وحقيقتها، ودرجاتها، وعلاقتها بالنفس المطمئنة، وهل هي موهبة إلهية مجردة، يجبل عليها صاحبها، أم أنها يمكن أن تكتسب، وكيف يكون ذلك؟

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن العدل الإلهي يقتضي أن يتساوى الخلق في توفير الفرص لنيل المواهب؛ مثلما يُوفر الخلق لبعضهم البعض الفرص في الجوائز التي يضعون لها مسابقات خاصة، من فاز بها نالها.. وليس الخلق بأعدل من الله.

ولذلك؛ ينص القرآن الكريم على أن كل شيء فضل إلهي.. حتى الهداية، فهو يقول عنها: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: 56]، وذلك لا يعني أن الله تعالى يفرض هدايته على من لم يردها، ولا أنه يحرم منها من أرادها، وإنما يعني أن الله تعالى قد وفر الهداية، ووفر أسبابها، ولذلك من شاء أن يأخذها أخذها، وهو حين ذلك لا يأخذها بنفسه، وإنما يأخذها من الله، ولولا الله لم يهتد.

وذلك مثلما يحصل في المسابقات التي يقيمها البشر؛ فإنهم مع إقرارها باستحقاق الفائز للجائزة إلا أنهم ينسبونها لمن أعطاها، ويعتبرون ذلك فضلا منه، ويشكرونه.

وهكذا الأمر في كل المواهب الإلهية.. ولذلك أمرنا أن نقول في كل صلاة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، فالأولى تعني المجاهدة والعمل والكسب، والثانية تعني الفضل

الإلهي الذي يتنزل على المستحقين.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن البصيرة من تلك المواهب الإلهية التي تتنزل على من وفر لنفسه الاستعداد لاستقبالها.

وذلك الاستعداد يبدأ بتطهير عين النفس من كل المثالب التي تحول بينها وبين الرؤية السليمة.. فكما أن القذى قد يحول بين البصر والرؤية؛ فكذلك الذنوب والمعاصي والمثالب تملأ عين القلب بما يحول بينه وبين الرؤية النافذة.

ولهذا كان الاستعداد بمثابة توفير الزيت والسراج والفتيلة، وانتظار الشعلة الربانية التي تجعل من ذلك السراج المظلم سراجا مضيئا، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: 35]

وهذا يدل على أنه كلما كانت الزيت أكثر صفاء، وكان الزجاج أكثر رقة، كلما كان المصباح أكثر إضاءة.. وبذلك اختلفت درجات البصيرة باختلاف درجات الاستعداد.

وبما أن درجات الاستعداد لا نهاية لها.. فكذلك درجات البصيرة لا نهاية لها.. فمن الناس من يصل سراجه إلى حدود الدائرة التي يعيش فيها.. ومنهم من يمتد إلى الآفاق.. ومنهم من يخترق الزمان والمكان.. وبقدر نور سراج القلب بقدر رؤيته للحقائق، وتمثلها فيه.

وقد أشار الحكماء إلى ذلك، فقال أحدهم: (البصيرة على

ثلاث درجات: الدرجـة الأولى: أن تعلم أن الخـبر القـائم بتمهيـد الشريعة يصدر عن عين لا تخـاف عواقبهـا، فـترى من حقـه أن تلذه يقيناً، وتغضـب لـه غـيرةً.. والدرجـة الثانيـة: أن تشـهد في هداية الحق وإضلاله إصابة العـدل، وفي تلـوين أقسـامه رعايـة البر، وتعاين في جذبه حبل الوصـال.. والدرجـة الثالثـة: بصـيرة تفجر المعرفة، وتثبت الإشارة وتنبت الفراسة)[1]

واتفقوا على أن أشرف البصـائر هي تلـك (المحفوظة من الغفلة والحجاب عن رب الأرباب)[2]

وقد عبروا عن هذه الدرجة بأنها حق البصـيرة، وذكـروا أن وجه تسميتها بذلك هو (أن البصيرة لما أدركت الحق من أصـله، وغابت عن نور الفروع بنور الأصل، سـميت حـق البصـيرة: لمـا أدركته من الحـق، وغـابت عن شـهود الخلـق، وهـذا مقـام حـق اليقين)[3]

أي أن صاحب البصيرة في هـذه المرتبـة يغيب عن بصـره ونفسه وكل شيء، ليرى الحقائق واضـحة دقيقـة كمـا هي، من دون أن تتلطخ أو تختلط بنفسه.

ودونها عين البصيرة، وقد عرفوهـا بأنهـا (هي نـور الإيمـان الهادي إلى التحقيق، وثمرتـه تـرك التـدبير، والاستسـلام لجـري المقادير)[4]

1() منازل السائرين، ص 79.

2() عبد الغـني النابلسـي، أسـرار الشـريعة أو الفتح الربـاني والفيض الرحمـاني، ص 281.

3() إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 1 ص 68، 69.

4() أحمد زروق، شرح الحكم العطائية، ص 82.

0

وأنها (رؤية الله تعالى بعين اليقين في مرتبة العبودة: التي هي القيام بأمر الله في مقام الإحسان)[1]

وأنها (نور العلم، وعبادة صاحبها هو المعبر عنها: بالعبودية)[2]

ودونها جميعا ما يطلقون عليه [شعاع البصيرة]، وهو (نــور العقل الهادي إلى الإيمان)[3]

أو هو ما يعبر عنه (بعلم اليقين الذي يشـهدك قربـه تعـالى منك قرب علم وإحاطة، فتستحي منـه أن يـراك حيث نهـاك، أو يفقدك حيث أمرك)[4]

ووجه تسميته بشعاع البصيرة هو (أن صاحبه لما كان يـرى وجـود الأكـوان انطبعت في مـرآة بصـيرته، فحجبتـه عن شـهود النــور من أصــله، لكن لمــا رقت كثافتهــا وتنــورت دلائلهــا، رأى شعاع النور من ورائهـا قريبـاً منـه، فـأدرك الشـعاع، ولم يـدرك النور، وهذا هو نور الإيمان، وهو مقام علم اليقين)[5]

وهذه المعاني جميعا تدل على مـدى دقـة الرؤيـة، وخلوهـا من المشوشـات، مثلمـا نفعـل في تصـنيف المـرائي في الـدنيا بحسب دقتها ووضوحها وخلوها من الشوائب..

1() جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجــاني، ج 2 ص 64 (بتصرف).

2() المرجع السابق، ج 2 ص 65.

3() أحمد زروق، شرح الحكم العطائية، ص 81.

0

4() عبـد المجيـد الشـرنوبي، شـرح حكم ابن عطـاء اللـه (على هـامش كتـاب تائيـة السلوك)، ص 25.

5() إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 1 ص 68، 69.

ولهذا فإن البصيرة الكاملة هي البصيرة الدقيقـة الواضـحة التي لم تختلط بشيء، ولم يدنسها هوى، وهي لذلك تحتـاج إلى الاســتمداد من المعصــوم، والرجــوع إليــه، وإلا دب إليهــا من الشوائب ما لم تلتفت إليها.

ولهذا وصف الله تعالى كتابـه بكونـه بصـائر، فقـال: ﴿ قَـدْ جَاءَكُمْ بَصَـائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَـرَ فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَـا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: 104]

وأخبر أن المتقين هم الـذين يرجعـون إلى بصـائر الـوحي، حتى يتخلصوا من طائف الشـيطان الـذي قـد يملي على عيـون قلوبهم الأوهام في صورة الحقائق، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 201]

لذلك لا تلتفت ـ أيها المريـد الصـادق ــ لمن يـزعم لـك أن الله تعالى كشف له الحقـائق، فأبصـرها بعينـه مـا لم تكن تلـك الحقائق مستنيرة بنور الـوحي.. فليس كـل كشـف بصـحيح، ولا كـل من يـدعي البصـيرة مبصـرا، وقـد قـال تعـالى عن الـذين يـتركون الـوحي، ويتبعـون الأهـواء: ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِــي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ ﴾ [الملـك: 22]

والبصيرة بذلك ـ أيها المريد الصادق ـ تقتضي أمرين:

أولهما تطهير النفس من الشوائب التي تحول بينهـا وبين قبول الحق والإذعان له.

وثانيهما الاستسلام التام للوحي، ورؤية الأشياء بعينه.. لا بعين النفس أو الهوى الذي قد يلبس لباس العقل.

ولهذا اعتبرت البصيرة ركنا من أركان العقل السليم، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (قسم العقل على ثلاثة أجزاء، فمن كانت فيه كمل عقله، ومن لم تكن فيه، فلا عقل له: حسن المعرفة بالله عزّ وجل، وحسن الطاعة له، وحسن البصيرة على أمره) [1]

كما أنها ركن من أركان الدين، وقد ورد في دعاء النبي ﷺ: (اللهم إنّي أسالك أن تجعل النور في بصري، والبصيرة في ديني، واليقين في قلبي) [2]

كما أنها ركن من أركان الدعوة، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: 108]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أنه مثلما يعتري البصر الآفات التي تمنعه من الرؤية؛ فكذلك البصيرة، قد تبتلى بالآفات التي تطمسها، وتمنع عنها الرؤية السليمة.

ومن تلك الآفات ما عبر عنه الإمام الكاظم في وصيته لهشام بن الحكم في صفة للعقل، فقد قال له: (يا هشام.. احذر هذه الدنيا واحذر أهلها فإنّ الناس فيها على أربعة أصناف: رجلٌ متردّ معانقٌ لهواه.. ومتعلّمٌ متقرّئٌ، كلما ازداد علماً ازداد كبراً، يستعلن بقراءته وعلمه على مَن هو دونه.. وعابدٌ جاهلٌ يستصغر مَن هو دونه في عبادته، يحب أن يُعظَّم ويُوقَّر.. وذو بصيرةٍ عالمٌ عارفٌ بطريق الحقّ يحب القيام به فهو عاجزٌ أو مغلوبٌ، ولا يقدر على القيام بما يعرف، فهو

1() الخصال، ص102.

2() بحار الأنوار، ج73، ص96.

محزونٌ مغمومٌ بذلك، فهو أمثل أهل زمانه وأوجههم عقلا)[1]

وقال الإمام الصـادق: (العامـل على غـير بصـيرة كالسـائر على غير الطريق، ولا يزيده سرعة السير من الطريق إلا بعـدا)[2]

ومن أخطـر آفاتهـا الجهـل، ولـذلك ورد الحث على إنارتهـا بنور العلم والفقه، وإلا استنارت بتلك الأنور الوهمية الـتي أخـبر الله تعالى في القرآن الكـريم أنهـا لم تنفـع أصـحابها أحـوج مـا كانوا إليها.

وقد قال الإمام علي مشيرا إلى ذلـك: (المتعبّـد على غـير فقه كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح، وركعتان من عالم خـير من سبعين ركعـة من جاهـل، لأنّ العـالم تأتيـه الفتنـة فيخـرج منهـا بعلمه، وتأتي الجاهل فتنسفه نسفا، وقليل العمل مع كثير العلم خير من كثير العمل مع قليل العلم والشك والشبهة)[3]

وقـال الإمـام الكـاظم: (تفقّهـوا في دين اللـه، فـإنّ الفقـه مفتاح البصيرة، وتمام العبـادة، والسـبب إلى المنـازل الرفيعـة، والرتب الجليلـة في الـدين والـدنيا، وفضـل الفقيـه على العابـد كفضــل الشــمس على الكــواكب، ومَن لم يتفقّــه في دينــه لم يرضَ الله له عملا)[4]

وقال الإمام الصادق: (أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله، وأنصحوا لأنفسكم، وجاهدوها في طلب معرفـة مـا لا عـذر لكم في جهله، فإنّ لدين الله أركانا لا ينفع من جهلها شـدة اجتهـاده

1() بحار الأنوار: 1/157، والتحف.

2() بحار الأنوار: 1/206، وأمالي الصدوق.

3() بحار الأنوار: 1/208، والاختصاص.

4() بحار الأنوار: 10/247، والتحف ص410.

في طلب ظاهر عبادته، ولا يضـرّ من عرفهـا، فـدان بهـا حسـن اقتصاده، ولا سبيل لأحد إلى ذلك إلا بعون من الله عزّ وجلّ)[1]

وقال: (قطع ظهري اثنان: عالمٌ متهتـكٌ، وجاهـلٌ متنسّـكٌ، هذا يصدّ الناس عن علمه بتهتّكه، وهذا يصـدّ النـاس عن نسـكه بجهله)[2]

وهكـذا ذكـر الحكمـاء الكثـير من الآفـات الـتي تحـول بين البصيرة والرؤية السليمة، فـ (البصيرة كالبصر أدنى شيء يحـل فيها يعطل النظر)[3]

ومن تلك الآفات ما عبر عنه بعضهم بقوله: (عمى البصيرة في ثلاث: إرسال الجوارح في معاصي اللـه، والطمـع في خلـق الله، والتصنع بطاعة الله)[4]

وقال آخر: (اجتهادك فيما ضمن لك، وتقصيرك فيمـا طلب منك: دليل على انطماس البصيرة منك)[5]

وقـال آخـر: (عين البصـيرة حجابـه: الريـون، والشـهوات، وملاحظة الأغيار من العـالم الطـبيعي الكـثيف، إلى أمثـال هـذه الحجب. فتحول بينه وبين إدراك الملكـوت أعـني: عـالم الغيب)[6]

وقال آخر: (كل مريد ادعى فتح بصيرته وعنده بقيـة طمـع

1() بحار الأنوار: 1/209، وكنز الكراجكي.

2() بحار الأنوار: 1/208، والغوالي.

3() محمد سعيد الكردي، الجنيد، ص32.

4() إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 1 ص 72.

5() ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذلية، ص 85.

6() الفتوحات المكية، ج 2 ص 241.

فيما بأيدي الناس فهو كاذب، فـإن من فتح اللـه عين بصـيرته لا يصح أن يعلـق قلبـه بمخلـوق، لأنـه يجـد الخلـق كلهم فقـراء لا يملكون شيئاً مع الله تعالى)[1]

وقال آخر: (إذا أكل المريـد شـيئاً بشـره نفس أعمى اللـه عين بصيرته)[2]

وقال آخر: (الأعمى حقاً من يـرى اللـه تعـالى بالأشـياء ولا يرى الأشياء بالله تعالى، والبصير من يكون نظـره من ربـه إلى المكونات)[3]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن تـوفر لمصـباح قلبـك مـا يجعلـه مسـتعدا لتلقي الأنـور الإلهية؛ فهي وحدها من ينفعـك في الـدنيا في كشـف الحقـائق، والبعد عن الشبهات والفتن.. وينفعك في الآخـرة، فلا ينجـو من أهوالها إلا من تزود بالأنوار المبصيرة فيها. ..

1() الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية، ج 1 ص 123.

2() الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية، ج 1 ص 154.

3() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 619.

التوبة النصوح

كتبت إلي ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تسـألني عن التوبـة النصوح، وحقيقتها، ومنزلتها، وهل هي خاصة بأصـحاب النفـوس اللوامة، أم أنها من منازل النفوس المطمئنة.

وذكرت لي في نهاية سؤالك أنك سـمعت بعض من يـدعي المعرفـة يـذكر في مجلس من المجـالس أن التوبـة وأركانهـا منزلة القاصرين الجاهلين بربهم، وأما العـارفون؛ فـيرتقون إلى تلك الدرجات التي يتنزهون فيها عن التوبة، ومعانيها..

وأنه ذكر في حديثه اختصار التوبـة في الاعـتراف بالـذنب، وسؤال المغفرة دون عهد أوعزم بعدم العودة إليه، لأن العــودة إلى الـذنب لا تتفـق مـع الخلـق الجديـد، فالإنسـان لا يعـود إلى الذنب بل يعود إلى مثله..

وذكرت لي أنه لم يكتف بذلك، بل اعتبر التوبـة إن لم تكن إشراكاً يثبت فيه العبـد فعلـه بجـانب وجـود الحـق وفعلـه، فهي على الأقل تقاربه، ولذلك عرف التوبة بأنها: (التبري من الحـول والقوة بحول الله وقوته)، وذكر أن (يوم التغـابن فيقـول فاعـل الشر: ياليتني فعلت خيراً، ويقول فاعل الخـير: يـا ليتـني زدت.. أما العارف فلا يقول شيئاً فإنه ما تغير عليـه حـال كمـا هـو في الدنيا كذلك هو في الآخرة)

ثم ذكرت لي أنه ختم حديثه بـأن (التوبـة المشـروعة: هي التوبة من المخالفات، والتوبة الحقيقيـة هي التـبري من الحـول والقوة بحول الله وقوته)[1]

وجوابا على سؤالك الوجيه، والإشكال الذي طرحتـه، أذكـر

1() الفتوحات المكية، ج4 ص 49.

لـك أن المرجـع في التعـرف على الحقـائق والقيم والـدرجات المصادر المعصـومة، دون غيرهـا من المصـادر المختلطـة الـتي حذر رسول الله ﷺ من دخنها.

وعندما تعود إلى تلك المصادر نجدها تـذكر التوبـة بأركانهـا جميعا، وبحقيقتها الشرعية، ولا تعتبر غيرها.. وحتى في المنازل الرفيعة يبقى لها معناها، وإن كان يختلف عمقها ودرجتها.

وذلك مثـل الثـوب الـذي يصـاب بأوسـاخ كثـيرة؛ فإنـك إن غسلته وطهرته من أكثر أوساخه، يكون قـد تطهـر بالنسـبة لمـا كان عليه، ولكنه يظل متسخا بالنسـبة للثـوب الجديـد الـذي لم يصبه أي دنس..

وبما أن النفس المطمئنة تسير تصاعديا في سلم الكمـال؛ فإنها تكتشف كل حين قصورا ونقصا، لأنه لا يسـير إلى الكمـال إلا من شعر بالنقص والقصور.

ولذلك أخبر الله تعالى عن توبته على أشرف خلقه، وأخبر رسـول اللـه ﷺ عن مسـارعته كـل حين للتوبـة، وذلـك لا يعـني سوى الترقي في مراتب الكمال، الذي يشـعر صـاحبه بقصـوره في الدرجة التي كان فيها.

وقـد قـال بعض الحكمـاء معـبرا عن ذلـك: (توبـة الرسـل والأنبيــاء عليهم الســلام ليست من ذنب ولا من نقص، فـــإنهم الأكملون في أنفسهم، المكملون غيرهم فلهـذا نقـول: التوبـة لا تستلزم الذنب والمخالفة لأمـر اللـه تعـالى.. فقـد يكونـان ممـا يراه التائب غير لائق بجلال مولاه بحسب مرتبة التائب ومقامه، ومرتبة علمه بجلال إلهه وعظمته، وحقـارة العبـودة وافتقارهـا، وإن لم يكن ذلك الأمر ذنباً منهياً عنه، وأكمل الخلـق علمـاً بهـذا وقياماً بمقتضاه الأنبياء عليهم السلام، ولهذا تـرى الأنبيـاء عليهم

السلام يتوبون ويستغفرون من أشياء هي عند الأوليـاء من أكـبر القربـات، فضـلاً عن عامة المؤمـنين، وانظر إلى ذنـوبهم الـتي يذكرونها عند طلب الخلائق منهم الشـفاعة يـوم القيامة تعـرف هذا. فعلو مقامهم، وكمال علمهم بجلال الله اقتضـى لهم ذلـك. ولما رأوا ذلك ذنباً وتـابوا واسـتغفروا منـه تـركهم الحـق تعـالى على ذلك وقال لهم: غفرت لكم. والمغفرة على ضربين: ضرب هـو السـتر عن العقوبـة، وضـرب هـو السـتر عن الوقـوع في الذنب)[1]

ولو أنك ـ أيها المريد الصادق ـ أو أولئك الجمع الذي التفـوا حول من ذكرت، تركوه وعادوا لأئمة الهدى الـذين أمرنـا باتبـاع هـديهم، وحمايـة ديننـا من وسـاوس الشـيطان وإلهاماتـه بهم، لوجدوا عندهم الحقائق التي لم تتدنس، ولم تتبدل، ولم تعـرض لها الأهواء.

وقد روي أن بعضـهم قـال بحضـرو الإمـام علي: (أسـتغفر الله)، فقال له الإمام علي: (ثكلتك أمّك، أ تدري ما الاسـتغفار؟ إنّ الاستغفار درجة العلّيّين، وهـو اسـم واقـع على سـتّة معـان: أوّلها النّدم على ما مضى، والثّاني: العزم على تـرك العـود إليـه أبدا، والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى اللـه أملس ليس عليك تبعة، والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليـك ضيّعتها فتؤدّي حقّها، والخـامس: أن تعمـد إلى اللحم الّـذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلـد بـالعظم وينشـأ بينهما لحم جديد، والسادس: أن تذيق الجسـم ألم الطاعـة كمـا أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله) [2]

1() عبد القادر الجزائري، المواقـف في التصـوف والوعـظ والإرشـاد، ج 2 ص 778، 779.

2() نهج البلاغة حكمة 409 ص 1281

هذه هي التوبة الحقيقية الصادقة النصـوح، وهـذه المعـاني هي الــتي تــزكي النفس وتطهرهــا وتــرتقي بهــا.. وليس تلــك المعاني التي تملأ النفس بالكسل والدعاوى والعريضة..

وهذه المعاني هي التي أرادها القرآن الكريم عنــدما وضــع الشروط الكثيرة لتحقق التوبة، ونصحها، وصدقها، فقد قال اللــه تعـالى:﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُـوا فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ ذَكَـرُوا اللــه فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ إِلَّا اللـه وَلَمْ يُصِـرُّوا عَلَى مَـا فَعَلُـوا وَهُمْ يَعْلَمُـونَ (135) أُولَئِكَ جَـزَاؤُهُمْ مَغْفِـرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَـامِلِينَ (136)﴾ (آل عمران)

فقد قرن الله تعالى في الآية الكريمة الاستغفار بعدم الإصـرار، ولهذا قال رسول الله ﷺ:(ويل للذين يصـرون على مـا فعلـوا وهم يعلمون) [1]

وذلك لا يعني العصمة من الذنوب، أو عـدم العـودة إليهـا؛ فقـد يصر الشخص على شيء ويعزم عليه، ولكنه ينكث عزمه.. فالمراد هو أن يعاهد الله أن لا يقع في الذنب بجزم وتأكيد، فإن قدر ووقــع في الذنب عاد إلى الاستغفار من جديد..

أمــا أن يكتفي بــالاعتراف دون أن يعاهــد اللــه على عــدم العود، أو دون الاجتهاد في ذلك؛ فإنه نوع من السخرية بالتوبة.. وقــد ســمى رســول اللــه ﷺ وأئمــة الهــدى تلــك التوبــة بتوبــة المستهزئين، ففي الحديث عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (التـائب من الذنب كمن لا ذنب لـه، والمسـتغفر من ذنب وهـو مقيم عليـه كالمستهزئ بربه) [2]

1() رواه أحمد.

2() رواه ابن أبي الدنيا.

وعن الإمام الرضا أنه قال: (مثل الاستغفار مثل ورق على شجرة تحرّك فيتناثر، والمستغفر من ذنب ويفعلـه كالمسـتهزئ بربّه) [1]

وقال: (سبعة أشياء بغير سـبعة أشـياء من الاسـتهزاء: من استغفر بلسانه ولم يندم بقلبه فقد اسـتهزأ بنفسـه، ومن سـأل الله التوفيق ولم يجتهد فقد استهزأ بنفسـه، ومن اسـتحزم ولم يحذر فقد استهزأ بنفسه، ومن سأل الله الجنّـة ولم يصـبر على الشدائد فقد استهزأ بنفسه، ومن تعوّذ بالله من النار ولم يـترك الشهوات فقد اسـتهزأ بنفسـه، ومن ذكـر اللـه ولم يسـتبق إلى لقائه فقد استهزأ بنفسه) [2]

وعن الإمام الصادق أنه قال: (رحم الله عبدا لم يـرض من نفسه أن يكون إبليس نظيرا له في دينه، وفي كتاب اللـه نجـاة من الردى، وبصيرة من العمى، ودليـل إلى الهـدى، وشـفاء لمـا في الصدور فيما أمركم الله به من الاستغفار مـع التوبـة، قـال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُـوا فَاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ ذَكَـرُوا اللـه فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللـه وَلَمْ يُصِـرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَـلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللـه يَجِـدِ اللـه غَفُـورًا رَحِيمًـا﴾ [النساء: 110]، فهذا ما أمـر اللـه بـه من الاسـتغفار، واشـترط معه بالتوبة والإقلاع عمّـا حـرّم اللـه، فإنّـه يقـول: ﴿إِلَيْـهِ يَصْـعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فـاطر: 10]، وهـذه الآيـة تـدلّ على أنّ الاسـتغفار لا يرفعـه إلى اللـه إلّا العمـل الصـالح والتوبة) [3]

1() اصول الكافي ج 2 ص 504.

2() كنز الكراجكي ج 1 ص 330

3() تفسير العيّاشي ج 1 ص 198

وشبه الإمام علي المستغفر بالمستعمل للدواء؛ فـإذا كـان يستعمله، ويسرف على نفسه بما يسبب لـه المـرض، فإنـه لن يشفى أبدا، لأن غرض الاستغفار هو العـودة إلى اللـه، لا مجـرد حركة اللسان، فقد روي عنه أنـه قـال: (الـذنوب الـداء والـدواء الاستغفار، والشفاء أن لا تعود) [1]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن حقيقـة التوبة تتمثل في الرجوع إلى الله، وتصـحيح الهفـوات والأخطـاء والتقصير والغفلة والمفاهيم الخاطئة وكل المواقف التي يقفهـا الإنسان المقصر..

كمـا أنهـا تشـمل ذلـك الشـعور الـذي يعـتري المقـربين؛ فيجعلهم يستغفرون الله، ويتوبـون إليـه، لا لـذنب اقـترفوه، ولا لغفلة طرأت عليهم.. وإنما لذلك الحيـاء والهيبـة الـتي تعـتريهم في صحبة ربهم؛ فتشعرهم بجلاله وجماله وكمالـه؛ فلا يملكـون معها إلا الانحناء تواضعا له، وشعورا بالتقصير في حقه.

وقد ذكر الإمام الصادق درجات التوبة.. وأنها تشمل جميـع النفوس، وفي كل المراحل، فقـال: (كـل فرقـة من العبـاد لهم توبة.. فتوبة الأنبيـاء: من اضـطراب السر.. وتوبـة الأوليـاء: من تلوين الخطرات.. وتوبة الأصفياء: من التنفيس.. وتوبة الخـاص: من الاشتغال بغير الله.. وتوبة العام: من الـذنوب، ولكـل واحـد منهم معرفة وعلم في أصل توبته، ومنتهى أمره)[2]

وهكذا اتفق الحكماء على ذلك، وقد قال بعضهم في ذلـك: (التوبة نعمة من الله أنعم بها على هذه الأمـة دون غيرهـا ولهـا أربع مراتب: فالأولى: مختصة باسم التوبة، وهي أول منـزل من

1() غرر الحكم ص 79

2() مصباح الشريعة، ص97.

منــازل الســالكين، وهي للنفس الأمــارة، وهــذه مرتبــة عــوام المؤمـنين: وهي تـرك المنهيـات، والقيـام بالمـأمورات، وقضـاء الفوائت، ورد الحقوق، والاستحلال من المظالم، والندم على ما جرى، والعزم على أن لا يعـود.. والمرتبـة الثانيـة، الإنابـة: وهي للنفس اللوامــة، وهــذه مرتبــة خــواص المؤمــنين من الأوليــاء. والإنابــة إلى اللــه: بــترك الــدنيا، والزهــد في ملاذهــا، وتهــذيب الأخلاق، وتطهـــير النفس بمخالفـــة هواهـــا، والمداومـــة على جهادهــا. فــالنفس إذا تحلت بالإنابــة دخلت في مقــام القلب واتصـفت بصـفته، لأن الإنابـة من صـفات القلب، قـال تعـالى: ﴿وَجَـاءَ بِقَلْبٍ مُـنيبٍ﴾.. والمرتبــة الثالثــة: الأوبــة، وهي للنفس الملهمة، وهذه مرتبة خواص الأولياء. والأوبـة إلى اللـه من آثـار الشـوق إلى لقائـه، فـالنفس إذا تحلت بالأوبـة دخلت في مقـام الــروح. ومن أمــارات الأواب المشــتاق: أن يســتبدل المخالطــة بالعزلــة، ومنادمــة الأخــدان بــالخلوة، ويســتوحش عن الخلــق ويستأنس بالحق، ويجاهد نفسه في الله حق جهـاده سـاعياً في قطــع تعلقهــا عن الكــونين.. والمرتبــة الرابعــة: وهي للنفس المطمئنة، وهذه مرتبة الأنبياء وأخص الأولياء)[1]

وقال آخر: (التوبة على ثلاثة أقسام: أولهـا من الخطـأ إلى الصواب، وثانيها من الصواب إلى الأصوب، وثالثها من الصــواب ذاته إلى الحق.. فالتوبة من الخطأ إلى الصواب: كقولـه تعـالى: ﴿والَّذينَ إِذا فَعَلــوا فاحِشَــةً أوظَلَمــوا أَنْفُسَــهُمْ ذَكَــروا اللَّه فاسْتَغْفَروا لِـذُنوبِهِمْ﴾.. والتوبـة من الصـواب إلى الأصـوب: هي ما قاله موسى عليه السلام: ﴿تُبْتُ إِلَيْـكَ﴾.. والتوبـة من النفس إلى الحق: ما قاله النبي: (وإنه ليغان على قلبي وأني لأســتغفر

1() إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، ج 1 ص 138.

الله في كل يوم سبعين مرة)[1])[2]

وقال آخر: (التوبة على ثلاثة أقسام: توبة بالأقوال، وتوبة بالأفعال، وتوبة بالأحوال.. توبة العوام: من النيات.. وتوبة الخواص: من رؤية الحسنات.. وتوبة خواص الخواص: مما سوى الله.. وفوق ذلك: فناء وبقاء)[3]

ولهذا ذكروا أن للتوبة ارتباط بكل المنازل، ذلك أن كل من ترقى درجة من الدرجات، يكتشف القصور الذي كان في المنازل التي كان فيها، فيبادر إلى إصلاحها، ويستغفر الله من تقصيره فيها، وقد قال بعضهم في ذلك: (كل المقامات تفتقر إلى التوبة: فالتوبة: تفتقر إلى توبة أخرى بعدم نصوحها.. والخوف: يفتقر إليها بحصول الأمان والاغترار.. والرجاء: بحصول القنوط والاياس.. والصبر: بحصول الجزع.. والزهد: بخواطر الرغبة.. والورع: بتتبع الرخص أوخواطر الطمع.. والتوكل: بخواطر التدبير والاختيار والاهتمام بالرزق.. والرضا والتسليم: بالكراهية والتبرم عند نزول الأقدار.. والمراقبة: بسوء الأدب في الظاهر وخواطر السوء في الباطن.. والمحاسبة: بتضييع الأوقات في غير ما يقرب إلى الحق.. والمحبة: بميل القلب إلى غير المحبوب.. والمشاهدة: بالتفات السر إلى غير المشهود، أوباشتغاله بالوقوف مع شيء من الحس وعدم زيادة الترقي في معاريج الأسرار، ولذلك كان يستغفر في المجلس سبعين مرة أو مائة)[4]

وقال آخر: (مقام التوبة: هو من المقامات المستصحبة

1() رواه مسلم ج: 4 ص: 2075.

2() د. قاسم غني، تاريخ التصوف في الإسلام، ص 314، 315.

3() علي الكيزواني، زاد المساكين إلى منازل السالكين، ص 26.

4() أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 5، 6.

إلى حين المــوت مــا دام مخاطبــاً بــالتكليف أعــني التوبــة المشروعة، وأما توبة المحققين فلا ترتفـع دنيـا ولا آخـرة، فلهـا البداية ولا نهاية لها)[1]

وقال آخر: (إن درجات القرب إلى الله تعـالى لا نهايـة لهـا في الدنيا ولا في الآخرة، والصحيح أنه لا وصول إلى الله تعـالى أبـداً، وإنمـا الجميـع سـائرون إليـه من الأزل إلى الأبـد. ومقـام التوبة: هو الدخول في هذا السير مع هؤلاء السائرين. وما ثم إلا رفع حجاب ومصادفة حجب أخرى خلفها. والتجليات لا نهاية لها، والحجب لا نهاية لها، والكشوفات لا نهاية لها) [2]

بعد ما عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ أوصـيك بـالعودة كل حين، وفي كل مسألة إلى كلمات ربك، وهدي نبيك، وورثتـه الـذين أوصـى بهم.. فالحقـائق المعصـومة والقيم النبيلـة كلهـا لديهم.. ومن جاءك بشيء غريب فاعرضـه عليهم، فـإن قبلـوه، وإلا فاحذر منه.

ولو أن هؤلاء الذين ذكرت، تأملوا في تلـك الأحـاديث الـتي يبثونهـا، لوجـدوا أنهم يهـدمون بهـا الشـريعة، وكـل مقاماتهـا الرفيعة.. بل يهدمون معها كل تلك النصوص المقدسة التي تملأ القلوب رغبة في تحصيح العلاقة مع الله تعالى.

وسأذكر لك بعضها، لتتأمل فيـه، وتتـأدب على يديـه، فخـير من يزكينا ربنا ونبينا وأئمتنا.

لقد قال الله تعالى يذكر التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا تُوبُـوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَـةً نَصُـوحاً عَسَـى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَـيِّئَاتِكُمْ

1() ابن عربي، الفتوحات المكية، ج 2 ص 142.

2() عبـد الغـني النابلسـي، أسـرار الشـريعة أوالفتح الربـاني والفيض الرحمـاني، ص 121، 124.

وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (التحريم:8)، فوصف التوبة بالنصح.. أي أنها خالصة لله تعالى مجردة، لا تتعلق بشئ، ولا يتعلق بها شئ، وهو الاستقامة على الطاعة، من غير روغان إلى معصية، كما تروغ الثعالب، وألا يحدث نفسه بذنب متى قدر عليه، وأن يترك الذنب لأجل اللّٰه تعالى خالصا لوجهه، كما ارتكبه لأجل هواه مجمعا عليه بقلبه وشهوته، فهذه هى التوبة النصوح، وهذا العبد هو التواب المتطهر الحبيب.

وقال تعالى في آية أخرى: وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (النور: 31)، أي ارجعوا إلى الله من هوى نفوسكم، ومن وقوفكم مع سهواتكم وحظوظكم، عسى أن تظفروا ببغيتكم فى المعاد، وكى تبقوا ببقاء اللّٰه فى نعيم لا زوال له ولا نفاد.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا بيده فذبه عنه)، ثم قال: (لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها، حتى إذا اشتد عليه الجوع والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده)[1]

1() البخاري (6308) ومسلم (2744)

وقــــال الإمــــام علي: (العجب ممن يقنــــط ومعــــه الممحاة..فقيل له: (وما الممحاة ؟).. قال: (الاستغفار)[1]

وقال: (تعطّروا بالاستغفار، لا تفضحكم روائح الذنوب)[2]

وقـال الإمـام الصـادق: (مَن أُعطي أربعـا لم يُحـرم أربعـا: (مَن أُعطي الدعاء لم يُحرم الإجابة.. ومَن أُعطي الاسـتغفار لم يُحــرم التوبــة.. ومَن أُعطي الشــكر لم يُحــرم الزيــادة.. ومَن أُعطي الصبر لم يُحرم الأجر)[3]

هذا جـوابي على أسـئلك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فاسـع للتوبة إلى الله، وفي كل نفس من أنفاسـك، حـتى تطهـر أرض نفسك من كـل دنس يحـول بينهـا وبين المـراتب الرفيعـة الـتي أتاحها الله لها.

1()أمالي الطوسي ص54.

2()أمالي الطوسي ص237.

3()الخصال 1/94.

الورع الصادق

كتبت إلي ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تسـألني عن الـورع وحقيقته ومنزلته ودرجاتـه، والفـرق بينـه وبين مـا يطلـق عليـه الورع الكاذب، أو الورع البارد.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الشيطان والأهواء مثلما تدخل في الصـلاة، فتوسـوس لأصـحابها، وتشـغلهم عنهـا؛ فكذلك تفعل في كل المكـارم والمنـازل الـتي أمـر اللـه تعـالى عباده بها، والتي لا تتحقق تزكيتهم من دونها.

والورع من بينها.. ولذلك يُميز صادقه عن كاذبه.. وشـرعيه عن بدعيـه.. والحقيقي منـه عن المـزور والبـارد والكـاذب.. ولا يمكن للسالك طريق الله أن يسير إليـه من دون ذلـك التميـيز، وإلا وقع في مصايد الشيطان، وفرط في بعض ما يفـرض عليـه نتيجة ما يعتبره ورعا.

ومن الأمثلة على ذلك تورع الصالحين عن الوظـائف الـتي يمكنهم أن ينفعوا الخلق من خلالها بحجة الخوف على أنفسهم، في نفس الوقت الذي لا يوجد بديل عنهم؛ فإن هؤلاء قد تورعوا في مصلحة أنفسـهم، ولم يتورعـوا لمصـلحة الخلـق، ولـو أنهم تورعوا في ذلك لسارعوا إلى تلك المناصب، لا لأجـل أنفسـهم، وإنمــا لأجــل حمايــة حقــوق المستضــعفين من أن يختلســها اللصوص والمجرمون.

ولهذا كان الـورع الحقيقي هـو ورع يوسـف عليـه السـلام، الذي لم يكتف بقبول المناصب وإنمـا طـالب بهـا، وذكـر أهليتـه لها، قال تعالى: ﴿ قَـالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَـزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيـظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَـذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُــفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَــوَّأُ مِنْهَــا حَيْثُ

يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [يوسف: 55، 56]

وهكذا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة والدعوة إلى الله، وكلها واجبة؛ فقد يتوقف بعضهم عن ذلك بحجة الخوف من أن يقول ما لا يفعل، فيجمع في ذلك بين الإثمين: إثم الذنب، وإثم السكوت عليه، مثلما كان يفعل المشركون الذين يجمعون بين إثمي تكذيب الرسول ﷺ والنهي عن اتباعه، قال تعالى: وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ [الأنعام: 26]

ومما يروى في هذا أن بعض العلماء طلب من بعض تلاميذه أن يخرج إلى قرية من القرى ليعظهم، فقال الرجل: إني أخاف أن أقول ما لا أفعل، فقال: (يرحمك الله! وأينا يفعل ما يقول؟!، ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف، ولم ينه عن منكر)

وقال بعضهم لمن دعاه إلى العزلة، والاكتفاء بالعبادة: (إنَّ الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر)

وروي أن بعضهم كان يختلف إلى بعض العلماء، وكان ذا سمت، وخشوع، وكان العالم يحترمه، فغاب عن مجلسه مدة، ثم عاد إليه، وقد نحل جسمه، وشحب لونه، وعلى إحدى عينيه قطعة شمع قد ألصقها بها، فقال له العالم: ألست صاحبنا الذي كنت تأتينا؟ قال: بلى، قال: فما الذي قطعك عنا؟ فقال: قد رزقني الله سبحانه الإنابة إليه، وحبب إلى الخلوة، وأنست

بالوحدة، واشتغلت بالعبادة، قال له: فما بال عينك هـذه؟ قـال: نظرت إلى الدنيا فإذا هي دار فتنـة، وبلاء قـد ذمهـا اللـه تعـالى إلينا، وعابهـا، وذم مـا فيهـا، فلم يمكـني تغميض عيـني كلتيهمـا عنها، ورأيتني، وأنا أبصر بإحداهما نحوا مما أبصـر بهمـا جميعـا، فغمضت واحدة، وتركت الأخرى، فقال له العالم: ومنذ كم هـذه الشمعة على عينك ؟قال: منذ شهرين، أو نحوهما !فقال له: (يا هذا أما علمت أن لله عليـك صـلاة شـهرين، وطهـارة شـهرين.. انظروا إلى هذا البائس قد خدعه ا لشـيطان، فاختلسـه من بين أهل العلم، ثم وكل به من يحفظه، ويتعهده ويلقنه العلم) [1]

إذا عرفت هذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن الـورع الصـادق هـو الـورع الـذي ينطلـق من الشـريعة، لا من الهـوى، فيجعل صاحبه مؤتمرا في كل حياتـه بـأوامر اللـه، مـنزجرا عن زواجره، لا يراه إلا حيث أمر، ولا يفقده إلا حيث نهى.

وقد عرف بعضهم المتورع بقوله: (المتورع: من يتورع في الطعام والشراب واللباس والمنطق والنظر والخواطر والأفعال الظاهرة والباطنة، حتى لا تكون حركته في الظـاهر إلا للـه، ولا يقصد في الباطن إلا الله، ويتورع عما سوى الله)[2]

وقال آخر: (المتورع تورعاً كـاملاً: هـو الـذي يتـورع بقلبـه ولسانه وسمعه وبصره وسائر أعضائه عن المباح المختص بكـل عضو إلا في قدر الضرورة فحسب)[3]

ولهذا عرف بعضـهم الـورع، فقـال: (الـورع: هـو تـرك كـل

1() كتاب العزلة ص91

2() منار السائرين ومطار الطائرين، ص 132.

3() جامع الأصول في الأولياء، ج 2 ص 375، 376.

شبهة، وترك ما لا يعنيك، وترك الفضلات)[1]

وقال آخر: (الورع: المجانبة لكل ما كره الله تعالى من مقال، أو فعل، بقلب أو جارحة والحذر من تضييع ما فرض الله تعالى عليه في قلب أو جارحة)[2]

وقال آخر: (الورع: هو الوقوف على حد العلم من غير تأويل ولا قياس)[3]

وقال آخر: (الورع: هو ألا يتكلم العبد إلا بالحق، غضب أم رضى، ويكون اهتمامه بما يرضي الله تعالى)[4]

وقال آخر: (الورع: أن تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين)[5]

وقال آخر: (قيل: الورع: هو ألا يدخل في شبهة، ولا يأخذ برخصة)[6]

وقال آخر: (الورع: هو الجبن والتأخر عن الإقدام على المشكلات وعن الهجوم في الشبهات. لا يقول ولا يفعل ولا يعقد حتى تنكشف)[7]

1() كوكب الشاهق الكاشف للسالك، ص 121.

2() أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي، ص 185.

3() مذكرة المرشدين والمسترشدين، ص 38.

4() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 285.

0

5() عوارف المعارف (ملحق بكتاب احياء علوم الدين - ج 5) ص 232.

6() علم القلوب، ص 27.

7() علم القلوب، ص 78.

وقال آخر: (الورع: هـو لـزوم الأعمـال الجميلـة الـتي فيهـا كمال النفس)[1]

وقال آخر: (الورع: الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس في كل طرفة)[2]

وغيرها من التعريفات التي تجتمع جميعـا في قـول الإمـام الصادق عند حديثه عن أصـل الـورع، حيث قـال: (أصـل الـورع: دوام محاسـبة النفس، وصـدق المقاولـة، وصـفاء المعاملـة، والخروج من كل شبهة، ورفض كل عيب وريبة، ومفارقة جميـع ما لا يعنيه. وترك فتح أبواب لا يـدري كيـف يغلقهـا، ولا يجـالس من يشـكل عليـه الواضـح، ولا يصـاحب مسـتخف الـدين، ولا يعـارض من العلم مـا لا يتحمـل قلبـه، ولا يتفهمـه من قائلـه، ويقطع عمن يقطعه عن الله تعالى)[3]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فـاعلم أن الـورع من المنازل الضـرورية للنفس المطمئنـة؛ فلا يمكن أن تتحقـق لهـا الطمأنينـة من دون أن تتصـف بـه.. وهـو كـذلك من المنـاهج الضرورية للنفس اللوامة، حتى تتخلص من أسر النفس الأمـارة ومثالبها.

ولهـذا اعتـبره أئمـة الهـدى شـرطا من شـروط اتبـاعهم والاهتداء بهـديهم، وذكـروا أن كـل من يـزعم الاهتـداء بهم، مـع خلوه من الورع كاذب.

وقـد روي أن بعضـهم قـال للإمـام الصـادق: مـا نلقى من الناس فيك؟..فقال الإمام الصادق: (وما الـذي تلقى من النـاس

1() طهارة الأنفس في علم تهذيب الأخلاق، ص 13.

2() الرسالة القشيرية، ص 91.

3() مصباح الشريعة ص 23.

فيّ؟)، فقال: لا يـزال يكـون بيننـا وبين الرجـل الكلام، فيقـول: جعفـريٌّ خـبيث، فقـال: (يعيّـركم النـاس بي؟)، فقـال لـه: نعم، قال: (فما أقلّ واللـه من يتبـع جعفـراً منكم، إنّمـا أصـحابي من اشتدّ ورعه، وعمل لخالقه، ورجا ثوابه، هؤلاء أصحابي)[1]

وقال: (ليس منـا ولا كرامـة من كـان في مصـر فيـه مائـة ألف أو يزيدون، وكان في ذلك المصر أحد أورع منه)[2]

وقال: (إنّا لا نَعـدُّ الرجـل مؤمنـاً حـتى يكـون لجميـع أمرنـا متّبعاً ومريداً، ألا وإنّ من اتّباع أمرنا وإرادته الـورع، فـتزيّنوا بـه يرحمكم الله، وكيدوا أعداءنا به ينعشكم الله)[3]

وقال: (ليس من شـيعتنا من لا يتحـدّث المخـدّرات بورعـه في خدورهنّ، وليس من أوليائنا من هـو في قريـة فيهـا عشـرة آلاف رجل فيهم من خلق الله أورع منه)[4]

وكان يوصي أصحابه به كثـيرا، وقـد روي أن بعض أصـحابه قال له: (إني لا ألقاك إلا في السنين، فأخبرني بشيء آخذ بــه)، فقال: (أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهـاد، واعلم أنّـه لا ينفـع اجتهاد لا ورع فيه)[5]

وقال لآخر: (عليك بتقوى الله، والـورع، والاجتهـاد، وصـدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الخلـق، وحسـن الجـوار، وكونـوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم، وكونـوا زينـاً ولا تكونـوا شـيناً،

1()الكافي 2/77.

2()الكافي 2/78.

3()الكافي 2/78.

4()الكافي 2/79.

5()الكافي 2/76.

وعليكم بطول الركوع والسجود، فإنّ أحـدكم إذا أطـال الركـوع والسجود هتف إبليس من خلفه فقال: (يا ويله.. أطاع وعصيتُ، وسجد وأبيتُ)[1]

وقبله قال الإمام الباقر يوصي بعض أصحابه: (أبلغ موالينـا السلام عنّا، وأوصهم بتقـوى اللـه العظيم، وأعلمهم أنّـا لا نغـني عنهم من الله شـيئاً إلا بعمـل، ولن ينـالوا ولايتنـا إلاّ بـورع، وإنّ أشدّ الناس حسرة يوم القيامـة من وصـف عـدلاً ثم خالفـه إلى غيره)[2]

وقبلهما قال الإمام علي: (أيّهـا النـاس.. لا خـير في دين لا تفقّه فيه، ولا خـير في دنيـا لا تـدبير فيهـا، ولا خـير في نسـك لا ورع فيه)[3]

وقبلهم جميعا قال سيد الأئمة والهداة والرسل رسول الله ﷺ: (إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشـتبهات، لا يعلمهن كثـير من النـاس، فمن اتقى الشـبهات اسـتبرأ لدينـه وعرضـه، ومن وقـع في الشـبهات وقـع في الحـرام، كـالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صـلح الجسـد كلـه، وإذا فسـدت فسـد الجسـد كلـه، ألا وهي القلب)[4]

وقال: (كن ورعاً تكن أعبدَ الناس)[5]

1() الكافي 2/77.

2() مشكاة الأنوار ص46.

3() المحاسن ص5.

4() رواه البخاري ومسلم، وهو في بحار الأنوار: 67/306، وأمالي الطوسي 1/390.

5() رواه ابن ماجة بإسناد حسن.

وقال: (لا يبلـغ العبـد أن يكـون من المتقين، حـتى يـدع مـا لا بأس به حذراً مما به بأس)[1]

وقال: (فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع)[2]

وقال: (ثلاث مَنْ كنَّ فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمــان: خُلُقٌ يعيش به في الناس، وورع يحجزه عن محارم الله، وحِلم يـردُّ به جهل الجاهل)[3]

وروي أنه مر برجـل يـبيع طعامـاً فأعجبـه، فأدخـل يـده فيـه، فرأى بللاً، فقال: مـا هـذا؟ قـال: أصـابته السـماء، فقـال ﷺ: (فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس)، ثم قال له تلك الكلمـة الـتي رددها جميع أئمة الهدى: (من غشنا فليس منا)[4]

وروي أنـه ﷺ لمـا بـايع بعض الصـحابة على الإسـلام ذهب لينصرف، فجذب ثوبه، واشترط عليه النصـح لكـل مسـلم، وقـد أخبر ذلك الصحابي عن تأثير هذه الوصية في نفسه، فـذكر أنـه كان إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها للمشـتري، ثم خـيره وقال: إن شئت فخذ، وإن شئت فاترك، فقيل لـه: إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع، فقال: (إنا بايعنـا رسـول اللـه ﷺ على النصح لكل مسلم)[5]

وروي أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كان واقفاً فبـاع رجـل

1() رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

2() رواه الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن.

3() رواه البزار.

4() رواه مسلم.

5() رواه البخاري ومسلم.

ناقةً له بثلثمائة درهم، فغفل الصحابي، وقـد ذهب الرجـل بالناقـة، فسعى وراءه وجعل يصيح بـه: يـا هـذا، اشـتريتها للحم أو للظهـر؟ فقال: بـل للظهـر، فقـال: إن بخفهـا نقبـاً قـد رأيتـه، وإنهـا لا تتـابع السـير، فعـاد فردهـا فنقصـها البـائع مائـة درهم، وقـال للصـحابي: رحمك الله أفسدت علي بيعي، فقال له: إنا بايعنـا رسـول اللـه ﷺ على النصح لكل مسلم، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يحل لأحد يبيع بيعاً إلا أن يبين آفته، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبيينه)[1]

وهكذا مثل رسول الله ﷺ الورع في حياتـه أحسـن تمثيـل، وقد روي أنه وجد تمرة في الطريق فقال: (لـولا أني أخـاف أن تكون من الصدقة لأكلتها)[2]

وقـال: (إني لأنقلب إلى أهلي، فأجـد التمـرة سـاقطة على فراشي فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها)[3]

وروي أنـه أصـابه أرق من الليـل، فقـال لـه بعض نسـائه: يـا رسول الله أرقت الليلة، فقال: (إني كنت أصبت تمرة تحت جنبي، فأكلتها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة، فخشيت أن تكون منه)[4]

وروي أن الحسـن بن علي في صـغره البـاكر أخـذ تمـرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فقال النبي ﷺ: (كخْ كخْ، ارمِ بها، أما علمت أنَّا لا نأكل الصدقة، أو أنَّا لا تحل لنا الصدقة)[5]

وروي أن امـرأة بعثت إليـه ﷺ بقـدح لبن عنـد فطـره وهـو

1() رواه الحاكم والبيهقي وقال الحاكم صحيح الإسناد.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه أحمد وابن سعد.

5() رواه البخاري ومسلم.

صائم، وذلك في طول النهار وشدة الحر، فرد إليها الرسـول: (أنى لك هذا اللبن؟) قالت: من شـاة لي؛ فـرد إليهـا رسـولها: (أنى لـك هذا الشاة؟) قالت: اشتريتها من مالي؛ فشرب، فلما كان من غـد، أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله: بعثت إليك بذلك اللبن مرثيـة لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت فيـه إلي الرسـول! فقـال النبي ﷺ: (بذلك أمرت الرسل قبلي، أن لا تأكل إلا طيبا، ولا تعمـل إلا صالحا)[1]

هذه هي سنة نبيـك ﷺ، وهي سـنة أئمـة الهـدى من بعـده؛ فاحذر من أولئك الذين يبحثـون لـك عن الـرخص، أو يسـتهينون بمثل هذا، ويسخرون منـه.. فالـدين لا يمثلـه إلا من تمثلت فيـه الهداية، وكان وارثا للنبوة، ولم يدخل معها أهواءه وأمزجته.

ولهذا كان بعض الصالحين يقول: (كنـا نـدع تسـعة أعشـار الحلال مخافـة أن نقـع في الحـرام)، وقـال آخـر: (إن من تمـام التقوى أن يتقي العبد في مثال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حتى يكون حجابـا بينـه وبين النـار)[2]

أما سـؤالك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ عن درجـات الـورع؛ فأحسب أنك من خلال رسـائلي السـابقة صـرت عارفـا بكيفيـة تقسيم الحكماء لهذه المنازل.

لكني مع ذلك سأذكر لك بعض ما ذكروا، فقد قال بعضهم: (الــورع على ثلاث درجــات: الدرجــة الأولى: لصــون النفس، وتوفـير الحسـنات، وصـيانة الإيمـان.. والدرجـة الثانيـة: حفـظ الحدود عند ما لا بأس به إبقاءً على الصيانة والتقـوى، وصـعوداً

1() رواه ابن أبي الـدنيا في (الـورع) والطـبراني في الكبـير والحـاكم وأبـو نعيم في الحلية.

2() إحياء علوم الدين (2/ 95)

على الـدناءة، وتخلصـاً عن اقتحـام الحـدود.. والدرجـة الثالثـة: التورع عن كل داعيةٍ تدعو إلى شتات الوقت، والتعلق بالتفرق، وعارضٍ يعارض حال الجمع)[1]

وقـال آخـر: (أهـل الـورع على ثلاث طبقـات: فمنهم: من تـورع عن الشـبهات الـتي اشـتبهت عليـه، وهي مـا بين الحـرام البين والحلال البين، وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق، ولا اسم حرام مطلق، فيكون بين ذلك فيتورع عنهما.. ومنهم: من يتورع عما يقـف عنـه قلبـه، ويحيـك في صـدره عنـد تناولهـا، وهـذا لا يعرفه إلا أرباب القلوب والمتحققون.. وأمـا الطبقـة الثالثـة في الورع: فهم العارفون والواجدون، فكل ما شغلك عن اللـه فهـو مشئوم عليـك.. فـالأول: ورع العمـوم، والثـاني ورع الخصـوص، والثالث ورع خصوص الخصوص)[2]

وقال آخر: (الـورع لـه أربـع درجـات: الدرجـة الأولى: وهي درجة العدول عن كل ما تقتضي الفتوى تحريمه، وهـذا لا يحتـاج إلى أمثلة.. الدرجة الثانية: الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها، ولكن يستحب.. الدرجة الثالثـة: الـورع عن بعض الحلال مخافـة الوقوع في الحرام.. الدرجة الرابعة: الورع عن كل ما ليس للـه تعالى، وهو ورع الصديقين)[3]

وقال آخر: (الورع ورعـان: ورع فـرض وورع حـذر.. فـورع الفـرض: الكـف عن معاصـي اللـه.. وورع الحـذر: الكـف عن الشـبهات في محـارم اللـه تعـالى.. فـورع العـام: من الحـرام والشـبهة، وهـو كـل مـا كـان للخلـق عليـه تبعـة وللشـرع فيـه

1() منازل السائرين، ص 31، 32.

2() اللُّمَع في التصوف، ص 44، 46.

0

3() مختصر منهاج القاصدين، ص 114، 1150

مطالبة.. وورع الخاص: من كل ما كان فيه الهوى وللنفس فيه شهوة ولذة.. وورع خاص الخاص: من كل ما كان لهم فيه إرادة ورؤية.. فالعام يتورع في ترك الدنيا، والخاص يتورع في ترك الجنة، وخاص الخاص، يتورع في ترك ما سوى الذي برأ)[1]

وقال آخر: (الورع على خمسة أقسام: ورع عن الحرام، وورع عن المكروهات، وورع عن الشبهات، وورع عن المباحات، وورع عن الأغيار.. فأما الورع عن المحرمات: فهو سلامة الدين عن طعن الشارع فيه.. وأما الورع عن المكروهات: فهو السلامة عن الوقوف في العطب.. وأما الورع عن الشبهات: فهو استبراء العرض والدين.. وأما الورع عن المباحات: فهو فضيلة لكنه عند القوم واجب إلا على حد الضرورة.. وأما الورع عن الأغيار: فهو أن لا يختلج سره بغير الله ولا يطرق عليه سواه)[2]

وقال آخر: (الورع على ثلاثة أقسام هي: ورع العام: أن لا يتكلم إلا بالله ساخطاً أو راضياً.. والورع الخاص: وهو أن يحفظ كل جارحة عن سخط الله.. وورع الأخص: وهو أن يكون شغله برضاء الله به)[3]

وقال آخر: (الورع على مرتبتين: ورع في الظاهر: وهو أن لا يتحرك إلا بالله.. وورع في الباطن: وهو أن لا يدخل قلبك سوى الله تعالى)[4]

1() الغنية لطالبي طريق الحق، ج 1 ص 211.

2() تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المقربين، ص 49.

3() جامع الأصول في الأولياء، ج 1 ص 199.

4() حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب (هامش قوت القلوب ج 2) ص 115.

وقال آخـر: (الـورع على ثلاثـة مقامـات: ورع في الطعـام، وورع في اللسان، وورع في القلب)[1]

وذكر بعضهم الدرجة العليا في الورع، فقال: (أهـل الـورع: هم الــذين انتهى بهم الــورع إلى الأخــذ من اللــه، وعن اللــه، والقــول باللــه، والعمــل للــه، وباللــه، على البينــة الواضــحة، والبصيرة الفائقـة. فهم في عمـوم أوقـاتهم وسـائر أحـوالهم: لا يدبرون، ولا يختارون، ولا يريدون، ولا يتفكرون، ولا ينظرون، ولا ينطقـون، ولا يبطشـون، ولا يمشـون، ولا يتحركـون، إلا باللــه، ولله، من حيث يعلمون. هجم بهم العلم على حقيقة الأمـر، فهم مجموعون في عين الجمع، لا يتفرقون فيما هـو أعلى، ولا فيمـا هو أدنى، وأما أدنى الأدنى، فالله يـورعهم عنـه، ثوابـاً لـورعهم، مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم) [2]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تنزل نفسك في هذا المنزل الرفيع، حتى لا يـراك اللـه إلا حيث أمرك، ولا يفقدك إلا حيث نهاك، واسـع لأن تعمـر قلبـك بـه؛ فلا يكون فيه من الأغيار ما يحول بينه وبين التواصل مع ربه.. فالله خير وأبقى.

1() نهج الخواص إلى جناب الخاص، ص 72.

2() أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله، ص 131 (بتصرف)

لسان الصدق

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن لسان الصدق الذي تحدث عنه الحكماء، واعتبروه من علامات الترقي، وكيفية التحقق به.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أني كتبت لك في رسائلي المرتبطة بمثالب النفس اللوامة ما يقتضيه الورع في اللسان، وكيفية استعماله في تزكية النفس وترقيتها، وبينت لك فيها أن اللسان جارحة من الجوارح الخاضعة للنفس، وهي تتحكم فيه بحسب المرتبة التي تنزل فيها، فإن كانت نفسا أمارة أمرته بالصمت في الوقت الذي يجب فيه الكلام، وبالكلام في الوقت الذي يجب فيه الصمت، وخلطت عليه الأمور، وأصبح بذلك أداة من أدوات الشيطان.. وإن كانت النفس مطمئنة شغلته بالذكر والمذاكرة والمجاهدة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل خصال الخير.

وهكذا، فإن اللسان مثله مثل سائر الجوارح، تابع للنفس، يتلون بلونها، ويتحرك تحت أوامرها.. ومن طهّر نفسه طهُر لسانه، ومن أوبقها أوبقه.

ولذلك أثنى الله تعالى على اللسان الطيب الذي يقول الكلمة الطيبة، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)﴾ [إبراهيم: 24، 25]

فقد أخبر الله تعالى أن الكلمة الطيبة، وهي الصادرة من النفس المطمئنة الطيبة يمكنها أن تتحول إلى مصدر كبير من

مصادر الحسنات التي لا تنضب.

وعلى عكسها الكلمة الخبيثة الصادرة من النفس الأمارة الخبيثة، فقد وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 26]

وبناء على ذلك، وبناء على تلك النصوص المقدسة الكثيرة التي ذكرتها لك، والتي تبين عظم خطر اللسان، وكونه علامة على الإنسان اتفق جميع الحكماء على الاهتمام باللسان واعتباره شرطا في كل المراحل التي تمر بها النفس..

وقد قال بعضهم معبرا عن سر ذلك ذلك: (اللسان: هو قلم القلب، تكتب به يمين القدرة ما تملي عليه الإرادة من العلوم في قراطيس ظاهر الكون)(1)

وقال آخر مبينا أنواع الألسنة: (الألسن ثلاثة: لسان العلم، ولسان العطاء، ولسان الوحدانية.. فأما لسان العلم: فإنه يعبر عن الحلال والحرام والحدود والأحكام. وهو زين المؤمن وفضيلته.. وأما لسان العطايا: فإنه يعبر عن الأخطار والإلهام والفهم والفطنة وعلو المراتب والدرجات. وهو شرف المؤمن وفائدته.. وأما لسان الوحدانية: فإنه يعبر عن الله بالله لله)(2)

وقال آخر: (الألسنة ثلاثة لسان علم، ولسان حقيقة، ولسان حق.. فلسان العلم: ما تأدى إلينا بالوسائط.. ولسان الحقيقة: ما أوصل الله تعالى إلى الأسرار بلا واسطة.. ولسان الحق: فليس له طريق)(3)

---

(1)مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم، ص 79.

(2)ختم الأولياء، ص 450.

(3)اللُّمَع في التصوف، ص 216.

وقال آخر مبينا الدرجات الرفيعة للسـان، وهي: (أن يكـون مواظبا على الـذكر الـدائم، والشـكر اللازم، والتلاوة ليلا ونهـارا وسرا وجهارا، وأن يكـون موصـوفا بالإفصـاح لبيـان مـا ينطـوي عليه الكتاب والسنة، ومن علوم الشـريعة والطريقـة والحقيقـة بما ينطوي عليه من الحكم والأسرار، وأن يكون جميع مـا يتكـل بــه حقــا صــادقا خــيرا نافعــا مشــتملا على جملــة من الحكم والمواعظ على ما يذكر سامعه بالله تعالى شـأنه ويقربـه إليـه) (1)

وهكذا، فإن لكل حـال من الأحـوال لسـانه الخـاص بـه، فـ (لسان الورع يدعو إلى ترك الآفات.. ولسان المحبـة يـدعو إلى الذوبان والهيمـان.. ولسـان المعرفـة يـدعو إلى الفنـاء والمحـو والثبات والصحو)(2)

أما ألسنة الحكماء، فهي (لا تنطق إلا من بعد أن يؤذن لها، وإذا نطقت وقـع السـمع لمن أسـمع بهـا، وإنمـا مثـل ذلـك من فضل الله على خلقه، مثـل غيث سـمائه الـذي أنزلـه وأحيـا بـه ميت أرضـه، أمـا سـمعت اللـه تعـالى يقـول: ﴿فَـانْظُرْ إِلَى آثَـارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَـدِيرٌ﴾، وكـذلك يحـيي اللـه تعـالى بألسـنة الحكمة ما أمات من الإعراض عنه من قلوب أهل الغفلة)(3)

وقد اتفق جميع الحكماء على أن للسان أثـره على القلب، فـ (إذا كان اللسان صالحاً صلح القلب، وإذا كان فاسـداً فسـد.. ولــذلك يحتــاج لســانك إلى لجــام التقــوى، وتوبــة عن الكلام بالهذيان والنفاق، فإذا دمت على ذلـك انقلبت فصـاحة اللسـان

1()لطائف الإعلام في إشارات أهل الإفهام، ص 437.

2()حكم أبو مدين، ص 56.

3()رسائل الجنيد، ص 9.

إلى فصاحة القلب، فإذا تم له هـذا تنـور وظهـر النـور منـه إلى اللسان والجوارح، فحينئذٍ يكون النطق للسان المقرب)[1]

بناء على هذا وغيره، ذكر رسول الله ﷺ وأئمـة الهـدى من بعده كثيرا من التكاليف التي تؤهل اللسان، ليتحـول إلى لسـان صادق، حقيق بالنفس المطمئنة.. ذلك أنـه لا يسـتقيم أن تكـون النفس مطمئنة ولسانها الذي هو أهم جوارحهـا ممتلئ بالكـذب والزور.

ومن مجامع تلك التكاليف ما عبر عنـه الإمـام السـجاد في رسالة الحقوق بقوله عند ذكر حقوق اللسان: (وأما حق اللسان فإكرامه عن الخنى، وتعويده الخير، وحمله على الأدب وإجمامه إلا لموضع الحاجة والمنفعة للدين والدنيا، وإعفاؤه عن الفضول الشنعة القليلة الفائدة الـتي لا يـؤمن ضـررها مـع قلـة عائـدتها، ويعد شاهد العقل، والدليل عليه وتزين العاقل بعقله [و] حسـن سيرته في لسانه ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) [2]

وقال: (إنّ لسان ابن آدم يشـرف كـلّ يـوم على جوارحـه، فيقول: كيف أصـبحتم؟.. فيقولـون: بخـير إن تركتنـا، ويقولـون: الله الله فينا، ويناشدونه ويقولون: إنّما نُثاب بك ونُعاقب بك)[3]

وقال: (القول الحسن يُثري المال، ويُنمي الرزق، وينسيء في الأجل، ويحبّب إلى الأهل، ويدخل الجنة)[4]

1()الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص 223.

0

2() بحار الأنوار (71/ 11)

3()ثواب الأعمال ص212، الخصال 1/6.

4()الخصال 1/153، أمالي الصدوق ص2.

وسئل عن الكلام والسكوت أيّهما أفضل؟.. فقال: (لكلّ واحدٍ منهما آفات، فإذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت)، قيل: كيف ذلك يا بن رسول الله ﷺ؟.. فقال: (لأنّ الله عزّ وجلّ ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، إنّما بعثهم بالكلام، ولا استحقّت الجنّة بالسكوت، ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت، ولا تُوقّيت النار بالسكوت، إنّما ذلك كلّه بالكلام، ما كنت لأعدل القمر بالشمس، إنّك تصف فضل السكوت بالكلام، ولست تصف فضل الكلام بالسكوت)[1]

وهو في هذا يرد على أولئك الذين راحوا يضعون الحجارة في أفواههم ليمنعوها من الحديث، غافلين عن أن المثالب والعقوبات المرتبطة بالصمت، لاتقل عن المثالب والعقوبات المرتبطة بالكلام.

وهكذا بين الإمام علي أهمية الكلام وضرورته، والموازين التي تحكم بين الصمت والكلام، فقال: (جُمع الخير كلّه في ثلاث خصال: (النظر، والسكوت، والكلام، فكلُّ نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو، وكلُّ سكوت ليس فيه فكر فهو غفلة، وكلُّ كلام ليس فيه ذكر فهو لغو، فطوبى لمن كان نظره عبراً، وسكوته فكراً، وكلامه ذكراً، وبكى على خطيئته، وآمن الناس شرّه)[2]

ويروى أنه مرّ برجل يتكلّم بفضول الكلام، فوقف عليه، ثمّ قال: (يا هذا..إنّك تُملي على حافظيك كتاباً إلى ربّك، فتكلّم بما يعنيك ودَعْ ما لا يعنيك)[3]

1()الاحتجاج ص172.

2()أمالي الصدوق ص18.

3()أمالي الصدوق ص21.

وقال: (لا تقطعوا أعماركم بكـذا وكـذا، وفعلنـا كـذا وكـذا، فـإنّ معكم حفظـة يحفظـون علينـا وعليكم.. فكفّـوا ألسـنتكم، وسلّموا تسليماً تغنموا)[1]

وقال: (الكلام في وثاقك مـا لم تتكّلم بـه، فـإذا تكلّمت بـه صرت في وثاقه، فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك، فـربّ كلمة سلبت نعمة ولا تقل ما لا تعلم، فإنّ الله سبحانه قد فرض على جوارحك كلّها فرائض يحتجّ بها عليك يـوم القيامـة.. هـانت عليه نفسه من أمّر عليها لسانه.. ومَن كثُر كلامـه كـثر خطـاؤه، ومَن كثُر خطاؤه قلّ حياؤه، ومَن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومَن قلّ ورعه مات قلبه، ومَن مات قلبه دخل النار)[2]

وقال: (وليختزن الرجـل لسـانه، فـإنّ هـذا اللسـان جمـوح بصـاحبه، واللـه مـا أرى عبـداً يتّقي تقـوى تنفعـه حتّى يخـتزن لسانه، وإنّ لسان المؤمن من وراء قلبه، وإنّ قلب المنافق من وراء لســانه، لأنّ المــؤمن إذا أراد أن يتكلّم بكلام تــدبّره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه، وإنّ كـان شـراً واراه، وإنّ المنـافق يتكلّم بما أتى على لسانه لا يدري ماذا له وماذا عليه)[3]

وقـال: (وإنّـا لأمـراء الكلام وفينـا تنشّـبت عروقـه، وعلينـا تهدّلت غصونه، واعلموا ـ رحمكم الله ــ أنكم في زمـانٍ القائـل فيـه بـالحق قليـل، واللسـان عن الصـدق كليـل، واللازم للحـق ذليل)[4]

وقال في وصيته لابنه الإمام الحسن: (تلافيك ما فَـرَط من

1() الخصال 2/157.

2() بحار الأنوار: 68/286، وروضة الواعظين.

3() نهج البلاغة، 1/346.

4() نهج البلاغة، 1/489.

صمتك، أيسر من إدراكك ما فـات من منطقـك، وحفـظ مـا في الوعاء بشدّ الوكاء)[1]

وقـال: (العافيـة عشـرة أجـزاء: (تسـعة منهـا في اعـتزال الناس، وواحدة في الصمت إلاّ عن ذكر الله عزّ وجلّ)[2]

وقـــال الإمـــام الصـــادق موصـــيا أصـــحابه: (معاشـــر الشيعة..كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً، قولوا للناس حسـناً، واحفظوا ألسنتكم وكفّوها عن الفضول، وقُبح القول)[3]

وقـال: (ليس على الجـوارح عبـادة أخـفّ مؤنـة، وأفضـل منزلة، وأعظم قدراً عند الله من الكلام في رضا اللـه ولوجهـه، ونشر آلائـه ونعمائـه في عبـاده، ألا تـرى أنّ اللـه عـزّ وجـلّ لم يجعل فيما بينـه وبين رسـله معـنى، يكشـف مـا أسـرّ إليهم من مكنونات علمه، ومخزونات وحيه غير الكلام)[4]

إذا وعيت كل هذا ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ فـاعلم أنـك لا يمكن أن تتحقـق بلسـان الصـدق إلا بشـرطين، أولهمـا مرتبـط بعلاقتك بربك، وثانيهما بعلاقتك بالخلق.

أما الأول منهما، وهو علاقتك باللـه تعـالى؛ فبحـديثك معـه؛ فلا يصح أن تتحدث مع كل الخلق، ثم لا تتحـدث معـه، وحـديثك مـع ربـك يكـون بتلاوتـك لكتابـه، وكـثرة ذكـره ومناجاتـه، مـع استشعار حضوره وسماعه.

وقد ذكرت لك في رسائلي السـابقة الكثـير من النصـوص

1() نهج البلاغة،2/51.

2() بحار الأنوار: 68/293.

3()أمالي الطوسي 2/55.

4()مصباح الشريعة ص30.

المقدسة التي ترغبك في قراءة القرآن الكريم والذكر والـدعاء والمناجاة فتأمل فيها، واجعل للسانك حظـا منهـا؛ فلا يمكنـه أن يتطهر ولا أن يترقى من دون ذلك.

وأما الثاني، وهو علاقتك بالخلق؛ فلا تكتفي بتنزيـه لسـانك عن الغيبـة والنميمـة والأذى، فـذلك شـأن البطـالين الكسـالى المقعدين.. بل أضف إلى ذلك استعماله في نصيحتهم ودعـوتهم إلى ربك.. حتى لا تكون علاقتـك مـع الخلـق حجابـا عن علاقتـك بربك.

وقـد أخـبر ﷺ عن الأجـور العظيمـة الـتي ينالهـا من يفعـل ذلك، وهو ما يحرم منه من آثروا الصمت، واعتزلوا الناس، فقـد قال: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم) (1)

ولذلك فإن الداعية إلى الله تعـالى يسـتثمر لسـانه أعظم استثمار في الدعوة إلى ربه، وقد ورد لفـظ (قـل) الـداعي إلى استعمال هذه الوسيلة في القرآن الكريم في أكـثر من ثلاثمائـة آية.. وقد أثني الله تعـالى على أقـوال الـدعاة إلى اللـه، فقـال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِـلَ صَـالِحاً وَقَـالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:33)

وأخبر الله تعالى أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومـه، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (ابراهيم:4)

وهكذا لم يكن رسول الله ﷺ يدع مناسبة من المناسـبات، ولا فرصة من الفرص إلا ودعا فيها إلى ربه.. فحينمـا خـرج إلى الطائف دعاهم إلى الله بالقول، وقد قال المؤرخـون في ذلـك: (لما انتهى رسـول اللـه ﷺ إلى الطـائف عمـد إلى نفـر ثقيـف..

1(()) رواه البخاري ومسلم.

فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه)

وحينما أمره الله بعرض نفسه على القبائل، كان يدعوهم بالقول، حيث (كان على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الهدى والرحمة)

وبالقول استطاع رسول الله ﷺ إقناع وفد الأنصار بدعوة الحق حين التقى بهم، فقد قال لهم: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان القول وسيلة مبعوثيه ﷺ في إقناع مدعويهم، فقد قال مصعب بن عمير وهو مبعوثه ﷺ إلى المدينة المنورة لزعيمي بني عبد الأشهل: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟

فهذه النصوص وغيرها كثير تبين أن اللسان من أهم وسائل الدعوة إلى الله.. ولذلك على الصادق مع الله أن يدربه على جميع أساليب الدعوة إلى الله.. من الموعظة التي تدمع لها العيون.. والخطبة التي ترتجف لها القلوب.. والحوار الذي يصد عن الباطل ويهدي إلى الحق.. والمعلومة التي يقضى بها على الجهل.. وهكذا فميادين اللسان لا يمكن حصرها.

وقد قال الله تعالى يشير إلى ذلك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (ابراهيم:4)

فاسع لأن تخاطب كل قوم بلسانهم، حتى تحبب لهم ربك ودينك، لئلا تكون حجابا بينهم وبين الحق، وقد قال بعض

الحكماء في ذلك: (ألسن العارف: هي الألسن التي جعلها اللـه تعالى للعارف ليكلم كل صنف من الناس على قدر مراتبهم ومنازلهم وقدر عقولهم، فلا يكشف دقائق الكلام إلا عند أهله، ولا يحمل المريد فوق طاقته، ولا يمنع كلامه من كان من أهله.. فيكون كلامه مع أهل المعرفة بلسان المعرفة، ومع أهل الصفاء بلسان المحبة، ومع أهل الزهد بلسانهم.. وهذه الألسن تتلاشى كلها عند ظهور سلطان الحق، فمن ورد قلبه الحضرة كل لسانه، ومن غاب قلبه عن الحضرة كثر كلامه) (1)

هذا جوابي على سؤالك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسع لأن تجعل لسانك مثل ألسنة الصالحين؛ فعسى اللـه أن ينقلك إلى مرتبتهم، حتى لو لم يكن لك حظ من دينك إلا لسانك، وقد قال بعض الحكماء يذكر ذلك: (لا تترك الذّكر لعدم حضور قلبك مع اللّه فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشدّ من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عمّا سوى المذكور، وما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)

وقيل لبعضهم: ما لنا نذكر اللّه باللسان والقلب غافل؟ فقال: (اشكر اللّه على ما وفق من ذكر اللسان، ولو أشغله بالغيبة ما كنت تفعل؟)

---

(1) أحمد أبو كف، أعلام التصوف الإسلامي، ص 26 (بتصرف).

الأدب الرفيع

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الأدب، وحقيقته، ومنزلته، ومجالاته، ومظاهره، وهل هو من شروط النفس المطمئنة، أم أنه من كمالاتها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الأدب في حدوده الدنيا من شروط النفس المطمئنة؛ ذلك أنها لا يمكنها أن تتحقق بطمأنينتها ما لم تتحقق به.

وبما أن طريق النفس المطمئنة لا نهاية لها، فإنه لا نهاية لآدابها.. ذلك أنها في كل مرتبة من المراتب، أو منزلة من المنازل تكتسب آدابا جديدة.

وكيف لا تكتسبها، وهي تتقرب إلى ربها.. وعلامة القرب من الله الأدب معه، ومع خلقه، ولهذا ذكر رسول الله ﷺ تأديب ربه له، فقال: (أدبني ربي فأحسن تأديبي) [1]

ولهذا، امتلأت المصادر المقدسة بالاهتمام بالآداب وتفاصيلها الدقيقة، وفي كل الشؤون، ذلك أن من السمات الأولى للمسلم كونه صاحب أدب رفيع، وأخلاق عالية، وسمت حسن.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في موعظة لقمان عليه السلام لابنه: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:18]

ومنها دعوته إلى تعليم الأطفال أصول الآداب الاجتماعية، كآداب الاستئذان، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ

---

(1) رواه أبو سعد بن السمعاني في أدب الإملاء.

الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [النور:59]

أو آداب الزيارة كما في قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [النور:61]

أو آداب المجالس، كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [المجادلة: 11]

أو آداب الكلام، كما في قوله تعالى: وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ [لقمان:19]، وقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ [الحجرات:2]

أو آداب التحية، كما في قوله تعالى: وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً [النساء:86]

أو آداب المشي، كما في قوله تعالى في موعظة لقمان عليه السلام: وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً

إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُـورٍ [القمـان:18]، وقـال تعـالى: وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحــاً إِنَّكَ لَنْ تَخْــرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُــغَ الْجِبَالَ طُولاً [الاسراء: 37]

أو آداب التعامل مع مختلف أصـناف النـاس بمـا يناسـبهم، وبحسب منازلهم، فقد يصلح لصنف من الناس مـا لا يصـلح مـع غيره، بل قد يكـون نفس التصـرف حسـنة مـع قـوم سـيئة مـع غيرهم، كما نبه إلى ذلك قوله تعالى: لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً (النور:63)، فقد قيل في تفسيرها: قولوا يا رسول الله، في رفق ولين، ولا تقولوا يا محمد بتجهم.

وإلى ذلك الإشارة أيضا بقوله تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّـونَ أَصْــوَاتَهُمْ عِنْــدَ رَسُــولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُــوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (الحجرات:3)، فقد أثـنى اللـه تعالى على هؤلاء بهذا السلوك أمام رسول الله ﷺ.

وفي مقابل هـؤلاء ورد ذم قـوم أسـاءوا الأدب مـع رسـول الله ﷺ، بل نعتوا بعدم العقل، قـال تعـالى: إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَـكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (الحجرات:4)، وهذا يـدل على أن الأدب يدل على كمال العقل.

وبناء على هذا دعا الله تعالى إلى التعامل مـع كبـار السـن بحسب ما يقتضيهم حالهم، قال تعالى عن الوالدين، وهو يشمل غيرهما: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمـاً (الاسـراء: 23)، فمـع أن الوصية بالوالدين عامة ومطلقة في القرآن الكريم إلا أنــه خص الكبر بمزيد الإحسان، وضرورة القول الحسن لما تستلزمه هذه الفترة من ذلك.

وهكذا ذكر القرآن الكـريم نمـاذج كثـيرة لآداب الصـالحين،

منها آداب (عباد الرحمن) الذين بدأ الله تعالى وصفهم بقوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ (الفرقان:63)، والتي يمكن أن يستنبط منها المجامع الكبرى للآداب مع الله تعالى ومع خلقه.

وهكذا ذكر القرآن الكريم آداب المتعلم في قصة موسى والخضر عليهما السلام، وقد استنبط بعض العلماء الكثير من معاني الآداب المرتبطة بها، سأذكرها لك، لا لذاتها، وإنما للتعلم كيف تنهل الحقائق والقيم من القرآن الكريم.

وقد قدم لذلك بقوله: (اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر)، ومما ذكره من الآداب(1):

1. أنه جعل نفسه تبعاً له لأنه قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾

2. أنه استأذن في إثبات هذا التبعية، فإنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك، وهذا مبالغة عظيمة في التواضع.

3. أنه قال: ﴿ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم.

4. أنه قال: ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ وصيغة من للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضاً مشعر بالتواضع كأنه يقول له لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءا من أجزاء ماله.

5. أن قوله: ﴿ مِمَّا عُلّمْتَ ﴾ اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم.

1() تفسير الرازي: 21/485.

6. أن قوله: ﴿ رَشَدًا ﴾ طلب منه للإرشاد والهداية والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.

7. أن قوله: ﴿ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك علي عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم، ولهذا المعنى قيل: (أنا عبد من تعلمت منه حرفاً)

8. أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير، فإنا إذا قلنا: لا إله إلا الله فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة فلا يجب كوننا متبعين لهم في ذكر هذه الكلمة، لأنا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها بل إنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله ﷺ فإنما أتينا بها لأجل أنه ﷺ أتى بها لا جرم كنا متابعين في فعل هذه الصلوات لرسول الله ﷺ، إذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتياً بها. وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض.

9. أن قوله: ﴿ ٱتَّبَعَكَ ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقاً في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء.

10. أنه ثبت بالإخبار أن الخضر عرف أولاً أنه نبي بني إسرائيل، وأنه هو موسى صاحب التوراة، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع، وذلك يدل على كونه عليه السلام آتياً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من

البهجة والسعادة أكثر فكان طلبه لها أشد وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد.

11. أنه قال: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن فأثبت كونه تبعاً له أولاً ثم طلب ثانياً أن يعلمه وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم.

12. أنه قال: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً كان قال لا أطلب منك على هذه المتابعة المال والجاه ولا غرض لي إلا طلب العلم.

وغيرها من الآداب الكثيرة التي يمكنك استنباطها من القرآن الكريم؛ فهو أعظم كتاب في التربية والتأديب.. وعلى قدر تدبره على قدر الترقي في سلم الآداب.

وهكذا ورد في سنة رسول الله ﷺ التفاصيل الكثيرة المبينة لكيفية تنفيذ الآداب القرآنية، فاحرص ـ أيها المريد الصادق ـ على البحث عنها، وتنفيذها، كما أمروا بها، حتى تصدق فيك تلك البشارات التي وردت للمتحلين بالآداب الرفيعة، كقوله ﷺ: (الهَدْي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة)(1)

ومن الأمثلة عنها ما ورد من الحظ على التعامل مع كل شخص بما يليق بحالته النفسية، ومنها قوله ﷺ: (من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا فليس منا)(2)

ودعا رسول الله ﷺ إلى تخصيص بعض الناس بالإكرام، فقال:(إن من إكرام جلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم

1() رواه أحمد وأبو داود.

2() رواه البخاري في الأدب وأبو داود.

والإمام العادل وحامل القرآن لا يغلو فيه ولا يجفو عنه)(1)

وقال:(من تعظيم جلال الله عز وجل إكرام ذي الشيبة في الإسلام، وإن من تعظيم جلال الله إكرام الإمام المقسط)(2)

ومن الأمثلة عنها مـا ورد في السـنة من الآداب المرتبطـة بـالطريق، ومنهـا قولـه ﷺ: (من اقتطـع من طريـق المسـلمين وأفـنيتهم قيـد شـبر من الأرض طوقـه يـوم القيامـة من سـبع أرضين)(3)

وقال ﷺ: (نح الأذى عن طريق المسلمين)(4)، وقال:(أمـط الأذى عن الطريق فإنه لك صدقة)(5)

وأخبر عن الجزاء العظيم المعد لمن فعل هذا، فقال: (مـر رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق فقال: واللــه لأنحين هـذا عن طريق المسلمين لا يؤذيهم؛ فأدخل الجنة)(6)

ويدخل في هذا تنظيف جميع المحال العامة، كمـا قـال ﷺ: (عرضـت علي أجـور أمـتي حـتى القـذاة يخرجهـا الرجـل من المسـجد، وعرضـت علي ذنـوب أمـتي فلم أر ذنبـا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها)(7)

1() رواه ابن عدي والبيهقي والخرائطي في مكارم الأخلاق.

2() رواه ابن الضريس.

3() نقلا عن: المدخل: 2/79، وقريب منه في الحلية لأبي نعيم وعبد الرزاق.

4() رواه ابن حبان.

5() رواه البخاري في الأدب المفرد باب إماطة الأذى رقم (228)

6() رواه أحمد ومسلم.

7() رواه أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وأمـر رسـول اللـه ﷺ بمراعـاة العـابرين في الطريـق، فلا يؤذيهم، أو يمسهم بما يحد من حريتهم، فقال: (إياكم والجلوس على الطرقات، فإن أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريـق حقهـا: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)(1)

ودعـا رسـول اللـه ﷺ إلى التحيـة وآدابهـا، فقـال: (والـذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حـتى تحـابوا أفلا أدلكم على شـيء إذا فعلتمـوه تحـاببتم؟ أفشـوا السـلام بينكم)(2)

بل اعتـبر إفشـاء السـلام من دلائـل خيريـة المسـلم، فقـد روي أن رجلا سأل رسول الله ﷺ:أي الإسلام خير؟ قـال:(تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)(3)

وهكـذا كـان رسـول اللـه ﷺ يمثـل كـل الآداب، وبـأرفع درجاتها، ومن الأمثلة عنها، أنه لم يكن يضحك قهقهة، وإنما كان يكتفي بالابتسـامة، وكـان كثـير التبسـم، فالتبسـم دليـل على النفس المطمئنة الهادئة المستقرة البشوشة، بخلاف العبـوس، ولهذا كان يأمر به، ويقول: (تبسمك في وجه أخيك لـك صـدقة) (4)

وجعل ﷺ لقاء الناس بوجه طليق من المعروف، فقال:(لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط)

1() رواه أحمد والبيهقي وأبو داود.

2() رواه أبو داود.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه الترمذي (1956)

(1)

وغيرها من الآداب الكثيرة التي لا يمكن حصرها.. والتي مثلها أحسن تمثيل، ودعا إليها أحسن دعوة أئمة الهدى الذين ورثوا أخلاق رسول الله ﷺ، ودعوا إليها، فاحرص ــ أيها المريد الصادق ـ على البحث عنها، لتتحقق فيك التبعية الحقيقية.

واعلم ــ أيها المريد الصادق ــ أن الآداب أعظم من أن تنحصر في تلك المظاهر التي ذكرتها لك؛ فهي مجرد أمثلة عن كيفية التعامل مع الخلق، ولذلك فهي تشمل كل المعاملات، وفي كل الشؤون.

ولهذا اتفق الحكماء على اعتبارها شرطا من شروط السلوك، وقد قال بعضهم في ذلك: (من تهاون في الأدب عوقب بترك السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة)(2)

وقال آخر: (ترك الأدب موجب يوجب الطرد، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب)(3)

وقال آخر: (ما دام العبد يحفظ الآداب ويتعاهدها فالشيطان لا يطمع فيه، فإذا ترك الأدب طمع الشيطان في السنن، ثم في الفرائض، ثم في اليقين)(4)

وقال آخر: (الأدب عند أهل الطريق: هو باب رسول الله

1() رواه أحمد والترمذي والحاكم.

2() عبد الله اليافعي، نشر المحاسن الغالية، ص226.

3()الرسالة القشيرية، ص 221.

4() ابراهيم حلمي القادري، مدارج الحقيقة في الرابطة عند أهل الطريقة - ص11.

ﷺ، وهو باب الله تعالى)[1]

وقال آخر: (التوحيد موجب يـوجب الإيمـان، فمن لا إيمـان له لا توحيد له.. والإيمان موجب يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيـد لـه.. والشـريعة مـوجب يـوجب الأدب، فمن لا أدب له لا شريعة لـه ولا إيمان ولا توحيد)[2]

وقال آخر: (الأدب في العمل علامة قبول العمل)[3]

وقـال آخـر: (العبـد يصـل بطاعتـه إلى الجنـة، وبأدبـه في طاعته إلى الله تعالى)[4]

واتفقـوا على أن الأدب يشـمل كـل المجـالات، وقـد قـال بعضهم معـبرا عن ذلـك: (الأدب على ثلاثـة أوجـه: أدب الـروح، وأدب القلب، وأدب النفس)[5]

وقال آخر: (الأدب على ثلاثة أوجه: آداب في الظاهر وذلك بإقامة الحدود، وآداب في البـاطن بـالإعراض عن كـل مخلـوق، وآداب فيهمـا وذلـك بالانحيـاش للحـق والـدوام بين يديـه على بساط الصدق، وذلك هو جملة الأمر وتفصيله وتفريعه وتأصيله)[6]

وقـال آخـر: (الأدب أدبـان: أدب قـول، وأدب فعـل.. فمن رفق لنفسه في أدبه بقوله عدم ثواب العمل.. ومن تقــرب إلى

1()قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي واتباعه الأكابر - ص 291.

2()اللُّمَع في التصوف، ص 143.

3()عوارف المعارف (ملحق بكتاب إحياء علوم الدين للغزالي) ج5 ص 151.

4()عوارف المعارف (ملحق بكتاب إحياء علوم الدين للغزالي) ج5 ص 151.

5()منار السائرين ومطار الطائرين، ص 195.

6()إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 2 ص 189.

الله تعالى بأدب فعله، منحه محبة القلوب، وصرف عنه العيوب، وجعله شريكاً في ثواب المتعلمين)(1)

وقال آخر: (الأدب مع الله بتعظيم شعائر الله، ومع الخلق بالصمت والمحبة)(2)

واتفقوا على أنه يختلف باختلاف درجة السالكين؛ فكلما ازداد رقي السالك كلما ازداد أدبه، وقد قال بعضهم معبرا عن ذلك: (الأدب على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: منع الخوف أن يتعدى إلى الإياس، وحبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن، وضبط السرور أن يضاهي الجرأة.. والدرجة الثانية: الخروج من الخوف إلى ميدان القبض، والصعود عن الرجاء إلى ميدان البسط، والترقي عن السرور إلى ميدان المشاهدة.. والدرجة الثالثة: معرفة الأدب، ثم الغنى عن التأدب بتأديب الحق، ثم الخلاص من شهود أعباء الأدب)(3)

وقال آخر: (الأدب على ثلاث أقسام: أدب العام: هو ترك ما لا يعني وإن كان صادقاً.. أدب الخاص: وهو أن يعرف الخير فيحث نفسه عليه، ويعرف الشر فيزجرها عنه.. أدب الأخص: وهو المعرفة في النعم والنقم)(4)

وقال آخر: (الناس في الأدب متفاوتون وهم على ثلاث طبقات: أهل الدنيا، وأهل الدين، وأهل الخصوصية من أهل الدين.. فأما أهل الدنيا: فإن أكثر آدابهم في الفصاحة، والبلاغة،

1()اللُّمَع في التصوف، ص 142.

0

2()محمود حسن الفركاوي القادري، شرح منازل السائرين، ص 71.

3()منازل السائرين، ص 67، 68.

4()جامع الأصول في الأولياء، ج1 ص 202.

وحفـظ العلـوم، وأسـمار الملـوك، وأشـعار العـرب، ومعرفـة الصنايع.. وأما أهل الدين: فإن أكثر آدابهم في رياضة النفــوس، وتـأديب الجـوارح، وطهـارة الأسـرار، وحفـظ الحـدود، وتـرك الشهوات، واجتنـاب الشـبهات، وتجريـد الطاعـات، والمسـارعة إلى الخيرات.. فأما أدب أهل الخصوصية من أهـل الـدين: فـإن أكـثر آدابهم في طهـارة القلـوب، ومراعـاة الأسـرار، والوفـاء بالعقود بعد العهود، وحفظ الوقت، وقلة الالتفات إلى الخــواطر والعـوارض والبـوادي والطـوارق، واسـتواء السـر مـع الإعلان، وحسـن الأدب في مواقـف الطلب ومقامـات القـرب وأوقـات الحضور والقربة والدنو والوصلة)[1]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن تلتزم بالآداب، ليرفعك الله إلى مقامات المقــربين؛ فلا يصـلح للجلـوس معهم، أو جـوارهم إلا من عظم أدبـه، وحسـن سـمته، ورق خلقـه.. لأن في جـوارهم جـوار اللـه، وفي قـربهم قرب الله.

---

(1) اللُّمَع في التصوف، ص 142، 143

أداء الحقوق

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن الحقوق التي ورد الحث على أدائها، وأنواعها، وعلاقتها بالنفس المطمئنة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لـك أن كـل رحلـة النفس المطمئنــة في ســيرها التحققي والتخلقي إنمــا يتم بنــاء على مراعاتهـا للحقـوق الـتي كلفت بهـا.. فهي لا تتحـرك من ذاتهـا لـذاتها، وإنمـا تتحـرك وفـق مـا كلفت بـه من وظـائف تبـدأ من علاقتها بربها، وتنتهي بعلاقتها مع الخلق.

ومن زعم أن له نفسا مطمئنة، أو أنه من الحكماء، أو أنــه من العارفين بربهم، أو أنـه من أوليـاء اللـه، ثم فـرط في بعض تلك الحقوق، كـان مـدعيا فيمـا ادعـاه، فيسـتحيل على صـاحب النفس المطمئنــة أن يقصــر في التكــاليف الــتي أنيطت بــه، والأمانات التي استودعها الله عنده.

وكمثال على ذلك يقرب لـك هـذا المعـنى مـا روي أن ابن عبـاس كـان معتكفـا في مسـجد رسـول اللـه ﷺ، فأتـاه رجـلٌ، فسـلم عليـه، ثم جلس، فقـال لـه ابن عبـاس: يـا فلان! أراك مكتئبا حزينا. قال: نعم يا ابن عم رسول الله ﷺ لفلان علي حق ولاء، وحرمة صاحب هذا القبر ما أقـدر عليـه، قـال ابن عبـاس: أفلا أكلمه فيك؟ فقال: إن أحببت. قال: فانتعـل ابن عبـاس، ثم خرج من المسجد، فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيـه؟ قـال: (لا، ولكني سمعت صاحب هذا القـبر ﷺ يقـول: (من مشـى في حاجة أخيه وبلغ فيها؛ كـان خـيرا لـه من اعتكـاف عشـر سـنين، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه اللـه تعـالى؛ جعـل اللـه بينـه وبين النار ثلاث خنادق كل خندق، أبعد مما بين الخافقين) (1)

1() رواه الطبراني في الأوسط، والبيهقي، والحاكم، الترغيب والترهيب للمنـذري (2/

فابن عباس كان في تلك اللحظة بين مراعاة حقين: حق الله تعالى الذي أوجبه على نفسه بالاعتكاف، وحق خلقه الذي أوجبه الله عليه.. فلذلك راح يقدم ما أوجبه الله عليه على ما أوجبه على نفسه، وإن كان حقا لله تعالى.

ولذلك؛ فإن الذي يقصر ما كلف به من حقوق على الخلق بحجة التعبد، هو لا يفرط في حق الخلق فقط، بل يفرط في حق الله أيضا.. لأنه لا يمكن لأحد أن يؤدي حق الله، وهو يغض طرفه عن التكاليف التي كلف بها.

ولتفهم سر هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن هذا الكون بني على نظام محكم، ووفق قوانين دقيقة تسري على الجميع، ولو أن جهة ما فرطت في بعض ما كلفت به، لسرى الخلل إلى الجميع.

وليعلمنا الله تعالى ذلك، ويجعلنا ننضبط بالقوانين التي وضعها، والمملوءة بالعدالة والرحمة أخبرنا أنه هو نفسه مع عظمته وتعاليه فرض على نفسه من الحقوق والقوانين ما ألزمها به رحمة منه وفضلا.

وقد ورد ذلك في آيات كثيرة، وبصيغ مختلفة منها قوله تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (يونس:103)، فالله تعالى أوجب على نفسه ـ حسب هذه الآية ــ رحمة منه وفضلا إنجاء المؤمنين من المهالك.

وأوجب تعالى على نفسه ــ رحمة منه وفضلا ــ نصر المؤمنين، فقال: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا

(99

نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم:47)

وأوجب تعالى على نفسه ــ رحمة منه وفضلا ــ إدخال المجاهدين في سبيله الجنة، كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (التوبة:111)

وأوجب تعالى على نفسه ـ رحمة منه وفضلا ــ أن يبعث من يموت، كما قال تعالى: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (النحل:38)

وقد ورد في السنة الكثير من الأحاديث الدالة على هذا المعنى، ومنها ما أخبر عنه ﷺ من إيجاب الله تعالى على نفسه وضع ما ارتفع من أمور الدنيا، كما قال ﷺ:(إن حقا على الله تعالى أن لا يرتفع شيء من أمر الدنيا إلا وضعه) (1)

ومنها وعده بالإعانة والبركة لمن فعل أمورا معينة، كما قال ﷺ:(ثلاث من فعلهن ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله تعالى أن يعينه، وأن يبارك له: من سعى في فكاك رقبة ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله تعالى أن يعينه، وأن يبارك له، ومن تزوج ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله تعالى أن يعينه، وأن يبارك له، ومن أحيا أرضا ميتة ثقة بالله واحتسابا كان حقا على الله تعالى أن يعينه، وأن يبارك له)(2)

ومنها وعده بإجابة من رفع كفه إليه سائلا، قال ﷺ:(ما

1() رواه أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي.

2() رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

رفع قوم أكفهم إلى الله تعالى يسألونه شيئا إلا كـان حقـا على الله أن يضع في أيديهم الذي سألوا)(1)

ومنها المغفرة لمن عرف ربه غافرا ومعـذبا، قـال ﷺ:(من أذنب ذنبا فعلم أن له ربا إن شاء أن يغفر له غفر له، وإن شـاء أن يعذبه عذبه؛ كان حقا على الله أن يغفر له)(2)

ومنها وقاية من ذب عن عرض أخيه من النار، قال ﷺ:(من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يقيه من النار)(3)

ومنها مـا نص عليـه قولـه ﷺ:(من أخـاف مؤمنـا كـان حقـا على الله أن لا يؤمنه من افزاع يوم القيامة)(4)

ومنها ما نص عليه قوله ﷺ:(أيما رجل حالت شفاعته دون حد من حدود الله لم يزل في سخط الله حتى ينزع، وأيما رجل شد غضبا على مسلم في خصومة لا علم له بها فقد عانـد اللـه حقـه وحـرص على سـخطه وعليـه لعنـة اللـه التابعـة إلى يـوم القيامة، وأيمـا رجـل أشـاع على رجـل بكلمـة وهـو منهـا بـريء يشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يدنيه يوم القيامة في النار حتى يأتي بإنفاذ ما قال)(5)

ومنها ما نص عليه قوله ﷺ:(من قرأ القرآن كان حقـا على الله أن لا يطعمه النار ما لم يغل به ما لم يأكل به ما لم يراء به

1() رواه الطبراني.

2() رواه الطبراني في الأوسط.

3() رواه أحمد والطبراني.

4() رواه الطبراني في الأوسط.

5() رواه الطبراني في الكبير.

ما لم يدعه إلى غيره)(1)

ومنهـا مـا نص عليـه قولـه ﷺ:(من قـال حين يصـبح وحين يمسي ثلاث مرات: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمـد نبيـا كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة)(2)

وغيرها من الأحاديث الكثيرة.. والتي ورد فيها أيضـا الجمـع بين ذكر حقوق الله على خلقه، وحقوق الخلق على الله، ومنهـا قولـه ﷺ لمعـاذ:(أتـدري مـا حـق اللـه على عبـاده) قـال:(اللـه ورسـوله أعلم) قـال:(حقـه عليهم أن يعبـدوه ولا يشـركوا بـه شيئا)، قال ﷺ:(أتدري ما حق العباد على اللـه إذا فعلـوا ذلـك)، قال:(الله ورسوله أعلم) قال:(حقهم عليه أن لا يعـذبهم بالنـار) (3)

ومثلها الأحاديث التي تبين أنواع الحقوق الـتي أوجبهـا اللـه على عباده، ومنها قوله ﷺ: (ثلاثة يؤتـون أجـرهم مـرّتّين: رجـل من أهـل الكتـاب آمن بنبيّـه، وأدرك النّبيّ ﷺ فـآمن بـه واتّبعـه وصدّقه فله أجـران، وعبـد مملـوك أدّى حـقّ اللـه تعـالى وحـقّ سيّده، فله أجران، ورجل لـه أمـة فغـذاها فأحسـن غـذاءها، ثمّ أدّبها فأحسن أدبها، ثمّ أعتقها وتزوّجها فله أجران) (4)

وهــذا الحــديث يصــنف الحقــوق الــتي يجب أداؤهــا إلى صنفين: حقوق الله تعالى بذكره وعبادته والتوجه الصـادق لـه.. وحقوق الخلق بحسـب درجـاتهم ومـراتبهم.. فيعطي كـل واحـد منهم الحق الذي كلف به من جهته.

1() رواه الديلمي.

2() رواه أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي والحاكم.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() البخاري، الفتح 1 (97)، ومسلم (154)

ولهـذا يـرد في القـرآن الكـريم الجمـع بين هـذه الحقـوق جميعا، كإشارة إلى أنها في مرتبة واحـدة، والتقصـير في واحـد منها تقصير في الجميع.

ومن الأمثلة على ذلك الحقـوق الـواردة في قولـه تعـالى ـ وهو يقرن التوجه إليـه بالعبوديـة بالتوجـه للمحتـاجين بمـا يسـد حاجاتهم ـ: الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيـهِ هُـدىً لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّـلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُـونَ(3) (البقرة)

وهكذا تقترن الصلاة بالنفقة والزكاة في مواضع كثـيرة من القـرآن الكـريم، كقولـه تعـالى: الَّذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) (الأنفال)

وقال: قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّـلاةَ وَيُنْفِقُـوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيـهِ وَلا خِلالٌ(31) (إبراهيم)

ومثل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من اقتران عبادة الله بحقوق الخلق، وهو كثير جدا، ومن أمثلتها قوله تعالى: وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْـرِكُوا بِـهِ شَـيْئاً وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَـاناً وَبِـذِي الْقُـرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِـالْجَنْبِ وَابْنِ السَّـبِيلِ وَمَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (النساء:36)

وقوله تعالى: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَـلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلَكِنَّ الْبِـرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَالْمَلَائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُـرْبَى وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَـامَ الصَّـلَاةَ وَآتَى الزَّكَـاةَ وَالْمُوفُـونَ بِعَهْـدِهِمْ إِذَا عَاهَـدُوا وَالصَّـابِرِينَ فِي

الْبَأْسَـاءِ وَالضَّـرَّاءِ وَحِينَ الْبَـأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَـدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [البقرة: 177]

وغيرها من الآيات الكثيرة، ولهذا نرى القرآن الكريم مليئـا بذكر الحقوق المرتبطة بجهات مختلفـة كثـيرة.. والـتي لا يمكن أن تتحقق النفس بطمأنينتها، وهي تتجاوزها.

ولهذا؛ فإن الذين اعتزلوا الناس، رغبـة عن الـدنيا، وتركـوا أهليهم، وما كلفوا بـه من واجبـات، لم يقـرؤوا القـرآن الكـريم، ولم يتدبروا فيه، لتوهمهم أن العبادة قاصرة على تلـك الشـعائر التعبدية، مع أنها جزء منها، والعبوديـة الحقيقيـة هي في إعطـاء كل ذي حق حقه.

وهكذا علمنا رسول الله ﷺ أن نتحمل مسـؤولياتنا من كـل الجهـات، فقـال: (كلكم مسـئول عن رعيتـه، فالامـام راع وهـو مسـئول عن رعيتـه، والرجـل راع في أهلـه وهـو مسـئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتهـا، والخادم راع في مال سيده وهـو مسـؤول عن رعيتـه، والرجـل راع في مـال أبيـه وهـو مسـؤول عن رعيتـه، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) (1)

وغــيره من الأحــاديث الكثــيرة الــتي تــبين المســؤوليات المناطة بكل جهة من الجهات، وكيفية التعامـل معهـا بعيـدا عن الهوى والمزاجية.

ومثـل ذلـك مـا ورد عن أئمـة الهـدى، والـذين بلغـوا سـنة رسول الله ﷺ قولا وفعلا، وحموها من تلك التشويهات والــدخن الــذي دخــل إلى الإســلام بعــد تــأثر بعض المســلمين برهبــان النصارى وغيرهم من الأديان.

(1) البخاري ومسلم.

ومن الأمثلة عنها ما وري عن الإمام الباقر أنه قال: (أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام: (يا آدم.. إني أجمـع لـك الخـير كله في أربع كلمات: واحدة منهنّ لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيـني وبينـك، وواحـدة فيمـا بينـك وبين النـاس: فأمّـا الـتي لي: فتعبدني ولا تشرك بي شيئاً.. وأمّـا الـتي لـك: فأجازيـك بعملـك أحوج ما تكون إليه.. وأمّا التي بيني وبينك: فعليك الـدعاء وعليّ الإجابة.. وأما التي فيما بينـك وبين النـاس: فترضـى للنـاس مـا ترضى لنفسك)(1)

وقال الإمام الصادق: (ما ناصح الله عبد مسلم في نفسـه، فأعطى الحق منها وأخذ الحق لها إلا أعطي خصلتين: رزقـا من الله يقنع به، ورضاً عن الله ينجيه)(2)

وقال لبعض أصحابه: (ألا أخبرك بأشد ما فـرض اللـه على خلقه؟.. إن من أشد ما فرض اللـه على خلقـه إنصـافك النـاس من نفسـك، ومواسـاتك أخـاك المسـلم في مالـك، وذكـر اللـه كثيرا، أما إني لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا اللـه ـ وإن كان منه ـ لكن ذكر الله عند ما أحـلّ ومـا حـرّم، فـإن كـان طاعة عمل بها، وإن كان معصية تركها)(3)

وقـال: (ثلاثـة هم أقـرب الخلـق إلى اللـه عـز وجـل يـوم القيامة حتى يفرغ من الحساب: رجل لم تدعـه قـدرة في حـال غضبه إلى أن يحيف على من تحت يده، ورجل مشى بين اثـنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة، ورجل قال بالحق فيما له وعليه)(4)

1() معاني الأخبار ص137، الخصال 1/116، أمالي الصدوق ص362.

2()الخصال 1/25.

3()أمالي الطوسي 2/278.

4()الكافي 2/145.

وغيرها من الروايات الكثيرة الـتي توضـح أنـواع الحقـوق، وتفاصـيل الأحكـام المرتبطـة بهـا.. ولعـل أجمعهـا مـا روي عن الإمام السجاد من تلك الرسـالة العظيمـة الـتي اسـتعرض فيهـا أكثر من خمسين حقاً، يختص كل حـقّ منهـا بصـنف من النـاس ويحدد المسؤوليات تجاهه.

وسأذكر لك بعض ما ورد فيها من حقوق[1]، كنموذج لمدى أهمية هذا الجانب في حياتك وسلوكك، ولتعلم أن السـلوك إلى اللـه لا يعـني التفريـط في الواجبـات، أو الانشـغال عن الحيـاة وتركها، بل إن النفس لن تتزكى، ولن تترقى إلا أثناء ممارسـتها لما وجب عليها من تلك الحقوق.

فمن تلك الحقوق ما أطلق عليه الإمـام السـجاد حـق اللـه الأكبر، وهو: (فأنّك تعبـده لا تشـرك بـه شـيئاً، فـإذا فعلت ذلـك بإخلاصٍ جعـل لـك على نفسـه أن يكفيـك أمـر الـدنيا والآخـرة، ويحفظ لك ما تحبّ منها)

وأمّا حقّ نفسـك عليـك: (فـأن تسـتوفيها في طاعـة اللـه، فتؤدّي إلى لسانك حقّه، وإلى سمعك حقّـه، وإلى بصـرك حقّـه، وإلى يـدك حقّهـا، وإلى رجلـك حقّهـا، وإلى بطنـك حقّـه، وإلى فرجك حقّه، وتستعين بالله على ذلك)

وأمّا حق اللّسـان: (فإكرامـه عن الخـنى، وتعويـده الخـير، وحمله على الأدب وإجمامه إلا لموضع الحاجـة والمنفعـة للـدِّين والدُّنيا، وإعفـاؤه عن الفضـول الشـنعة القليلـة الفائـدة الّـتي لا يؤمن ضررها مع قلّة عائدتها، ويعدُّ شاهد العقل، والـدليل عليـه وتزيُّن العاقل بعقله، وحسن سيرته في لسانه ولا قـوَّة إلاَّ باللـه العليَّ العظيم)

1() بحار الأنوار: 71/21.

وأمّا حق السمع: (فتنزيهه عن أن تجعله طريقاً إلى قلبـك، إلاّ لفوهة كريمة تحدث في قلبك خيراً، أو تكسبك خلقاً كريمــاً.. فإنّه باب الكلام إلى القلب يؤدِّي إليه ضروب المعـاني، على مـا فيها من خير أو شرّ، ولا قوَّة إلاّ بالله)

وأمّا حق بصرك: (فغضّه عما لا يحلُّ لك، وترك ابتذالــه إلاّ لموضع عبرة، تستقبل بها بصراً أو تستفيد بها علماً، فإنَّ البصـر باب الاعتبار)

وأمّا حقُّ رجليك: (فأن لا تمشي بهما إلى مـا لا يحـلُّ لـك، ولا تجعلهما مطيَّتك في الطريـق المسـتخفَّة بأهلهـا فيهـا، فإنَّهـا حاملتك وسالكة بك مسلك الدِّين، والسَّبَق لك ولا قوَّة إلاّ بالله)

وأمّا حقُّ يدك: (فأن لا تبسطها إلى ما لا يحـلُّ لـك، فتنـال بما تبسطها إليه من الله العقوبة في الآجل، ومن النّاس بلسان اللاّئمة في العاجـل، ولا تقبضـها ممّـا افـترض اللـه عليهـا ولكن توقّرها به: (تقبضها عن كثير ممّـا لا يحـل لهـا، وتبسـطها بكثـير ممّا ليس عليها.. فإذا هي قد عقلت وشرفت في العاجل، وجب لها حسن الثواب من الله في الآجل)

وأمّا حقُّ بطنك: (فأن لا تجعله وعاء لقليـل من الحـرام ولا لكثير، وأن تقتصد له في الحلال، ولا تُخرجه من حدِّ التقوية إلى حدِّ التهـوين وذهـاب المـروَّة، فـإنَّ الشـبع المنتهي بصـاحبه إلى التُّخَم، مكسلة ومثبطة ومقطعة عن كـلِّ بـرّ وكـرم، وإنَّ الـرأي المنتهي بصاحبه إلى السكر، مسخفة ومجهلة ومذهبة للمروَّة)

وأمّا حقُّ فرجك: (فحفظه ممّا لا يحلُّ لك، والاستعانة عليه بغضِّ البصر، فإنّـه من أعـون الأعـوان، وضـبطه إذا همَّ بـالجوع والظمأ، وكثرة ذكر الموت والتهدُّد لنفسك بالله، والتخويـف لهـا به، وبالله العصمة والتأييد، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله)

وأمّا حقّ الصلاة: (فأن تعلم أنّها وفادةٌ إلى الله، وأنّك قائمٌ بها بين يدي اللـه، فـإذا علمت ذلـك، كنت خليقـاً أن تقـوم فيهـا مقـام الـذليل الـراغب الـراهب الخـائف الـراجي المسـكين المتضـرّع، المعظّم مَن قـام بين يديـه بالسـكون والإطـراق، وخشوع الأطراف، ولين الجناح، وحُسن المناجاة لـه في نفسـه والطلب إليـه في فكـاك رقبتـك الـتي أحـاطت بهـا خطيئتـك، واستهلكتها ذنوبك، ولا قوة إلاّ بالله)

وأمّا حقّ الصـوم: (فـأن تعلم أنّـه حجـاب ضـربه اللـه على لسانك وسمعك وبصرك وفرجك وبطنك ليسـترك بـه من النـار، فإن سكنت أطرافك في حجبتها، رجوت أن تكون محجوبـاً، وإن أنت تركتها تضطرب في حجابها، وترفع جنبات الحجاب، فتطّلـع إلى ما ليس لها بالنظرة الداعية للشهوة، والقـوّة الخارجـة عن حدّ التقيّة لله، لم يُؤمَن أن تخرق الحجاب وتخرج منـه، ولا قـوّة إلاّ بالله)

وأمّـا حـقّ الصـدقة: (فـأن تعلم أنهـا ذخـرك عنـد ربّـك، ووديعتك التي لا تحتاج إلى الإشـهاد، فـإذا علمت ذلـك كنت بمـا استودعته سـرّاً، أوثـق بمـا اسـتودعته علانيـة، وكنت جـديراً أن تكون أسررت إليه أمراً أعلنته، وكان الأمر بينك وبينه فيها سـرّاً على كلّ حالٍ، ولم يستظهر عليـه فيمـا اسـتودعته منهـا إشـهاد الأسماع والأبصار عليه بها، كأنّها أوثق في نفسك وكأنّـك لا تثـق به في تأدية وديعتك إليـك، ثمّ لم تمتنّ بهـا على أحـد لأنّهـا لـك، فإذا امتننت بها، لم تأمن أن يكـون بهـا مثـل تهجين حالـك منهـا إلى مَن مننت بهـا عليـه، لأنّ في ذلـك دليلاً على أنّـك لم تـرد نفسك بها، ولو أردت نفسك بها لم تمتنّ بها على أحـدٍ، ولا قـوّة إلاّ بالله)

وأمّا حقّ سائسك بالعلم: (فالتعظيم له، والتوقير لمجلسه،

وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، والمعونة له على نفسك فيما لا غنى بك عنه من العلم، بأن تفرغ له عقلك، وتحضره فهمك، وتذكي له قلبك، وتجلي له بصرك بترك اللّذات ونقض الشهوات، وأن تعلم أنّك فيما ألقى رسوله إلى مَن لقيك من أهل الجهل، فلزمك حسن التأدية عنه إليهم، ولا تخنه في تأدية رسالته والقيام بها عنه إذا تقلّدتها، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله)

وأمّا حقّ رعيّتك بالعلم: (فأن تعلم أنّ الله قد جعلك لهم قيّماً فيما آتاك من العلم، وولاّك من خزانة الحكمة، فإن أحسنت فيما ولاّك الله من ذلك، وقمت به لهم مقام الخازن الشفيق، الناصح لمولاه في عبيده، الصابر المحتسب الذي إذا رأى ذا حاجة أخرج له من الأموال التي في يديه راشداً، وكنت لذلك آملاً معتقداً، وإلاّ كنت له خائناً ولخلقه ظالماً ولسلبه وغيره متعرّضاً)

وغيرها من الحقوق الكثيرة، والتي وردت تفصيلاتها في كتب الفقه والأخلاق، فاحرص ــ أيها المريد الصادق ــ على الاهتمام بها، وتعلم علومها؛ فلا يمكنك أن تعمل من دون أن تعلم.. فالعبادة بدون علم مجلبة للشيطان والأهواء.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن أولئك الذين يهونون من هذه المعاني بحجة السلوك والمعرفة بالله، مجرد أدعياء وكذبة.. وكل الحكماء الصادقين يكذبونهم، وقد روي عن بعض الحكماء أنه قال في تعريف الصالحين: (الصالح: هو القائم بما يلزمه من حقوق الله وحقوق العباد، فهي صفة جامعة لمعاني الخير) (1)

وقال آخر: (حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه

(1) يوسف النبهاني، جواهر البحار في فضائل النبي المختار، ج 2 ص 310.

حق جديد وأمر أكيد، فكيف تقضي فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه؟)

وقال آخر: (أهل الحضرة: هم الذين نزولهم بالله وعملهم بالله، لا يرون لأنفسهم حولاً ولا قوة، ولا يطلبون من ربهم جزاء ولا أجرة، إذ محال أن يطلب الجزاء على عمل غيره، هذا في حال نزولهم إلى سماء الحقوق، وأما نزولهم إلى أرض الحظوظ فإنما هو لأداء حقوق العبودية، فليس نزولهم بشهوة النفس ونيل متعتها لتحقق فنائها وموتها، وقد انقلبت حظوظهم حقوقاً) (1) ....

---

(1) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 2 ص 282.

السماحة واللين

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن السماحة واللين واللطف، ومظاهرها وعلاقتها بالنفس المطمئنة، وكيفية التحقق بها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن من علامات النفس المطمئنة الضرورية السماحة واللين واللطف والعفو والحلم وغيرها من الصفات الدالة على الهدوء الداخلي للنفس، والذي يأبى إلا أن يسري خارجها؛ فلا يشعر المقتربون من هذه النفس بما يزعجهم أو يحرجهم أو يؤذيهم، بل يشعرون بها كما يشعرون بالنسيم العليل، والروائح الطيبة.

ولهذا وصف رسول الله ﷺ صحبة الصالحين بذلك، فقال: (إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك (يعطيك)، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا منتنة) (1)

وهكذا أخبر الله تعالى عن عباد الرحمن، وكيف كانوا يتكلمون، وكيف كانوا يسيرون، وكيف كان الهدوء والسلام ينبعث من جميع مواقفهم حتى مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67) ﴾ [الفرقان: 63 - 67]

---

(1) رواه البخاري، الفتح 4 (2101)، مسلم (2628)

وهذه الآيـات الكريمـة تـدل على شـمول السـماحة واللين لكل الجهات، ابتداء من الأرض التي يسيرون عليها بكل تواضـع، وانتهاء بالله تعالى عندما يسـجدون لـه ويقومـون، ثم بعـد ذلـك يطلبــون منــه أن يقيهم العــذاب، وفي ذلــك دليــل على انتفــاء الغرور والعجب عنهم.

كما وصفهم بذلك في قوله عند بيانه لتـأثير قـراءة القـرآن الكريم في النفوس المطمئنة: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَـدِيثِ كِتابـاً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَـعِرُّ مِنْـهُ جُلُـودُ الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (23) (الزمر)

وهكذا؛ فإن السماحة ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ من الأخلاق التي لا يمكن تقسيمها أو الأخذ ببعض أجزائها، وترك غيره.. بــل هي خلق شامل عامل مستوعب لكل المجالات، وإلا كان مجرد ادعاء.

ولهذا كان رسول الله ﷺ في قمــة السـماحة واللين، ومـع كل الناس، سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمـنين، كم وصـفه اللـه تعالى بذلك في قوله: فَبِمَا رَحْمَـةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَـوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْـتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَـإِذَا عَـزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [آل عمران: 159]

وقد ذكر الإمام علي في وصفه لرسول الله ﷺ الكثــير من مظــاهر لينــه وســماحته، فقــال: (كــان ﷺ دائم البشــر، ســهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب ولا فحّاش، ولا عيّاب ولا مدّاح، يتغافل عما لا يشتهي، فلا يؤيس منه راجيه، ولا يخيّب فيـه مؤمّليـه. قـد تـرك نفسـه من ثلاث: من المـراء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك النـاس من ثلاث: كـان لا يـذم أحـدا

ولا يعيّره، ولا يطلب عثراتـه ولا عورتـه، ولا يتكلم إلا فيمـا رجـا ثوابه. إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطّـير، فـإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحـديث، من تكلم أنصـتوا لـه حتى يفرغ، حديثهم عنده حـديث أولهم، يضـحك ممـا يضـحكون منه، ويتعجب مما يتعجبـون منـه. ويصـبر للغـريب على الجفـوة في مسألته ومنطقه، حتى أن كان أصحابه ليسـتجلبونهم، وكـان يقول: إذا رأيتم طالب الحاجـة يطلبهـا فأرفـدوه، وكـان لا يقبـل الثنـاء إلا من مكـافئ، ولا يقطـع على أحـد كلامـه حـتى يجـوز، فيقطعه بنهي أو قيام)(1)

وهكذا وصفه كل أصحابه، فقد قال أنس بن مالك:(خـدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، لا والله ما سبني قط، ولا قــال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته)(2)، وفي رواية:(خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فلا والله ما قال لي لشيء صنعته لم صنعته؟ ولا لشيء لم أصــنعه ألا صنعته؟ ولا لامني، فإن لامني بعض أهله قال: دعه، وما قـدر فهو كائن أو ما قضي فهو كائن)

وهذا الحديث يـدل على المعـارف الإيمانيـة الـتي تؤسـس لذلك الهدوء النفسي، وهو ما عـبر عنـه رسـول اللـه ﷺ بقولـه: (دعه، وما قدر فهو كائن أو ما قضي فهو كائن)

ومثل ذلك ما روي عن أم سلمة، أنها قالت: يا رسول الله، لا تزال نفسك فى كل عـام وجعـة من تلـك الشـاة المسـمومة التى أكلتها؟ فقال لهـا رسـول اللـه ﷺ: (مـا أصـابنى من شـيء منها إلا وهو مكتوب على وآدم فى طينته)(3)

1() مكارم الاخلاق: 8.

2() رواه عبد الرزاق في المصنف.

3() رواه ابن ماجه.

وكأن أم سلمة في هذا الحديث تدعوه ﷺ ـ من غير أن تقصد ـ إلى التأسف على أكله من تك الشاة، أو إلى أشياء أخرى يتنزه عنها ﷺ، فأخبرها ﷺ إلى أن تنظر من كوة سر التوحيد لتصرف عنها كل أسف أو حقد أو انتقام.

ذلك أن العارف بالله، لا تعتريه ذلك الجنون والاضطراب الذي يعتري غيره، فهو ينظر إلى كل شيء من زاوية التوحيد، ويعتبر كل انتصار للنفس، أو حقد أو حسد أو عداوة لغيرها، شركا بالله تعالى.

وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ (ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا ان تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها)(1)

وهكذا ذكر الإمام علي الكثير من منابع اللين والسماحة باعتبارها من علامات المعرفة بالله، وبحقائق الوجود، ذلك أنه لا يجهل في سلوكه إلا الجاهل بتلك الحقائق.

ومن تلك الأحاديث قوله في وصف أولياء الله: (إنّ أولياء اللّه هم الّذين نظروا إلى باطن الدّنيا إذا نظر النّاس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل النّاس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنّه سيتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالا، ودركهم لها فوتا، أعداء ما سالم النّاس، وسلم ما عادى النّاس، بهم علم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجوّا فوق ما يرجون، ولا مخوفا فوق ما يخافون) (2)

1() رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

2() نهج البلاغة: الحكمة (432)

وقــال في وصــف المــؤمن: (المــؤمن بشــره في وجهــه، وحزنه في قلبه، أوسع شي ء صدرا، وأذلّ شــي ء نفســا، يكــره الرّفعة، ويشنأ السّــمعة، طويــل غمّــه، بعيــد همّــه، كثــير صــمته، مشغول وقته، شكور صبور، مغمور بفكرته، ضنين بخلّته، ســهل الخليقة، ليّن العريكــة، نفســه أصــلب من الصّــلد، وهــو أذلّ من العبد) (1)

وقــال في وصــف بعض إخوانــه الصــادقين: (كــان لي فيمــا مضــى أخ في اللّــه، وكــان يعظمــه في عيــني: صــغر الــدّنيا في عينه، وكان خارجا من سلطان بطنه، فلا يشتهي مــا لا يجــد، ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهــره صــامتا، فــإن قــال بــذّ القــائلين، ونقع غليل السّائلين، وكان ضعيفا مستضعفا، فإن جاء الجدّ فهو ليث غاب، وصلّ واد، لا يدلي بحجّــة حتّى يــأتي قاضــيا، وكــان لا يلوم أحــدا على مــا يجــد العــذر في مثلــه حتّى يســمع اعتــذاره، وكان لا يشكو وجعا إلّا عند برئه، وكان يقول ما يفعل، ولا يقول ما لا يفعل، وكان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السّــكوت، وكان على ما يسمع أحرص منه على أن يتكلّم، وكــان إذا بدهــه أمران ينظر أيّهما أقرب إلى الهوى فيخالفه) (2)

ومثله سائر أئمة الهدى الــذين اعتــبروا المعرفــة باللــه المنبــع الذي تستقي منه كل الفضائل، ومن الأمثلة على ذلك قــول الإمــام الصادق مشــيرا إلى منبــع الحلم، وعلاقتــه بالمعرفــة باللــه: (الحلم سراج الله يستضئ به صاحبه إلى جواره، ولايكون حليما إلا المؤيد بأنوار اللــه، وبــأنوار المعرفــة والتوحيــد، والحلم يــدور على خمســة أوجه: أن يكون عزيــزا فيــذل، أويكــون صــادقا فيتهم، أو يــدعو إلى الحــق فيســتخف بــه، أو أن يــوذى بلاجــرم، أو أن يطــالب بــالحق ويخالفوه فيه، فان آتيت كلامنها حقه فقــد أصــبت، وقابــل الســفيه

1() نهج البلاغة: الحكمة (333)

2() نهج البلاغة: الحكمة (289)

بالاعراض عنه وترك الجواب، يكن الناس أنصارك، لان من جاوب السفيه وكأفاه قدوضع الحطب على النار) [1]

ثم ساق حديثا لرسول الله ﷺ يقول فيه: (مثل المؤمن مثل الارض، منافعهم منها وأذاهم عليها ومن لايصبر على جفاء الخلق لايصل إلى رضا الله تعالى، لان رضى الله مشوب بجفاء الخلق) [2]

وهكذا وصف منابع العفو المعرفية، فقال: (العفو عند القدرة من سنن المرسلين والمتقين وتفسير العفو أن لاتلزم صاحبك فيما أجرم ظاهرا وتنسى من الاصل ما اصبت منه باطنا، وتزيد على الاختيارات إحسانا ولن يجد إلى ذلك سبيلا إلا من قد عفى الله عنه، وغفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر، وزينه بكرامته، وألبسه من نور بهائه، لان العفو والغفران صفتان من صفات الله عزوجل أو دعهما في أسرار أصفيائه، ليتخلقوا مع الخلق بأخلاق خالقهم، وجعلهم كذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22]، ومن لايعفو عن بشر مثله كيف يرجو عفو ملك جبار)

ثم روى عن رسول الله ﷺ قوله ــ حاكيا عن ربه يأمره بهذه الخصال ـ: (صل من قطعك، واعف عمن ظلمك، وأعط من حرمك، وأحسن إلى من أساء إليك) [3]

ثم قال: (العفو سر الله في القلوب قلوب خواصه ممن يسرله سره، وكان رسول الله ﷺ يقول: أيعجز أحدكم أن يكون

1() مصباح الشريعة: 37.

2() مصباح الشريعة: 37.

3() مصباح الشريعة: 39.

كأبي ضمضم، قالوا: يارسول الله وما أبوضمضم؟ قال: رجل كان ممن قبلكم كان إذا أصبح يقول: اللهم إني أتصدق بعرضي على الناس عامة) [1]

وذكر الإمام الباقر دور اللين والعفو في الترقي في مراتب المعرفة، وتوقي الانحطاط، فقال: (مَنْ كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه، حشا الله قلبه أمنا وإيمانا يوم القيامة، ومَنْ ملك نفسه إذا رغب وإذا رهب وإذا غضب، حرّم الله جسده على النار)[2]

ويروى أن الإمام علي سمع رجلا يشتم قنبرا، وقد رام قنبر أنْ يردّ عليه، فناداه الإمام علي: (مهلا يا قنبر..دع شاتمك مُهانا: تُرضي الرحمن، وتُسخط الشيطان، وتُعاقب عدوك.. فو الذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أرضى المؤمن ربه بمثل الحلم، ولا أسخط الشيطان بمثل الصمت، ولا عُوقب الأحمق بمثل السكوت عنه)[3]

وقال: (متى أشفي غيظي إذا غضبت: أحين أعجز عن الانتقام، فيُقال لي: لو صبرت؟.. أم حين أقدر عليه فيُقال لي: لو غفرت؟)[4]

ويروى عن الإمام الكاظم أنه أحضر وُلْدَه يوماً فقال لهم: (يا بنيَّ.. إني موصيكم بوصيّة فمَنْ حفظها لم يَضِعْ معها: إن أتاكم آت فأسمعكم في الأذن اليمنى مكروها، ثم تحوّل إلى

1() مصباح الشريعة: 39.

2()تفسير القمي ص604.

3() مجالس المفيد ص77.

4() نهج البلاغة، 2/188.

الأذن اليسرى فاعتذر وقال: لم أقل شيئا، فاقبلوا عذره)[5]

هذا جوابي على سؤالك ــ أيها المريد الصادق ــ فاسع لأن تعمر نفسك بالحقائق، وتذوقها؛ فهي وحدها من يطهر نفسك من كل الصفات التي تجعلها قاسية غليظة صعبة..

واعلم أنك لن تطمئن في الدنيا والآخرة إلا بذلك.. فلا راحة ولا سعادة ولا فوز إلا للهينين اللينين الممتلئين بالسهولة، أولئك الذين سلموا أنفسهم للحق، فكساهم الله من أنواره ما ملأهم هدوءا ولينا وطمأنينة.....

5()كشف الغمة 3/12.

المروءة والفتوة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن المروءة والفتوة، والمكارم المرتبطة بها، وعلاقتها بالنفس المطمئنة، وسر ارتباطها بها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن ما ذكرته من المكارم من الخصال الضرورية للنفس المطمئنة التي لن تكون مطمئنة إلا بها.. ذلك أنها نفس تستمد قيمها من معرفتها بربها، ويستحيل على من عرف ربه، وأسماءه الحسنى، وصفاته العليا ألا يكون ذا مروءة وفتوة.

ومثل ذلك؛ فإن النفس المطمئنة تستمد أحوالها وصفاتها من صحبتها للصالحين إما في عالم الشهادة أو عالم الغيب.. فهي تتخلق بأخلاق الأنبياء والأولياء، وتسعى للحاق بهم، ولذلك تسري إليها أخلاقهم وصفاتهم.. فإن لم تظهر عليها؛ فذلك علامة على كونها نفس مشوبة، لم تتخلص بعد من مثالبها.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الفتوة[1]، وهي صفة من الصفات العظيمة التي تجتمع فيها المروءة والنبل والشهامة وغيرها من المكارم، من المصطلحات التي أسس لها القرآن الكريم، وذلك عند ذكره لأولئك الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الحق الذي يحملونه، وتمثلت فيهم به أجمل الأوصاف والأخلاق.

1() اتفق المتحدثون على الفتوة على أن أصلها من الفتى، وهو الشاب الحديث السن، قال الله تعالى عن أهل الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ (الكهف: 13)، وقال عن قوم إبراهيم عليه السلام إنهم قالوا: ﴿ سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الانبياء:60)، وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ (يوسف:36)، وقال: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ (يوسف:62)

ومنهم إبراهيم عليه السلام الذي وصفه قومه بقولهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: 60]

ومثله أصحاب الكهف الذي وصفهم ربهم بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13]، وقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]

ثم أصبح بعد ذلك كلمة تدل على المكارم الأخلاقية الكثيرة، وكان من أسبق المتحدثين عنها الإمام الصادق، فقد روي عن بعض أصحابه أنه قال: تذاكرنا أمر الفتوة عنده فقال: (أتظنون أن الفتوة بالفسق والفجور؟ إنما الفتوة طعام موضوع، ونائل مبذول، وبشر معروف، وأذى مكفوف، فأما تلك فشارة وفسق) [1]

وهذا النص يدل على أن هذا المصطلح كان معروفا، لكنه كان منصرفا للفسقة وغيرهم، فحوله الإمام إلى محله الصحيح.. والذي أصبح بعد ذلك علامة على المكارم الكثيرة.

ومن تلك المكارم ما عبر عنه الإمام الصادق عندما سئل عن الفتوة، فقال للسائل:(ما تقول أنت؟) فقال:(إن أعطيت شكرت وإن منعت صبرت)، فقال:(الكلاب عندنا كذلك)، فقال السائل:(يا ابن رسول الله ﷺ فما الفتوة عندكم؟)، فقال:(إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا) [2]

وهكذا تحدث كل الحكماء عنها، وعن صفاتها، وقد قال بعضهم في ذلك: (الفتوة: هي الصبر على المكاره، ألم تر إلى إبراهيم عليه السلام حين صبر على كل بلية فصارت نعمة

1() معاني الاخبار ص 119

2() أحمد الكمشخانوي النقشبندي، جامع الأصول في الأولياء، ج 2 ص 303.

وعطيـة، وصـبر على إلقائـه إلى النـار، فصـارت بـرداً وسـلاماً، وصبر على ذبح ولـده ففـدى بـذبح عظيم، وصـبر يوسـف عليـه السلام على الجب والسجن فنال ملـك مصـر وقـال لـه أخوتـه: ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾)[1]

وقال آخر:(حقيقتها هي منزلة الإحسان إلى النـاس، وكـف الأذى عنهم، واحتمال أذاهم، فهي استعمال حسن الخلق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله)[2]

وقال آخر:(الفتـوة من أعظم خصـال الخـير جامعـة كمـال المـروءة وحسـن الخلـق والإيثـار على النفس واحتمـال الأذى وبذل الندى وطلاقة الوجه والقوة على ذلك، حتى تكـون فتوتـه على ذلك فتوة الفتيان والصفح عن العثرات ويكون خصما لربـه على نفسه وينصـف من نفسـه ولا ينتصـف ولا ينـازع فقـيرا ولا غنيا ويستوي عنده المدح والذم والدعاء والطـرد ولا يحتجب ولا يدخر ولا يعتذر ويظهر النعمة ويحقـق المحبـة سـرا وعلنـا فـإذا قوي على ذلك فهو الفتى وإذا اجتمـع قـوم على ذلـك وتعاهـدوا عليه فنعم ما هو)[3]

وهكـذا وردت الكثـير من التعريفـات الـتي تربطهـا ببعض جوانب المروءة والأخلاق الحسنة، ومنها قول بعضهم: (الفتـوة: هي العفو عن زلل الإخوان)[4]

وقال آخر: (الفتوة: هي الإيثار مع الاضطرار ولو بالطاعات

1() ابن المعمار البغدادي، كتاب الفتوة، ص 137، 138.

2() مدارج السالكين:2/340.

3() فتاوى السبكي: 2/548.

4() أبو عبد الرحمن السلمي، المقدمة في التصوف وحقيقته، ص 39.

0

يوم القيامة)[1]

وقـــال آخـــر: (الفتـــوة: هي أن تنظـــر الخلـــق كلهم بعين الأولياء، ولا تستقبح منهم إلا ما خالف الشرع)[2]

وقال آخر: (الفتوة عندي: هي أداء الإنصاف وترك مطالبـة الإنصاف)[3]

وقال آخر: (الفتوة: هي ترك ما تهوى لما تخشى)[4]

وقال آخر: (الفتوة: هي أن تنصف وتنتصف)[5]

وقـال آخـر: (الفتـوة: هي تـرك دنيـاك لأخـراك، ومخالفـة هواك، والانفراد بمولاك)[6]

وقال آخر: (الفتوة: أن تكون خصم نفسك لربك)[7]

وقال آخر: (الفتوة: هي تصديق الله فيما وعد وأوعد، وهـو الإيمان على الحقيقة، وأن لا يخالف ظاهرك باطنـك ولا باطنـك ظاهرك)[8]

1() ابن المعمار البغدادي، كتاب الفتوة، ص 155، 156.

2() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 753.

3() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 118.

0

4() أحمد الكمشخانوي النقشبندي، جامع الأصول في الأولياء، ج 2 ص 303.

5()القشيري، الرسالة القشيرية، ص 177.

6() ابن المعمار البغدادي، كتاب الفتوة، ص 155.

7() كتاب الفتوة، ص 152، 153.

8() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 753.

وقال آخر: (الفتـوة: أن يسـتوي عنـدك الطـاريء والمقيم، وكذا تكون بيوت الفتيان، من نزل فيها فقد توسل بأجـل ذريعـة وأعظم حرمـة، ألا تـرى اللـه تعـالى كيـف وصـف بيتـه فقـال: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾)[1]

وقـال آخـر: (الفتـوة: هي رؤيـة أعـذار الخلـق وتقصـيرك، وتمـامهم ونقصـانك، والشـفقة على الخلـق كلهم، بـرّهم وفاجرهم)[2]

وقال آخر: (الفتوة: هي اليأس من الخلـق، وتـرك السـؤال بالتفويض، وكتمان الفقر، وإظهار الغنى والتعفف)[3]

وقال آخـر: (الفتـوة: هي كـف الأذى، وبـذل النـدى، وتـرك الشكوى)[4]

وقال آخر: (الفتوة: هي أن لا تنافر فقيراً ولا تعارض غنيـاً)[5]

وقـال آخـر: (الفتـوة: هي اتبـاع الشـرع والاهتـداء بالسـنن وسعة الصدر وحسن الخلق)[6]

1() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 869.

2() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 255.

0

3() أبو عبد الرحمن السلمي، المقدمة في التصوف وحقيقته، ص 57.

4() ابن المعمار البغدادي، كتاب الفتوة، ص 153.

5() القشيري، الرسالة القشيرية، ص 177.

6() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 753.

وقال آخر: (الفتوة: وهو الإعراض عن الكونين والأنفة)[7]

وقال آخر: (الفتوة: هي أن تعذر إخوانك في زللهم، ولا تعاملهم بما يحوجك إلى الاعتذار منهم)[2]

وقال آخر: (الفتوة الصدق عند الامتحان، والرفق عند الجفاء، والبذل عند الفاقة)[3]

وقال آخر: (الفتوة: هي حفظ السر مع الله على الموافقة، وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة واستعمال الخُلُق)[4]

وقال آخر: ([الفتوة]: هي حسن المراعاة، ودوام المراقبة، وألا تُرِي من نفسك ظاهراً يخالفه باطنك)[5]

وقال آخر: (الفتوة: هي احتقار النفس، وتعظيم حرمة المسلمين)[6]

وقال آخر: (الفتوة: حسن الخلق وبذل المعروف)[7]

7() القشيري، الرسالة القشيرية، ص 177.

2() أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - ج 10 ص 296.

3() ابن المعمار البغدادي، كتاب الفتوة، ص 153.

4() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 216.

0

5() المصدر نفسه، ص 461.

0

6() أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج10 ص 381.

7() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 506.

وقال آخر: (الفتوة: هي حسن الخلق مع من تبغضه، وبـذل المال لمن تكرهه، وحسن الصحبة مع من ينفر قلبك منه)[1]

وقال آخـر: (الفتـوة: هي الشـجاعة، واللطافـة، والظرافـة تنبت في بسـتان الهمـة، وفي بسـتان الهمـة تكـون الصـلوات الطويلة والصوم والجوع وقيام الليل والصدقة الكثيرة، وكل مـا يثبت الهمة يصل إلى الفناء)[2]

وقال آخر: (الفتوة الوفاء والحفاظ.. وقيل: الفتـوة فضـيلة تأتيها ولا ترى نفسك فيها.. وقيل: الفتـوة أن لا تهـرب إذا أقبـل السائل.. وقيل: أن لا تحتجب من القاصدين.. وقيل: أن لا تدخر ولا تعتذر.. وقيل: إظهار النعمة وإسرار المحنة.. وقيل: أن تدعو عشـرة أنفس فلا تتغـير إن جـاء تسـعة أو أحـد عشـر.. وقيـل: الفتوة ترك التمييز)[3]

وقال آخـر: (الفتـوة: هي سـيف مسـلول، وطبـق مبـذول، ولسان سؤول)[4]

وقال آخر: (الفتوة: إظهار الطلاقة مـع أخوتـه في الحـال.. وقيل: الفتوة أن تأتيها ولا ترى نفسك فيها.. وقيل: فتوة الخاص حفظ الخواطر، وفتوة العام امتثال الأوامر.. وقيـل: من الفتـوة حسن الخلق وتـرك التمـيز في العطـاء وأن تسـتر عيب عـدوك

0

1() طبقات الصوفية، ص 511.

0

2() طبقات الصوفية، ص 358، 359.

3() القشيري، الرسالة القشيرية، ص 177، 178.

4() ابن المعمار البغدادي، كتاب الفتوة، ص 154.

كما تستر عيب نفسك)[1]

وقال آخر: (الفتوة: هي تعاضـد، وأخـوة، وصـدق، ومـروة، وهي شرع من النبوة، فليست بأكل الحرام وارتكاب الآثام، بـل عبـادة الـرحمن، ومخالفـة الشـيطان، وتـرك العـدوان، والعمـل بالقرآن) [2]

وقال آخر: (الفتوة، هي أن لا تشهد لنفسك فضـلاً ولا تـرى لك حقاً، وهي فوق التواضع، لأن صاحبه يرى لنفسه حقاً يضـعه وفضلاً يتواضع دونه، وصاحب الفتـوة لا يـرى لـه على أحـد حقـاً فضلاً عن أن يرى له فضلاً، بل يعتقد أن الحقـوق تجب عليـه، لا أنها تجب له)[3]

وقـال آخـر: (الفتـوة: هي التجـافي عن مطالبـة الخلـق بالإحسـان إليـه ولـو أحسـن إليهم لعلمـه بـأن إحسـانه إليهم وإساءتهم إليـه كـل ذلـك مخلـوق لـه تعـالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَـا تَعْمَلُونَ﴾ فلم ير لنفسه إحساناً حتى يطلب عليه جـزاء، ولم يـر لهم إسـاءة حـتى يـذمهم عليهـا، اللهم إلا أن يكـون الشـرع هـو الذي أمر بذمهم أو معاقبتهم فيفعـل حينئـذٍ مـا أمـر بـه الشـرع ليقوم بوظيفة التعبد فقط)[4]

وقال آخر: (الفتوة: هي إيثار الخلق بنفسك بعد أن تؤثرهم في الدنيا والآخرة، وذلك بأن تبذل نفسك لكل نفيس وخسـيس فيمـا يـرد وتمكنهمـا من التصـرف فيـك.. وقيـل: هي الصـفاء

1() ابن المعمار البغدادي، كتاب الفتوة، ص 154، 155.

2() كتاب الفتوة، ص 156، 157.

3() كمال الدين القاشاني، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 450.

4() محمد بن يوسف السنوسي، شرح عقائد التوحيد، ص 80.

والسخاء والوفاء.. وقيل: هي أن لا ترى لشيء خطراً ولا قدراً.. وقيل: هي أن تضع المعروف مع أهلـه ومـع غـير أهلـه، فـإن لم تكن أهله فكن أنت أهله.. وقيل: أن لا ترى لنفسـك فضـلاً على غيرك.. وقيل: إظهار النعمة وكتمان المحبة)[1]

وقـال آخـر: (الفتـوة: طهـارة القلب عن غـواش النشـأة والرجوع إلى صفاء الفطرة حتى يتصف بالعدالة التي هي جماع الفضائل الخلقية وظـل الوحـدة الحقيقيـة ويتنـزه عن الرذائـل النفسية والألواث الطبيعية)[2]

وسئل بعضهم من يستحق اسـم الفتـوة، فقـال: (من كـان فيه اعتذار آدم، وصلاح نوح، ووفاء إبـراهيم، وصـدق إسـماعيل، وإخلاص موسى، وصـبر أيـوب، وبكـاء داود، وسـخاء محمد.. ثم مع هذا كله يـزدري نفسـه، ويحتقـر مـا هـو فيـه، ولا يقـع بقلبـه خاطر مما هو فيه أنه شيء، ولا أنه حـال مرضـي، يـرى عيـوب نفسه ونقصان أفعاله وفضل إخوانه عليه في جميع الأحوال)[3]

وغيرها من التعريفـات الكثـيرة الـتي عـبر فيهـا كـل واحـد منهم عن رؤيته للفتوة، وليس هناك من تعارض بينها، ذلـك أنهـا تشملها جميعا، وتشمل غيرها أيضا.

وقد جمع بعضهم أصولها الكبرى، وذكر أنها ستة، وهي[4]:

الأول: ترك الخصومة، لأن الخصومة إنمـا تكـون على حـق يطلب، والفتى لا يرى لنفسه حقاً ليخاصـم عليـه، وبهـذا يعـرف

1() أحمد الكمشخانوي النقشبندي، جامع الأصول في الأولياء، ج 2 ص 302.

2() جامع الأصول في الأولياء، ج 3 ص 241.

3()د. أبو العلا عفيفي، الملامتية والصوفية وأهل الفتوة، ص 92، 93.

4() لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 451 -452.

بـأن المـراد بـترك الخصـومة تـرك اعتقـاد اسـتحقاقها، بحيث لا يكون الترك لهـا باللسـان فقـط بـل ومن القلب أيضـاً، بحيث لا يخطر على الخاطر لارتفـاع مـا يوجبهـا وهـو اعتقـاد أن ثم حقـا يُخاصم عليه.

الثاني: التغافـل عن الزلـة، فـإن الفـتى من إذا تحقـق من أحد وجود زلة أو رآها فيه، فإنه كما أنه يسترها عليه فهـو أيضـاً يظهر منه أنه ما رآها منه ولا علم بوجودها له، وذلك ليزيـل عن صـاحبها بهـذا التغافـل وحشـة المنقصـة ويريحـه من الاسـتحياء والمعذرة، ولئلا يـرى ذلـك الشـخص أن لهـذا الفـتى عليـه حقـا يستره له عند تلك الزلة.

الثالث: نسـيان الأذيـة، فـإن الفـتى يتناسـى أذيـة من آذاه ليصفو قلبه، ولأن سره مشغول بالحق عن تصفح الـزلات، فهـو لا يزال في صفح، لا في تصفح.

الرابع: أن يقرب من تعصـه بباطنـه لا بظـاهره فقـط، بـل بحيث يلزم نفسه معاشرة ضده والإحسان إليه ليتحقق بالتخلق بالفتوة.

الخامس: أن يكرم من يؤذيـه وإلا لم يتحقـق بـالفتوة، بـل كان من أهل الاحتمال وكذا متى لم يكرمه باطنه ـ كمـا أكرمـه بالظاهر ـ لم يعد من الفتيان بل من الكاظمين الغيظ الذين هم دون العارفين، الذين هم دون الفتيان، الذين وصفهم الله تعالى بالإحسان في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

السادس: أن يعتذر إلى من يجني عليه.

وبما أن الفتوة مثل كل المنازل تبدأ بسيطة دنية، وتـرتقي في سـلم الكمـال الـذي لا نهايـة لـه؛ فقـد تحـدث الحكمـاء عن مراتبهـا المختلفـة، مـع إقـرارهم بأنـه لا نهايـة لمنازلهـا، ولا

لمجالاتها، لأنها لا تشمل العلاقة مع الخلـق فقـط، وإنمـا تشـمل العلاقة مع الله، ومع كل الوجود.

ومن أقـــوالهم في درجـــات الفتـــوة: (الفتـــوة على ثلاث درجـات: الدرجـة الأولى: تـرك الخصـومة والتغافـل عن الزلـة ونسيان الأذية.. والدرجة الثانية: أن تقـرب من يقصـيك، وتكـرم من يؤذيك، وتعتذر إلى من يجنى عليك سماحاً لا كظمـاً وبراحـاً لا مصابرة.. والدرجة الثالثة: أن لا تتعلق في المسير بـدليل، ولا تشوب إجابتك بعوض، ولا تقف في شهودك على رسم)[1]

والحكماء يذكرون الكثير من الحكايات في تنافس الفتيـان في المكـارم ودرجاتهـا، وهي كلهـا تـدخل ضـمن قولـه تعـالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: 26]؛ فتنافس معهم فيها ـ أيها المريد الصادق ـ حتى لا يسبقك أحد إلى ربـك، وإلى المنازل العظيمة التي أعدها للسابقين.

وعلى رأس تلك الحكايات ما يروى عن الإمام الصادق، أنه كان بالمدينة قائما يصلي في المسجد النبوي، وكان رجل أمامه نائما، ثم انتبـه، فظن أن الإمـام ذهب بحزامـه الـذي وضـع فيـه أمواله، فتعلق به فقـال لـه الإمـام: مـا شـأنك؟ فقـال: هميـاني سـرق وليس عنـدي سـواك.. فقـال لـه الإمـام: كم كـان في هميانك؟.. فقال: ألف دينـار.. فقـال لـه الإمـام: تعـال معي إلى البيت حتى أعطيك ألف دينار؛ فانطلق معه، فأعطاه ألف دينـار خيراً من ذهبـه، فلمـا جـاء الرجـل إلى رفقتـه أخـبرهم بقصـته، فقالوا: هميانك عندنا، فسأل الرجـل عن الإمـام، فـأخبروه بأنـه ابن بنت رسول الله ﷺ، فجاء الرجـل إليـه، ووقـع يقبـل قدميـه ويعتذر إليه، ورد ألف الدينار عليه فلم يقبلها وقال: ما أخرجنـاه

[1] () عبد الله الهروي، منازل السائرين، ص 61، 62.

لله فلا يرجع)[1]

ومن تلك الحكايات، وهي متعلقة بجانب من الفتوة، وهو التغافل عن عيوب الغير وأخطائهم، أن رجلا من الفتيان تزوج امرأة، فلما دخلت عليه رأى بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني، ثم قال: عميت، فبعد عشرين سنة ماتت، ولم تعلم أنه بصير، فقيل له في ذلك، فقال:(كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها)، فقيل له:(سبقت الفتيان) [2]

ومثل ذلك ما روي أن رجلا استضاف جماعة من الفتيان، فلما فرغوا من الطعام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم، فانقبض واحد منهم، وقال:(ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء على أيدي الرجال) فقال آخر منهم:(أنا منذ سنين أدخل إلى هذه الدار، ولم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أو رجلا) [3]

وروي أن جماعة فتيان قدموا لزيارة صديق لهم، فقال الرجل:(يا غلام قدم السفرة)، فلم يقدم، فقالها ثانياوثالثا فلم يقدم، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا:(ليس من الفتوة أن يستخدم الرجل من يتعاصى عليه في تقديم السفرة كل هذا)، فقال الرجل:(لم أبطأت بالسفرة)، فقال الغلام:(كان عليها نمل، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مع النمل، ولم يكن من الفتوة إلقاء النمل وطردهم عن الزاد، فلبثت حتى دب النمل)، فقالوا:(يا غلام مثلك يخدم الفتيان) [4]

1() ابن المعمار البغدادي، كتاب الفتوة، ص 263 -264.

2() مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 326)

3() مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 327)

4() مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 328)

هذه بعض الحكايات الواردة في هذا؛ فاحرص ـ أيها المريد الصادق ـ أن تكون من السابقين إلى المـروءة والخلال النبيلـة، ولا ترتضي بدرجاتها الدنيا، فتكون من المخلفين.

واعلم أن دينـك أعـز وأعظم من أن تأخـذه ممن لم تـؤمر بأخذه منه؛ فلذلك لا تأخـذ بكـل مـا ورد في تلـك الحكايـات، ولا كـل مـا ورد عن الفتيـان، فهم بشـر يخطئـون ويصـيبون، وقـد يضعون في الفتوة ما لا علاقة له بها؛ فاحذر من كيد الشـيطان، ومن الدخن الذي وضعه في الخـيرات حـتى يلبس عليهـا وعلى أهلها. ..

زهد العارفين

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الزهد وحقيقته ومنزلته ومجالاته ودرجاته، وسر علاقته بالنفس المطمئنة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الزهد ــ بحقيقته الشرعية ــ من المنازل الضرورية للنفس المطمئنة، لأنه لا يمكن أن تترقى النفس إلى تلك المرتبة الرفيعة في سلم كمالها، وهي لا تزال تتثاقل إلى الأرض، أو تحمل تلك الأوهام التي تحملها النفس الأمارة، والتي تجعلها تفضل الأولى على الآخرة، والعاجلة على الآجلة، والخلق على الله.

بل إنه لا يمكن التحقق بكل مقامات الدين إلا بعد تحقق النفس بالزهد، ولو في أدنى درجاته.. ذلك أن كل خلق من الأخلاق يقتضي زهدا خاصا به لولاه لم يتحقق ذلك الخلق.

فالذي يصدق، لم يفعل ذلك إلا لاعتقاده أن الكذب ـ مهما جلب من المصالح ــ رديء ومهلك، وأن العاقبة في الصدق، ولذلك زهد في المصالح لأجله.. ولو أنه كان صاحب رغبة وتثاقل إلى الأهواء لما استطاع التخلص من كذبه.

وهكذا العفيف.. فهو لا يفعل ذلك إلا لنفور نفسه من تلك الشهوات التي قد تجره إلى خراب حقيقته وآخرته.. ولذلك ترك اللذات العاجلة طلبا للذات الآجلة.

وهكذا الكريم.. فهو لا يفعل ذلك بغضا في المال، وإنما طمعا في أن يتحول ذلك المال إلى أداة تجلب له رضوان الله ونعيمه.. ولو كان حريصا على الدنيا وحطامها، لما استطاع فعل ذلك.

وهكذا الشجاع.. فهو لا يضحي بنفسه، ويقدم بها على مواضع الخطر إلا لتحققه من أن ما يضحي لأجله أفضل من الذي يضحي به.. ولولا ذلك لحرص على حياته ونفسه، ولم يبذلها في سبيل الله.

وهكذا؛ فإن الزهد ركن ضروري في جميع الأخلاق، ذلك أنه يعني المعارف التي تجعله يفضل الآخرة على الأولى، والآجلة على العاجلة، والله على خلقه..

بل إن المنحرف أيضا زاهد.. ولكن على عكس التقي الصالح، ذلك أنه بعد موازنته نعيم الدنيا بنعيم الآخرة، راح يختار الدنيا.. وبذلك تحقق له الزهد في الآخرة.. ولذلك روي عن بعض الصالحين، أنه عندما قيل له: أنت زاهد.. قال: لا.. بل الزاهد من آثار الأولى على الآخرة.. فهو الذي ضحى بالعظيم لأجل الحقير.. وبالكثير لأجل القليل.

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن أول المصادر التي تحث على الزهد، وتعطي المعارف المرتبطة به، هو القرآن الكريم.. فلا يكاد يقرؤه أحد بصدق وتدبر إلا هداه الله تعالى إلى حقائق الوجود التي ترفع عنه تلك الأغلال التي تحول بينه وبين طلب الكمال.

وقد ذكرت لك في رسائل سابقة ما ذكره القرآن الكريم عن الدنيا وحقارتها، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص: 60]، فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن كل ما في الدنيا من متاع وزينة يوجد ما هو خير منه وأدوم في الآخرة.. ولذلك فإن الزاهد في الدنيا، لن يضيع زهده، بل سيكسب أضعاف ما يتوهم المتثاقلون أنه خسره، بإضافة عنصر الزمان وامتداده، والذي حرم منه المتثاقلون إلى في

الدنيا.

وقد عقب الله تلك الآيـة الكريمـة بقولـه: ﴿ أَفَمَنْ وَعَـدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُـوَ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص: 61]، وهي تدل على أنــه لا وجه للمقارنة بين المؤمن الذي وثق في وعد الله الذي سـيلقاه لا محالة، وبين ذلك الذي اكتفى بالنصيب المحـدود الـذي يعيش به في الدنيا، ثم يلاقي في الآخرة الأهوال بسبب تثاقله.

وهكذا يخاطب القرآن الكـريم رسـول اللـه ﷺ والمؤمـنين بأن مـا أعـد اللـه تعـالى لهم في الآخـرة، لا يمكن مقارنتـه بمـا يرونه من النعيم الذي يعيشه المتثاقلون إلى الدينا، ذلــك النعيم الممتلئ بكــل أصــناف المنغصــات، قــال تعــالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْـكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55]

ويخاطب الله تعالى رسول اللـه ﷺ مسـليا لـه وللمؤمـنين على ما فاتهم أو يفوتهم من الدنيا، فيقول: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْـرٌ لَـكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى: 4]، ويقول: ﴿وَمَـا الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُـونَ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ ﴾ [الأنعـام: 32]

ويــبين مــدى غفلــة المتثــاقلين إلى الــدنيا وغبــائهم عنــدما يسخرون من الزاهـدين في الـدنيا، فيقـول: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَـرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212]

ويــذكر بعض مجــامع نعيم الــدنيا، ويــبين مــدى انحطاطهــا مقارنة بنعيم الآخرة، فيقــول: ﴿زُيِّنَ لِلنـاسِ حُبُّ الشَّـهَوَاتِ مِنَ النسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْـلِ

الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالله عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [آل عمران: 14]

ثم يبين بعض مظاهر ذلك النعيم المعد للمؤمنين في الآخرة، والذي لا يمكن مقارنة أي نعيم في الدنيا به، فيقول: قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَناتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ الله وَالله بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ [آل عمران: 15]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تعرف المؤمن بحقائق الوجود وقيمه، وهي كثيرة جدا، بل يمكن اعتبار القرآن الكريم جميعا كتاب المعارف المرتبطة بالزهد.. ذلك أن الزهد ليس سوى ثمرة للمعرفة بالحقائق.. والقرآن هو كتاب الحقائق المعصومة الأكبر.

ومثل ذلك ورد في السنة المطهرة الكثير من الأحاديث المبينة لفضل الزهد، أو المعارف المرتبطة به،ومنها ما روي أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)[1]

ومنها قوله ﷺ في بيان حقيقة الزهد: (الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك)[2]

ومنها قوله ﷺ في بيان ثمار الزهد: (إذا رأيتم الرجل قد

1() رواه ابن ماجه وغيره.

2() رواه الترمذي، وقال: حديث غريب، وراه ابن ماجة والطبراني.. وغيرهم.

أُعطي الزهد في الدنيا فاقتربوا منه، فإنه يُلقّى الحكمة)[1]

ومثلــه مــا ورد في بيــان ثمــاره: (الزاهــد يحبُّ من يحبُّ خالقــه، ويبغض من يبغض خالقــه، ويتحــرّج من حلال الــدنيا، ولا يلتفت إلى حرامها، فإنّ حلالها حساب، وحرامها عقاب، ويــرحم جميع المسلمين كما يرحم نفسه، ويتحّرج من الكلام كما يتحرّج من الميتة التي قد اشتدّ نتنها، ويتحرّج عن حطام الدنيا وزينتهــا، كما يتجنّب النار أن يغشاها، وأن يقصّــر أملــه، وكــان بين عينيــه أجله)[2]

ومنهــا قولــه ﷺ في المعــارف المؤديــة للزهــد: (من أصــبح والدّنيا أكبر همّه فليس من الله في شيء، وألزم الله قلبه أربع خصال: همّا لا ينقطع عنه أبدا، وشغلا لا يتفرّغ منه أبــدا، وفقــرا لا ينال غناه أبدا، وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا)[3]

ومنها قوله ﷺ في اعتبــار كــل شــيء في الــدنيا يحــول بين المؤمن وسعادة الآخرة ملعون، فيقول: (الــدّنيا ملعونــة ملعــون ما فيها إلّا ما كان للّه منها)[4]

ويعتبر ﷺ الــدنيا والآخــرة مثــل الضــرتين إذا أحب أحــدهما أبغض الأخرى، فيقول: (من أحبّ دنياه أضــرّ بآخرتــه ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى)[5]

ويــبين المصــير الــذي يصــير إليــه المتثــاقلون إلى الــدينا،

1() بحار الأنوار: 67/311، وروضة الواعظين.

2() معاني الأخبار ص261.

3() الطبراني في الأوسط وابن أبي الدنيا والحاكم.

4() ابن ماجه رقم 4112، والترمذي ج 9 ص 198.

5() الحاكم ج 4 ص 319.

فيقـول: (ليجـيئن أقـوام يـوم القيامـة وأعمـالهم كجبـال تهامـة فيؤمر بهم إلى النار، فقيل: يا رسول اللـه أمصـلّين؟ قـال: نعم كانوا يصومون ويصلّون ويأخذون هنة من اللّيل فإذا عــرض لهم من الدّنيا شيء وثبوا عليه)[1]

ويقول في بعض خطبـه: (المـؤمن بين مخـافتين بين أجـل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجـل قـد بقي لا يـدري ما الله قـاض فيـه فليـتزوّد العبـد من نفسـه لنفسـه ومن دنيـاه لآخرته، ومن حياته لموتـه، ومن شـبابه لهرمـه، فـإن الـدّنيا قـد خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخــرة، والّـذي نفســي بيـده مـا بعـد الموت من مستعتب ولا بعد الدّنيا من دار إلّا الجنة أو النار)[2]

أما سنته العمليـة، وهي حياتـه ﷺ؛ فقـد كـانت مثـالا أعلى للزهد، ففي الحديث عن عبد الله بن مسـعود قـال: دخلت على رسول الله ﷺ وقد نام على حَصِير، وقد أثَّرَ في جنبه، فقلنـا: يـا رسول الله، لو اتَّخَذنا لك وطاءً تجعلُهُ بينك وبين الحصير، يقيـك منه؟ فقال: (ما لي وللـدنيا؛ مـا أَنـا والـدنيا إلا كَـرَاكبٍ اسـتَظَلّ تحت شجرة ثم راح وتركها)[3]

وقد حدث أبـو ذر قـال: كنت أمشـي مـع النـبي ﷺ في حـرة بالمدينة، فاستقبلنا أحد، فقال: (يا أبا ذر) قلت: لبيك يا رسول الله، فقال: (ما يسرني أن عندي مثل أحد هـذا ذهبـا تمضـي علي ثلاثـة أيام وعندي منه دينار، إلا شيء أرصـده لـدين، إلا أن أقـول بـه في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا) عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، ثم سـار، فقـال: (إن الأكـثرين هم الأقلـون يـوم القيامـة إلا من قـال بالمـال هكـذا وهكـذا) عن يمينـه وعن شـماله ومن خلفـه

1() أبو نعيم في الحلية وأبو منصور الديلمي.

2() الكافي ج 2 ص 70.

3() رواه الترمذي.

(وقليل ماهم)[1]

وفي حديث آخر: قيل يا رسول الله ﷺ إن شئت أعطينـاك خزائن الدنيا، ومفاتيحها لم نعطها أحدا قبلـك، ولا نعطيهـا أحـدا بعدك، لا ينقصك ذلك عند اللـه شـيئا، فقـال: (اجمعوهـا لي في الآخرة)، فأنزل الله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَـاءَ جَعَـلَ لَـكَ خَيْـراً مِنْ ذَلِـكَ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ وَيَجْعَـلْ لَـكَ قُصُـوراً ﴾ (الفرقان:10)

وعن أم سلمة قالت: نام رسول الله ﷺ على وسادة حشوها ليف، فقام وقد أثر بجلده، فبكيت فقال: (يا أم سلمة مـا يبكيـك؟) قلت: ما أرى من أثر هذه، فقال: (لا تبكي، لو أردت أن تسير معي هذه الجبال لسارت)[2]

وحدثت عائشة قـالت: دخلت علي امـرأة من الأنصـار فـرأت على فراش رسول اللـه ﷺ عبـاءة خشـنة، فـانطلقت، فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف، فدخل رسول اللـه ﷺ فقـال: (مـا هـذا يـا عائشـة؟) فقلت: يـا رسـول اللـه فلانـة الأنصـارية دخلت، فـرأت فراشك، فذهبت، فبعثت إلي بهذا الفراش، فقـال: (رديـه)، قـالت: فلم أرده، وقد أعجبني أن يكون في بيتي، حتى قـال ذلـك مـرات، فقال: (رديه يا عائشة، فوالله لـو شـئت لأجـرى اللـه معي الجبـال ذهبا وفضة)[3]

وعنها قالت: اتخذت لرسول الله ﷺ فراشين حشـوهما ليـف وإذخر، فقال: (يا عائشة ما لي وللدنيا، إنما أنا والدنيا بمنزلة رجـل نزل تحت شجرة في ظلها، حـتى إذا فـاء الفئ ارتحـل، فلم يرجـع

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه أبو ذر الهروي.

3() رواه الحسن بن عرفة في جزئه المشهور، وابن عساكر.

إليها أبدا)[1]

وهكذا كانت سنة أئمة الهـدى؛ فقـد روي عنهم الكثـير من الأحـاديث الـتي تحض على الزهـد، وتـبين مكانتـه من الـدين، وخاصة بعد ما رأوا تثاقل المسلمين إلى الدنيا، وتحريف بعضهم للدين بسببها.

ومن أمثلتها قول الإمام علي: (طوبى للزاهـدين في الـدنيا الراغبين في الآخرة، أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطاً، وترابهـا فراشاً، ومائها طيباً، والقرآن دثاراً، والدعاء شعاراً، وقرضوا من الدنيا تقريضاً على منهاج عيسى بن مريم عليه السلام)[2]

وحدث عن نفسه قال: (ألا وإنّ لكـل مـأموم إمامـاً يقتـدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمـامكم قـد اكتفى من دنيـاه بطمريه، ومن طعمـه بقرصـيه، ألا وإنكم لا تقـدرون على ذلـك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، فو الله ما كنزت من دنيـاكم تـبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً.. ولو شئت لاهتـديت الطريـق إلى مصـفّى هـذا العسـل، ولبـاب هـذا القمح، ونسـائج هـذا القـزّ، ولكن هيهـات أن يغلبـني هـواي، ويقودني جشعي الى تخّير الأطعمة، ولعـلّ بالحجـاز أو باليمامـة من لا طمـع لـه في القـرص، ولا عهـد لـه بالشـبع، أو أن أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى) [3]

وقال الإمام الصادق: (من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا داءها ودواءهـا،

1() رواه ابن حبان.

2()الخصال 1/164.

3() نهج البلاغة، 2/72.

وأخرجه منها سالماً الى دار السلام)[1]

وقال: (الزهد مفتاح باب الآخرة، والـبراءة من النـار، وهـو تركك كل شئ يشغلك عن الله، عن غير تأسف على فوتهـا، ولا إعجاب في تركها، ولا انتظار فرج منها، ولا طلب محمدة عليها، ولا عوض منها، بل ترى فوتهـا راحـة، وكونهـا آفـة، وتكـون أبـدا هاربا من الآفـة، معتصـما بالراحـة والزاهـد الـذي يختـار الآخـرة على الدنيا، والذل على العز، والجهد على الراحـة والجـوع على الشبع، وعاقبة الآجـل على محبـة العاجـل، والـذكر على الغفلـة ويكون نفسه في الدنيا وقلبه في الآخرة)[2]

وغيرهـا من الروايـات الكثـيرة الـتي تـبين حقيقـة الزهـد ومنزلته الرفيعة، بل تعتبره شرطا من شـروط التزكيـة الـتي لا تتم من دونها؛ فلا يمكن للحريص المتثاقـل إلى الـدنيا، أن تنبت في أرض نفسه أي مكرمة من المكارم.

ومثل ذلك اتفق الحكماء على ضرورة الزهد ومنزلته، وكله مما فهموه من المصادر المقدسة، أو اكتسبوه بتجاربهم، وهم ـ كما تعلم ـ غير معصومين؛ فلـذلك قـد يختلـط بعض مـا ذكـروه ببعض الدخن؛ فخذ الحقيقة والحكمة، ودعك من الدخن.

ومن تعريفاتهم للزهد قول بعضهم: (الزهد: هو خلو القلب عما خلت منه اليد)[3]

وقال آخر: (الزهد: وهو خلو البدن من الـدنيا، وخلـو القلب

1()ثواب الأعمال ص151.

2() مصباح الشريعة ص22.

3() د. عبد الحليم محمود، شيخ الشيوخ أبو مدين الغـوث، حياتـه ومعراجـه الى اللـه، ص 71.

من طلبها)[1]

وقال آخر: (الزهد: هو النظر في الدنيا بعين الزوال، فتصغر في عينك، فيسهل الإعراض عنها)[2]

وقال آخر: (الزهد: النظر إلى الدنيا بعين النقص، والإعراض عنها تعززاً وتظرفاً)[3]

وقال آخر: (الزهد: تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء)[4]

وقال آخر: (الزهد كله: أخذ ما لا بد منه، وإسقاط ما بقى)[5]

وقال آخر: (يقال: الزهد: هو عزوف القلب عما فيه ريب.. وهو أن لا تملك ما تملك ولا تؤثر ما تدرك.. وهو ترك الأسف على معدوم ونفي الفرح بمعلوم.. وهو منع الحرام من الشدق، وصون القلب عن الخلق)[6]

وقال آخر: (الزهد: هو النظر إلى الدنيا بعين النقص، والإعراض عنها تعززاً وتظرفاً. ومن استحسن من الدنيا شيئاً فقد نبه على قدرها)[7]

1() أحمد الكمشخانوي النقشبندي، جامع الأصول في الأولياء، ج 2 ص 257.

2()عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، ص 50.

3() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 216.

4() المرجع السابق، ص 341.

5() المرجع السابق، ص 428.

6() المرجع السابق، ص61.

7() علي بن يوسف الشطنوفي، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، ص 401.

وقال: (الزهـد: هـو أسـاس الأحـوال المرضـية، والمـراتب السنية، وهو أول قـدم القاصـدين إلى اللـه تعـالى، والمنقطعين إلى اللـه، والراضـين عن اللـه، والمتـوكلين على اللـه. فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعد)[1]

وذكر بعضهم أصل الزهـد ومنابعـه، فقـال: (أصـل الزهـد: الرضا عن الله تعالى)[2]

وقال آخر: (أصل الزهد هو العلم والنور يشــرق في القلب حتى ينشرح به الصدر، ويتضح فيـه أن الآخـرة خـير وأبقى، وأن نسبة الدنيا إلى الآخرة أقل من نسبة خرقة إلى جوهرة)[3]

ومثل جميع منازل النفس المطمئنـة؛ فـإن للزهـد درجـات كثيرة بحسب مرتبة النفس في سلم الكمـال المتـاح لهـا، وقـد ذكر بعضهم مجـامع ذلـك، فقـال: (أقسـام الزهـد بالإضـافة إلى المرغـوب فيــه على ثلاث درجـات: أحــدها: الزهــد للنجـاة من العذاب، والحساب، والأهوال التي بين يـدي الآدمي، وهـذا زهـد الخـائفين.. الدرجـة الثانيـة: الزهـد للرغبـة في الثـواب، والنعيم الموعود به، وهذا زهد الراجين فـإن هـؤلاء تركـوا نعيمـاً لنعيم.. الدرجة الثالثة: وهي العليا، وهـو أن لا يزهـد في الـدنيا للتخلص من الآلام، ولا للرغبــة في نيــل اللــذات، بــل لطلب لقــاء اللــه تعـالى، وهـذا زهـد المحسـنين العـارفين، فـإن لـذة لقـاء اللـه سبحانه وتعـالى بالإضـافة إلى لـذات الجنـة، كلـذة ملـك الـدنيا، والاستيلاء عليها)[4]

1() بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، ص 477.

2() أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص 10.

3() الغزالي، الأربعين في أصول الدين، ص 235، 236.

4() أحمد بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، ص 412، 413.

وقال آخر: (الزهد عند العـوام خلـو اليـد من المـال، وعنـد الخواص خلو القلب عن الالتفات إلى غير الله تعالى)[1]

وقال آخر: (الزهد خمسة أقسـام: الأول: أن تزهـد مـا في أيدي النـاس تحبـك النـاس.. الثـاني: أن تزهـد في الـدنيا يحبـك الله.. الثالث: أن تزهـد أقوالـك وأفعالـك وأحوالـك وترحـل عن علمـك وعملـك.. الرابـع: أن تزهـد في المقامـات والتصـرف والكرامات عند الواردات.. الخامس: أن تزهد فيما سـوى اللـه)[2]

وقال آخر: (الزهد على درجـات ثلاث: الدرجـة الأولى وهي السفلى منها: أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسـه إليهـا ملتفتـة، ولكنـه يجاهـدها ويكفهـا، وهـذا يسـمى: المتزهد.. الدرجة الثانيـة: الـذي يـترك الـدنيا طوعـاً لاسـتحقاره إياهـا بالإضـافة إلى مـا طمـع فيـه، كالـذي يـترك درهمـاً لأجـل درهمين.. الدرجة الثالثة وهي العليا: أن يزهد طوعـاً ويزهـد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئاً. إذ عرف أن الـدنيا لا شيء، فهذا هو الكمال في الزهد)[3]

وقال آخر: (الزهد وهو على ثلاث درجـات: الدرجـة الأولى: الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام بالحـذر من المعتبـة، والأنفـة من المنقصة، وكراهة مشاركة الفساق.. والدرجة الثانية: الزهد في الفضول وما زاد على المسـكة والبلاغ من القـوت، باغتنـام التفرغ إلى عمارة الوقت، وحسم الجأش والتحلي بحلية الأنبياء

1() حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبـوب (بهـامش قـوت القلـوب ج 2)، ص 128.

2() محمد بن حسن السمنودي، تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المقربين، ص 50.

3() الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 4 ص 211، 212.

والصديقين.. والدرجـة الثالثـة: الزهـد في الزهـد بثلاثـة أشـياء: باستحقار ما زهدت فيه، واستواء الحالات عنـدك، والـذهاب عن شهود الاكتساب ناظراً إلى وادي الحقائق)[1]

وغيرها من الأقوال التي ترجع جميعا إلى التقسيم القرآني لأصـناف المؤمـنين، والـتي تجتمـع في أهـل اليمين والمقـربين؛ فزهد أهل اليمين مرتبط بمتاع الـدنيا، وزهـد المقـربين مرتبـط بكل ما يصرف عن الله.

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن تتخلق بهذا الخلق الرفيع، وتنزل هذه المنزلة السـامية؛ فلا يمكنــك أن تـترقى في مــراتب الكمــال قبــل أن تزهــد في مراتب النقص، وتتخلى عن كـل القيـود الـتي تحـول بينـك وبين سيرك الذي لا نهاية له. ..

1() عبد الله الهروي، منازل السائرين، ص 30، 31.

السخاء والكرم

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن السخاء والكرم وما يرتبط بها من صفات البذل والعطاء، وحقيقتها، ومنابعها، ودرجاتها، وعلاقتها بالنفس المطمئنة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن السخاء والكرم في حدودهما الدنيا من الصفات الضرورية للنفس المطمئنة، ذلك أن الشح والبخل من مثالب النفس الأمارة، والتي لا يمكن أن تهدأ النفس، ولا أن تطمئن، وهي تتصف بها.

وأنت ترى ذلك في الواقع؛ فالشحيح البخيل يعيش دائما في حال ضنك وضيق نفسي، حرصا على ماله أو متاعه أو أملاكه، حتى أنه يتوهم أن كل من يتودد إليه، أو يقترب منه لا يفعل ذلك إلا لأجل نهبه وسلبه.

بل إن الشح قد يمتد في نفسه؛ فلا يبقى مرتبطا بالمال والمتاع، بل يتحول إلى غيرهما؛ فيتحول إلى مدد لكل المثالب والموبقات.. فالحسد ليس سوى نوع من الشح، ذلك أن الحسود يتوهم بأن النعم التي تنزلت على غيره كأنها خرجت من ملكيته إلى ملكية غيره.. وهكذا لكل المثالب؛ فهي مثل الأمراض الحسية يمد بعضها بعضا، ويزيد بعضها في قوة الآخر.

وقد أشار الله تعالى إلى هذه النفس الممتلئة بالشح في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون:1 ـ 7)

فقوله تعالى: ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾، هي المفتاح الذي

تفسر به كل تلك الصفات، فالبخيل يكذب بالدين، لأنه يتوهم أن الداعي إلى الدين لص يريد أن يسرق مالـه أو راحتـه أو أوقاتـه أو سعادته.. وهو يدع اليتيم طمعا في ماله ليزيد من خلال ذلـك ثروته.. وهو لا يحض على طعام المسـكين، لأن البخـل سـد في قلبه منافذ الرحمة، فصار لا يرى إلا الأموال.. وهو لذلك كله إن صلى لا يفعل ذلك لوجه الله، وإنما ليكسب رضا الناس، ثم يمد يده إلى أموالهم أو قلوبهم من خلال ذلك الجاه الذي يناله..

وهكذا تجتمع في نفس البخيل كل خلال اللؤم، حتى يصـبح ممتلئا بالمثالب، والتي قد تطبع على قلبه؛ فلا يبصر الحق أبدا.

وعلى خلاف ذلك الكريم صاحب النفس المملـوءة بـالطهر والنبل، والذي يُمد غيره بكل مـا يسـتطيع من العطـاء؛ فـإن لم يستطع اجتهد في أن يحض على الكرم الذي عجز عنه.

ولهـذا وردت النصـوص الكثـيرة الـتي تـبين قيمـة الكـرم، وفضله، وضرورته، ومنابعه، ومنها قوله تعالى في فضل الكـرم، وبيان ثماره الزكية في الدنيا والآخـرة: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 5 - 7]

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى أن العطاء والبـذل سـيؤدي إلى التقـوى والتصـديق والإيمـان.. وكـل ذلـك سـيؤدي بـه إلى اليسرى، والتي هي جنة الدنيا والآخرة.

بخلاف ذلك ذكـر اللـه تعـالى أنـواع العسـر الـتي يمـر بهـا الحريص والبخيل، وكيف لا يغني عنـه مالـه شـيئا، فقـال: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) ﴾ [الليل: 8، 9]

وهكذا ورد في الحديث عن رسـول اللـه ﷺ اعتبـار الكـرم من الصفات الضرورية للتزكية والتدين، فقـال: (إن اللـه تعـالى

استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما)(1)

وأخبر أنه من الصفات التي يحبها اللـه تعـالى؛ وإذا أحبهـا، فإنه سيحب أهلها، ويكـرمهم، ويـزكيهم، ويـرقيهم، قـال : (إنّ اللّه كريم يحبّ الكرم، ويحبّ معالي الأخلاق، ويكره سفسـافها)(2)

وقال: (خلقان يحبهمـا اللـه، وخلقـان يبغضـهما اللـه، فأمـا اللذان يحبهما الله فالسـخاء والسـماحة، وأمـا اللـذان يبغضـهما اللـه تعـالى، فسـوء الخلـق والبخـل، وإذا أراد اللـه بعبـد خـيرا، استعمله على قضاء حوائج الناس)(3)

وذكر قرب السـخي من اللـه، فقـال: (السـخاء خلـق اللـه الأعظم)(4)

وأخبر عن منزلة السخي، فقال: (السخي قـريب من اللـه، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيـد من اللـه، بعيـد من النـاس، بعيـد من الجنـة قـريب من النـار، والجاهل السخي أحب إلى الله من عابد بخيل)(5)

وأخبر أن أحب الأعمال إلى الله الكرم، فقال: (أحب الأعمال إلى الله تعالى، من أطعم مسكينا من جوع، أو دفع عنه مغرمـا، أو كشف عنه كربا)(6)

1() الطبراني.

2() رواه الحاكم والطبراني في الكبير.

3() البيهقي.

4() ابن النجار.

5() الترمذي والبيهقي.

وأخبر عن حب الله للمكرمين، فقال: (إن أحب عبـاد اللـه إلى الله، من حبب إليه المعروف، وحبب إليه أفعاله)(1)

وأخبر عن تأثير الكرم في الوقاية من نيران الـدنيا، فقـال: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكـات، وأهـل المعروف في الدنيا، هم أهـل المعـروف في الآخـرة، وإن أهـل المنكر في الدنيا، هم أهل المنكر في الآخرة)(2)

أما المنابع التي ينبـع منهـا هـذا المـنزل من منـازل النفس المطمئنة، فهي تلك المعارف النورانية الـتي امتلأت بهـا النفس المطمئنـة، وأولهـا معرفتهـا باللـه، وأنـه هـو الـرزاق ذو القـوة المتين، وذو الجود العظيم.

وهو الإيمان الـذي يـدعو إلى التخلـق بأخلاقـه، والثقـة في فضله؛ فمن عرف الله وأحبه وتخلل الحب جميـع وجدانـه، فإنـه لا محالة سيدعوه حبه إلى التشبه بحبيبه الذي امتلأ قلبه بحبـه.. فالله هو الكريم الّذي إذا قدر عفـا، وإذا وعـد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرّجـاء، ولا يبـالي كم أعطى ولمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفي عاتب، ولا يضـيع من لاذبه والتجأ، بل يغنيه عن الوسائط والشّفعاء.

ومن أسباب ذلك المعرفة برسول اللـه ﷺ، والحـرص على التخلـق بأخلاقـه، الـتي وصـفها اللـه تعـالى بقولـه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)﴾ (القلم)

وقد كان رسول الله ﷺ يحـدث عن نفسـه الممتلئـة كرمـا وجودا، وكأنه يدعو كل محتاج لأن يمد يده إليه لينال من جـوده،

6() الطبراني.

1() ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ.

2() الحاكم.

فقال (ألا أخبركم عن الأجود؟ الله الأجـود، وأنـا أجـود ولـد آدم، وأجـودهم من بعـدي رجـل تعلم علمـا فنشـر علمـه، يبعث يـوم القيامة أمة وحده، ورجل جاهد في سبيل الله حتى يقتل) [1]

وقال، وقد التفت إلى أحد: (والذي نفسي بيده ما يســرني أن أحدا يحول لآل محمد ذهبا، أنفقه في سبيل الله، أموت يـوم أموت ما أدع منه دينارين، إلا دينارين أعدهما لدين إن كان) [2]

وقال: (لو عندي مثـل أحـد ذهبـا مـا سـرني أن يـأتي علي ثلاث ليال، وعندي منه شئ إلا شيئا أرصده لدين) [3]

وقد كان أصحابه والمقربون إليه يعرفون هذه الصفة فيــه، ويصفونه بها، فعن الإمام علي أنه كـان إذا نعت رسـول اللـه ﷺ قال: كان أجود الناس كفا [4].

وكان من الصفات التي عرفه من خلالها الكل هو أنـه كـان أبعد الناس عن رد أي سائل يسأله، مؤتمرا في ذلـك بمـا أمـره اللــه تعــالى بــه، قــال تعــالى: وَأَمَّا السَّـائِلَ فَلا تَنْهَـرْ (10) (الضحى)

وقد كانت الصفة التي عرف بها النبي ﷺ.. عرفه بها جميـع الناس.. أنه لا يسأل شيئا إلا أعطـاه، فعن أنس قـال: مـا سـئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئا إلا أعطاه[5].

وذكر نموذجا لـذلك، فقـال: فسـأله رجـل غنمـا بين جبلين

1() رواه بقي بن مخلد وأبو يعلى.

2() رواه أحمد.

3() رواه البيهقي، وابن عساكر.

4() رواه ابن أبي خيثمة.

5() رواه مسلم.

فأعطاه إياها، فـأتى قومـه فقـال: يـا قـوم أسـلموا، فوالـلـه إن محمدا ليعطى عطاء من لا يخاف الفقر[1].

وقال: وإن كان الرجل ليجئ إلى رسول الله ﷺ ومـا يريـد بذلك إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليـه من الـدنيا وما بينها [2].

وعن سهل بن سعد قال: كان رسول الله ﷺ حييا لا يسـأل شيئا إلا أعطى [3].

وعنــه أن امــرأة جــاءت النــبي ﷺ بــبردة منســوجة فيهــا حاشيتها، قال سهل: أتدرون مـا الـبردة؟ قـالوا: الشـملة، قـال: نعم، قالت: نسجتها بيـدي لأكسـوكها فخـذها، فأخـذها النـبي ﷺ محتاجا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره فقال الأعـرابي: يـا رسـول الله بأبي أنت وأمي هبها لي، فقال: (نعم)، فجلس ما شاء اللـه في المجلس، ثم رجع فطواها فأرسل بها إليـه، ثم سـأله، وعلم أنه لا يسأل شيئا فيمنعه، قال: والله إني ما سألته لألبسها، إنمـا سألته لتكون كفني، رجوت بركتها حين لبسـها رسـول اللـه ﷺ، قال سهل: فكانت كفنه[4].

وعن هـارون بن أبـان قـال: قـدم للنـبي ﷺ سـبعون ألـف درهم، وهــو أكــثر مــال أتي بــه قــط، فوضــع على حصــير من المسجد، ثم قام بنفسه، فما رد سائلا، حتى فرغ منه [5].

1() رواه مسلم.

2() رواه مسلم.

3() رواه الدارمي.

4() رواه البخاري، وابن ماجه، وابن سـعد، والطـبراني، والإسـماعيلي والنسـائي، زاد الطبراني: وأمر النبي ﷺ أن يصنع له غيرها، فمات قبل أن تنزع.

5() رواه الدارمي.

ومن تلــك المنــابع الطــاهرة الــتي تملأ النفس اســتعدادا للتخلق بهذا الخلق العظيم حب الورثة الذين تضـمخت أرواحهم بعطر النبوة، ولم يخلطوا معها غيرها؛ فكلهم أشاد بالكرم ودعـا إليه، وقد ذكرت لك في رسائل سـابقة بعض ذلـك، ومنهـا قـول الإمـام علي: (سـادة النـاس في الـدنيا الأسـخياء وفي الآخـرة الاتقياء) (1)

وقــال الإمــام الصــادق: (خيــاركم ســمحاؤكم، وشــراركم بخلاؤكم، ومِنْ صــالح الأعمــال: الــبرّ بــالإخوان، والســعي في حوائجهم، وذلك مرغمة للشيطان، وتزحزحٌ عن النيران، ودخول الجنان)(2)

وقــال: (الســخاء أن تســخو نفس العبــد عن الحــرام أنْ تطلبه، فإذا ظفر بالحلال طابت نفسه أن ينفقه في طاعـة اللـه عزّ وجلّ)(3)

وقــال: (إن اللــه تبــارك وتعــالى رضــي لكم الاســلام دينــا فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق)(4)

وقال: (خياركم سمحاؤكم وشـراركم بخلاؤكم، ومن صـالح الاعمال الـبر بـالاخوان، والسـعي في حـوائجهم، وذلـك مرغمـة للشيطان، وتزحزح عن النيران، ودخول الجنان)، ثم قـال لبعض أصحابه: ياجميل أخبر بهذا الحديث غرر أصحابك، فقــال: جعلت فداك من غرر أصحابي؟ قال: (هم البارون بالاخوان، في العسر واليسر.. أما إن صاحب الكثير يهون عليه ذلـك، وقـد مـدح اللـه

1() أمالى الصدوق: 20.

2() بحار الأنوار: 68/351، والخصال 1/48.

3() بحار الأنوار: 68/353، ومعاني الأخبار ص256.

4() أمالى الصدوق: 163.

عزوجل صاحب القليل فقال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9])[1]

أما حقيقة السخاء والكرم والمجالات التي يرتبطان بها؛ فقد تحدث عنها الحكماء، كل بما فهمه من النصوص المقدسة، أو بما مر به من تجارب، ومن أمثلة ذلك قول بعضهم في الفرق بين السخاء والكرم وغيرها من صفات البذل والعطاء: (السخاء هو الرتبة الأولى، والجود بعده ثم الإيثار، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، والذي قاسى الضرر وآثر غيره بالبلغة فإنه صاحب إيثار)[2]

وقال بعضهم في تعريف: (الكرم: هو ترك ما لا يغنيك)[3]

وقال آخر: (الكرم: هو ابتداء بالعطاء قبل السؤال [4]

وقال آخر: (الكرم: هو التغافل عن زلل الأخوان)[5]

وقال آخر: (الكرم: هو إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر الكثيرة النفع كما ينبغي)[6]

وقال آخر: (الكرم: هو وسط بين البذخ والبذالة، وهو

1() الخصال ج 1 ص 48.

2() القشيري، الرسالة القشيرية، ص 192.

3() أبو عبد الرحمن السلمي، زيادات حقائق التفسير، ص 111.

4() زيادات حقائق التفسير، ص 32 (بتصرف).

5()أبو عبد الرحمن السلمي، المقدمة في التصوف وحقيقته، ص 54.

6() أحمد بن محمد بن مسكويه، طهارة الأنفس في علم تهذيب الأخلاق، ص 14.

طيب النفس بالإنفاق في الأمور الجليلة القدر، العظيمة النفــع)[1]

وقــال آخــر: (الكــرم: هــو طــرح الــدنيا لمن يحتــاج إليهــا، والإقبال على الله تعالى لاحتياجك إليه)[2]

وقــال آخــر: (الكــرم: هــو عطــاؤك بعــد الســؤال عن طيب نفس لا عن حياء إلا عن تخلق إلهي، وطلب مقام رباني)[3]

وقال بعضهم في تعريف الســخاء: (الســخاء تــرك الامتنــان عند العطاء)[4]

وقال آخر: (السخاء هو أن تكون بمالك متبرعــاً، وعن مــال غيرك متورعاً)[5]

وقال آخر: (قيل السخاء هــو أن تجــود على من لا يعرفــك)[6]

وقال آخر: (السخاء هو التوسط في الإعطاء والأخــذ، وهــو أن ينفق الأموال فيما ينبغي، بمقدار ما ينبغي، وعلى مــا ينبغي)[7]

وقــال آخــر: (الســخاء هــو وســط بين رذيلــتين، أحــدهما:

1() الغزالي، ميزان العمل، ص 277.

2() علي بن يوسف الشطنوفي، بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، ص 456.

3()مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم، ص 97.

4()المقدمة في التصوف وحقيقته، ص 44.

5()المقدمة في التصوف وحقيقته، ص 44.

6()التحبير في التذكير، ص 91.

7()تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 27.

السرف والتبذير، والأخرى: البخل والتقتير)[1]

وقال آخر: (السخاء هو العطاء على قدر الحاجة من غير مزيد لمصلحة يراها المعطي)[2]

وذكر بعضهم علامات السخاء، فقال: (علامات السخاء ثلاثة البذل مع الحاجة، وخوف المكافات، واستقلال العطا، والحمد على النفس إغشاماً لإدخال السرور على قلوب الناس)[3]

أما درجات السخاء؛ فهو بحسب المرتبة التي تحل فيها النفس، فبقدر رقيها يكون سخاؤها، وقد روي في هذا امرأة من الصالحات، قالت لجماعة: ما السخاء عندكم؟ قالوا بذل المال، قالت هو سخاء أهل الدنيا والعوام، فما سخاء الخواص؟ قالوا: بذل الجهود في الطاعة، قالت: ترجون الثواب؟ قالوا: نعم. قالت: تأخذون العشرة بواحد لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: 160] فأين السخاء؟ قالوا فما عندك؟ قالت: (العمل لله لا للجنة ولا للنار ولا للثواب وخوف العقاب، وذلك لا يمكن إلا بالتجريد والتفريد والوصول إلى حقيقة الوجود)[4]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تتخلق بهذا الخلق العظيم الذي يقربك من الله، ويقرب من رسوله ﷺ وورثته الهداة.. واعلم أنك لن تنال راحتك ولا سكينتك إلا بعد أن تتخلص من كل تلك القيود التي تحول بينك

1() تهذيب الأخلاق، ص 35.

2()الفتوحات المكية، ج1 ص 586.

3()المقدمة في التصوف وحقيقته، ص 44.

4()إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، ج 2 ص 115.

وبين السمو إلى تلك المراتب الرفيعة...

..

..

..

الحياء والاحتشام

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الحياء وحقيقته ومنزلته وثماره ودرجاته وعلاقته بالنفس المطمئنة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الحياء من المنازل الضروية للنفس المطمئنة، والتي لن تتحقق بطمأنينتها إلا بعد تحققها به، وبقدر ذلك التحقق يكون سيرها وترقيها في مراتب الكمال التي أتيحت لها.

وسر ذلك يعود إلى أن الحياء ـ كما عرفه الحكماء ــ هو ذلك (التغيّر والانكسار الذي يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به)(1)، أو (هو انقباض النّفس من شيء وتركه حذرا عن اللّوم فيه)(2)، أو هو (خلق يبعث على ترك القبح ويمنع من التّقصير في حقّ ذي الحقّ)(3)، أو (هو ملكة راسخة للنّفس تدفعها إلى إيفاء الحقوق وترك القطيعة والعقوق)(4)

وبذلك؛ فإن لتلك الحالة النفسية التي تعتري صاحبها أثرها الكبير في سلوكه، سواء من ناحية ردعه وزجره عن كل ما لا يليق، أو من ناحية دعوته إلى الترقي، والبحث عن الكمال المتاح له.. وهو ما يرفعه كل حين إلى المراتب العالية التي يحرم منها فاقدو الحياء.

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ عن كون الحياء من علامات

1() الفتح(1/ 52)

2() التعريفات(94)

3() رياض الصالحين(272)

4() دليل الفالحين(3/ 158)

الإيمان، وأركانه الضرورية، فقال: (الحياء من الإيمان، والإيمـان في الجنّة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النّار)(1)

وقال: (الحياء والإيمان قرنا جميعا، فإذا رفـع أحـدهما رفـع الآخر)(2)

وقال: (الحياء والعيّ شعبتان من الإيمـان، والبـذاء والبيـان شعبتان من النّفاق)(3)

وكل هذه الأحاديث تشير إلى أن الحيـاء ليس مجـرد قيمـة أخلاقية، وإنما هو نتيجة ضرورية للمعارف الإيمانية.. فمن تحقق بالإيمان تحقق بالحياء، ضرورة، ومن دون تكلف.

وإن شئت مثالا يقرب لك ذلك، فتصور نفسك ـ أيها المريد الصادق ــ قـد صـحبت بعض النـاس من دون أن تعرفـه، وقمت أمامه ببعض التصرفات المباحـة لكن الطبـع السـليم يأباهـا، ثم اكتشـفت بعـد ذلـك أن ذلـك الـذي صـحبته من العلمـاء أو من الصالحين.. فإنك حينهـا تشـعر بالنـدم لسـلوكك ذلـك السـلوك، بخلاف ما لو كان الشخص عاديا بسيطا.

وسر ذلك يعود إلى أن تعظيمك لذلك العـالم والصـالح هـو الذي جعلك تندم على تلك السلوكات، التي وإن كانت مباحة إلا أنها مخلة بالمروءة، ويأباها الطبع السليم.

ولهـذا ورد في الحـديث أن رجلا قـال: يـا رسـول اللـه، أوصـني، قـال: (أوصـيك أن تسـتحيي من اللـه عـزّ وجـلّ كمـا

1() الترمذي(2009)، والحاكم (1/ 52)

2() الحاكم(1/ 22) والإيمان لابن أبي شيبة(7)

3() الترمذي(2027)

تستحيي رجلا من صالحي قومك) (1)

ولهذا، فإن المعرفة بالله، ورقابته الدائمة لخلقه، ومثل ذلك المعرفة برسول الله ﷺ والصالحين من المؤمنين سواء كانوا من البشر أو من الملائكة، والذين ورد النص على رؤيتهم لأعمال المؤمنين، يجعل من العارف بذلك دائم الحياء، ولهذا دعا الله تعالى إلى استشعار هذه الرؤية والرقابة، فقال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105]

وهذه الرقاية التي يدفع إليها الحياء، تجعل صاحبها مقبلا على كل خير، مدبرا عن كل شر، ولهذا ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ مرّ على رجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: (دعه فإنّ الحياء من الإيمان)(2)، وفي حديث آخر: (الحياء لا يأتي إلّا بخير)(3)

ولهذا تقترن الجرأة على المعاصي بفقدان الحياء، ذلك أنه الجدار الحامي عنها، فمن كسر الجدار، صار في صحبة الشيطان، وسهل عليه أن يمارس كل المعاصي، ويشير إلى هذا قوله ﷺ: (أول ما ينزع الله من العبد الحياء، فيصير ماقتاً ممقّتاً، ثم ينزع منه الأمانة، ثم ينزع منه الرحمة، ثم يخلع دين الإسلام عن عنقه، فيصير شيطاناً لعيناً)(4)

وقد قال بعض الحكماء في ذلك: (من عقوبات المعاصي ذهاب الحياء الّذي هو مادّة حياة القلب.. ذلك أنّ الذّنوب تضعف الحياء من العبد، حتّى ربّما انسلخ منه بالكلّيّة حتّى إنّه

1() الزهد لأحمد (ص 46)، والشعب للبيهقي (2/ 462)

2() البخاري [فتح الباري]، 10(6118)، ومسلم(59)

3() البخاري [فتح الباري]، 10(6117) ومسلم(37)

4() بحار الأنوار: 68/335، ومعاني الأخبار ص410.

ربّما لا يتأثّر بعلم النّـاس بسـوء حالـه، ولا بـاطّلاعهم عليـه، بـل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل لـه على ذلـك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع.. فإذا رأى إبليس طلعة وجهه حيّاه، وقال: فـديت من لا يفلح، ومن لا حياء فيه ميّت في الدّنيا شـقيّ في الآخـرة، وبين الذّنوب وقلّة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطّرفين، وكلّ منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثا)(1)

إذا عرفت هذا ــ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن الحيـاء مرتبط بكل المنازل والمقامات والمكـارم، وهـو يعطيهـا الكثـير من الجمال الذي يحفظها، ويزينهـا، ويـترفع بهـا عن السفاسـف التي قد تلحق بها.

ولهذا ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ما كان الفحش في شيء قطّ إلّا شانه، ولا كان الحيـاء في شـيء قـطّ إلّا زانه)(2)

ووضح ذلك في حديث آخـر، فقـال: (إنّ ممّـا أدرك النّـاس من كلام النّبوّة الأولى: إذا لم تستح فاصـنع مـا شـئت)(3)، وهـو يعني (إذا لم تستح من العيب ولم تخش العار ممّا تفعله فافعل ما تحدّثك به نفسك من أغراضها حسـنا كـان أو قبيحـا، ولفظـه أمر، ومعناه توبيخ وتهديد، وفيه إشعار بأنّ الـذّي يـردع الإنسـان عن مواقعة السّوء هـو الحيـاء، فـإذا انخلـع منـه كـان كالمـأمور بارتكاب كلّ ضلالة، وتعاطي كلّ سيّئة)(4)

1() الداء والدواء(131 ـ 133)

2() الترمذي(1974) وابن ماجه(4185)

3() البخاري [فتح الباري]، 10(6120)

4() النهاية(5/ 471)

ولهذا كـان من صـفات الكمـال، الـتي لا يتحلى بهـا إلا من كملت نفسه، وتنزهت وتهذبت عن السفاسف، بل إن رسو الله ﷺ أخبر أنه من صفات الله تعالى، فقال: (إنّ ربّكم حـييّ كـريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليـه يـدعوه أن يردّهمـا صـفرا، ليس فيهما شيء)(1)

وأخـبر عن حب اللـه لـه، ففي الحـديث أنـه قـال لبعض أصحابه: (إنّ فيك خلّتين يحبّهما الله عزّ وجـلّ.. الحلم والحيـاء) (2)

ولهـذا كـان رسـول اللـه ، وهـو معـدن الأدب وإكسـيره، وشمس الأخلاق الطيبة ونورها، مشهورا بالحياء، معروفا به عند كل من صحبه ورآه، وقد قال أبـو سـعيد الخـدري يصـفه: (كـان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، وكـان إذا كـره شيئا عرفناه في وجهه)(3)

وعن أنس قال: (كان رسول الله ﷺ قـل مـا يواجـه الرجـل بشئ يكرهه، فدخل عليه يوما رجل وعليه أثر صفرة، فلما قــام قال لأصحابه: لو غير، أو نزع هذه الصفرة) (4)

وعن عائشة قالت: كان رسول اللـه ﷺ إذا بلغـه عن رجـل شيئا لم يقل له: قلت: كذا وكذا قال: (ما بال أقوام يقولون كذا وكذا)(5)

1() رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه والبيهقي في الدعوات، والحاكم.

2() رواه أحمد، وابن ماحه.

3() رواه البخاري ومسلم.

4() رواه أحمد وأبو داود، والبخاري في الأدب.

5() رواه أبو داود.

وعن سهل بن سعد قال: كان رسول الله ﷺ حييا لا يسأل عن شئ إلا أعطى(1).

وعن هند بن أبي هالة قال: كان رسول الله ﷺ خافض الطرف، جل نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة(2).

وعن عائشة قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئا فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخطب، فحمد الله تعالى، ثم قال: (ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله تعالى، وأشدهم له خشية)(3)

وكل هذه الأحاديث وغيرها يشهد لها قوله تعالى في وصف حياء رسول الله ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: 53]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن حقيقة الحياء، تجعله مرتبطا بكل الأعمال الظاهرة والباطنة، ولهذا ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (استحيوا من الله حقّ الحياء)، فقيل له: يا رسول الله إنّا نستحيي والحمد لله، قال: (ليس ذاك، ولكنّ الاستحياء من الله حقّ الحياء: أن تحفظ الرّأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدّنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا

(1) رواه عبد بن حميد، وأبو الشيخ.

(2) رواه البيهقي.

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد.

من الله حقّ الحياء)[1]

ويروى عن الإمام الصادق أنه قال: (الحياء خمسة أنواع: حياء ذنب، وحياء تقصير، وحياء كرامة، وحياء حب، وحياء هيبة، لكل واحد من ذلك أهل ولأهله مرتبة على حدة)[2]

وقسم بعض الحكماء الحياء إلى عشرة أنواع، وهي: (حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استحقار النّفس واستصغارها، وحياء محبّة، وحياء عبوديّة، وحياء شرف وعزّة، وحياء المستحيي من نفسه) [3]

ثم فسرها، فقال: (أما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السّلام لمّا فرّ هاربا في الجنّة. قال الله تعالى: (أ فرارا منّي يا آدم؟) قال: لا يا ربّ. بل حياء منك.. وحياء التّقصير: كحياء الملائكة الّذين يسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك.. وحياء الإجلال: وهو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربّه يكون حياؤه منه.. وحياء الكرم: كحياء النّبيّ ﷺ من القوم الّذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطوّلوا الجلوس عنده، فقام واستحيى أن يقول لهم: انصرفوا.. وحياء الاستحقار، واستصغار النّفس كحياء العبد من ربّه عزّ وجلّ حين يسأله حوائجه، احتقارا لشأن نفسه، واستصغارا لها.. وأمّا حياء المحبّة: فهو حياء المحبّ من محبوبه، حتّى إنّه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحسّ به في وجهه ولا يدري ما سببه.. وأمّا حياء العبوديّة: فهو حياء ممتزج من محبّة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديّته لمعبوده، وأنّ قدره أعلى وأجلّ منها. فعبوديّته له

1() الترمذي (2458)

2() نقلا عن: العالم الفكري للإمام جعفر الصادق، ص 317.

3() مدارج السالكين (2/ 251)

تـوجب استحياءه منـه لا محالـة.. وأمّـا حيـاء الشّـرف والعـزّة: فحياء النّفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هـو دون قـدرها من بذل أو عطاء أو إحسان. فإنّه يستحيي مع بذله حياء شـرف نفس وعزّة.. وأمّا حيـاء المـرء من نفسـه: فهـو حيـاء النّفـوس الشّريفة العزيزة الرّفيعة من رضاها لنفسها بـالنّقص، وقناعتهـا بالدّون. فيجد نفسه مستحييا من نفسه، حتّى كـأنّ لـه نفسـين، يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكـون من الحيـاء. فإنّ العبد إذا استحيى من نفسـه فهـو بـأن يسـتحيي من غـيره أجدر)(1)

وذكر آخر بعض أنواع الحياء، فقال: (الحياء: هو تعظيم الله عـز وجـل بـدوام ذكـره، والـتزام أمـره ونهيـه، والإمسـاك عن الشكوى إلى غيره. فلا يتسخط فيما يضاد الطباع مما تجري بـه الأحكام، ولا ينبسط في تضييع الحرمات وتبذير الأوقات)(2)

وقال آخر: (الحياء: هـو جلبـاب الجمـال يمنـع الإنسـان من تعدي الحدود التي تعارف على وجودها الناس)(3)

وأما درجات الحياء، فهي ــ مثـل سـائر المنـازل ــ تختلـف بحسب المرتبة الـتي يـترقى فيهـا السـالك في عـالم المعرفـة؛ فكلما كانت معرفته أعظم كان حياؤه أشـد، وقـد قـال بعضـهم معـبرا عن مجـامع تلـك الـدرجات: (الحيـاء على ثلاث درجـات: الدرجـة الأولى: حيـاء يتولـد من علم العبـد، بنظـر الحـق إليـه فيجذبـه إلى تحمـل المجاهـدة، ويحملـه على اسـتقباح الجنايـة، ويسكته عن الشكوى.. الدرجة الثانية: حياء يتولد من النظر في علم القرب، فيدعوه إلى ركوب المحبـة، ويربطـه بـروح الأنس،

1() مدارج السالكين(2/ 272) بتصرف.

2() ميزاب الرحمة الربانية في التربية بالطريقة التيجانية، ص 131.

3() محمد غازي عرابي، النصوص في مصطلحات التصوف، ص 105.

ويكره إليه ملابسة الخلق.. لدرجة الثالثة: حياء يتولد من شــهود الحضرة، وهي التي تشوبها هيبة، ولا تقاويهــا تفرقــة، ولا يوقـف لها غاية)[1]

وقال آخر: (الحياء على ثلاثة أقسام هي: حياء العـام: وهـو من التقصير.. حياء الخاص: وهو من الإســراف.. وحيـاء الأخص: وهو من الجلال)[2]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن تتحلى بهــذا الخلــق العظيم، لتــنزل منــازل المقــربين المكــرمين؛ فلا يــنزل منــازلهم إلا من كـان حييــا مؤدبــا مهـذبا صاحب خلق رفيع.

1()منازل السائرين، ص 54، 55

2()جامع الأصول في الأولياء، ج 1 ص 201.

السكون والسكينة

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ـ تسألني عن السكون والسكينة النفسية التي تملأ نفوس الصالحين، ولو في أحلك الظروف وأشدها، وعن منابعها، ودرجاتها.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن السكون والسكينة من نعم الله تعالى المفاضة على خلقه جميعا، ولذلك ترى الكون ممتلئا بالاستقرار والنظام والهدوء مع كونه في ذاته مليئا بكل أنواع الحركات.. فالحركة لا تنافي السكون، وإنما تنافي الاضطراب والقلق والانزعاج وغيرها.

وبما أن الصالحين مندمجين مع الكون جميعا في عبوديته وسجوده وقنوته لله؛ فإن تلك السكينة تتنزل عليهم كما تتنزل على كل شيء.. ذلك أنها مرتبطة بالخضوع لله ومد اليد إليه، فمن فعل ذلك، وتحقق منه، حظي لا محالة بالهدوء والسكون والسكينة والطمأنينة.

أما من خالف ذلك، وراح يسكن إلى أشياء أخرى؛ فإنه يصاب بالاضطراب، لكونه مد يده للمضطرب والمتزلزل والمتحرك، ولا يمكن لمن أمسك بالمتزلزل ألا يتزلزل معه.

ولهذا يخبر الله تعالى في القرآن الكريم عن كون السكينة جزاء لمن وفر لنفسه القابلية لذلك، كما قال تعالى عن المؤمنين في بعض مواضع الاضطراب التي تعرضوا لها: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: 26]

وهذا يعني أن المؤمنين لم تصبهم تلك الحمية ولا العصبية

التي أصابت الجاهلين، وإنما كانوا هـادئين مطمئـنين، وذلـك مـا جعلهم يقررون القرارات الصحيحة، ولا يخضعون لأي اسـتفزاز، وهو ما وفر لهم النصر القـريب، بخلاف مـا لـو اسـتجابوا لتلـك الحمية الجاهلية.

وهــذا يــدل على أن الســكون والســكينة الــتي تملأ قلب صاحبها هي التي تحميـه من فـورة الغضـب والعصـبية والجهـل، والتي تجعله يخرج عن طوره، وقد يخرج عن إنسانيته.

ومثل ذلك ذكـر اللـه تعـالى دور السـكينة في الحمايـة من الخــوف، وملأ القلب بالثبـات، ولـو في أحلـك الظـروف، قـال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّـكِينَةَ فِي قُلُـوبِ الْمُـؤْمِنِينَ لِيَـزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًـا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: 4]

وقـال ــ مشـيرا إلى الاسـتعداد النفسـي للمؤمـنين لتلقي السكينة ــ: ﴿ لَقَـدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَنِ الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَـكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: 18]

ففي قوله تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُـوبِهِمْ ﴾، دليـل على أن السكينة التي ينزلها الله تعالى قلوب الصالحين من عبــاده، هي الــتي تحميهم من ذلــك التقلب والاضــطراب الــذي هــو من خصائص القلوب.

ومثل ذلك ذكر الله تعالى تنزل السكينة على رسـول اللـه ﷺ في الغار، وفي أشـد المواضـع خطـرا، ولم يـذكرها لصـاحبه الذي كان بجانبه، باعتبارها مرتبطة بالاستعداد والقابليـة، والـتي لم تكن حينها متوفرة في ذلك الصاحب، ولهذا قـال لـه رسـول الله ﷺ: ﴿ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَـا﴾ [التوبـة: 40]، ثم عقب اللـه

تعالى على ذلك بقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَيْـهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُـودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 40]

ومثل ذلك ذكر أن جيش المسلمين انهزم في غزوة حـنين بسـبب الاضـطراب الـذي حصـل لـه، لكنـه بعـد سـكونه وتـنزل السكينة عليه، بتوفر قابليته لـذلك، تحـولت الهزيمـة إلى نصـر، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِـيرَةٍ وَيَـوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُـؤْمِنِينَ وَأَنْـزَلَ جُنُـودًا لَمْ تَرَوْهَـا وَعَـذَّبَ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 25، 26]

والآية واضحة في أن النصـر في الحقيقـة لم يحصـل لكـل الجيش، وإنما كان للمؤمنين فقـط، أولئـك الـذين تـنزلت عليهم السكينة، والتي جعلتهم أهلا للمدد الإلهي.

وهكـذا يخـبر القـرآن الكـريم على أن الانتصـار في كـل المعارك يحتاج إلى السكينة، ولهذا عندما طلب بنو إسـرائيل أن يخرجـوا من ضـعفهم وذلهم، نـزلت عليهم السـكينة.. والـتي لم يسـتقبلها منهم إلا أولئـك الـذين ثبتـوا مـع طـالوت.. ومـع ذلـك تحقـق النصـر، لأن فضـل اللـه تعـالى يـأبى أن يشـترط تحقـق السكينة في الجميع، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِـهِ أَنْ يَـأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيـهِ سَـكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَـرَكَ آلُ مُوسَـى وَآلُ هَـارُونَ تَحْمِلُـهُ الْمَلَائِكَـةُ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 248]

ولا نحب أن نخوض هنا في السكينة التي تنزلت على بـني إسرائيل وحقيقتها، وصورتها، لأنها هي نفس السكينة المـذكورة في القرآن الكريم جميعا.. لكن معناها وارتباطها بالتابوت، يعني أن بني إسرائيل عندما شاهدوا التـابوت عـادت إليهم ثقتهم في

ربهم، وبعودة تلك الثقة تنزلت السكينة.

ولذلك فإن السكينة قد ترتبط بأي شيء.. لا لكون ذلك الشيء هو الذي سببها، وإنما لكونه ذكر صاحبها بالحقائق التي تعينه على تنزلها.. وذلك مثل من يقع في مهلك من المهالك، فيضطرب ويقلق، لكنه بمجرد أن يرى المنقذين الذين جاءوا لإنقاذه، تعود إليه سكينته وهدوءه، ثم يسلم نفسه لهم.

وهكذا الأمر بالنسبة للمؤمن؛ فمعارفه بالله تعالى، والتي تجعله يفوض كل شيء إليه، هي التي تحمي قلبه من الاضطراب.. لكن ذلك قد يفتر ويضعف، ويحول بين القلب وتنزل السكينة، فإذا ما ورد سبب من الأسباب أعاد المعرفة لمحلها، وصار القلب أهلا لعودة السكينة إليه.

ويشير إلى هذا ما ورد في الحديث أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ كان يقرأ سورة الكهف، وعنده فرس مربوط، فتغشّته سحابة، فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلمّا أصبح أتى النّبيّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال (تلك السّكينة تنزّلت للقرآن)[1]

أي أن المعارف القرآنية التي بثها الله تعالى في نفس القارئ هي التي جعلته أهلا لتنزل السكينة عليه.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يردد مع أصحابه في أوقات الشدة الدعوات التي تطلب من الله تعالى تنزل السكينة، فقد حدث البراء، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التّراب وقد وارى التّراب بياض بطنه وهو يقول: (لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدّقنا ولا صلّينا، فأنزل السّكينة علينا، وثبّت

1() البخاري [فتح الباري]، 9(5011)، ومسلم(795)

الأقدام إن لاقينا، إنّ الألى قد بغوا علينا، إذا أرادوا فتنة أبينا) [1]

وبناء على هذا كله؛ فإن الأوامر الواردة في النصوص المقدسة، والتي تدعو المؤمنين إلى التحلي بالسكينة، هي في الحقيقة تدعوهم إلى توفير القابلية الخاصة بها، ومن الأمثلة على ذلك قوله ﷺ: (إذا أقيمت الصّلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون، عليكم السّكينة، فما أدركتم فصلّوا، وما فاتكم فأتمّوا) [2]

وقال: (يسّروا ولا تعسّروا، وسكّنوا ولا تنفّروا)[3].

وقال: (لا تقوموا حتّى تروني وعليكم السّكينة)[4]

وعن الفضل بن عبّاس، وكان رديف رسول الله ﷺ، أنّه قال، في عشيّة عرفة وغداة جمع، للنّاس حين دفعوا: (عليكم بالسّكينة)[5]

وقد ذكر رسول الله ﷺ بعض أسباب تنزل السكينة، وهي تدل على غيرها، فقال: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلّا نزلت عليهم السّكينة، وغشيتهم الرّحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)[6]

وهكذا ورد عن أئمة الهدى تفسير السكينة بالإيمان، ذلك أنه سببها الأكبر، فقد روي عن الإمام الباقر أنه سئل عن قول

1() البخاري [فتح الباري]، 6(2836)، ومسلم(1803)

2() البخاري [فتح الباري]، 2(908)، ومسلم(602)

3() البخاري [فتح الباري]، 10(6125)، ومسلم(1734)

4() البخاري [فتح الباري]، 2(909)

5() مسلم(1282)

6() مسلم(2699)

الله عز وجـل: ﴿هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ السَّـكِينَةَ فِي قُلُـوبِ الْمُـؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَـانِهِمْ﴾ [الفتح: 4]، فقـال: هـو الايمـان، ثم سئل عن قول الله عـز وجـل ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ [المجادلة: 22]، فقال: هو الايمان[1].

وفسر الإمام الصـادق ذلـك، فقـال: (إن للقلب أذنين: روح الايمان يساره بالخير، والشـيطان يسـاره بالشـر، فأيهمـا ظهـر على صاحبه غلبه.. فإذا زنى الرجل أخرج الله منه روح الايمـان التي قال الله تبارك وتعالى فيها ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْـهُ ﴾.. فلـذلك لايزني الزاني وهو مؤمن، ولايسرق السارق وهو مـؤمن، وإنمـا أعني مادام على بطنها، فاذا توضأ وتاب كان في حال غير ذلك)[2]

وهذا يدل على أن الإيمان الكامـل الـذي لا يكتفي بالعقـل، ولا القلب، وإنمـا يمتـد إلى الجـوارح والسـلوك هـو الـذي يـوفر للمؤمن القابلية لتنزل السـكينة.. أو هي بـالتعبير القـرآني: روح جديدة للمؤمن تمكنه من ممارسة حياتـه وكـل سـلوكاته بهـدوء وطمأنينة وعقلانية.

وقد اتفـق على هـذا المعـنى كـل الحكمـاء الـذين اعتـبروا السكون والسكينة فضـلا إلهيـا يتـنزل على المحـال القابلـة لـه، ومن ذلك قول بعضهم: (من أراد أن يـزداد سـكينة فليصـل إلى المعرفة، فإن المعرفة الإلهية تـوجب السـكينة في القلب، كمـا أن القلب يوجب السكون)[3]

واعتـبر آخـر السـكينة نوعـا من البصـيرة أو قريبـة منهـا،

1() الكافى ج 2: 15.

2() قرب الاسناد: 17.

3() إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، ج 1 ص 387.

فقال: (الفرق بين البصيرة والسكينة: هو أن البصيرة مكشوفة، والسكينة مستورة)[1]

وقال آخر: (البصيرة مكشوفة، والسكينة مستورة، ألا ترى إلى قولـه: ﴿هُـوَ الَّذي أَنْـزَلَ السَّـكينَةَ في قُلـوبِ الْمُؤْمِـنينَ﴾، فبالسكينة ظهرت البصيرة، والسكينة هدايـة، والبصـيرة عنايـة، وإذا أكــرم العبــد بالســكينة يصــير المفقــود عنــده موجــوداً، والموجود مفقوداً)[2]

وهذا يدل على أن السكينة هي التي توفر البيئـة المناسـبة للبصيرة.. ذلك أنـه لا يمكن لمن يريـد مشـاهدة الحقـائق بـرأي العين أن يكون مضطربا، فهو يحول بينه وبين الرؤية الصحيحة.

وهكــذا ترتبــط الســكينة بــاليقين، كمــا قــال بعضــهم: (السكينة.. هي نور اليقين، يسلكون بـه إلى عين اليقين. ونفس اليقين هي التي تدل على الحقائق، وهي حق اليقين)[3]

وقــال آخــر: (الســكينة طمأنينــة القلب بموعــود اللــه وتصديقه)[4]

وقال آخر: (السكينة نور يقذف في القلب يبصر بها مواقـع الصواب)[5]

وقال آخر: (السكينة هي نور يقذفه الله في قلوب أوليائـه،

1() بولس نويا اليسوعي، نصوص صوفية غير منشورة، ص 66.

2() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 1299.

3() أبو عبد الرحمن السلمي، زيادات حقائق التفسير، ص 178.

4() أبو عبد الرحمن السلمي، زيادات حقائق التفسير، ص 51.

5() بولس نويا اليسوعي، نصوص صوفية غير منشورة، ص 146.

لتسكن به نفوس أوليائه عن المعارضات)[1]

وقال آخر: (السكينة إقامته في مقام الـدنو بحسـن الأدب، ناظراً إلى الحق، مستمعاً منه، مثنيـا بـه عليـه بقولـه (التحيـات لله) والسكينة الـتي نـزلت على المؤمـنين هي سـكون قلـوبهم إلى ما يأتيهم به المصطفى من أمر ونهي ووعد ووعيد وبشـارة وحكم.. وهي سكون القلب مع الله بلا علاقـة.. وهي الطمأنينـة عند ورود القضاء.. وهي المقام مع الله بفناء الحظوظ)[2]

وقال آخر: (السكينة سكون القلب إلى ما يبدو من مجاري الأقدار.. وهي التثبت، ولا يتم التثبت إلا بالقطع عما سواه)[3]

وقال آخر: (السكينة هي مزيد الإيمان، وفيها ارتقـاء القلب إلى مقام الروح لما منح من حظ اليقين)[4]

وقال آخـر: (السـكينة مـا يجـده القلب من الطمأنيبـة عنـد تنـزل الغيب، وهي نور في القلب يسـكن إلى شـاهده، ويطمئن وهو مبادئ عين اليقين)[5]

وقـال آخــر: (الســكينة والوقــار نــور في القلب، يــوجب لصاحبه الطمأنينـة باللـه واعتمـاد العبـد عليـه، وصـرف الحـول والقوة إليه، وعدم مبالاته بغيره تعالى)[6]

1() أبو عبد الرحمن السلمي، زيادات حقائق التفسير، ص 178.

2() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 452.

3() حقائق التفسير، ص 457.

4() محمد بن أحمد البسطامي، تذكرة المريد الطالب المزيد، ص 114.

5() الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 125.

0

6() أحمد بن المبارك، الإبريز، ص 59.

وقال آخر: (السكينة هي ما يسكن إليه القلب من البصائر والحجج، فيرتقي القلب بوجودها عن حد الفكرة إلى روح اليقين، وثلج الفؤاد، فتصير العلوم ضرورية.. وهذا للخواص، فأما عوام المسلمين فالمراد منها السكون والطمأنينة واليقين)[1]

وقال آخر: (السكينة هي ثلج القلب عند جريان حكم الرب بنعت الطمأنينة، وخمود آثار البشرية بالكلية، والرضاء بالبادي من الغيب من غير معارضة اختيار.. ويقال السكينة القرار على بساط الشهود بشواهد الصحو، والتأدب بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقة وبلا تحرك عِرقٍ لمعارضة حكم)[2]

وقال آخر: (السكينة من السكون الذي هو وقار، لا الذي هو فقد الحركة، وهي في هذا الطريق: عبارة عما تجده النفس من الطمأنينة عند تنزل الغيب.. وقيل السكينة سكون النفس تحت ورود الهواجم.. وقيل السكينة كمال الطمأنينة بوعد الحق تعالى)[3]

وهي مثل سائر المنازل، تختلف باختلاف مرتبة صاحبها من السلوك، وقد قال بعضهم في مجامع درجاتها: (السكينة على ثلاث درجات: الدرجة الأولى سكينة الخشوع عند القيام بالخدمة، رعايةً، وتعظيماً، وحضوراً.. والدرجة الثانية السكينة عند المعاملة، بمحاسبة النفس، وملاطفة الخلق، ومراقبة الحق.. والدرجة الثالثة السكينة التي تُنبت الرضى بالقسم،

0

1() القشيري، تفسير لطائف الاشارات، ج 5 ص 419.

2() تفسير لطائف الاشارات، ج 2 ص 19.

3() كمال الدين القاشاني، لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 329.

وتمنع من الشطح الفاحش، وتقف صاحبها على حد الرتبة)[1]

ومثل ذلك تحـدثوا عن السـكون الـذي هـو ثمـرة من ثمـار السـكينة، فقـد قـال بعضـهم في تعريفـه: (السـكون هـو عـدم الطيش، أما عند الخصومات، وأما عند الحروب الـتي يـذب بهـا عن الحريم، أو عن الشـريعة، وهي قـوة للنفس تعسـر حركتهـا في هذه الأحوال لشدتها)[2]

وقال آخر: (السكون هو عين التوكل)[3]

وقال آخر: (السكون هو هـدوء القلب، والاستبشـار بوجـود مـا سـكن إليـه، والاضـطراب والوحشـة والحـزن عنـد فقـد المسكون إليه، ومن كان على هـذا الحـال مـع غـير اللـه تعـالى وكل إلى ما سكن إليه وهلاكـه محقـق لا محالـة، ولا مطمـع لـه في درك الفلاح الكامل. ومن كان سكونه إلى الله تعالى وإنسه به دون شيء سواه وكلّه الله تعالى إلى تدبير ألوهيته واختياره، وتولاه بالعناية الأزلية ومنحه ما لا نهايـة لـه من الأحـوال العليـة والمقامات السنية والأخلاق الزكية)[4]

وذكر بعضـهم أقسـامه وأنواعـه ودواعيـه، فقـال: (سـكون الناس في الليل على أقسام: أهل الغفلة يسكنون إلى غفلتهم، وأهل المحبة يسكنون بحكم وصلتهم، وشتان بين سكون الغفلة وسكون الوصلة.. قوم يسكنون إلى أمثالهم وأشـكالهم.. وقـوم يسـكنون إلى حلاوة أعمـالهم لبسـطهم واسـتقلالهم.. وقـوم يعدمون القرار في ليلهم ونهارهم، وأولئـك أصـحاب الاشـتياق..

1() عبد الله الهروي، منازل السائرين، ص 84، 85.

2() أحمد بن محمد بن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 28، 29.

3() محمد بن أحمد البسطامي، تذكرة المريد الطالب المزيد، ص 141.

4() علي حرازم بن العربي، جواهر المعاني وبلوغ الأماني، ج 2 ص 130.

أبداً في الاحتراق)[1]

وذكر بعضهم درجاته ومجالاته، فقال: (السـكون على ثلاث مقامـات سـكون الطبـع، وسـكون العاقبـة، وسـكون الحقيقـة، فسكون الطبع: لأهل العقـل والتمـيز.. وسـكون العاقبـة: لأهـل السـلامة، وأهـل الإشـارة.. وسـكون الحقيقـة: لأهـل المعرفـة البالغين)[2]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن توفر لنفسـك الاسـتعداد الـذي يؤهلهـا لتـنزل السـكينة عليها؛ فلا يمكنك أن تعيش حياتك في الـدنيا والآخـرة بطمأنينـة وهدوء وراحة ما لم تملأ قلبك بهذا الكنز الذي أفاضـه اللـه لمن كان أهلا له.

1() القشيري، تفسير لطائف الاشارات، ج 5 ص 313.

2() محمد بن زياد العليماني، نهج الخواص إلى جناب الخاص، ص 58.

التذلل والمسكنة

كتبت إلي ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تسـألني عن التـذلل والمسـكنة، ومـا يرتبـط بهـا من الإخبـات والافتقـار والخضـوع والخشوع، وحقيقتها، ومنابعها، ودرجاتها، وسر علاقتهـا بـالنفس المطمئنة.

وجوابـا على سـؤالك الوجيـه أذكـر لـك أن الصـفات الـتي ذكرتهـا من المنـازل الضـرورية للنفس المطمئنـة، ولا يمكن أن تتحقق بطمأنينتها إلا بها..

ذلك أن النفس المطمئنة مثل التربة اللينة السهلة الطيبة، التي يمكنها أن تستقبل البذور الصالحة، لتتحول بعد سـقيها إلى حدائق غناء وثمار يانعة.. أما إن كانت صـلبة قاسـية كالحجـارة، فإنها لا يمكن أن تستقبل بذورا، ولا أن تنتج ثمارا.

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعـالى: ﴿إِنَّمَـا الصَّـدَقَاتُ لِلْفُقَـرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: 60]، فهي تشير إلى أن قـانون الصـدقات واحد؛ فكما أنه لا يعطى من مواهب الدنيا إلى من أظهـر فقـره وحاجته، فكذلك مواهب الآخرة وكمالاتها لا تعطى إلا لمن أبـدى ذلك.

وسر ذلك هو أن (الأشياء كامنة في أضدادها؛ فالعز كــامن في الذل، والغـنى في الفقـر، والقـوة في الضـعف، والعلم في الجهل) [1]، كمـا يشـير إلى ذلـك قولـه تعـالى: ﴿وَنُرِيـدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْـعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)﴾ [القصص: 5]

وقد اتفق الحكمـاء على أنـه كلمـا اتصـف العبـد بأوصـافه،

[1] إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 245.

كلمـا من اللـه تعـالى عليـه بمـا هـو أهلـه من الكـرم والجـود والفضل.. وقد قال بعضـهم في ذلـك: (تحقّـق بأوصـافك يمـدّك بأوصـافه، وتحقّـق بـذلّك يمـدّك بعزّتـه، وتحقـق بعجـزك يمـدّك بقدرته، وتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوّته)

وقـال آخـر: (من أراد أن يمـده اللـه بـالعز الـذي لا يفـنى فليتحقق بالذل لله والتواضع بين خلقه، فمن تواضـع دون قـدره رفعه الله فوق قدره، ومن أراد أن يمده اللـه بالقـدرة الخارقـة للعوائد فليتحقق بعجـزه، ويتـبرأ من حولـه وقوتـه، ومن أراد أن يمـده اللـه بـالقوة على طاعـة مـولاه ومجاهـدة نفسـه وهـواه فليتحقق بضعفه، ويسند أمره إلى سيده، فبقدر ما تعطي تأخذ، وبقدر ما تتخلق تتحقق، وبقدر ما تتحقق بوصفك يمدك بوصفه) [1]

وقال آخر مبينا قيمة الانكسار والمذلة لله تعـالى، ودورهـا في التزكية والترقية: (إن الله تعالى لا يكون عندك حتى تنكسر جملة هواك وإراداتك، فإذا انكسـرت ولم يثبت فيـك شـيء ولم يصـلح فيـك شـيء أنشـأك اللـه فجعـل فيـك إرادة فتريـد بتلـك الإرادة، فـإذا صـرت في تلـك الإرادة والمنشـأة فيـك، كسـرها الرب تعالى بوجودك فيهـا، فتكـون منكسـر القلب أبـداً، فهـو لا يزال يجدد فيك إرادة ثم يزيلها عند وجودك فيهـا، هكـذا إلى أن يبلغ الكتاب أجله فيحصل اللقاء) [2]

ولهـذا اتفقـوا على أن هـذه الحالـة النفسـية الـتي تعـتري السالك أفضل من الشعائر التعبديـة نفسـها، وقـد قـال بعضـهم في ذلك: (إن إذلال النفس لأحكام الله تعالى أفضل من الصلاة

1() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 377.

2() فتوح الغيب بهامش قلائد الجواهر للتادفي، ص 10.

والصيام) [1]

وقال آخر: (التنافس في العلو من موجبات انقطاع الألفـة، كما أن التنافس في الذل من أقوى موجبات الألفة) [2]

وقال آخر: (ما أعز الله عبداً بعز هـو أعـز لـه من أن يدلـه على ذل نفسه، وما أذل الله عبداً بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه) [3]

بل إنهم يعتبرون المعصية المصحوبة بالتذلل والانكسار لله تعالى خير من الطاعة المصـحوبة بـالعز والاسـتكبار، وقـد عـبر بعضهم عن ذلـك، فقـال: (معصـية أورثت ذلاً وافتقـاراً خـير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً)

ولكل هذا ما يدل عليه من النصـوص المقدسـة، فقـد كـان من دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين) [4]

ويصف الإمام الحسين كيفية دعاء رسول الله ﷺ، فيقـول: (كان رسول اللـه ﷺ يرفـع يديـه إذا ابتهـل ودعـا كمـا يسـتطعم المسكين)[5]

ويروى أنه كان ﷺ (ليلة بدر قائمـاً يصـلّي ويبكي ويسـتعبر ويخشع ويخضع كاستطعام المسكين، ويقول: اللهم أنجز لي مـا وعـدتني، ويخـرّ سـاجداً ويخشـع في سـجوده ويُكـثر التضـرّع،

1() أسرار التوحيد في مقامات أبو سعيد، ص 276.

2() عبد القادر أحمد عطا، التصوف الإسلامي يبن الأصالة والاقتباس، ص 199.

3() الرسالة القشيرية، ص 83.

4() رواه ابن المبارك والترمذي.

5() أمالي الطوسي ص22.

فـأوحى اللـه إليـه: (قـد أنجزنـا وعـدك.. فعلينـا فتوكّـل، وعليـه فاعتمد، فأنا خير من تُوكِّل عليه، وهو أفضل من اعتُمد عليه)[1]

وحـدث بعضـهم عن موقـف من مواقـف الإمـام السـجاد، فقال: (دخلت الحِجْر في الليل فإذا علي بن الحسـين قـد دخـل فقام يصلي، فصلى ما شاء اللـه ثم سـجد، فقلت: رجـلٌ صـالحٌ من أهل بيت الخـير، لأسـتمعن إلى دعائـه، فسـمعته يقـول في سـجوده: (عبيـدك بفنائـك، مسـكينك بفنائـك، فقـيرك بفنائـك، سائلك بفنائك)، قـال طـاووس: (فمـا دعـوت بهن في كـرب إلا فُرّج عني)[2]

وبنـاء على هـذا وغـيره اتفـق الحكمـاء على أن المسـكنة شـرط من شـروط التزكيـة والترقيـة، وقـد قـال بعضـهم في تعريفها: (المساكين هم أهل السكون مع الله، والرجوع في كل الأحوال إليه)[3]

وقال آخر: (المسكين هو من لا يرضى بغـير مـولاه، لا إلى الــدنيا يلتفت، ولا بــالآخرة يشــتغل، ولا بغــير مــولاه يكتفي.. والمسكين هـو الـذي أسـكنه حالـه ببـاب مقصـوده لا يـبرح عن سُدَّته، فهو معتكف بقلبه لا يغفل لحظة عن ربه)[4]

وقال آخر: (المسكين هو السر، لقـرب انقيـاده تحت حكم الروح وذلته تحت عزته)[5]

1() كنز الكراجكي ص136.

2() بحار الأنوار: 46/76، والإرشاد ص272.

3() زيادات حقائق التفسير، ص 21..

4()تفسير لطائف الإشارات، ج 2 ص 38.

5() تفسير روح البيان، ج 10 ص 266.

وقال آخر: (المسكين: هو عين المسلم المفوض أمره إلى الله عن غير اختيار منه، بل الكشف أعطاه ذلك، ولهذا ألحقناه بالميت. فالمسكين كالأرض التي جعلها الله لنا ذلولاً، فمن ذل ذلة ذاتية تحت عز كل عزيز كان من كان، فذلك المسكين)[1]

ومن المفردات التي ورد التعبير فيها عن هذا المعنى في القرآن الكريم [الإخبات]، وهي تدل على (الرقة والخشية والخشوع في القلب وطول التفكر وطول الصمت، وهذا من نتائج الإيمان)[2]

كما أنها تدل ـ كما يذكر بعض الحكماء ـ على (التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار)[3]

وعلى (استئناس الطبع المستوحش من شواهد الحق للتواضع المخلص من شوائب العلل)[4]

وعلى(استغراق النفس الطبيعية باللذة في محض العبودية.. وأنها اقتطاف الثمر الإيماني على بساط السكينة)[5]

وقد ورد الثناء على أهلها في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الحج: 34، 35]

وقد قال الإمام الصادق تعليقا عليها: (بشر من أطاعني،

1()الفتوحات المكية، ج1 ص 563.

2()سهل بن عبد الله التستري، تفسير القرآن العظيم، ص 101

3()تفسير لطائف الإشارات، ج 2 ص 130.

4()محمد بن وفا الشاذلي، الباعث على الخلاص في أحوال الخواص، ص 4.

5() الباعث على الخلاص في أحوال الخواص، ص 4.

ثم خافني في طاعته وتواضع لأجلي.. وبشر من اضـطرب قلبـه شـوقاً إلى لقـائي.. وبشــر من ذكــرني بالنـــزول في جــواري.. وبشــر من دمعت عينـاه خوفـاً لهجـري.. وبشـرهم أن رحمـتي سبقت غضبي)[1]

وهذا يشير إلى أن الإخبات هـو السـبب في تلـك الصـفات التي عقبت ذكرهم، فجعلت الوجل يصيب قلوبهم، وجعلتهم من الصـابرين والمقيمي الصـلاة، والمنفقين في سـبيل اللـه.. وهـو علامــة على أن المســكنة الــتي امتلأت بهـا قلــوبهم هي الــتي تحولت إلى ذلك السلوك العملي الممتلئ بكل أنواع الجمال.

ومن الآيـات الـواردة في الثنـاء عليهم قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُـوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْـحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَـــا خَالِـــدُونَ ﴾ [هـــود: 23]، وهي تشـــير إلى أن الإخبـات درجـة رفيعـة بعـد العمـل الصـالح.. وكأنهـا تـذكر أن التفاعل الظاهري والباطني مع العمـل الصـالح يكسـب صـاحبه الإخبات.

وورد في آية أخرى اعتبار الإخبات سببا في الإيمان بـالحق والإذعان له، قال تعـالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُـوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 54]

وهي تشير إلى أن الهداية الإلهية بمراتبها المختلفة لا تحل إلا في القلوب المخبتة، وبقدر إخباتها وتـذللها وتواضـعها تتـنزل المواهب عليها.

ولهذا كان من دعاء رسول اللـه ﷺ سـؤاله اللـه أن يرزقـه الإخبات، ففي الحديث: كـان النّـبيّ ﷺ يـدعو يقـول: (ربّ أعنّي

[1] أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 878.

ولا تعن عليّ، وانصــرني ولا تنصــر عليّ، وامكــر لي ولا تمكــر عليّ، واهدني ويسّــر الهـدى لي، وانصـرني على من بغى عليّ، ربّ اجعلني لك شكّارا، لك ذكّارا، لك رهّابـا، لـك مطواعـا، لـك مخبتا، إليك أوّاها منيبا، ربّ تقبّل توبتي، واغسل حوبـتي، وأجب دعوتي، وثبّت حجّتي، وسدّد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري)[1]

وسؤال رسول الله ﷺ أن يرزقـه اللـه الإخبـات دليـل على درجاته اللامتناهية، مثل كل منازل النفس المطمئنة، ولهذا ذكـر الحكماء مجامع درجات الإخبات، والتي عبر عنها بعضهم بقولـه: (الإخبــات على ثلاث درجــات: الدرجـــة الأولى: أن تســتغرق العصـمة الشـهوة، وتسـتدرك الإرادة الغفلـة، ويسـتهوى الطلب السلوة.. والدرجة الثانية: أن لا ينقص إرادته سـبب، ولا يـوحش قلبه عارض، ولا تقطع عليه الطريق فتنةٌ.. والدرجـة الثالثـة: أن يستوي عنـد المـدح والـذم، وتـدوم لائمتـه لنفسـه، ويعمـل عن نقصان الخلق عن درجته)[2]

وهي تدل على الثمار العظيمة التي ينالها المخبت في كـل درجة من الدرجات.. وقد عبر الإمام الصادق عن بعضها، فقـال: (المخبت: الذي لا يظلم، وإن ظلم لا ينتصر)[3]

وعبر بعض الحكماء عنها، فقـال: (المخبت: هـو الـذي امتلأ قلبه من المحبة والرضا، وقصر طرفـه عمـا دونـه.. وهـو الـذي شغله بمولاه عن كل شيء سواه)[4]

1() الترمذي(3551)، وابن ماجة(3830)

2()منازل السائرين، ص 29، 30.

3()زيادات حقائق التفسير، ص 99.

4() نصوص صوفية غير منشورة، لشقيق البلخي، ابن عطاء الادمي، النفري، ص 98.

وقال آخر: (المخبتون هم الـذين امتلأت قلـوبهم من محبـة الله، وجلّت عما دونه، كـالغريق تشـغله نفسـه عن كـل شـيء، كذلك المخبت يشغله حاله عن كل شيء)[5]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن تنزل هذه المنزلة الرفيعة، والـتي تجعـل نفسـك ذليلـة للحق، ساكنة مستسـلمة لـه، مـادة يـديها إليـه بـالفقر والفاقـة والمسكنة.. فلن تنال المواهب إلا بذلك.

واعلم أنك لن تنال عزتك إلا بـذلتك لربـك، ومسـكنتك بين يديه.. فالمستكبرون أبعد الخلـق عن اللـه، ولـذلك يـتربص بهم الـذل من كـل النـواحي.. بخلاف المتـذللين للـه، والـذين تتـنزل عليهم العزة من كل الجهات، كما قـال تعـالى: ﴿مَنْ كَـانَ يُرِيـدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10]

---

(5) زيادات حقائق التفسير، ص 99.

الخشية والشفقة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الخشية والشفقة التي ورد وصف المؤمنين بهما في القرآن الكريم، وعن سر ارتباطهما بالنفس المطمئنة، وكيف تتحقق لها طمأنيتها بذلك.

وقد ذكرت لي أثناء سؤالك بعضا ممن يدعون العرفان ينفّرون من مثل هذه المنازل، ويسخرون من المتحدثين عنها، ويعتبرون حديثهم دليل النقص والقصور، ويتصورون أن ذلك متناف مع منازل الود التي هي منازل المقربين.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الوهم الذي وقع فيه هؤلاء الذين ذكرتهم، يكمن في تصوراتهم المرتبطة بحقيقة الخشية والشفقة، أو في الدرجات المرتبطة بهما، ولذلك لم يستطيعوا التوفيق بين منازل الحب، وهذا النوع من المنازل.. وهذا ما جعلهم يتوهمون أن الحب يقضي على الخشية والشفقة، ولم يعلموا أنهما قد يكونان من ثمار الحب.

ألا ترى كيف يجعل الحب الوالدين ممتلئين بالخشية والشفقة على أولادهما، نتيجة حبهما الشديد لهم؛ فهل نفى حبهما خوفهما؟

وهكذا؛ فإن المحب الحريص على محبوبه، يخشى أن يقع في أدنى الأخطاء التي قد توقعه في القطيعة والهجر.. ولذلك كلما ازداد حبه وقربه، كلما ازداد خوفه ووجله.

وكيف لا يحصل منه ذلك، وقد ورد في الآثار ما يدل على أن إبليس كان من العبّاد المقربين، لكنه بعدم خشيته من الله، توهم نفسه ندا لربه، فراح يعارضه، وقد قال الإمام علي يشير

إلى ذلك، وإلى الغرور الذي يؤدي إليه عدم الخشـية: (فـاعتبروا بما كان من فعل اللّه بإبليس، إذ أحبط عملـه الطّويـل، وجهـده الجهيد، وكان قد عبد اللّه ستّة آلاف سـنة، لا يـدرى أ من سـني الدّنيا، أم من سني الآخرة؟ عن كبر ساعة واحدة.. فمن ذا بعـد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته؟ كلّا، ما كان اللّـه سـبحانه ليدخل الجنّة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إنّ حكمـه في أهـل السّماء وأهل الأرض لواحـد، ومـا بين اللّـه وبين أحـد من خلقـه هوادة في إباحة حمى حرّمه على العالمين)[1]

ولذلك وصف الله تعالى العلماء بالخشية، وهـو دليـل على أن كمال علمهم ومعرفتهم هي التي جعلتهم كذلك، قال تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: 28]

وقد قال الإمام السجاد في معناها: (ما العلم بالله والعمل إلا إلفان مؤتلفان، فمن عـرف اللـه خافـه، وحثـه الخـوف على العمل بطاعة الله، وإنّ أرباب العلم وأتباعهم الذين عرفوا اللــه فعملوا له ورغبـوا إليـه، وقـد قـال اللـه: ﴿إِنَّمَـا يَخْشَـى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾)[2]

و قـال بعض الحكمـاء في سـر ذلـك: (الخشـية أخصّ من الخوف، فإنّ الخشية للعلماء باللـه تعـالى، فهي خـوف مقـرون بمعرفة.. فالخوف حركة، والخشية انجمـاع وانقبـاض وسـكون؛ فالخوف لعامّة المؤمنين، والخشـية للعلمـاء العـارفين، والهيبـة للمحبّين، والوجل للمقرّبين، وعلى قـدر العلم والمعرفـة تكـون الخشية.. فصاحب الخوف يلتجأ إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجأ إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما كمثل من لا علم له بـالطّبّ ومثـل الطّـبيب الحـاذق فـالأوّل يلتجىء إلى الحميـة

1() نهج البلاغة: خطبة 192.

2() بحار الأنوار: 67/344، والكافي 8/16.

والهرب، والطّبيب يلتجىء إلى معرفته بالأدوية والأدواء. وكلّ واحد إذا خفته هربت منه، إلّا الله، فإنّك إذا خفته هربت إليه فالخائف هارب من ربّه إلى ربّه)[1]

والعجب ممن يردد ما ذكرت من احتقار مثل هذه المنازل، وقد قال رسول الله ﷺ: (إنّي أتقاكم الله وأشدّكم له خشية)، فهل خشية رسول الله ﷺ دليل قصور، أم دليل كمال؟

وهكذا كان حال أصحاب رسول الله ﷺ المنتجبين، فقد روي أنه ﷺ بلغه شيء عن أصحابه، فخطب، فقال: (عرضت عليّ الجنّة والنّار، فلم أر كاليوم في الخير والشّرّ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا)، قال الراوي: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشدّ منه، غطّوا رؤوسهم ولهم خنين[2])[3]

ولهذا وصف الله تعالى بها، أولو الألباب، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 19 - 22]

فانظر ـ أيها المريد الصادق ـ كيف جمع الله تعالى بين هذه المنازل جميعا، وهو ما يبين عدم التنافر بينها، فالنزول في منزل من المنازل لا يعني هدم غيره، فالمكارم لا يهدم بعضها بعضا، وإنما يكمل بعضها بعضا.

1() انظر بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي(2/ـ 544 ـ 546)، ودليل الفالحين لابن علان(2/ 367)

2() خنين: صوت البكاء وهو نوع من البكاء دون الانتحاب.

3() البخاري [فتح الباري]، 8(4621)، ومسلم(2359)

لــذلك لا تلتفت لمن يصــور لــك أن الخشــية والشــفقة والخوف حجاب عن الله.. بل هي دليل كمـال المعرفـة، وهي لا تتناقض مع المحبـة، بـل قـد تكـون دليلا عليهـا؛ فلا يحـرص، ولا يخشـى، ولا يشـفق إلا من امتلأ قلبـه محبـة لمن يشـفق على ضياعه.

بل إن الله تعالى أخبر أن الخشـية والشـفقة من الوسـائل التي تدعو إلى التزكية والترقية، وتحفظ النفس من كـل حركـة سلبية قد تقع فيها بسبب الأوهـام الـتي تعـرض لهـا، والـتي قـد تملؤها بالغرور الذي وقع فيه الشيطان.

ومن ذلك قولـه تعـالى في وصـف المتقين، ودور الخشـية في تقواهم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَـانَ وَضِـيَاءً وَذِكْـرًا لِلْمُتَّقِينَ (48) الَّذِينَ يَخْشَــوْنَ رَبَّهُمْ بِــالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّــاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: 48، 49]

ومنـه ربطـه بين الخشـية وكـل الصـفات النبيلـة، وأولهمـا الاسـتعداد للتزكيـة والترقيـة، قـال تعـالى: ﴿إِنَّمَـا تُنْـذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّـلَاةَ وَمَنْ تَـزَكَّى فَإِنَّمَـا يَتَـزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: 18]

وقال عند وصفه لتأثير القرآن الكـريم في النفـوس: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُـدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]

وأخــبر أن التــذكر لا ينتفــع بــه إلا من في قلبــه الخشــية: ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَـى﴾ [الأعلى: 9، 10]، وقـال: ﴿إِنَّمَـا أَنْتَ مُنْـذِرُ مَنْ يَخْشَـاهَا ﴾ [النازعـات: 45]،

وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: 26]

وقال عند عده لأوصاف المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: 21]

وقال عند ذكره لصفات المبلغين عنه، والدعاة إليه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: 39]

وقال عند عده لصفات عمار المساجد: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18]

وقد جمع الله تعالى بين الخشية والشفقة، وبين آثارهما التربوية، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) ﴾ [المؤمنون: 57 - 59]

فهل كل هذا الثناء القرآني منصرف لأصحاب المنازل الدنية، أم أنه منصرف لأولئك الصالحين المقربين الذين تعاملوا مع الحقائق وفق ما تقتضيه من قيم.. ذلك أن لكل اسم أو صفة أو فعل إلهي تأثيره الخاص في تلك النفوس الراقية والمرايا الصافية.

وقد اتفق الحكماء على هذا، ومن ذلك قول بعضهم: (من أعطي شيئاً من المحبة، ولم يعط مثله من الخشية: فهو مخدوع) [1]

1() الرسالة القشيرية، ص 252.

وذكر آخر علاقة الخشية بالمحبـة، وكونهـا أثـرا من آثارهـا، وذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ هَـذَا مَـا تُوعَـدُونَ لِكُـلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِـالْغَيْبِ وَجَـاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 32،ــ 33]: (الخشــية من الــرحمن هي الخشــية من الفــراق، والخشية من الرحمن تكون مقرونة بالأنس، ولذلك لم يقل: من خشي الجبار ولا من خشي القهار)[1]

وقال آخر: (الشفقة - كالعشــق - موصــل إلى اللــه إلا أنــه أنفذ منه في السير وأوسع منـه مـدى، إذ هـو يوصـل إلى إسـم الله الرحيم)[2]

وقـال: (مرتبـة الشـفقة أسـطع من المحبـة بمئـة درجـة وأوسع منها وأسـمى، نعم! إن الشـفقة بجميـع أنواعهـا لطيفـة، نزيهة، أما العشق والمحبة فلا يتنازل إلى كثير من أنواعهمـا، ثم إن الشفقة واسـعة، إذ الوالـد الـذي يشـفق على أولاده يشـفق أيضاً على جميع الصغار، بل حتى على ذوي الأرواح فيـبين نوعـاً من أنوار إسم (الـرحيم) المحيـط بكـل شـيء.. ثم إن الشـفقة خالصة، لا تطلب شيئاً من المشفق عليه، فهي صـافية لا تطلب عوضـاً. والـدليل على هـذا، الشـفقة المقرونـة بالتضـحية الـتي يحملها والدات الحيوانات، والتي هي أدنى مراتب الشفقة، فهي لا تطلب مقابــل شــفقتها شـيئاً، بينمــا العشــق يطلب الأجــرة والعــوض. ومــا نــواح العاشــقين إلا نــوع من الطلب، وســؤال للأجرة)[3]

وضرب المثل على ذلك بيعقوب عليه السـلام، فقـال: (إن المشـاعر والأحاسـيس الشـديدة الـتي كـان يشـعر بهـا سـيدنا

1() تفسير لطائف الإشارات، ج 6 ص 22، 23.

2() سعيد النورسي، أنوار الحقيقة، ص 81.

3() أنوار الحقيقة، ص 28.

يعقوب تجاه سيدنا يوسف عليهما السلام ليست هي مشاعر نابعة من المحبة والعشق، وإنما هي نابعة من الشفقة، لأن الشفقة أنفذ من المحبة والعشق، وأسطع منهما وأعلى وأنزه، فهي الأليق بمقام النبوة)[1]

وقال آخر في بيان علاقة الخشية بالمعرفة الإلهية: (خير العلم ما كانت الخشية معه، وذلك لأن الخشية إنما تنشأ عن العلم بصفات الحق. فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله: الخشية، وشاهد الخشية: موافقة الأمر)[2]

وذكر آخر دور الخشية في التزكية والترقية، وفي جميع مراحل السلوك، فقال: (إن الخشية تحجز عن المعاصي والقبائح، وتدعو للمحاسن والمصالح، وفقدها ينفي ذلك لا سيما مع وجود العلم المؤيد بالتأويل، ولذلك قيل: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق.. والثاني: إن الخشية توجب التحقيق في التحصيل، والنصح في التوصيل، والإنصاف في المذاكرة، وفقدها ينفي ذلك مع غلبة الهوى، والشهوة تغطي العقل والعلم والبيان.. والثالث: إن الخشية تحمل على طلب الآخرة، وإرادة وجه الله بالعلم، في جميع وجوهه، وفقدها ينفي ذلك، وهو رأس الآفات والعلل)[3]

بعد هذا أنصحك ــ أيها المريد الصادق ــ ألا تنشغل بالتفريعات الكثيرة التي يذكرها الحكماء في هذه الأبواب، وخاصة في الفروق بين الألفاظ والمصطلحات، ذلك أن المعنى الواحد قد يُعبر عن بتعبيرات مختلفة، فلا تكن عبدا للألفاظ، فتحول بين نفسك، وبين إدراك الحقائق.

1() أنوار الحقيقة، ص 27.

2()إسماعيل حقي، تفسير روح البيان، ج 2 ص 71.

3()أحمد زروق، شرح الحكم العطائية، ص 342، 343.

ومن الأمثلة على ذلك قول بعضهم: (الخشية انكسار القلب من دوام الانتصاب بين يديه، ومن بعد هذه المرتبة: الإشفاق.. والإشفاق أرق من الخشية وألطف. والخشية أرق من الخوف، والخوف أرق من الرهبة، ولكل واحد منها صفة ومكان وأدب)

ذلك أنك لو رحت تطبق هذه الفروق على ما ورد في القرآن الكريم لأداك ذلك إلى احتقار الأولياء والصالحين الذين وصفهم الله تعالى، فقال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57]، وقال: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: 20، 21]

وقال في رواد المساجد:﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: 37]

وقال عن الرجلين الصالحين من بني إسرائيل:﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المائدة: 23]

وأخبر عن خوف الملائكة عليهم السلام من ربهم، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 49، 50]

وهذا لا يعني عدم وجود فروق لغوية، أو فروق في المعاني المرتبطة بالخشية والشفقة؛ ولكن الفروق اللفظية لا

تعني بالضرورة ارتباطها بالمعاني في كل المحال؛ فاللغـة فيهـا متسع.. فقد يعبر الشخص عن الخوف بلفظ الشفقة، وقد يعـبر عن الشفقة بلفظ الخوف، من غير تدقيق كبـير في ذلـك نتيجـة التقارب بينها.

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاحرص على أن تتخلق بهـذا الخلـق العظيم الـذي يجعلـك تمتلئ مهابـة من ربك، وتعظيما له، حتى لا يجرك الغرور والأهواء إلى ما وقع فيه من ترك الشريعة بحجة الوصول إلى الحقيقة.. فمن عـرف الحقيقة عظمها، وتأدب معها، وحـرص عليهـا، ولم يسـتهن بـأي شأن من شؤونها.

الرجاء والأمل

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الرجاء والأمل وحسن الظن بالله، وعلاقتهما بالنفس المطمئنة، وعلاقتهما بالتزكية والترقية.. وكيفية انسجامهما مع الخشية والشفقة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن المتأمل في النصوص المقدسة، وقبل ذلك في الكون والحياة، يرى المظاهر الكثيرة الدالة على الرحمة الإلهية التي تبرز في كل حرف من حروف الكون، وفي كل حدث من أحداث الحياة، حتى تلك التي قد لا تنسجم معنا في فترة من الفترات، لكننا بعد ذلك نكتشف أنها كانت في مصلحتنا.

ولذلك كان الرجاء في الله تعالى، وحسن الظن به، والأمل العظيم فيه، دليلا على المعرفة الحقيقية بالله، والتي تنسجم مع القرآن الناطق والصامت، أو مع كلمات الله التي بثها في أكوانه، وكلماته التي أنزلها على رسله.

ولهذا كان القرآن الكريم أعظم بشارة للإنسان، كما صرح بذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: 1، 2]

فالآيتان الكريمتان تعرفان القرآن الكريم بأمرين مهمين: أحدهما: الهداية والدلالة على حقائق الوجود والقيم المرتبطة بها، والثاني البشارة التي تتضمنها تلك الهداية، وهذا يعني أن البشارة مرتبطة بالهداية، ولذلك جاء بعدها وصف المؤمنين الذين يستحقون تلك البشارة بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: 3]

ثم عقبها الله تعالى بوصف الذين لم يقبلوا الهداية، وبيــان عدم استحقاقهم للبشارة، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـــالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُـــونَ (4) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُـــوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: 4، 5]

وتأملك ـ أيها المريد الصادق ـ لهـذه الآيـات الكريمـة يـبين لـك حقيقـة الرجـاء والأمـل، والموضـع المرتبـط بهمـا، حـتى لا يتحول إلى أماني كاذبة، ذلك أن الشيطان قد يغـر الإنسـان عن نفسه، فيوهمه أن الرحمة الإلهية التي اتسعت لكـل شــيء، لن يضيق بها شيء.

وهذا صحيح ولكن الخطـأ هـو عـدم إدراك تلـك الشـروط التي وضعها الله تعالى للإنسان حتى تتحقق له الرحمة بصورتها الجمالية الخاليـة من الألم، وهي الـتي عـبر عنهـا قولـه تعـالى: ﴿عَـذَابِي أُصِـيبُ بِـهِ مَنْ أَشَـاءُ وَرَحْمَتِي وَسِـعَتْ كُـلَّ شَــيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَـا يُؤْمِنُـونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًـا عِنْـدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ يَـأْمُرُهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَـائِثَ وَيَضَـعُ عَنْهُمْ إِصْـرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَـانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُـوا بِـهِ وَعَـزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُـوا النُّورَ الَّذِي أُنْـزِلَ مَعَـهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾ [الأعراف: 156، 157]

فهاتان الآيتان الكريمتان ذكرتا شروطا كثيرة للفلاح، وأخبر أن الرحمــة الإلهيــة تتحقــق لأهلهــا المهتــدين بهــديها.. أمــا من عداهم، فتتحقـق لهم رحمتهم الخاصـة بهم، وهي الرحمـة الـتي تشبه ذلك الألم الذي يصيب بـه الأسـتاذ تلميـذه الكسـول حـتى يعود إلى وعيه، بخلاف الجوائز التي يسـلمها للنجبـاء ليسـتمروا في جدهم وعملهم.

وهكذا نجد القرآن الكريم يذكر أن لمغفرة الله تعالى الناتجة عن اسمه [الغفور] محلها الخاص بها، وهو تحقق القابلية في الذي يريد أن يُغفر له، والتي عبر عنها قوله تعالى عند ذكر شروط توبة المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 145، 146]

وهذه النصوص وغيرها تدلك ـ أيها المريد الصادق ـ على كيفية الجمع بين الرجاء والخشية، والأمل والشفقة، وحسن الظن والخوف.. فلكل منها محله الخاص به، فلا تناقض بينها، ولا نفور.

فالمؤمن يرجو الله، ويحسن الظن به، ويأمل في فضله، نتيجة معرفته بأسماء لطفه ورحمته وكرمه.. وذلك ما يملؤه سرورا وسعادة وفرحا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]

لكنه في نفس الوقت عندما يتأمل في نفسه ومثالبها وعيوبها، يتذكر أن الرحمة الإلهية مرتبطة بالعدالة الإلهية.. فكلاهما اسمان من أسماء الله الحسنى، ولكليهما القابليات الخاصة به، ولذلك يختلط رجاؤه وأمله وحسن ظنه بخشيته وشفقته وخوفه.. لا لأن الله ليس رحيما، ولكن لأن النفس قد لا تستحق بعض مظاهر رحمته.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: 60ـ 61]، قد سئل رسول الله ﷺ عنها، فقيل له:

أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهـو مـع ذلـك يخـاف الله؟ قال: (لا، ولكن الرجل يصـوم ويتصـدق ويصـلي، وهـو مـع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه)[1]

والفرق بين هذا، وبين الذي يسيء الظن بالله، هـو الفـرق بين من يرى أستاذه رحيما لطيفا في غاية الأدب والرقـة.. وبين من يراه قاسيا جلفا غليظا ظالما.. فهذه الرؤية هي الـتي نهينـا عنها، لأنها تدل على معرفة مشوهة لله.

أما تلك المعرفة التي تجمع بين رؤية رحمة الأستاذ ورقتـه وحسن أخلاقه مع ضرورة الالتزام بتوجيهاتـه، والعمـل بطلباتـه، والخشية عند التفريط أو التقصير فيها؛ فهـذا هـو الكمـال، وهـو حســن الظن الحقيقي باللــه.. ذلــك أن المعرفــة باللــه كمــا تستدعي معرفة رحمته ولطفه، تستدعي معرفة عدالته وقهـره للظالمين من عباده، كما أخبر عن نفسه بذلك.

هـذا جـوابي عن كيفيـة الجمـع بين الرجـاء والخـوف، وبين حسن الظن بالله والخشية منه.. أما عن دور حسن الظن باللـه والأمل فيـه في التزكيـة والترقيـة، فيـدل على ذلـك كـل شـيء ابتـداء من الواقـع.. فالـذي ينظـر إلى أسـتاذه باعتبـاره ظالمـا قاسـيا متجـبرا، ليس لـه من هم سـوى إلحـاق الضـرر بـه، لن يسعى في تكميـل نفسـه بـالعلم والأدب، وكيـف يسـعى لـذلك، وهو لا يثق في أستاذه، بخلاف الذي ينظر إليـه باعتبـاره رحيمـا لطيفـا، فـإن ذلـك وحـده يكـون كافيـا لتشـجيعه لكـل الأعمـال الصالحة، حـتى لـو لم يكافئـه عليهـا مكافـأة ماديـة؛ فيكفيـه أن يحسن صورته عنده.

وهذا ما يشير إليه قوله تعـالى: ﴿ وَلَا تَيْأَسُـوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْـأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَـوْمُ الْكَـافِرُونَ﴾ [يوسـف: 87]،

[1] رواه أحمد والترمذي وابن ماجة.

حيث اعتبر اليأس دليلا على الكفـر والجحـود.. ذلـك أن اليـائس كافر بكل صفات الرحمة واللطف الإلهي.

ولهذا ترد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة التي تبين سعة الرحمة الإلهية، وتحدد أهلها وشروطها، ومن ذلك قولـه تعـالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]

وقد جاء بعدها من الآيات ما يوضح شـروط تلـك المغفـرة الـتي وعـد اللـه تعـالى بهـا، حيث قـال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: 54 - 56]

وللأسـف، فـإن الكثـير ممن يـدعو إلى الرجـاء الكـاذب، ويتوهم أن الورع وسوسة، والتقـوى تطرفـا، يكتفي بالآيـة الـتي تدعو إلى عدم القنوط من رحمة الله، وتعد بالمغفرة الشـاملة، دون أن يقرأ الآيات التي تلتها، والتي تبين شروط تلك المغفرة.

وممـا يقـرب لـك هـذا المعـنى ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ مطالعتـك لمـا روي من دعـاء الإمـام الحسـين في يـوم عرفـة، والذي جمع فيه بين الأمرين، فقال: (أنا الذي أسـأت، أنـا الـذي أخطأت، أنا الذي هممت، أنا الـذي جهلت، أنـا الـذي غفلت، أنـا الذي سهوت، أنـا الـذي اعتمـدت، أنـا الـذي تعمـدت، أنـا الـذي وعدت، أنا الذي أخلفت، أنا الذي نكثت، أنا الذي أقررت)

وفي نفس الـوقت قـال عن ربـه: (أنت الـذي أنعمت، أنت

الذي أحسنت، أنت الذي أجملت، أنت الذي أفضلت أنت الذي مننت، أنت الذي أكملت، أنت الذي رزقت، أنت الذي أعطيت، أنت الذي أغنيت، أنت الذي أقنيت، أنت الذي أويت، أنت الذي كفيت، أنت الذي هديت، أنت الذي عصمت، أنت الذي سترت، أنت الذي غفرت، أنت الذي أقلت، أنت الذي مكّنت، أنت الذي أعززت، أنت الذي أعنت، أنت الذي عضدت، أنت الذي أيّدت، أنت الذي نصرت، أنت الذي شفيت، أنت الذي عافيت، أنت الذي أكرمت، تباركت ربي وتعاليت، فلك الحمد دائما، ولك الشكر واصبا)(1)

وعلى هذا المعنى الذي دل عليه العقل والمصادر المقدسة، حذر أئمة الهدى من ظاهرة الإرجاء التي أرادت تحريف القيم الربانية التي دعا إليها رسول الله ﷺ مستغلة في ذلك الدعوة إلى حسن الظن بالله ورجائه، ولو من غير عمل، كما قال تعالى في وصف ما حصل للأديان السابقة: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169]

ومن أشد تلك التحذيرات ردود الإمام علي، فأكثر خطبه وحكمه تحذر من هذه الظاهرة، وتبين خطرها، ومن ذلك قوله لمدّع كاذب يرجو الله: (يدّعي أنه يرجو الله، كذب والله العظيم، ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله، وكل من رجا عرف رجاؤه في عمله إلا رجاء الله، فإنه مدخول، وكل خوف محقق إلا خوف الله فإنه معلول، يرجو الله في الكبير، ويرجو العباد في الصغير، فيعطي العبد ما لا يعطي الرب، فما بال الله جل

(1) البلد الامين ص 251.

ثناؤه يقصر به عما يصنع لعباده، ألا تخاف أن تكـون في رجائـك له كاذبا، أو تكون لا تراه للرجـاء موضـعا، وكـذلك إن هـو خـاف عبدا من عبيده أعطاه من خوفه ما لا يعطي ربه، فجعـل خوفـه من العباد نقدا وخوفه من خالقه ضمارا ووعدا)(1)

وقال في الجمع بين الرجاء والخوف: (يـا بـني.. خـف اللـه خوفا أنّك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يقبلها منك، وارج الله رجاء أنّك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك)(2)

وقـال في الجمـع بين حسـن الظن باللـه والخـوف: (إن استطعتم أن يحسن ظنكم بالله، ويشتد خوفكم منـه، فـاجمعوا بينهما، فإنما يكون حسن ظن العبد بربه على قـدر خوفـه منـه، وإنّ أحسن الناس بالله ظنّاً لأشدّهم منه خوفاً)(3)

وهكذا روي عن الإمام السـجاد الكثـير من الروايـات الـتي تدل على الجمع بين الخشية والرجـاء، وفي أدعيتـه نـرى كثـيرا جمعـه بينهمـا، وقـد قـال في ذلـك: (مـا العلم باللـه والعمـل إلا إلفان مؤتلفان، فمن عرف الله خافه، وحثه الخوف على العمل بطاعة الله، وإنّ أرباب العلم وأتباعهم الذين عرفوا الله فعملوا له ورغبوا إليه)(4)

وقال الإمام الباقر في اعتدال الخـوف والرجـاء، ودورهمـا في التزكيـة والترقيـة: (أنـه ليس من عبـد مـؤمن إلا في قلبـه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هـذا، ولـو

1() نهج البلاغة، رقم 158.

2() بحار الأنوار: 67/394، وروضة الواعظين.

3() بحار الأنوار: 67/399، وعدة الداعي.

4() الكافي 8/16.

وزن هذا لم يزد على هذا)(1)

وروي عن الإمام الصادق أنه سئل: (إنّ قوما من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون: نرجو، فقال: (كذبوا ليسوا لنا بموال، أولئك قوم ترجّحت بهم الأماني، من رجا شيئا عمل له، ومن خاف من شيء هرب منه)(2)

وقال مخاطبا بعض أصحابه: (خف الله كأنك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية، فقد جعلته من أهون الناظرين عليك)(3)

وقال: (الخوف رقيب القلب، والرجاء شفيع النفس. ومن كان بالله عارفاً كان [من] أمر الله خائفاً وإليه راجياً. وهما جناحا الإيمان يطير بهما العبد إلى رضوان الله، وعينا عقله يبصر بهما إلى وعد الله ووعيده. وللخوف طالع عدل الله باتقاء وعيده. والرجاء داعي فضل الله وهو يحيي القلب، والخوف يميت النفس. قال رسول الله: (المؤمن بين خوفين: خوف ما مضى، وخوف ما بقي)، وبموت النفس يكون حياة القلب، وبحياة القلب يكون البلوغ إلى الاستقامة. ومن عبد الله على ميزان الخوف والرجاء لا يضل، ويصل إلى ما هو له. وكيف لا يخاف العبد، وهو غير عالم بما يختم صحيفته، ولا له عمل يتوسل به استحقاقاً، ولا قدرة له على شيء ولا مفر. وكيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز، وهو غريق في بحر آلاء الله ونعمائه، من حيث لا تحصى ولا تعد. والمحب يعبد ربه على

1()الكافي 2/67.

2() الكافي 2/68.

3() الكافي 2/67.

الرجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر، والزاهد يعبـد على الخـوف)(1)

وقال عن وصية لقمان عليه السلام: (كان فيها الأعــاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله عزّ وجلّ خيفــة لو جئتـه بـبرّ الثقلين لعـذبك، وارج اللـه رجـاء لـو جئتـه بـذنوب الثقلين لرحمك)(2)

وسـئل عن قـول اللـه عـزّ وجـلّ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُـونَ مَـا آتَـوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60]، فقال: (هي إشفاقهم ورجاؤهم، يخافون أن تردّ عليهم أعمــالهم إن لم يطيعوا الله عز ذكره، ويرجون أن تقبل منهم)(3)

وعلى هذا المعنى اتفق جميع الحكمـاء، وقـد قـال بعضـهم معبرا عن ذلك: (ينبغي أن يكون الخوف والرجاء كلاهما كـاملين في النفس ولا تنـافي بينهمـا، فـإنّ ملاحظـة سـعة رحمـة اللـه وغنائه وجـوده ولطفـه على عبـاده سـبب الرجـاء، والنظـر إلى شدة بأس الله وبطشه ومـا أوعـد العاصـين من عبـاده مـوجب للخوف، مع أنّ أسباب الخوف ترجع إلى نقص العبـد وتقصـيره، وســوء أعمالــه وقصــوره عن الوصــول إلى مــراتب القــرب والوصـال، وانهماكـه فيمـا يـوجب الخسـران والوبـال، وأسـباب الرجاء تؤول إلى لطـف اللـه ورحمتـه وعفـوه وغفرانـه ووفـور إحسانه، وكل منهما في أعلى مدارج الكمال)(4)

وفسر ذلك، فقال: (الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هــو

1() مصباح الشريعة، ص ١٨٠.

2() الكافي 2/67.

3() الكافي 8/229.

4() بحار الأنوار (70/ 352)

محبوب، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سـبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه، فاسم الرجـاء عليـه صادق، وإن كان ذلك انتظارا مع عدم تهيئ أسبابه واضــطرابها، فاسم الغـرور والحمـق عليـه أصـدق من اسـم الرجـاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء، فاسم التمـني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب)

وشبه آخر ذلك بعمـل الفلاح الـذي يبـذل جهـده في تنقيـة الأرض وبذر البذور، ثم ينتظر فضل اللـه تعـالى بـإنزال المطـر، فهذا هـو الرجـاء الحقيقي، وهكـذا الأعمـال، فـ (الـدنيا مزرعـة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جاريـة مجرى تقليب الأرض وتطهيرهـا، ومجـرى حفـر الأنهـار وسـياقة الماء إليها، والقلب المستغرق بالـدنيا كـالأرض السـبخة الـتي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة الحصاد، ولا يحصد أحد إلا مــا زرع، ولا ينمـو زرع إلا من بـذر الإيمـان، وقلمـا ينفـع إيمـان مـع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو بـذر في أرض سـبخة.. فينبغي أن يقاس رجاء العبد للمغفـرة برجـاء صـاحب الـزرع، فكـل من طلب أرضا طيبة، وألقى فيها بذراً جيداً غـير عفن ولا مسـوس، ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سياق الماء إليه في أوقاته، ثم نقّى الأرض عن الشـوك والحشـيش، وكـل مـا يمنـع نبـات البـذر أو يفسده، ثم جلس منتظرا من فضل الله رفع الصواعق والآيــات المفسدة إلى أن يثمر الزرع ويبلغ غايته، سمي انتظـاره رجـاء، وإن بث البـذر في أرض صـلبة سـبخة مرتفعـة لا ينصـبُّ المـاء إليها، ولم يشغل بتعهد البذر أصلا، ثم انتظر حصاد الزرع يسمى انتظاره حمقـاً وغـروراً لا رجـاء، وإن بث البـذر في أرض طيبـة ولكن لا ماء لها، وينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطــار ولا يمتنع، سمي انتظاره تمنياً لا رجاء)

وقال آخـر في الـترجيح بين الخـوف والرجـاء: (من تـرجح

خوفه على رجائه وقع في زمهرير الأفكار، ومن ترجح رجاؤه زل عن الصراط في جحيم الاغترار. وصفة الحق العدل شديد العقاب ذي الطول، فعقابه أوجب له جناح الخوف، وفضله أوجب له جناح الرجاء)(1)

وقال آخر في الدعوة للموازنة بين الخوف والرجاء: (مثال الخوف والرجاء كمثال الحرارة والبرودة، فمن غلب عليه أحدهما حتى خيف عليه الانحراف والتلف، يداوى بالآخر حتى يرجع إلى حد الاعتدال)(2)

وقال آخر في تأثير كليهما، وضرورته: (القبض والبسط يعني: الخوف والرجاء، فالرجاء يبسط إلى الطاعة، والخوف يقبض عن المعصية)(3)

وقال آخر في بيان العلامة الصادقة لكليهما: (إذا عرف الرجل نفسه علامة الخوف وعلامة الرجاء، فقد استمسك بالأمر الوثيق. وعلامة الخوف: هي اجتناب ما نهى الله عنه، وأما علامة الرجاء: فهي العمل بما أمر الله به)(4)

وقال آخر في ضرورة الجمع بينهما: (لا يكون رجاء بلا خوف، لأن من رجا أن يصل إلى شيء خاف أن يفوته.. والرجاء بلا خوف أمن، والخوف بلا رجاء قنوط)(5)

وقال آخر: (لا يكون رجاء بلا خوف؛ لأن من رجا أن يصل

1() نجم الدين الكبرى، فوائح الجمال وفواتح الجلال، ص 42.

2() عبد العزيز الديريني، طهارة القلوب، ص 85.

3() السراج الطوسي، اللمع في التصوف، ص 343، 344.

4() عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية ومدارسها، ص 97.

5() ظهير الدين القادري، الفتح المبين فيما يتعلق بترياق المحبين، ص 39.

إلى شيء خاف أن يفوته، وحسن الظن بالله تعالى معرفته بجميل صفاته، ثم أمل به من حيث هو لا من حيث العبد علماً منه بأن من صفاته محسن، كريم، رحيم، لطيف، رؤوف. وحسن الظن بالله تعالى تعليق الهمم على ما سبق من نظر العناية، ونظر القلب إلى الرب بلا تطميع للقلب ولا تمنيته الأرواح. وطمع العامة نهايات، أكثر أسبابه صدق عليه اسم الرجاء، ومتى انخرمت عليه أكثر أسبابه فاسم الطمع أولى به من اسم الرجاء. والرجاء بلا خوف أمن، والخوف بلا رجاء قنوط)[1].

وقال آخر في بيان كيفية الجميع بينهما: (إذا أردت أن ينفتح لك باب الرجاء، فاشهد ما منه إليك.. وإذا أردت أن ينفتح لك باب الخوف، فاشهد ما منك إليه)[2].

وقد علق بعضهم على هذا بقوله: (الرجاء والخوف حالان عن مشاهدتين، فمن أراد أن يفتح له باب الرجاء، فليشهد ما من الله له من الفضل والكرم والإسعاف والألطاف، فسيغلب عليه حينئذ حال الرجاء.. ومن أراد أن يفتح له باب الخوف، فليشهد ما منه إلى الله تعالى من المخالفة والعصيان وسوء الأدب بين يديه، فسيغلب عليه حينئذ حال الخوف)[3]

وقال آخر: (الرجاء هو ما هاج من الطمع والأمل في الله تعالى، فسخي نفس العاصي بالتوبة، وحال بينه وبين القنوط، وبعث العبد على الطاعة لله تعالى والتشمير والاجتهاد رجاء ما وعد العاملين.. والغرة: خدعة من النفس والعدو بذكر الرجاء بالتوحيد، أو بالآباء الصالحين، أو بعمل قليل ضعيف، فتطيب

1() محمد بن يحيى التادفي، قلائد الجواهر، ص 73.

2() غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج 1 ص 334.

3() غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج 1 ص 334.

نفسه بتلك الخدعة، حتى تهون عليه ذنوبه لظنـه أنهـا مغفـورة)(1)

وقال آخر: (كونوا دائماً بين الخوف والرجاء، فـالخوف أن يخاف القلب من الله لما علم من ذنوبه، والرجاء سكون الفؤاد بحسن الوعد)(2)

وقال آخر: (الرجـاء ثلاثـة: رجـل عمـل حسـنة، فهـو يرجـو قبولها. ورجل عمل سيئة ثم تاب، فهو يرجو المغفـرة. والثـالث الرجل الكاذب يتمادى في الذنوب ويقول: أرجو المغفرة)(3)

وقال آخر: (الرجـاء والخـوف حـالان عن مشـاهدتين، فمن أراد أن يفتح له باب الرجاء فليشهد ما من اللـه لـه من الفضـل والكرم والإسعاف والألطاف، فسيغلب عليه حينئذ حال الرجاء.. ومن أراد أن يفتح لـه بـاب الخـوف، فليشـهد مـا منه إلى اللـه تعالى من المخالفة والعصيان وسوء الأدب بين يديـه، فسـيغلب عليه حينئذ حال الخوف)(4)

وقال آخر: (العارفون إذا خوفوا رجوا، وإذا رُجُّوا خافوا)(5)

إذا عرفت هذا ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن الرجـاء والأمـل وحسـن الظن باللـه تتنـوع مظـاهره وصـوره ودوافعـه بحسب الدرجة التي يحل فيها السـالك مثلهـا مثـل كـل المنـاز، وقد ذكـر بعض الحكمـاء درجـات الرجـاء، فقـال: (الرجـاء ثلاثـة مراتب: الأولى: الشفاعة مع حالة الإسراف وقلة العمل.. ثانيها:

1() أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي، ص 160.

2() أحمد الرفاعي، البرهان المؤيد، ص 71.

3() الرسالة القشيرية، ص 105.

4()ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج 1 ص 334.

5() أحمد زروق، شرح الحكم العطائية، ص 152 0

رجاء قبول الأعمال.. ثالثها: رجاء الرحمة وينشأ ذلك من سعة الرحمة والمنة)(1).

وقال آخر: (الرجاء على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: رجاء يبعث العامل على الاجتهاد، ويولد التلذذ بالخدمة، ويوقظ لسماحة الطباع بترك المناهي.. والدرجة الثانية: رجاء أرباب الرياضات أن يبلغوا موقفاً تصفو فيه هممهم، برفض الملذوذات، ولزوم شروط العلم، واستقصاء حدود الحمية.. والدرجة الثالثة: رجاء أرباب طيب القلوب، وهو رجاء لقاء الحق عز وجل، الباعث عن الاشتياق، المنغص للعيش، المزهد في الخلق)(2)

وقال آخر: (الرجاء على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: رجاء يبعث العلماء على الاجتهاد في العمل.. والدرجة الثانية: الرجاء بزيادة القرب وزيادة الاصطفاء، وهذا يحصل لأصحاب خوف الإجلال والعظمة، وهم الأنبياء (عليهم السلام).. والدرجة الثالثة: رجاء لقاء الله تعالى، وهذا أيضاً للأنبياء والمرسلين (عليهم السلام)(3)

هذا جوابي عن أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاحرص على أن تنزل هذه المنزلة الرفيعة، فهي دليل معرفتك بربك، فبقدر حسن ظنك به، بقدر محبتك له.. وسترى كيف يكون حسن الظن الصادق دليلا إلى كل هداية وخير.. فمن أحسن ظنه بربه سعى لتهذيب نفسه وإصلاحها حتى يكون لائقا بمن أحسن ظنه به.

1() تحفة السالكين ودلالة السائرين لمنهج المقربين، ص48.

2() منازل السائرين، ص 34، 35..

3() حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب (بهامش قوت القلوب ج 2)، ص 202.

العفة والنزاهة

كتبت إلي ــ أيهــا المريــد الصــادق ــ تســألني عن العفــة وحقيقتها ومجالاتها وعلاماتها، وعلاقتها بالنفس المطمئنة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن العفة من المنــازل الضـــرورية للنفس المطمئنـــة؛ فلا يمكن للنفس المملـــوءة بالقذارات والموبقات أن تصل إلى الطمأنينة، وكيف تصل إليها، وهي تمـارس أهواءهـا وشـهواتها ونزواتهـا من خلال زرع الآلام والصراع؟

ولهــذا تــرد العفــة بمفهومهــا الشــامل في كــل صــفات المؤمنين والمفلحين والمخبتين في القرآن الكريم.. وهي تعـني كونها ركنا ليس في طمأنينـة النفس فقـط، وإنمـا هي ركن في أدنى مبـادئ الإسـلام.. ولـذلك كـان رسـول اللـه ﷺ يبـايع على العفة من دخل إلى الإسلام جديدا، ليبين له أنه لا يكفي التلفـظ بالشهادتين ما لم تتحقق فيه العفة.

قــال تعــالى يشــير إلى ذلــك: ﴿يَاأَيُّهَــا النَّبِيُّ إِذَا جَــاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَـيْئًا وَلَا يَسْـرِقْنَ وَلَا يَـزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَـأْتِينَ بِبُهْتَـانٍ يَفْتَرِينَـهُ بَيْنَ أَيْـدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12]

وقد كان رسول الله ﷺ يبـايع بنفس البيعـة الرجـال أيضـا، فقد روي في الحديث عن بعض أصـحاب رسـول اللـه ﷺ قـال: كنا تسـعة أو ثمانيـة أو سـبعة عنـد رسـول اللـه ﷺ، فقـال: (ألا تبايعون رسول الله؟)، وكنّا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعنــاك يا رسول اللـه، ثمّ قـال: (ألا تبـايعون رسـول اللـه؟) فقلنـا: قـد

بايعناك يـا رسـول اللـه، ثمّ قـال: (أ لا تبـايعون رسـول اللـه؟)، فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يـا رسـول اللـه، فعلام نبايعـك؟ قـال: (على أن تعبـدوا اللـه ولا تشـركوا بـه شـيئا، والصّـلوات الخمس. وتطيعوا،و أسرّ كلمة خفيّـة، ولا تسـألوا النّـاس شـيئا، فلقد رأيت بعض أولئك النّفر يسقط سوط أحـدهم. فمـا يسـأل أحدا يناوله إيّاه)[1]

وهـذه المعـاني هي الـتي تحـدد مفهـوم العفـة، والـذي لا يقتصر على العفة عن الشهوات، وإنما يشمل العفة عن كل مـا لا يتناسب مع الفطرة السليمة، وقد قال بعض الحكماء في ذكر بعض مـوارد العفـة ومجالاتهـا: (العفّـة والنّزاهـة والصّـيانة من شروط المروءة، والعفّـة نوعـان: أحـدهما العفّـة عن المحـارم، والثّاني العفّـة عن المـأثم، فأمّـا العفّـة عن المحـارم، فنوعـان: أحـدهما ضـبط الفـرج عن الحـرام، والثّـاني كـفّ اللّسـان عن الأعراض، فأمّا ضبط الفـرج عن الحـرام فلأنّ عدمـه مـع وعيـد الشّرع وزاجر العقل معرّة فاضـحة، وهتكـة واضـحة، وأمّـا كـفّ اللّسان عن الأعـراض؛ فلأنّ عدمـه ملاذّ السّـفهاء وانتقـام أهـل الغوغاء، وهو مستسهل الكفّ، وإذا لم يقهـر نفسـه عنـه بـرادع كافّ، وزاجر صادّ، تلبّط بمعّارّه، وتخبّط بمضارّه، وأمّا العفّة عن المـاثم فنوعـان أيضـا: أحـدهما: الكـفّ عن المجـاهرة بـالظّلم، والثّاني: زجر النّفس عن الإسرار بخيانة)[2]

وقال آخر: (لا يكون الإنسان تامّ العفّـة حتّى يكـون عفيـف اليــد واللّســان والسّــمع والبصــر فمن عــدمها في اللّســان السّخرية، والتّجسّس والغيبة والهمز والنّميمة والتّنابز بالألقـاب، ومن عـدمها في البصـر: مـدّ العين إلى المحـارم وزينـة الحيـاة الـدّنيا المولّـدة للشّـهوات الرّديئـة، ومن عـدمها في السّـمع:

1() مسلم(1043)

2() أدب الدنيا والدين(384 ـ 390) بتصرف شديد.

الإصغاء إلى المسموعات القبيحة.. وعماد عفّة الجوارح كلّها أن لا يطلقها صاحبها في شيء ممّا يختصّ بكلّ واحد منهـا إلّا فيمـا يسوّغه العقل والشّرع دون الشّهوة والهوى)[1]

ولهذا، فإن لكل لطيفة من لطائف الإنسان، أو جارحــة من جوارحه عفتهـا الخاصـة بهـا، كمـا أشـار إلى ذلـك قولـه ﷺ في تفسـير الحيـاء، والــذي هــو المنبــع الــذي تصــدر منــه العفــة: (الاستحياء من اللـه حـقّ الحيـاء: أن تحفـظ الـرّأس ومـا وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة تـرك زينة الدّنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقّ الحياء)[2]

وقــد ذكــر بعض الحكمـاء سـر ضـرورة العفـة في الكمـال الإنساني، فقـال: (الكمـال عزيـز والكامـل قليـل الوجـود، وأوّل أسباب الكمـال تناسـب أعضـاء البـدن وحسـن صـورة البـاطن، فصورة البدن تسمّى خَلقا، وصورة الباطن تسمّى خُلقا، ودليـــل كمـال صـورة البـدن حسـن السّـمت واسـتعمال الأدب، ودليـل كمال صورة الباطن حسن الطّبائع والأخلاق.. فالطّبـائع: العفّـة، والنّزاهة، والأنفة من الجهل، ومباعدة الشّره.. والأخلاق: الكـرم والإيثار وستر العيـوب وابتـداء المعـروف، والحلم عن الجاهـل.. فمن رزق هذه الأشـياء رقّتـه إلى الكمـال، وظهـر عنـه أشـرف الخلال، وإن نقصت خلّة أوجبت النّقص)[3]

وقال آخـر: (الكمـال في ثلاثـة: العفّـة في الـدّين، والصّـبر على النّوائب، وحسن التّدبير في المعيشة)[4]

1() الذريعة إلى مكارم الشريعة(319)

2() الترمذي (2458)

3() صيد الخاطر(289)

4() أدب الدنيا والدين(393 ـ 394)

وقال آخر: (كان أهل الجاهليّة لا يسوّدون إلّا من كانت فيه ستّ خصال وتمامها في الإسلام سابعة: السّخاء، والنّجدة، والصّبر، والحلم، والبيان، والحسب، وفي الإسلام زيادة العفاف)[1]

وقال آخر: (العالم إذا كان عليما ولم يكن عفيفا كان ضرره أشدّ من ضرر الجاهل)[2]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن من أهم موارد العفة ومجالاتها التي ورد الحض عليها في النصوص المقدسة: العفة المرتبطة بالأعراض، والعفة المرتبطة بالأموال.. وكلاهما ركنان أساسيان لا تستقيم الحياة إلا بهما.

عفة الأعراض:

أما أولهما، وهو العفة عن الأعراض؛ فهو من الأخلاق التي ترفع الإنسان عن عالم البهائم والحيوانات، وتجعله إنسانا مكرما نزيها ممتلئا بالنظافة، ولهذا ورد النهي الشديد عن كل ما يتسبب في الإخلال بهذه العفة، سواء من جانب ممارسة الرذيلة، أو من ناحية إشاعتها ونشرها، والحديث عنها، والدعوة إليها.

بل إن القرآن الكريم خص العفاف بمنظومة كاملة من الأحكام والقيم التي تضمن ممارستها لا للفرد وحده، وإنما للمجتمع جميعا، ومن ذلك ما ورد من الأحكام في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا

1() الآداب الشرعية(2/ 215)

2() الفتح(13/ 149)

وَلْيَضْـرِبْنَ بِخُمُـرِهِنَّ عَلَى جُيُـوبِهِنَّ وَلَا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُـولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَـائِهِنَّ أَوْ أَبْنَـاءِ بُعُـولَتِهِنَّ أَوْ إِخْـوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَـائِهِنَّ أَوْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَـوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [النور: 30، 31]

ففي هاتين الآيتين منظومة كاملة للعفاف، فهي لا تأمر فقـط بغض البصر، والذي قـد يطيقـه فـرد من النـاس، وتعجـز عنـه أمـة منهم، ولكنه يوفر الجو المناسب للعفاف والبراءة والطهر.

ومن ذلك أمر النساء بألا يظهرن الزينة إلا للأزواج أو الأقـارب من الصلب الذين لا يُخشى منهم فتنـة، قـال اللـه تعـالى: يَـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُـدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُـوراً رَحِيمـاً (الأحـزاب: 59)

ومن ذلك النهي عن الفواحش، وكل مـا يـؤدي إليهـا، فقـد وصـف اللـه تعـالى المؤمـنين بـأنهم لا يقعـون في مثـل هـذه الفواحش، فقال: وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِـكَ يَلْـقَ أَثَاماً (الفرقان:68)

ولم يكتف الإسلام بتحريم الزنـا، بـل حـرم كـل مـا يقـرب منه، أو يؤدي إليه، قال تعالى: وَلا تَقْرَبُـوا الْفَـوَاحِشَ مَـا ظَهَـرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ (الأنعام:151)، وقـال:: وَلا تَقْرَبُـوا الـزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (الاسراء:32)

ولم يكتــف الإســلام بهــذا.. بــل وضــع معــه الكثــير من التشريعات الرادعة الـتي تملأ النفس نفـورا من هـذا النـوع من

المعاصي.. ومن هذه العقوبات ما نص عليه قوله تعـالى: الزَّانِيَـةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَـةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْـهَدْ عَـذَابَهُمَا طَائِفَـةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (النور:2)

ولينمي القرآن الكريم هذه القيمـة الرفيعـة في النفس يـذكر قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، وكيف تحقق بالعفة في أجمل صورها، بل إنه آثر السجن على أن يستسلم لما تقتضيه تلك النزوات الخسيسـة، قـال تعـالى: وَرَاوَدَتْـهُ الَّتِي هُـوَ فِي بَيْتِهَـا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَـنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [يوسف: 23]

وقال مخبرا عن دعائه الرقيق الذي آثـر بـه ذل السـجن على ما وفر له في قصـر العزيـز من متـاع: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ وَإِلَّا تَصْـرِفْ عَنِّي كَيْـدَهُنَّ أَصْـبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ [يوسف: 33]

أما السـنة المطهـرة، فهي مليئـة بالنصـوص المحـذرة من الفواحش، والتي تعتبر العفـة ركنـا من أركـان القيم الإسـلامية، ومن ذلك قوله ﷺ:: (إذا زنى الرجـل أخـرج منـه الإيمـان وكـان عليه كالظلة فإذا أقلع رجع إليه الإيمان)[1]

وقال ﷺ: (لا تزال أمتي بخير مـا لم يفش فيهم الزنـا فـإذا فشا فيهم الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب)[2]

وقال: (برّوا آباءكم تـبرّكم أبنـاؤكم وعفّـوا تعـفّ نسـاؤكم)[3].

1()رواه أبو داود واللفظ له والترمذي والبيهقي.

2() رواه أحمد.

3() رواه الطبراني بإسناد حسن.

وقال: (ثلاثة حقّ على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الّذي يريد الأداء، والنّاكح الّذي يريد العفاف)[1]

وقال: (ثلاثة لا ترى أعينهم النّـار: عين حرسـت في سـبيل الله، وعين بكت من خشية الله، وعين كفّت عن محارم الله)[2]

وقـال: (ثلاث أخـافهنّ بعـدي على أمـتي: (الضـلالة بعـد المعرفة، ومضلات الفتن، وشهوة البطن والفرج)[3]

وقـال: (إنّ اللـه يحبّ الحـييّ المتعفّـف، ويبغض السـائل الملحف)[4]

وقال: (أولّ مَن يدخل الجنّة شـهيد، وعبـد مملـوك أحسـن عبادة ربّه ونصح لسيّده، ورجل عفيف متعفّف ذو عبادة)[5]

وروي أن أعرابيا أتى النبيّ ﷺ، فقال له: (أوصني يا رسول الله، فقال: (نعم، أوصيك بحفظ ما بين رجليك)[6]

وهكذا دعا أئمة الهدى إلى هذا النوع من العفاف، وحـذروا من الفواحش ما ظهر منهـا، ومـا بطن، وقـد روي أن رجلا قـال للإمام الباقر: إني ضعيف العمل قليل الصيام، ولكـني أرجـو أن لا آكل إلا حلالا، فقـال لـه: (وأي الاجتهـاد أفضـل من عفـة بطن

1() الترمذي(1655) والنسائي(6/ 61) وابن ماجة(2518)

2() رواه الطبراني.

3() الكافي 2/79.

4() أمالي الطوسي 1/37.

5() عيون الأخبار 2/28.

6() بحار الأنوار: 68/274، وكتاب الحسين بن سعيد.

وفرج)[1]

وروي أنه قال لبعض أصحابه: (كلكم في الجنة معنا، إلا أنه ما أقبح بالرجل منكم أن يدخل الجنة قـد هُتـك وبـدت عورتـه)، فقال له صاحبه: (جعلت فداك..وإنّ ذلك لكـائن؟).. قـال: (نعم، إن لم يحفظ فرجه وبطنه)[2]

وقال الإمام الصادق: (بـرُّوا آبـاءكم يـبرّكم أبنـاؤكم، وعفّـو عن نساء الناس تعفّ نساؤكم)[3]

عفة الأموال:

أما العفة الثانية ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فهي العفـة عن الأموال الحرام، وأولها رضى العفيـف بالفاقـة والفقـر والحاجـة عن أن يمد يده إلى الناس يستجديهم، ويذل نفسه بذلك.

وهو ما وصف الله تعالى به الفقراء الصـالحين، حين قـال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَـرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْـرِفُهُمْ بِسِـيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]

ودعا إليها الأغنياء الذين قد تمتد مطامعهم إلا من يتكفلون به من اليتامى، فيأكلون من أمـوالهم، قـال تعـالى: ﴿وَمَنْ كَـانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 6]

ولهذا كان رسول الله ﷺ يحذر من كل ما يمس بهذا النـوع من العفـة، لتـأثيره الخطـير، لا على المجتمـع فقـط بمزاحمـة الأغنياء للفقراء، وإنمـا على النفس أيضـا، ذلـك أن لأمثـال تلـك

---

(1) الكافي 2/79.

(2) الخصال 1/15.

(3) الخصال 1/29.

السـلوكات آثارهـا في جميـع الصـفات.. فـالنفس كالجسـد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى..

وهكـذا السـؤال والشـحاذة يجعلان النفس أمـة للأمـوال وأصـحابها، ذليلـة بين أيـديهم، ومسـتعدة لأن تـترفع عن كـل مكارمها في سبيل إرضائهم.

ومن تلك الأحاديث ما روي عن بعض أصحاب رسـول اللـه ﷺ أنه قال: سرّحتني أمّي إلى رسـول اللـه ﷺ، فأتيتـه وقعـدت فاسـتقبلني، وقـال: (من اسـتغنى أغنـاه اللـه عـزّ وجـلّ، ومن استعفّ أعفّه الله عزّ وجلّ، ومن استكفى كفاه اللـه عـزّ وجـلّ ومن سأل وله قيمة أوقيّة، فقد ألحف)، وبعد أن سمع الصحابي هذا، قال في نفسه: (ناقتي الياقوتة خير من أوقيّة فرجعت ولم أسأله)[1]

وروي أن ناسـا من الأنصـار سـألوا رسـول اللـه ﷺ، فأعطاهم، ثمّ سألوه فأعطاهم، حتّى إذا نفد ما عنده، قال: (مـا يكن عندي من خير فلن أدّخره عنكم، ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر يصبّره اللـه، ومـا أعطي أحـد من عطاء خير وأوسع من الصّبر)[2]

وروي أن بعض الطلقاء قال: سألت النّبيّ ﷺ فأعطاني، ثمّ سألته فأعطاني، ثمّ سألته فأعطـاني، ثمّ قـال: (إنّ هـذا المـال خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك لـه فيـه ومن أخـذه بإشراف نفس لم يبارك فيه وكان كالّذي يأكل ولا يشـبع، واليـد العليا خير من اليد السّفلى)[3]

1() النسائي(5/ 98) وأبو داود(1628)

2() البخاري [فتح الباري]، 3(1469) ومسلم(1053)

3() مسلم(1035)

وروي عن بعض أصــحاب رســول اللــه ﷺ قــال: تحمّلت حمالة[1] فأتيت رسـول اللـه ﷺ أسـأله فيهـا. فقـال: (أقم حتّى تأتينا الصّدقة فنأمر لـك بهـا)، ثمّ قـال: (إنّ المسـألة لا تحـلّ إلّا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلّت له المسألة حتّى يصيبها ثمّ يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتـاحت مالـه فحلّت لـه المسـألة حتّى يصـيب قوامـا من عيش، ورجـل أصـابته فاقـة حتّى يقـول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة، فحلّت له المسألة حتّى يصيب قواما من عيش (أو قال سدادا من عيش) فما سواهنّ من المسألة، سحتا يأكلها صاحبها سحتا)[2]

وقال آخر: نزلت أنا وأهلي ببقيع الغرقد، فقـالت لي أهلي: اذهب إلى رسـول اللـه ﷺ فسـله لنـا شـيئا نأكلـه، فـذهبت إلى رسول الله ﷺ فوجدت عنده رجلا يسأله ورسول الله ﷺ يقـول: لا أجد ما أعطيك؛ فولّى الرّجل عنه، وهـو مغضـب وهـو يقـول: لعمــري إنّـك لتعطي من شـئت، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (إنّـه ليغضب على أن لا أجد ما أعطيه، من سأل منكم ولـه أوقيّـة أو عدلها فقد سأل إلحافا)، قال الرجل: فقلت: للقحة لنا خــير من أوقيّة، فرجعت ولم أسأله، فقدم على رسول الله ﷺ بعـد ذلـك شعير وزبيب، فقسم لنا منه حتّى أغنانا الله عزّ وجلّ)[3]

وروي أنّ رجلا من الأنصار أتى النّبيّ ﷺ يسأله، فقال: (أما في بيتك شيء؟) قال: بلى، حلس نلبس بعضـه ونبسـط بعضـه وقعب نشرب فيه من الماء، فقـال: (ائتـني بهمـا)، فأتـاه بهمـا، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقـال: (من يشـتري هـذين) قـال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: (من يزيد على درهم؟) مرّتين أو

1() الحمالة بفتح الحاء: الدية والغرامة التي يحملها الإنسان بسبب الصلح بين الناس

2() مسلم(1044)

3() النسائي(5/ 98 ـ 99) وأبو داود(1627)

ثلاثا، قـال رجـل: أنـا آخـذهما بـدرهمين فأعطاهمـا إيّـاه، وأخـذ الدّرهمين وأعطاهما الأنصـاريّ، وقـال: (اشـتر بأحـدهما طعامـا فانبذه إلى أهلك، واشتر بالاخر قدوما فأتني به)، فأتاه به، فشدّ فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثمّ قال له: (اذهب فاحتطب وبـع، ولا أرينّك خمسة عشر يوما) فذهب الرّجل يحتطب ويبيع، فجـاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعامـا، فقال رسول الله ﷺ: (هذا خير لك من أن تجيء المسـألة نكتـة في وجهك يوم القيامة، إنّ المسألة لا تصلح إلّا لثلاثة: لذي فقـر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع)[1]

وكان ﷺ يستعمل كل وسائل الـترغيب والـترهيب للتحـذير من تلـك السـلوكات وآثارهـا على النفس، ومن ذلـك قولـه في تعريف المسكين: (ليس المسكين الّذي تردّه التّمرة والتّمرتان، ولا اللّقمة ولا اللّقمتان، إنّما المسكين الّـذي يتعفّـف، اقـرؤا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273])[2]

وكأن رسول الله ﷺ يدعو بهـذا إلى البحث عن هـذا النـوع من المساكين، وتسـليم الحقـوق الشـرعية المرتبطـة بـالأموال لهم، لا لأولئك الذي قد يتخذون التسـول وسـيلة لطلب الـرزق، ويقعدون عن العمل رضى بذلك.

ومثـل ذلـك صـحح رسـول اللـه ﷺ مفهـوم الغـنى، فقـال: (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكنّ الغنى غنى النّفس)[3]

وأخــبر ﷺ عن دور العفــة في الســبق إلى الجنــة، فقــال: (عرض عليّ أوّل ثلاثة يدخلون الجنّـة: شـهيد وعفيـف متعفّـف،

1() أبو داود(1641) وابن ماجة(2198) والترمذي(1218)

2() البخاري [فتح الباري]، 8(4539) ومسلم(1039)

3() البخاري [فتح الباري]، 11(6446) ومسلم(1051)

وعبد أحسن عبادة الله، ونصح لمواليه)[1]

وكان يقول: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنّة)[2]

ويقول: (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا وقنّعه الله بما آتاه)[3]

وأخبر عن أفضلية العفيف المحتاج على غيره، فقال: (لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدّق به، ويستغني به من النّاس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه ذلك، فإنّ اليد العليا أفضل من اليد السّفلى، وابدأ بمن تعول)[4]

وأخبر عن دور الاستعفاف في تحقق الاستعانة بالله، فقال: (من أصابته فاقة فأنزلها بالنّاس لم تسدّ فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إمّا بموت عاجل أو غنى عاجل)[5].

وأثنى على العمل المؤدي إلى العفاف، وأخبر أنه جهاد في سبيل الله، فقد روي أنه مرّ عليه رجل نشيط، فقال أصحابه عند رؤيته: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها فهو

1() الترمذي(1642)

2() البخاري [فتح الباري]، 11(6474)

3() مسلم(1054)

4() مسلم(1042)

5() أبو داود(1645) والترمذي(2326)

في سبيل الله، وإن كان خـرج يسـعى ريـاء ومفـاخرة فهـو في سبيل الشّيطان)[1]

ومثّل رسـول اللـه ﷺ مثـل جميـع الأنبيـاء العفـة في قمـة قممها، كما قال تعـالى: ﴿قُـلْ لا أَسْـأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْـراً إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (الأنعام:90)، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْـهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: 57)، وقـال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (صّ:86)

ولهذا اعتبر القرآن الكريم من أدلة صـدق رسـول اللـه ﷺ عفافـه عن أمـوالهم، قـال تعـالى: ﴿أَمْ تَسْـأَلُهُمْ أَجْـراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (الطور:40)، وقال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجـاً فَخَـرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (المؤمنون:72)

فالنبي صلى الله عليه وآله وسـلم لم يكن ينـال على تلـك الوظيفة الخطيرة التي كلف بها، والتي جعلته لا يرتاح ليل نهار، أي أجر سوى الأجر الذي أعده الله له.

وفي الحـديث روي أنـه قـال: (إنّي لأنقلب إلى أهلي فأجـد التّمرة سـاقطة على فراشـي، ثمّ أرفعهـا لآكلهـا ثمّ أخشـى أن تكون صدقة فألقيها)[2]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تتحقــق بهــذه الأخلاق النبيلــة؛ فلا يمكن لنفســك أن تزكــو، أو تتطهر، أو ترتقي في مراتب الكمـال، وهي تفتقـدها، أو تتخلـف عنها.

واعلم أن العفة الكاملة عفتك عن الأكوان جميعا، بحيث لا

1() رواه الطبراني في الكبير(19/ 129)

2() البخاري [فتح الباري]، 5(2432) ومسلم(1070)

ترى فيها إلا بارئها وفاطرها ومبدعها، لتنهل منـه وحـده كـل مـا تحتاجه؛ فتستغني به عمن سواه.

الرأفة والرحمة

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الرحمة وحقيقتها ومجالاتها وعلاماتها، وعلاقتها بالنفس المطمئنة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الرحمة من المنازل الضرورية للنفس المطمئنة؛ فلا يمكن للنفس الممتلئة بالقسوة والغلظة أن تجد الهدوء أو الطمأنينة أو الاستقرار، وكيف يحصل لها ذلك، وهي مرتع الشيطان، ومستقر كل مثالب الإثم والعدوان.

ولهذا كان أكثر الناس مواجهة للأنبياء والأولياء هم أولئك الطغاة المستكبرين المستبدين الذين خلت قلوبهم من الرحمة؛ كما أخبر الله تعالى عن مثالهم وقدوتهم فرعون الذي ذكر الله تعالى جرائمة الناشئة من قسوته، فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4]

ومثلهم أولئك الذين سماهم الله تعالى أصحاب الأخدود، وقال عنهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 4 - 8]

ومنهم أولئك الذين لم يرض قسوة قلوبهم كل ما صبوه من ألوان الإهانة والتحقير لنبي الله إبراهيم عليه السلام، وإنما أضافوا إليه رميه في النيران، لتناسبها مع النيران التي تغلي في قلوبهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69)

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ [الأنبياء: 68 - 70]

وهكذا كـان حـال جميـع الأنبيـاء عليهم السـلام الـذي تفنن قسـاة القلـوب من أقـوامهم في مـواجهتهم وحـربهم، ومنهم رسول الله ﷺ الذي قال عنه ربه: وَإِنْ كَـادُوا لَيَسْـتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا [الإسـراء: 76]

ثم ذكر أن ذلك سنة الأنبياء والصالحين مع أقـوامهم، قـال تعالى: سُـنَّةَ مَنْ قَـدْ أَرْسَـلْنَا قَبْلَـكَ مِنْ رُسُـلِنَا وَلَا تَجِـدُ لِسُـنَّتِنَا تَحْوِيلًا [الإسراء: 77]

وذكر القرآن الكريم مظـاهر القسـوة الحسـية والمعنويـة، والـتي كـانت تنبـع من النفـوس الأمـارة لقـوم رسـول اللـه ﷺ، فقــال: وَإِذْ يَمْكُــرُ بِــكَ الَّذِينَ كَفَــرُوا لِيُثْبِتُــوكَ أَوْ يَقْتُلُــوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُـرُونَ وَيَمْكُـرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْـرُ الْمَـاكِرِينَ (30) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَـذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـذَا هُـوَ الْحَـقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ [الأنفال: 30 - 32]

ولذلك؛ فإن القسوة لا تنسـجم مـع المـؤمن العـادي، وفي أدنى درجـات إيمانـه، فكيـف تنسـجم مـع تلـك النفس الراقيـة الممتلئة بالفضائل، والتي أنعم الله عليهـا بالسـكينة والطمأنينـة نتيجة لذلك.

ولـذلك أخـبر رسـول اللـه ﷺ أن القلـوب القاسـية أبعـد القلـوب عن السـعادة والفلاح، فقـال: (لا تـنزع الرّحمـة إلّا من شقيّ)[1]

1() الترمذي(1923) وأبو داود(4942)

وأخبر أن الله تعالى يعامل عباده بحسب ما يعامل به بعضهم بعضا، فقال: (لا يرحم الله من لا يرحم النّاس)[1]

وروي أنه ﷺ قبّل الحسن بن عليّ وعنده الأقرع بن حابس التّميميّ جالسا، فقال الأقرع: إنّ لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثمّ قال: (من لا يرحم لا يرحم)[2]

وأخبر ﷺ أن حقيقة الإيمان لا تتحقق إلا في القلوب الرحيمة اللينة المستعدة لتلقي أنواره، فقال: (لن تؤمنوا حتّى ترحموا)، فقالوا: كلّنا رحيم يا رسول الله، قال: (إنّه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنّها رحمة النّاس، رحمة العامّة)[3]

ونفى التبعية له ولأمته عن القساة، فقال: (ليس منّا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا)[4]

وهذا كله يدل على أن الإيمان الحقيقي بالله وبوسائط هدايته لا يكون إلا في القلوب الرحيمة اللينة، وأما غيرها، فهي وإن ادعت الإيمان، فإنه يظل مجرد دعوى، كما قال تعالى عن الأعراب القساة الذين توهموا أنهم بإقامة بعض الشعائر التعبدية قد صاروا من المؤمنين: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14]

ولهذا أخبر الله تعالى عن تلك الرحمة التي أودعها في

1() البخاري [فتح الباري]، 13(7376)، ومسلم(2319)

2() البخاري [فتح الباري]، 10(5997) ومسلم(2318)

3()كتاب الأدب للبيهقي حديث(167)

4() الترمذي(1920)، وأحمد(1/ 257)

قلوب أتباع المسيح عليه السلام، ليستحقوا بها جميل اتباعه، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: 27]

وسر ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ يعود إلى أن الإيمان بالله ورسله والهداة إليه، ينشر قيمه في نفس المؤمن، فيذعن لها، ويتحول سلوكه إلى نسخة موافقة لإيمانه.

ولذلك يستحيل على من يؤمن برحمة الله، ولطفه بعباده، وحلمه عليهم، وحنانه ومودته.. ثم بعد ذلك يكون قاسيا أو غليظا، ذلك أن من مقتضيات عبوديته للرؤوف الرحيم تحليه بالرأفة والرحمة، كما عبر بعض الحكماء عن ذلك، فقال: (عبد الرؤوف: هو من جعله الله تعالى مظهراً لرأفته ورحمته، فهو أرأف خلق الله بالناس إلا في الحدود الشرعية؛ لأنه يرى الحد وما أوجبه عليه من الذنب الذي جرى على يده بحكم الله وقضائه رحمة منه عليه، وإن كانت ظاهرة نقمة، وهذا مما لا يعرفه إلا خاصة الخاصة بالذوق؛ فإقامة الحد عليه ظاهراً عين الرأفة به باطناً)[1]

ولهذا يرد في القرآن الكريم كثيرا وصف الله تعالى بالرأفة والرحمة، وفي المجالات المختلفة، لا لتتقرر تلك المعاني باعتبارها أوصافا لله تعالى فقط في نفوس المؤمنين، وإنما لتتحول إلى قيم أخلاقية تضبط سلوكهم.

ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 143]، وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207]، وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 117]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا

1() كمال الدين القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص 126.

فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِـأَمْرِهِ وَيُمْسِـكُ السَّـمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحج: 65]، وغيرها من الآيات الكريمة، والتي تدل على شمول رحمة الله تعالى ورأفته كل شيء..

ومثل ذلك من يؤمن برحمة رسول الله ﷺ، وأن الله تعالى وصفه بقوله: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [التوبة: 128]

بل وصفه بما هو أعظم من ذلك، مما لا يمكن للخيال تصوره، فقال: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ [الأنبياء: 107]

وأخبر عن بعض مظاهر رأفته ورحمته بأصحابه، فقال: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [آل عمران: 159]

ولهذا كان رسول الله ﷺ شديد الرحمة حتى بأولئك القساة من المشركين الذين كانوا يحاربونه، حتى عاتبه الله تعالى على ذلك فقال: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (الكهف:6)، وقال: لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (الشعراء:3)

ونهاه أن يحزن على إعراضهم، فقال: وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (آل عمران:176)، وقال: وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (لقمان:23)

وغيرها من الآيات الكريمة التي بين حرص رسول الله ﷺ

على الخلق، خوفا عليهم من المصير الذي ينتظرهم في حال الإعراض عنه، كما عبر عن ذلك بقوله: (مثلي كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها، فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار فتغلبوني تقحمون فيها)(1)

وشبه حاله وحال قومه، فقال: (إن مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني، واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني، وكذب ما جئت به من الحق)(2)

وروي أنه سئل: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ فقال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت. وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلّا وأنا بقرن الثّعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إنّ الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ، ثمّ قال: يا محمّد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقلت: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا)(3)

---

(1) صحيح مسلم 4/ 1789 ح (2284)

(2) صحيح مسلم 4/ 1788 ح (2283)

وهكذا روي أنه عندما طلب منـه الـدعاء على المشـركين، قال: (إنّي لم أبعث لعّانا، وإنّما بعثت رحمة)[1]

أما رحمته بالمؤمنين، فلا يمكن تصور مقدارها، ولهذا كـان يتوقف عن بعض الأعمـال الـتي يحب أداءهـا خشـية أن يتبعـوه فيها، ويشقوا على أنفسهم، ومن ذلك ما روي في الحديث أنــه: أعتم[2] النّبيّ ﷺ ذات ليلـة، حتّى ذهب عامّـة اللّيـل، وحتّى نـام أهل المسجد ثمّ خرج فصلّى، فقال: (إنّه لوقتهـا لـو لا أن أشـقّ على أمّتي)[3]

وكان يقول: (لو لا أن أشقّ على أمّتي أو على النّاس ــ مـا تخلّفت عن سـريّة، ولكن لا أجـد حمولة[4] ولا أجـد مـا أحملهم عليـه، ويشـقّ عليّ أن يتخلّفـوا عنّي، ولـوددت أنّي قـاتلت في سبيل الله فقتلت ثمّ أحييت، ثمّ قتلت ثمّ أحييت)[5]

وكـان يقصـر صـلاة الجماعـة رحمـة بحاجـات المصـلين، ويقول: (إنّي لأقوم في الصّلاة أريد أن أطوّل فيها، فأسمع بكـاء الصّبيّ فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشقّ على أمّه)[6]

وحدث بعض أصحابه عن موقف من مواقف رحمته، فقال: (خرج علينا النّبيّ ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلّى،

3() البخاري [فتح الباري]، 6(3231) ومسلم(1795)

1() مسلم(2599)

2() أعتم: أخر العشاء حتى اشتد الظلام.

3() البخاري [فتح الباري]، 2(569) ومسلم(638)

4() الحمولة: بالفتح ما يحتمل عليه الناس من الدواب.

5() البخاري [فتح الباري]، 6(2972)، ومسلم(1876)

6() البخاري [فتح الباري]، 2(707)، ومسلم(470)

فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها)[1]

وهكذا كانت كل تشريعاته التي فوضها الله له، تنطلـق من الرحمة والسماحة، ومن ذلك قوله: (لـو لا أن أشـقّ على أمّـتي لأمرتهم بالسّواك مع كلّ صلاة)[2]

وكان يقول: (إذا صـلّى أحـدكم للنّـاس فليخفّـف، فـإنّ في النّاس الضّعيف والسّقيم وذا الحاجة)[3]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصـادق ــ فـاعلم أن مجـالات الرحمة تتسـع لكـل شـيء، كمـا عـبر عن ذلـك رسـول اللـه ﷺ بقولـه: (إنّ اللـه كتب الإحسـان على كـلّ شـيء؛ فـإذا قتلتم فأحسـنوا القتلـة، وإذا ذبحتم فأحسـنوا الـذّبح، وليحـدّ أحـدكم شفرته، وليرح ذبيحته)[4].

وحدث ابن مسعود قال: كنّا مع رسول اللـه ﷺ في سـفر، فانطلق لحاجتـه فرأينـا حمّـرة[5] معهـا فرخـان فأخـذنا فرخيهـا فجاءت الحمّـرة فجعلت تفـرّش[6] فجـاء النّـبيّ ﷺ فقـال: (من فجع هذه بولدها؟ ردّوا ولدها إليها) ورأى قرية نمل قد حرّقناها، فقـال: (من حـرّق هـذه؟). قلنـا: نحن، قـال: (إنّـه لا ينبغي أن يعذّب بالنّار إلّا ربّ النّار)[7]

1() البخاري [فتح الباري]، 10(5996)، ومسلم(543)

2() البخاري [فتح الباري]، 2(887)، ومسلم(252)

3() البخاري [فتح الباري]، 2(702) ومسلم(467)

4() مسلم(1955)

5() الحمرة: طائر صغير يشبه العصفور.

6() تفرش: هو أن تفرش جناحيها وتقرب من الأرض وترفرف.

7() سنن أبي داود(5268)

وروي أنـه دخـل دار الحكم بن أيّـوب فـرأى غلمانـا نصـبوا دجاجة يرمونها، فقال أنس: (نهى النّبيّ ﷺ أن تصبر البهـائم[1]) [2]

وكـان يقـول محـذرا من القسـوة مـع الحيوانـات: (عـذبت امـرأة في هـرة لم تطعمهـا ولم تسـقها، ولم تتركهـا تأكـل من خشاش الأرض)[3]

وهكذا فإن الرحمة تشـمل كـل شـيء، ابتـداء من العلاقـة بالمؤمنين التي وصفها رسـول اللـه ﷺ بقولـه: (تـرى المؤمـنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضـو تداعى له سائر جسده بالسّهر والحمّى)[4]

وانتهاء بالعلاقة بغيرهم، والتي أمـر اللـه تعـالى بـأن تمتلئ بالبر والقسط، فقال: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8]

وانتهـاء بالعلاقـة بكـل الكـون.. حـتى تتحقـق في المـؤمن وراثة رسول الله ﷺ في كونـه رحمـة للعـالمين، وحـتى يتحقـق بمقضيات إيمانه بسعة الرحمة الإلهية.

لكن كل هـذه المجـالات ينبغي أن تكـون مصـونة بالحـدود الشرعية، ذلك أن رحمة الظالم قسوة على المظلـوم، ورحمـة المسـتكبر قسـوة على المستضـعف.. لـذلك أمـر اللـه تعـالى بالتخلي عن الرحمة عنـدما تنتهـك الحرمـات، فقـال: ﴿ الزَّانِيَـةُ

1() تصبر البهائم: أي تحبس لترمى حتى تموت.

2() البخاري [فتح الباري]، 9(5513)، ومسلم(1959)

3() رواه البخاري ومسلم.

4() البخاري [فتح الباري]، 10(6011)، ومسلم(2586)

وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [النور: 2]

ذلك أن الرحمة بأمثال هؤلاء ستملأ مجتمعات المسلمين بالرذائل والانحرافات، لذلك كان العلاج المتناسب معها هو التشدد والقسوة، التي هي في حقيقتها مظهر من مظاهر الرحمة، كما عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

وقسا ليزدجروا ومن يك راحما فليقس أحيانا على من يرحم

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ـ فاسع لأن تتخلق بهذه الأخلاق الربانية والنبوية، لتنزل نفسك تلك المنازل الرفيعة التي حل فيها الأنبياء والأولياء.. فلا يمكنك أن ترتقي إلى تلك المحال المقدسة، وتجلس في تلك المقاعد الممتلئة بالصدق إلا بعد أن تملأ قلبك بما تمتلئ به قلوب الجالسين عليها.

العدل والاعتدال

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن العدل والاعتدال، وعلاقتهما بالنفس المطمئنة، وبسائر منازلها، وكيفية التحقق بهما.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن العدل والاعتدال من المنازل الكبرى للنفس المطمئنة، والتي تمتد فروعها الطيبة إلى كل المنازل، بل لا تستقيم المنازل من دونها، ذلك أن لكل فضيلة حدودا لا يمكن حفظها إلا بمراعاة الاعتدال والعدالة.

ومن الأمثلة على ذلك المنازل المرتبطة بالرأفة والرحمة واللطف والحنان وغيرها.. فإن هذه المنازل مع جمالها وكمالها لو لم تضبط بضوابط العدالة والاعتدال، لانصرفت لمن لا يستحقون أمثال تلك المعاملات.

ولهذا أمر الله تعالى باستعمال الشدة في المواضع المرتبطة بها، حفظا للعدالة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73]

ذلك أن من لم يضبط رحمته بضابط العدل، انصرفت لهؤلاء الذين نهى القرآن الكريم أن يُرحموا، لأن في رحمتهم قسوة على المستضعفين المظلومين.

ومثل ذلك أمره بالقسوة على الذين ينحرفون بأخلاق المجتمع، ويهدمون بنيان الفضيلة فيه، كما قال تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ

عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [النور: 2]

ولذلك كان العدل هو القيمة الـتي تحفـظ سـائر القيم من الانحــراف؛ فتتحــول إلى وســيلة من وســائل التضــليل الــتي يستعملها الشيطان لإغواء الإنسان.

وقد اتفق الحكمـاء على هـذا، كمـا عـبر بعضـهم عن ذلـك بقوله: (العدالة: هي الجامعة لجميع الفضائل)(1)

وقال آخر: (العدالة: هي عبـارة عن الحكمـة، وهي توسـط القوة العملية فيما يدبر له الحياة، ولا يدبر)(2)

وقال آخر: (العدالة: هي جماع الخير كله، كمـا أن الجـور ـ المقابل لها ـ جماع الرذائل)(3)

وقال آخر: (العدل: هـو من اسـتجمع جميـع الفضـائل كلهـا غير مقتصر على فضيلة دون أخرى)(4)

وفسر بعضهم دور العدالة في الموازنــة بين قــوى النفس، فقـال: (إنمـا انحصـرت جميـع الفضـائل والرذائـل ــ بـل جميـع الأفاعيل الصادرة عن الإنسان ــ في القـوى الثلاث ــ الـتي هي أصول، وهي: القوة العقلية النطقية، والقوة الشهوانية، والقــوة الغضبية ـ وكان الكمال الإنساني إنما هو بأن يستولى على قواه البدنية، بحيث يكون شهوته وغضبه وفكره في تدبير أمر الحيـاة ـ وغيرها ــ على مقتضـى الصـواب والخـير الـذي لا يخطأ فيـه.. على نهج العدالــة الواســطة الغــير المنحرفــة إلى الأطــراف

1() الغزالي، ميزان العمل، ص 286.

2() اللمحات في الحقائق لشهاب الدين السهروردي الإشراقي، ص 213.

3()كمال الدين القاشاني، لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 416، 418.

4() لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 416، 418.

بالإفراط والتفريط، صارت العدالة الوسيطة هي خير الأمور وجماع الفضائل كلها، كما قال ﷺ: (خير الأمور أوسطها)[1]

ثم ذكر الرذائل المنحرفة عن [العدالة]، فقال: (فللشهوانية طرفان: إفراط: هو الفجور، وتفريط: هو الجمود، ووسيطة بينهما هو العفة.. وللغضبية طرفان إفراط: هو التهور، وتفريط: هو الجبن، وتوسط بينهما هو: الشجاعة.. والنطقية طرفان، إفراط: هو الجربزة، وتفريط: هو البله، وتوسط بينهما هو: الحكمة.. فمتى استجمعت النفس هذه الفضائل الثلاث ــ التي هي أصول الفضائل كلها، وهي: العفة والشجاعة والحكمة.. وتنزهت عن رذائل الأطراف الست التي هي أمهات الرذائل كلها، وهي: الفجور والجمود والتهور والجبن والجربزة والبله؛ فقد تخلقت بالعدالة لما تحققت بما تخلقت به من التحلي بأمهات الفضائل كلها، والتخلي عن الرذائل جميعها)[2]

وقال آخر مبينا دور العدالة في سياسة النفس: (العدل: حالة للنفس وقوة بها، تسوس الغضب والشهوة، وتحملهما على مقتضى الحكمة، وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها)[3]

وقال آخر مبينا موازين العدل المرتبطة باللطائف الإنسانية: (ميزان العدل في الدنيا ثلاثة: ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسر.. فميزان النفس والروح: الأمر والنهي، وكفَّتاه: الوعد والوعيد.. وميزان القلب والعقل: الإيمان والتوحيد، وكفَّتاه: الثواب والعقاب.. وميزان المعرفة والسر: الرضا والسخط، وكفَّتاه: الهرب

1 () مصنف ابن أبي شيبة ج: 7 ص: 179 برقم 35128.

2() كمال الدين القاشاني، لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام، ص 416، 418.

3() إحياء علوم الدين، ج 3 ص 54.

والطلب.. فمن وزن أفعال النفس والروح بميزان الأمـر والنهي بكفـة الكتـاب والسـنة، ينـال الـدرجات في الجنـان.. ومن وزن حركـات القلب والعقـل بمـيزان الثـواب والعقـاب بكفـة الوعـد والوعيد، أصاب الدرجات ونجا من جميـع المشـقات.. ومن وزن خطرات المعرفة والسر بميزان الرضـا والسـخط بكفـة الهـرب والطلب، نجـا من الـذي هـرب، ووصـل إلى مـا طلب، فيصـير عيشــه في الــدنيا على الهــرب، وخروجــه منهــا على الطلب، وعاقبته إلى غاية الطرب)([1])

وقال آخـر مبينـا ضـرورة العدالـة في كـل مجـالات الحيـاة النفسية والاجتماعية: (العـدل: هـو صـرف مـا أعطـاك اللـه من الآلات الجســمانية والروحانيــة، ومن الأمــوال الدنيويــة، ومن شرائع الدين وأعماله في طلب الله والسـير منـك بـه إليـه، لأن صرفه في طلب غيره ظلم)([2])

وقال آخـر مبينـا علاقـة العدالـة بـالمروءة: (العدالـة صـفة تـوجب مراعاتهـا الاحـتراز عمّـا يخـلّ بـالمروءة عـادة ظـاهرا، فالمرّة الواحـدة من صـغائر الهفـوات، وتحريـف الكلام لا تخـلّ بالمروءة ظاهرا لاحتمال الغلـط والنّسـيان والتّأويـل، بخلاف مـا إذا عرف منه ذلك وتكرّر، فيكون الظّاهر الإخلال، ويعتبر عــرف كلّ شخص وما يعتاده من لبسه، وتعاطيه للبيع، والشّراء وحمل الأمتعة، وغير ذلك، فإذا فعل ما لا يليـق بـه لغـير ضـرورة قـدح وإلّا فلا)([3])

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فـاعلم أن النصـوص المقدسة حثت على التخلق بهذا الخلق، والنزول هـذه المـنزل،

1() أبو عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير، ص 845.

2() إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، ج 5 ص 71.

3() المصباح المنير(2/ 44 ـ 45)

وفي كل المقامات والمحال، ومن دون أن نستثني أحدا أو جهة أو موضوعا، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (النساء: 135)

وينهانا الله تعالى أن نلاحظ أنفسنا وأهواءنا، ونحن نتخذ أي موقف.. فالمؤمن هو الذي سلم أمره لله، وعقله لله، وقلبه لله، فهو يتعامل مع عباد الله كما أمر الله.. والله هو الحكم العدل الذي لا تضيع عنده الحقوق.. قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة:8)

وفي آية أخرى جمع الله تعالى الأصول الكبرى التي تقوم عليها العدالة، فقال: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (الشورى:15)

وقد ذكر المفسرون للآية الكريمة أن فيها عشر كلمات مستقلات، كل كلمة منها منفصلة عن التي قبلها، ولكل هذه الكلمات علاقة بالعدل في صورته المطلقة الكاملة الجميلة، وهي الصورة التي تجعل الناس لا محالة يدخلون في دين الله أفواجا[1]:

أما الكلمة الأولى، فقوله تعالى: فَلِذَلِكَ فَادْعُ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين

1() انظر: ابن كثير: 7/195، وغيره.

قبلك أصحاب الشـرائع الكبـار المتبعـة كـأولي العـزم وغـيرهم، فادعُ الناس إليه.. وفي هـذا منتهى العـدل، فـالنبي ﷺ أمـر بـأن يحكم الناس بأصول الشرائع التي اتفقت عليهـا الملـل، وهي لا تتفق إلا على ما يتفق مع العدل والفطرة.

أما الكلمة الثانية، فقوله تعـالى: ﴿ وَاسْـتَقِمْ كَمَـا أُمِـرْتَ ﴾ أي: اسـتقم أنت يـا محمـد ومن اتبعـك على عبـادة اللـه، كمـا أمركم الله عز وجل.. وفي هذا منتهى العدل.. فالعادل هو الذي يبدأ بنفسه.. وهو الذي يطبق ما يقتضيه العدل على نفسه قبـل أن يطبقه على غيره.

أما الكلمة الثالثة، فقوله تعـالى: ﴿ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْـوَاءَهُمْ ﴾ لأن العادل هـو الـذي جعـل السـلطة للقـانون لا للهـوى.. كمـا قـال تعالى لداود عليه السلام: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَـةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِـلَّكَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَـوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (صّ:26)، فقد أخبر اللـه في هـذه الآيـة الكريمـة أن الهوى لا نتيجة له إلا الإضلال عن سبيل الله.

أما الكلمة الرابعة، فقوله تعـالى: ﴿ وَقُـلْ آمَنْتُ بِمَـا أَنـزلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أي: صدقت بجميع الكتب المنزلة على الأنبيـاء، لا نفرق بين أحد منهم.. وفي هذا منتهى العدل في التعامل مـع مقدسات الملل والنحل.

أمـا الكلمـة الخامسـة، فقولـه تعـالى: ﴿ وَأُمِـرْتُ لأعْـدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أي: أني لن أحكمكم إلا بما يقتضيه العدل.

أما الكلمة السادسة، فقولـه تعـالى: ﴿ اللَّهُ رَبُّنَـا وَرَبُّكُمْ ﴾.. وهي آيـة عظيمـة في مـدلولها المرتبـط بالعـدل.. فالآيـة تـذكر المؤمنين أن رب العباد ــ كـافرهم ومـؤمنهم واحـد ــ ولـذلك لا

ينبغي التعامل معهم إلا وفق ما أمر به اللـه.. واللـه لم يـأمر إلا بالعدل.

أمـا الكلمـة السـابعة، فقولـه تعـالى: لَنَـا أَعْمَالُنَـا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ أي لكل منا عمله الذي يحاسب عليه، ويسـأل عنـه.. وكل ذلك عند الله.. وفي هذا منتهى العدل.. فالعادل هـو الـذي يسلم الأمر لأهله، ولا يتدخل إلا فيما تطلبه العدالة من مواقف.

أو أن هذه الآية مثـل قولـه تعـالى: وَإِنْ كَـذَّبُوكَ فَقُـلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَـلُ وَأَنَـا بَـرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (يونس:41).. أي أن حالي كحـالكم، فـأنتم لا ترضـون عن عملي كمـا أني لا أرضـى عن عملكم.. ولـذلك لا ينبغي أن يجور أحد منا على الآخر.

أما الكلمة الثامنـة، فقولـه تعـالى: لا حُجَّةَ بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُمُ أي لا خصـومة بيننـا وبينكم بسـبب مواقـف بعضـنا من بعض.. فالبراءة من العمل لا تعني الإلزام الذي يتنافى مع العدل.

أما الكلمة التاسعة، فقوله تعـالى: اللَّهُ يَجْمَـعُ بَيْنَنَـا أي: يوم القيامـة، وفي هـذا توجيـه للمؤمـنين بتسـليم الأمـر لعدالـة الله.. وكأنها تقول للمؤمنين المستعجلين: رويدكم.. ذروا هـؤلاء الذين تبرأتم من أعمـالهم للـه.. فاللـه هـو الحكم العـدل الـذي يحكم بينكم.

أما الكلمة العاشرة، فقولـه تعـالى: وَإِلَيْـهِ الْمَصِـيرُ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.. في هذا تذكير بالعدالة المطلقـة التي تتجلى في ذلك اليوم العظيم الذي تنصب فيه الموازين فلا تضيع مثقال ذرة، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (النسـاء:40)، وقال: وَنَضَـعُ الْمَـوَازِينَ الْقِسْـطَ لِيَـوْمِ الْقِيَامَـةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ

شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الانبياء:47)

وهكذا يمكنك ـ أيها المريد الصـادق ــ بالتأمـل في القـرآن الكريم أن تجد ارتبـاط العدالـة بكـل المجـالات، وتخلفهـا يعـني الانحـراف عن السـراط المسـتقيم، كمـا يشـير إلى ذلـك قولـه تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَـاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُـوا السُّـبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: 153]

ولذلك وصف الله تعالى الأمة الصادقة في اتباعها لرسـول الله ﷺ بكونها أمة وسـطا، أي بعيـدة عن كـل أنـواع الانحـراف، فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُـولُ عَلَيْكُمْ شَـهِيدًا ﴾ [البقـرة: 143] أي جعلنـاكم عدولا لانتهاجكم الطريق القويم والصراط المستقيم.

وهكذا نجد القرآن الكريم يأمر بالتوسط والاعتدال في كل الشـؤون حـتى الخيريـة منهـا، قـال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُـوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُـرُوا وَكَـانَ بَيْنَ ذَلِـكَ قَوَامًـا﴾[الفرقـان: 67]، ثم قـال: ﴿ أُولَئِكَ يُجْـزَوْنَ الْغُرْفَـةَ بِمَـا صَـبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَـا تَحِيَّةً وَسَـلَامًا ﴾ [الفرقـان: 75]، فجعـل الإنفـاق المعتـدل الـذي لا إسراف فيه ولا إقتار سبيل المثوبة بدار السلام.

ومثله ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِـكَ وَلَا تَبْسُـطْهَا كُـلَّ الْبَسْـطِ فَتَقْعُـدَ مَلُومًـا مَحْسُـورًا ﴾ [الإسراء: 29]، وهي عامة تشمل كل الشؤون.

ولهـذا ورد الثنـاء على القـائمين بالعـدل، واعتبـارهم نخبـة الأمة وصفوتها، قـال تعـالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَـا أُمَّةٌ يَهْـدُونَ بِـالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: 181]

وقارن بين القائمين بالعدل والمقصرين فيه، فقال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: 76]

وهكذا ورد في السنة المطهرة الحث على العدل والاعتدال، وفي كل المحال، وبالأساليب المختلفة، ومنها تلك البشارات العظيمة التي ربطها رسول الله ﷺ بالعدل في قوله: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)[1]

فرسول الله ﷺ في هذا الحديث يبشر الإمام العادل بالظل الإلهي في اليوم الذي يحترق فيه الإمام الجائر بنار جوره.. وقد قرن رسول الله ﷺ الإمام العادل بأولئك الطيبين الكرام المنشغلين بالله، للدلالة على دور العدل في كل تلك الصفات.

وقال ﷺ في بشارة أخرى للقائمين بالعدل:(إن المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[2]

وفي هذا إشارة إلى أن العدل هو المرقاة التي يرقى بها العبد إلى تلك المنابر النورانية، التي تؤهله للترقي في معارج

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه مسلم.

الكمال.. وقد عمم رسـول اللـه ﷺ العـدل وأطلقـه.. فالعـدل لا يكمل إلا بذلك، ولا يصح إلا بذلك.

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ:(أهـل الجنـة ثلاثـة: ذو سـلطان مقسـط موفـق، ورجـل رحيم رقيـق القلب لكـل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال)[1]

فقد جعل رسول اللـه ﷺ الحـاكم العـادل أول من ذكـرهم من أهل الجنة، وقرنه بالرجل الرحيم، والرجـل العفيـف، وكأنـه يقـول لنـا: إن العدالـة تنبـني على هـذين الأساسـين: الرحمـة والعفاف.. فلا يقف في وجه العدالة، ولا ينحرف بها إلا القسـوة والطمع.

وفي حديث آخر قال ﷺ:(ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حـتى يفطـر، والإمـام العـادل، ودعـوة المظلـوم، يرفعهـا اللـه فـوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء)، ويقول الرب:(وعزتي وجلالي لأنصرنك، ولو بعد حين)[2]

فقد ضمن رسول الله ﷺ للإمـام العـادل اسـتجابة الـدعاء، وهو لا يسـتجاب إلا من قـريب، وقرنـه ﷺ بالصـائم.. فالعـدل لا يتحقق إلا لمن انتصر على نفسه، وعرف كيف يهـذبها.. وربطـه ﷺ الإمام العادل بدعوة المظلوم.. وكأنـه ينـبئ عن علاج يعـالج به مرض الجور، وهو التحذير من دعوة المظلوم.

وفي مقابل ذلك ورد النهي عن الجور، وبأشد الصيغ، ومنها قوله ﷺ:(إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيـا أو قتلـه نبي وإمـام جـائر)[3]، فقـد قـرن رسـول اللـه ﷺ الإمـام الجـائر

1() رواه مسلم.

2() رواه الترمذي.

3() رواه الطبراني.

بقاتل النبي وبمن قتله النبي.. فالأنبياء ــ عليهم السلام ــ كلهم في منتهى الرحمة، ولا يقتلهم ولا يقتلون إلا من بلغت به القسوة حدها.. وأخبر ﷺ عن شدة العذاب التي يعانيها الإمام الجائر، وكأن كل العذاب الذي صليت به رعيته يصب عليه دفعة واحدة جزاء وفاقا.

وفي حديث آخر قال ﷺ:(أربعة يبغضهم الله: البياع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر)[1]، وفي رواية:(وملك كذاب، وعائل مستكبر)[2]

وفي هذا الحديث إشارة إلى أن الجور منبع لكل الرذائل، ولذلك قرن الإمام الجائر بأصحاب الهمم الدنية من المنحطين المخذولين.

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(إني أخاف على أمتي من أعمال ثلاثة)، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: (زلة عالم، وحكم جائر، وهوى متبع)[3]، فقد قرن رسول الله ﷺ بين هؤلاء الثلاثة.. فالحكم الجائر لا يتأسس إلا على الزلات التي يقع فيها العالم الذي لم يتثبت في علمه، والهوى الذي يجعل الحاكم لا يختار من كلام العلماء إلا الزلات.

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(لا يقدس الله أمة لا يقضى فيها بالحق، ويأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع)[4]، وفيه إشارة صريحة إلى أن التقديس، وهو التطهير والرفع والترقي لا يتحقق إلا بالعدل.

1() رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

2() رواه مسلم.

3() رواه ابن خزيمة في صحيحه.

4() رواه الطبراني بإسناد جيد.

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي دعا فيها رسول اللـه ﷺ إلى تحقيق قيم العدل، لا في عالم المجتمع فقط، بل في عـالم النفس أيضا، لأنه لا يتحقق العدل في المجتمـع قبـل أن تتحقـق به النفوس.. فالخارج صدى الداخل، وكل إناء بما فيه ينضح.

ولم يكتف رسول الله ﷺ بتلك التوجيهـات، وإنمـا كـان في حياتـه جميعـا يمـارس العـدل، وبصـورته الجميلـة، وفي تلـك الظروف الصعبة التي يتوهم الكثير أن العدالة قـد تتخلـف فيهـا بناء على قوانين الطوارئ.

ومن الأمثلة على ما روي في الحـديث أن رسـول اللـه ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قـدح يُعـدِّل بـه القـوم، فمرَّ بسواد بن غزيَّة حليف بني عدي ابن النجـار، وهـو مسـتنتل من الصـف، فطعن رسـول اللـه ﷺ بالقـدح في بطنـه، وقـال: (استوِ يا سواد) فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقـد بعثـك اللـه بالعدل، فأقدني، فقـال لـه رسـول اللـه ﷺ: (اسـتقد)، قـال: يـا رسول الله، إنَّك طعنتـني، وليس عليَّ قميص، فكشـف رسـول الله ﷺ عن بطنه، وقال: (استقد).. فاعتنقه، وقبَّل بطنه، وقـال: (ما حملك على هذا يا سواد؟)، قال: يا رسول الله، حضرني مـا ترى، ولم آمن القتل، فأردت أن يكون آخر العهـد بـك أن يمس جلدي جلدك. فدعا رسول الله ﷺ له بخير[1].

وفي حديث آخر روي: أنَّ قريشًا أهمَّهم شأن المرأة الـتي سَـرقت في عهـد النـبي ﷺ في غـزوة الفتح، فقـالوا: من يكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ. فأتى بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ، فقـال: (أتشـفع في حـدٍّ من حدود الله؟) فقال له أسامة: استغفر لي يـا رسـول اللـه. فلمـا

1() رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة: [3/1404]

كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، فـأثنى على اللـه بمـا هو أهله، ثم قـال (أمـا بعـد: فإنمـا أهلـك الـذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سـرق فيهم الضـعيف أقاموا عليه الحد، وإني ـ والذي نفسي بيده ـ لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[1]

وفي حديث آخر: أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد اللـه بن رواحة إلى خيبر، فيخرص بينه وبين يهود خيبر، قال: فجمعوا لـه حليا من حلي نسائهم، فقالوا له: هذا لك ـ يعني رشوة ـ وخفف عنا وتجاوز في القسم، فقـال عبـد اللـه بن رواحـة: (يـا معشـر اليهود! والله إنكم لمن أبغض خلق اللـه إليّ، ومـا ذاك بحـاملي على أن أحيف عليكم، فأما ما عرضـتم عليّ من الرشـوة فإنهـا سحت، وإنا لا نأكلها)، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[2].

وعلى هذا المنهاج سار جميع أئمة الهـدى، والـذين تحملـوا البلاء العظيم نتيجة دعوتهم للعدالة، وفي كـل المجـالات، وعلى رأسـهم الإمـام علي الـذي امتلأت كلماتـه وخطبـه بـالحث على العدالة، وبيـان مجالاتهـا وحقائقهـا ومنزلتهـا.. ومن ذلـك قولـه: (العدل أساس به قوام العالم)، وقال: (العدل ميزان الله الـذي وضعه للخلق ونصبه لإقامة الحقّ)، وقـال: (حسـبكم دلالـة على فضيلة العدل أن الجور الذي هو ضدّه لا يقـوم إلّا بـه، وذلـك أن اللّصـوص إذا أخـذوا الأمـوال واقتسـموها بينهم، احتـاجوا إلى استعمال العدل في اقتسامهم، وإلّا أضرّ ذلك بهم) [3]

وكان يقول: (فاللّه عـزّ وجـلّ، جعـل العـدل قوامـا للأنـام، وتنزيها من المظالم والآثـام، وتسـنية للإسـلام)، ويقـول: (عـدل

1() رواه البخاري: [3475]، ومسلم: [1688])

2() رواه مالك.

3() ميزان الحكمة: ج 6، ص 78.

السلطان خير من خصب الزمـان)، ويقـول: (الأرض لـتزين في أعين الناس إذا كان عليها إمام عادل، وتقبح إذا كان عليها إمـام جائر)، ويقول: (عدل ساعة خير من عبـادة سـبعين سـنة، قيـام ليلها وصيام نهارها، وجـور سـاعة في حكم، أشـدّ عنـد اللـه من معاصي ستين سنة) [1]

ويتحدث عن العدل السياسـي، وعلاقتـه بالعـدل النفسـي، فيقول: (جب على السلطان أن يلتزم العـدل في ظـاهر أفعالـه لإقامة أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لإقامـة أمـر دينـه، فـإذا فسـدت السياسـة ذهب السـلطان، ومـدار السياسـة كلهـا على العـدل والإنصـاف، فلا يقـوم سـلطان لأهـل الإيمـان والكفـر إلّا بهمـا، والإمـام العـادل كـالقلب بين الجـوارح تصـلح الجـوارح بصلاحه، وتفسد بفساده)[2]

وعنـدما سـئل: (أيّهمـا أفضـل: العـدل أو الجـود؟)، أجـاب بقوله: (العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يخرجها عن جهتهـا. والعدل سائس عام، والجود عارض خاص، فالعدل أشرفهما)[3]

وفي أوّل خطبة ألقاها بعد مبايعة الناس له، قال لهم: (أيها الناس الدنيا دار حق وباطل، ولكلّ أهـل، ألا ولئن غلب الباطـل فقديما كان وفعل، ولئن قل الحـق فلربمـا ولعـل، ولقلّمـا أدبـر شيء وأقبل، ولئن ردّ عليكم أمركم إنكم لسـعداء. إن اللـه عـزّ وجلّ أدب هذه الأمـة بالسـيف والسـوط فاسـتتروا في بيـوتكم، وأصلحوا ذات بينكم، فإن التوبة من ورائكم، وما عليّ إلّا الجهد، ألا وإن الخطايا خيل شمس حمـل عليهـا أهلهـا وخلعت لجمهـا، فتقحمت بهم إلى النار. ألا وإن التقوى مطايا ذلـل حمـل عليهـا

1() ميزان الحكمة: ج 6، ص 78.

2() قاموس الحكم والأمثال: ص 433.

3() نهج البلاغة: الحكم، 437.

أهلهـا وأعطـوا أزمّتهـا، فـأوردتهم الجنّـة، وفتحـوا لهم أبوابـا، ووجـدوا ريحهـا وطيبهـا وقيـل لهم: ﴿ادْخُلُوهَـا بِسَـلاَمٍ آمِنِين﴾ [الحجر:46].. اليمين والشمال مضـلّة والطريـق الوسـطى هي الجـادة عليهـا يـأتي الكتـاب وآثـار النبـوّة، إن على الإمـام الاستقامة، وعلى الرعية التسليم. ليس أمـري وأمـركم واحـدا، وإني أريدكم للّه وأنتم تريـدونني لأنفسـكم! وأيم اللـه لأنصـحن للخصم، ولأنصـفنّ للمظلـوم.. ذمّـتي بمـا أقـول رهينـة وأنـا بـه زعيم، إن من صـرّحت لـه العـبر عمّـا بين يديـه من المثلّات، حجزته التقوى عن تقحّم الشبهات)[1]

ولم تكن تلـك التعـاليم مجـرد كلمـات، وإنمـا كـانت أفعـالا كلفته عداوات كثيرة.. فالمسـتكبرون والانتهـازيون الـذين ملأوا جيوبهم من أموال المستضعفين وعرقهم لم يقبلـوا منـه ذلـك.. فلذلك وقف في خيارات صعبة بين إرضـائهم أو إرضـاء العدالـة التي كلفه الله بها.. لكن تربية رسـول اللـه ﷺ لـه وضـعته على السـراط المسـتقيم، فلم يبـال بكـل تلـك المعارضـات الـتي عارضت ما اقتضته العدالة.

ومن مواقفه القويـة في العدالـة، رده الأمـور إلى نصـابها، وخاصة من أولئك الذين استغلوا ما فعله مروان أيام عثمان من إعطاء من لا يستحق من أموال المسلمين، حيث أمـر بـرد كـل شيء إلى محله الصـحيح من غـير أن يـبرر ذلـك بكونـه قـديما، وليس في عصره، وقد قـال في ذلـك: (ألا وإن كـل مـا أقطعـه عثمان من مال الله مردود إلى بيت مال المسلمين، فإن الحـق قديم لا يبطله شيء، وو الله لو وجدته تفرّق في البلدان وتزوّج به النساء وملك به الإماء، لرددتـه! فـإن في العـدل سـعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق)[2]

1() نهج البلاغة: خطبة 16، البيان والتبيين: ج 2، ص 65.

2() دعائم الإسلام: ج 1، ص 396.

وكان يقول لرعيته في تلك الفترة القصيرة التي ولي فيها، والتي كانت ممتلئة بالفتن التي أثارها المشاغبون ضــده: (و أيم الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه، ولآخذنّ الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها)[1]

وكان يقول لهم بكل قـوة: (مـا ضـعفت ولا جبنت! فلأنقبنّ الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته)، ويقـول: (ظلم الضـعيف أفحش الظلم)، ويقــول: (الظلم في الــدنيا بــوار، وفي الآخــرة دمار)، ويقول: (من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده)، ويقول: (أقدموا على الله مظلومين، ولا تقدموا عليـه ظـالمين)[2]

وكان يذكرهم بنفسه، وبخوفه من الجور، ويقول: (و اللّـه.. لأن أبيت على حسّــك الســعدان مســهّدا، أو أجــرّ في الأغلال مصفدا، أحبّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة، ظالما لبعض العبـاد، وغاصـبا لشـيء من الحطـام، وكيـف أظلم أحـدا لنفس إلى البلي قفولها، ويطول في الـثرى حلولهـا.. واللّـه لـو أعطيت الأقاليم السبعة بمـا تحت أفلاكهـا على أن أعصـي اللـه في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته.. مـا لعليّ ولنعيم يفـنى، ولذة لا تبقى.. نعـوذ باللّـه من سـبات العقـل، وقبّح الزلـل وبـه نستعين)[3]

وقد سأله بعضهم: أي ذنب أعجل عقوبة؟ فقال: (من ظلم من لا ناصـر لـه، إلّا اللّـه، وجـاور النعمـة بالتقصـير، واسـتطال بالبغي على الفقير)[4]

1() النهاية لابن الأثير، ج 3، ص 467.

2() ميزان الحكمة: ج 5، ص 595.

3() ربيع الأبرار: باب الخير والصلاح.

ولم يكن يكتفي بمراعاة العدل أو الدعوة إليه، وإنما كان ينهى عن كل موالاة للظلمة أو سكوت عنهم، وكان يقول: (العامل بالظلم، والمعين عليه، والراضي به شركاء ثلاثة)[1]

وقال: (من أعان ظالما على ظلمه جاء يوم القيامة وعلى جبهته مكتوب آيس من رحمة اللّه)[2] و(من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام)[3]

وعلى هذا المنهاج سار جميع أئمة الهدى، وقد قال الإمام الصادق: (ما ناصح الله عبد مسلم في نفسه، فأعطى الحق منها وأخذ الحق لها إلا أعطي خصلتين: رزقا من الله يقنع به، ورضاً عن الله ينجيه)[4]

وقال مخاطبا بعض أصحابه: (ألا أخبرك بأشد ما فرض الله على خلقه؟.. إن من أشد ما فرض الله على خلقه إنصافك الناس من نفسك، ومواساتك أخاك المسلم في مالك، وذكر الله كثيرا، أما إني لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ـ وإن كان منه ـ لكن ذكر الله عند ما أحلّ وما حرّم، فإن كان طاعة عمل بها، وإن كان معصية تركها)[5]

وقال: (ثلاثة هم أقرب الخلق إلى الله عز وجل يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب: رجل لم تدعه قدرة في حال

4() بحار الأنوار: ج 75، ص 320.

1() ميزان الحكمة: ج 5، ص 612.

2() كنز العمال: خ 14950.

3() كنز العمال: خ 14955.

4() الخصال 1/25.

5()أمالي الطوسي 2/278.

غضبه إلى أن يحيف على من تحت يده، ورجل مشى بين اثـنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة، ورجل قال بالحق فيما له وعليه)[1]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسـع لأن تـنزل هـذا المـنزل العظيم، حـتى تتحقـق فيـك العدالـة بجميـع صورها ومظاهرها.. فلا يمكنك أن تـزكي نفسـك، ولا أن ترقيهـا ما لم تتحقق بذلك...

____

1() الكافي 2/145.

الإحسان الشامل

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الإحسان الذي ورد تعريفه في قوله ﷺ: (أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك)[1]، وعن حقيقته، ومنزلته، وكيفية التحقق به.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الإحسان من المنازل الرفيعة التي لها علاقة بكل المكارم، بل لا تكرم المكارم إلا بتوفره.. وهو في ذلك متمم للعدل، لأن العدل يراعي الحدود المرتبطة بالصفات والأعمال حتى لا تنحرف عن السراط المستقيم، والإحسان هو الذي يرفع تلك الصفات والأعمال ليملأها بالطهارة والجمال والتقدس.

وسر ذلك هو ما عبر عنه رسول الله ﷺ في الحديث الذي أشرت إليه، ذلك أن جمال كل شيء وكماله في علاقته بالله.. ولذلك عندما يمتلئ قلب السالك بالشعور بحضور الله تعالى تنتقل تلك المعية من المشاعر إلى الأعمال، فتمتلئ بالحسن والجمال.

ولذلك؛ فإن الإحسان ليس عملا من الأعمال، وإنما هو صفة من صفات الأعمال، فهي قد تؤدى بصورته البسيطة الدنيا.. وقد تؤدى بمنتهى الإتقان والجمال، وحينها فقط يمكن أن ينطبق عليها وصف الإحسان.

وقد اتفق الحكماء على هذا، فاعتبروا الإحسان منزلة مرتبطة بكل المنازل، أو درجة من درجات كل المنازل، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (الإحسان: هو ملاك جوامع مكارم

1() البخاري [فتح الباري]، 1(50)، ومسلم(9)

الأخلاق)[1]

وقال آخر: (الإحسان: هو اسم يجمع جميع أبواب الحقائق، أعني يحوي جميع المقامات)[2]

وذكر آخر سبب ذلـك، وهـو مـا دل عليـه الحـديث، فقـال: (الإحسان: هو اسم لمقام يكون العبد فيه ملاحظـاً لآثـار أسـماء الحق وصفاته، فيتصور في عبادته كأنه بين يدي الله تعـالى، فلا يزال ناظرا إلى هذه الكينونـة. وأقـل درجاتـه: أن ينظـر إلى أن الله ناظر إليه، وهذه أول درجات المراقبة)[3]

وقال آخر: (الإحسان: هـو عبـادة اللـه بطريـق المشـاهدة، وإذا حصل الشهود حصل الوصل)[4]

وقال آخر: (الإحسان: هو شهود اللـه تعـالى شـهوداً كامـل التنــزيه عمـا لا يليـق بعظمتـه تعـالى، والحضـور معـه في كـل شيء)[5]

وقال آخر: (الإحسان: هو أن يكون العبد في مقام الشـهود لا في مقام الغيبة)[6]

وقال آخر: (الإحسان: هو كمال الإيمان، ومعنـاه: فعـل مـا

1() الباعث على الخلاص في أحوال الخواص، ص 10.

2() حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب (هامش قوت القلوب لأبي طالب المكي)، ج 2ص 230

3()الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، ج 2 ص 91.

4()تفسير روح البيان، ج 8 ص 471.

5()معالم الطريق إلى الله، ص 359.

6()التفسير الكبير، ج 2 ص 687.

أمر الله تعالى به، وترك ما نهى الله تعالى عنه)[1]

وذكــر آخــر درجاتــه، واســتيعابها لكــل المنــازل، فقــال: (الإحســان على ثلاث درجــات: الدرجــة الأولى: الإحســان في القصد، بتهذيبه علماً، وإبرامـه عزمـاً، وتصـفيته حـالاً.. والدرجـة الثانية: الإحسان في الأحـوال، هـو أن تراعيهـا غـيرة، وتسـترها تظرفــاً، وتصــححها تحقيقــاً.. والدرجــة الثالثــة: الإحســان في الوقت، وهو أن لا تزايل المشاهدة أبداً، ولا تلحظ لهمتـك أمـداً، وتجعل هجرتك إلى الحق سرمداً)[2]

وقال آخر: (التحقيق بمقام الإحسان وذاك بحسب المقـام، فالمبتدئ ينبغي أن يعبد الله كأن الحق يـراه، والمتوسـط ينبغي أن يعبد الله كأنه هو يـرى الحـق، والمنتهي ينبغي أن يـرى اللـه في الصلاة من حيث التحقيق لا من حيث التقليد)[3]

وبناء على هذا ذكروا كيفيـة التحقـق بمرتبـة الإحسـان في كل عمل من الأعمال، أو منزل من المنازل، وقـد عـبر بعضـهم عن ذلك، فقال: (الإحسان: هو لزوم النفس لكل مستحسن من الأفعال والأقوال.. وهو إحسان المعاملة على رؤية الحق)[4]

وقـال آخـر: (الإحسـان في ثلاثـة أشـياء: في أن تعبـده ولا تشرك به، والثاني: أن تعمل لـه على المشـاهدة.. والثـالث: أن تسرع إلى أوامره وتتباعد عن مناهيه)[5]

1() طهارة القلوب، ص 8.

2() منازل السائرين، ص 75، 76.

3() علي البندنيجي، شرح العينية، ص 49.

4() حقائق التفسير، ص 696، 698.

5() حقائق التفسير، ص 1380.

وقال آخر: (الإحسان: هو أن ترفق مـع كـل أحـد إلا معـك، فإحسانك إلى نفسك في صورة إساءتك إليها في ظن الاعتماد، وذلــك لارتكابــك كــل شــديدة، ومقاســاتك فيــه كــل عظيمــة. والإحسان أيضاً: ترك جميع حظوظك من غير بقية.. والإحســان: تفرغك إلى قضاء كل أحـد علـق عليـك حديثـه.. والإحســان: أن تعبــده على غــير غفلــة.. والإحســان: أن تعبــده وأنت بوصــف المشاهدة)[1]

ومــا ذكــره هــؤلاء الحكمــاء وغــيرهم، هــو مــا دلت عليــه النصوص المقدسة الكثيرة، والتي تخبر استيعاب الإحسان لكــل الأعمال والمراتب، كما عبر عن ذلك رسول الله ﷺ بقولــه: (إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة[2] وإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبح، وليحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته)[3]

وهكذا يرد التفريق بين الإسلام العادي، والإســلام الحســن، ففي الحــديث قــال رســول اللــه ﷺ: (إذا أســلم العبــد فحســن إسلامه يكفّر الله عنه كــلّ ســيّئة كــان زلفها[4] وكــان بعــد ذلــك القصاص: الحسنة بعشر أمثالها إلى ســبعمائة ضــعف، والسّــيّئة بمثلها، إلّا أن يتجاوز الله عنها)[5]

وفي حديث آخر سئل رســول اللــه ﷺ: أ نؤاخــذ بمــا عملنــا في الجاهليّــة؟ فقــال: (من أحســن في الإســلام لم يؤاخــذ بمــا

1() تفسير لطائف الإشارات، ج 1 ص 174، 175.

2() القتلة: الهيئة والحالة.

3() مسلم(1955)

4() زلفها: أي اقترفها وفعلها.

5() البخاري [فتح الباري]، 1(41)، ومسلم(129)

عمل في الجاهليّة، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأوّل والآخر)[1]

ولهذا يرد في الأحاديث الدرجات المختلفة للأعمال، والـتي تبدأ بالحدود الدنيا، وتنتهي بالإحسان، كما يشير إلى ذلـك قولـه ﷺ في الإحسان في الطهـارة: (مـا من مسـلم يتوضّـأ فيحسـن وضوءه، ثمّ يقوم فيصلّي ركعتين. مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلّا وجبت له الجنّة)[2]

وقـال في الإحسـان في الصـلاة: (مـا من امـرىء مسـلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشـوعها وركوعهـا. إلّا كانت كفّارة لمـا قبلهـا من الـذّنوب. مـا لم يـؤت كبـيرة. وذلـك الدّهر كلّه)[3]

وأخبر ﷺ عن الحسرة التي يجدها المؤمنون يـوم القيامـة، بسـبب مراعـاتهم لأداء الأعمـال، وعـدم مراعـاتهم للإحسـان، فقال: (ما من أحد يموت إلا ندم)، قالوا: وما ندامتـه يـا رسـول الله؟ قـال: (إن كـان محسـناً نـدم أن لا يكـون ازداد، وإن كـان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع)[4]

وهكذا كـان رسـول اللـه ﷺ يحض على الإحسـان في كـل المجالات، وقد روي في الحديث أن رجلا جـاء إليـه، يطلب منـه الخروج معه للجهاد، ومع أنه ﷺ كان محتاجـا لكـل جنـدي معـه، ليقاوم المستكبرين إلا أنه قال له: (هل من والـديك أحـد حيّ؟)

1() البخاري [فتح الباري]، 12(6921)، مسلم(120)

2() مسلم(234)

3() مسلم(228)

4() رواه الترمـذي (2403) وابن عـدي (7/2660) وأبـونعيم في الحليـة (8/178) والبيهقي في الزهد (716)

قال: نعم، بل كلاهما، قال: (أفتبتغي الأجر من الله؟) قال: نعم، قال: (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)[1]

وبما أن المجتمع الجاهلي كان يؤذي المرأة، ويمتهنها، فقد ورد في الأحاديث الكثيرة بيان فضل الإحسان لها، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من يلي من هذه البنات شيئا فأحسن إليهنّ كنّ له سترا من النّار)[2]

وجاءه رجل، فقال: يا رسول الله! من أحقّ النّاس بحسن صحابتي؟ قال (أمّك) قال: ثمّ من؟ قال: (أمّك) قال: ثمّ من؟. قال: (أمّك) قال: ثمّ من؟ قال (أبوك)[3]

وهكذا ورد الأمر بحسن الجيرة، قال ﷺ ينصح بعض أصحابه: (كن ورعا، تكن أعبد النّاس، وكن قنعا تكن أشكر النّاس، وأحبّ للنّاس ما تحبّ لنفسك تكن مؤمنا، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما، وأقلّ الضّحك فإنّ كثرة الضّحك تميت القلب)[4]

ومثل ذلك ورد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة التي تتحدث عن المحسنين وصفاتهم والجزاء العظيم المعد لهم، ومنها قوله تعالى في علاقة الإنفاق بالإحسان: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: 195]، وقال: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي

1() البخاري [فتح الباري]، 10(5972)، ومسلم(2549)

2() البخاري [فتح الباري]، 10(5995)، ومسلم(2629)

3() البخاري [فتح الباري]، 10(5971)، مسلم(2548)

4() الترمذي(2305)، وابن ماجة(4217)

السَّرَّاءِ وَالضَّـرَّاءِ وَالْكَـاظِمِينَ الْغَيْـظَ وَالْعَـافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]

وقال عن علاقة الجهـاد بالإحسـان: ﴿وَكَـأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَـلَ مَعَـهُ رِبِّيُّونَ كَثِـيرٌ فَمَـا وَهَنُـوا لِمَـا أَصَـابَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَمَـا ضَـعُفُوا وَمَـا اسْـتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّـابِرِينَ (146) وَمَـا كَـانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَـا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَـاهُمُ اللَّهُ ثَـوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمـران: 146 - 148]

وقال عن علاقة النصيحة بالإحسان: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّـعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَـا يُنْفِقُـونَ حَـرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَـا عَلَى الْمُحْسِـنِينَ مِنْ سَـبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 91]

وقـال عن علاقـة الصـبر بالإحسـان: ﴿وَاصْـبِرْ فَـإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود: 115]

وقال عن علاقة العفو بالإحسان: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: 13]

وقــال عن علاقــة مجاهــدة النفس بالإحســان: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَــدُوا فِينَــا لَنَهْــدِيَنَّهُمْ سُــبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَــعَ الْمُحْسِــنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]

وقال عن علاقـة التقـوى والإيمـان بالإحسـان: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ جُنَـاحٌ فِيمَـا طَعِمُـوا إِذَا مَـا اتَّقَـوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 93]

وهكذا وصف الله تعالى نماذج عن المحسنين، من خلال ذكر أعمالهم، ومواقفهم، وأوصافهم، ومنهم يوسف عليه السلام الذي وُصف بالإحسان في مواضع مختلفة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 22]، وهي تشير إلى أن الحكمة والعلم فضل اختص الله تعالى به المحسنين جزاء لإحسانهم.

وأخبر عن شهادة السجناء له بالإحسان، وأنهم رأوا إحسانه رأي العين، فقال: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36]، وهذا يدل على أن الإحسان عام في كل البيئات، حتى بيئة المنحرفين، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ للصحابي الذي قال له: يا رسول الله: إن لي قرابة أصل ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إلي وأحلم عليهم ويجهلون علي، فقال: (إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ـ أي الرماد الحار ـ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك) [1]

ومثل ذلك ما روي عن الإمام الكاظم أنه قال في وصيته لتلميذه هشام بن الحكم: (يا هشام قول الله: هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان جرت في المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر، من صنع إليه معروف فعليه أن يكافاء به، وليست المكافاة أن تصنع كماصنع حتّى ترى فضلك، فإن صنعت كما صنع فله الفضل بالابتداء) [2]

1() رواه مسلم.

2() بحار الأنوار (1/ 152)

وهكذا أخبر الله تعالى عن شهادة إخوته له بذلك على الرغم من الجرائم التي ارتكبوها في حقه، قال تعالى: قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [يوسف: 78]

وهكذا يرد في القرآن الكريم الترغيب في الإحسان بصور مختلفة، أعظمها ذكر محبة الله تعالى للمحسنين، كما قال تعالى: فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [آل عمران: 148]

ومنها ذكر النعيم العظيم المعد لهم، والمتناسب مع درجة إحسانهم، كما قال تعالى: الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 172]

بل وعدهم بالزيادة، التي لم تذكر، لتبقى مفاجأة خاصة بهم، قال تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [يونس: 26]

وأخبر عن شمولية جزاء المحسنين للدنيا والآخرة، فقال: وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ [النحل: 30، 31]، وقال: قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمر: 10]

وأخبر عن القانون المرتبط بذلك كله، فقال: هَلْ جَزَاءُ

الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ [الرحمن: 60]

وغيرها من الآيات الكريمة التي يكفيك تأملها ـ أيها المريد الصادق ـ لتنهل من منابعها العذبة كل الحقائق المرتبطة بالإحسان.. فتدبر فيها، وعش في ظلالها، لتمتلئ شوقا بالتحقق بحقائقها.. فلا طريق للتحقق بالمقامات العالية مثل محبتها وعشقها والشوق إليها.

العزة والشجاعة

كتبت إلي ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ تسـألني عن العـزة والشجاعة، وعلاقتهما بالنفس المطمئنة، وكيف ينسجم ذلك مع السلام والهدوء والطمأنينة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لـك أن طمأنينـة النفس لا تعني كسلها ولا ذلتها ولا هوانها ولا امتلائها بالضعف.. بـل تعـني طمأنينتهـا للحقـائق الوجوديـة، وتحققهـا بـالقيم المرتبطـة بهـا، وتحاكمها إلى الموازين التي تسير عليها.

ولذلك إن اقتضت تلك القيم الهدوء هدأت النفس وسكنت وسلمت واستسلمت.. لكنها إن اقتضت الثورة.. ثـارت النفس.. ومارست كل ما تقتضيه الثورة من أصناف الشجاعة والبطولة.

وذلك ـ أيها المريد الصادق ـ نابع من أن النفس المطمئنــة هي النفس المنفعلـة بالحقـائق العقديـة، ومـا دام اللـه عزيـزا، فالنفس تستعز بعزته، وما دام الله قويا، فـالنفس تنفعـل لتلـك القوة، وتمارسها في كل ما تحتاج إليه.

ولذلك كانت العزة والشجاعة من الصـفات الضـرورية في التزكية والترقية.. فالعزيز هو الذي يـأبى الهـوان، ويتعـالى على السفاسف، ولذلك يجاهد نفسه حتى يتخلص منها، وحتى يتحقق بما تقضيته عزته من مكارم، ولذلك وصف الله تعالى المؤمـنين بــالعزة، فقــال: ﴿يَاأَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُــوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَـبِيلِ اللـه وَلَا يَخَـافُونَ لَوْمَـةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54]

وبين سـبب العـزة الحقيقيـة، وهـو الارتبـاط باللـه تعـالى،

فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: 10]

ولذلك فإن عـزة غـيرهم عـزة وهميـة، سـرعان مـا تـزول عنهم، بـل هي زائلـة لا محالـة ذلـك أنهم لا يتعلقـون منهـا إلا بالسـراب والـوهم، قـال تعـالى عن المنـافقين الـذين زعمـوا لأنفسهم العزة: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَـزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِـزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَـافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: 8]

وبذلك فإن كل من له حظ في الإيمان له حـظ من العـزة، وهي تشتد وتقوى بحسب درجة الإيمان والسلوك، ولهـذا كـانت العزة الخاصة بأصحاب النفـوس المطمئنـة من أرفـع الـدرجات وأزكاها، ذلك أن صاحبها قد ترفـع عن كـل مـا يحـول بينـه وبين ربه.

وقـد قـال بعض الحكمـاء معـبرا عن ذلـك: (من أراد عــز الدارين فليدخل في مذهبنا هذا يومين) فقـال لـه القائـل: كيـف لي بذلك؟ قال: (فرق الأصنام عن قلبك، وأرح من الـدنيا بـدنك ثم كن كيف شئت، فإن اللّه لن يـدعك، فـإن جـاءك شـي ء من الدنيا بعـد فلا تنظـر إليـه بعين الرغبـة، ولا تصـحبه بالرهبـة، ولا تجلس معــه إلا بــالواجب العلمي في صــرفه وإمســاكه، وإن طلبت شيئا من ذلك يوما فاشهد طلب اللّـه لـك في طلبـك لـه فإنك مطلوب بالطلب، فإن خرج لك الطلب منه مخرج الرضـاء فادخل، ولا تعلق قلبك بالظفر به، فإنك لا تـدري أتصـل إليـه أم لا؟ وإن وصلت إليه فلست تدري ألك هو أم لغـيرك؟ فـإن كـان لك فلست تـدري أفيـه الخـير أم فيـه الشـر؟ وإن كـان لغـيرك فليس لك به علم، هـل هـو لحبيبـك أم لعـدوك؟ وعلى الجملـة: كيف يسكن القلب إلى موهـوم تتصـور فيـه هـذه الوجـوه كلهـا وأكثر من ذلك، فاطلبه وأنت متعلق باللّه وناظر إليه، واستعمل

الشكر إذا ظفرت به، والصبر والرضا إذا لم تظفر، بل الثناء على اللّه أجمل، لأنه لم يمنعك عن بخل وإنما منعك نظرا لك، فإذا منعك ذلك فقد أعطاك ولكن لا يفقد العطاء في المنع إلا الصديقون، وإن خرج بك الطلب من اللّه مخرج السخط بدلالة مخالفة العلم أو ما يكاد فالجأ إلى اللّه وفر إليه حتى يكون هو الذي يخلصك)[1]

وقال آخر: (العز الذي لا يفنى: هو الغنى عن الأسباب كلها بوجود مسببها، لأنه باق لا يفنى فالتعلق به عز وجل لا يفنى)[2]

وقال آخر: (عزة المؤمن أن يمنعه الله من التقيد للنفس والهوى والشيطان والدنيا أو لشيء من المكنونات في الغيب والشهادة والدنيا والآخرة، والمنافق لا يعلم العزة إلا من الأسباب والتعبد للأرباب)[3]

وقال آخر: (إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى)[4]

وهكذا الشجاعة؛ فإنها ــ أيها المريد الصادق ــ أصل من أصول الأخلاق، ولها علاقة بها جميعا، ولا يمكن للنفس أن تتهذب من دونها، وهي مثل العزة مرتبطة بالإيمان؛ فكلما ازداد الإيمان كانت النفس أكثر شجاعة.

كما حكى الله تعالى ذلك عن السحرة الذين كانوا في منتهى الذلة لفرعون، وكانوا يقولون له: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا

1() المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية، ص: 72.

2()غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج 1 ص 236.

3()جامع الأصول في الأولياء، ج 1 ص 143.

4()ابن عطاء الله ونشأة الطريقة الشاذلية، ص 123.

لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ [الشعراء: 44]

لكنهم بمجرد أن تنـورت قلـوبهم بنـور الإيمـان صـاحوا في وجه فرعون بكل قوة، وبعـد كـل التهديـدات الـتي هـددهم بهـا: لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَـا فَـاقْضِ مَـا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَـا خَطَايَانَـا وَمَـا أَكْرَهْتَنَـا عَلَيْـهِ مِنَ السِّـحْرِ وَاللَّهُ خَيْـرٌ وَأَبْقَى [طه: 72، 73]

وقد قال بعض الحكماء معبرا عن ذلـك: (إن كـل من كـان أكثر علما بأحوال عالم الغيب كان أقوى قلبا وأقل ضعفا، ولهذا قال الإمام علي: (واللـه، مـا قلعت بـاب خيـبر بقـوة جسـدانية، ولكن بقوة ربانية)، وذلك لأنه في ذلك الوقت انقطع نظـره عن عالم الأجساد وأشرقت الملائكة بـأنوار عـالم الكبريـاء، فتقـوى روحه وتشبه بجواهر الأرواح الملكيـة وتلألأت فيـه أضـواء عـالم القدس والعظمة، فلاجرم حصل له من القدرة ما قدر بهـا على ما لم يقدر عليه غيره، وكذلك العبـد إذا واضـب على الطاعـات بلغ إلى المقام الذي يقول الله: (كنت لـه سـمعا وبصـرا)؛ فـإذا صار نور جلال الله سـمعا لـه سـمع القـريب والبعيـد، وإذا صـار ذلك النور بصرا له رأى القريب والبعيد، وإذا صار ذلك النور يـدا له قدر على التصرف في الصعب والسهل والبعيد والقريب) [1]

وقـال آخـر معـبرا عن دور الشـجاعة في التحقـق بجميـع الفضائل الخلقية: (اعلم أن كل كريهة ترفع، أو مكرمة تكتسـب لا تتحقـق إلا بالشـجاعة، ألا تـرى أنـك إذا هممت أن تمنح شـيئا من مالك خار طبعك، ووهن قلبك، وعجـزت نفسـك، فشـححت به، وإذا حققت عزمـك، وقـويت نفسـك، وقهـرت ذلـك العجـز، أخـرجت المـال المضـنون بـه، وعلى قـدر قـوة القلب وضـعفه

1() التفسير الكبير، 21/91.

تكـون طيبـة النفس بإخراجـه، أو كراهيـة النفس لإخراجـه مـع إخراجه، وعلى هذا النمط جميع الفضائل، مهما لم تقارنهـا قـوة نفس لم تتحقق، وكانت مخدوعة. فالجبان يفـر عن أمـه وأبيـه. والشجاع يقاتل عمن لا يثوب به إلى رحله، فبقوة القلب يصـاب امتثـال الأوامـر والانتهـاء عن الزواجـر، وبقـوة القلب يصـاب اكتساب الفضائل، وبقوة القلب ينتهى عن اتباع الهوى والتضمخ بالرذائل. وبقوة القلب يصبر الجليس على إيذاء الجليس وجفـاء الصاحب، وبقوة القلب يكتم الأسرار ويدفع العار، وبقـوة القلب يقتحم الأمـور الصـعاب، وبقـوة القلب يتحمـل أثقـال المكـاره، وبقوة القلب يصبر على أخلاق الرجال، وبقـوة القلب تنفـذ كـل عزيمة أوجبها الحزم والعدل) [1]

ولهذا ورد في النصوص المقدسـة ذم الجبن، واعتبـاره من المهلكـات العظيمـة الـتي تـدفع صـاحبها إلى المهانـة والـذل والطمع والكسـل (وحبّ الراحـة، وتمكين الظـالمين من الظلم عليه، وتحمّله للفضائح في نفسـه وأهلـه، واسـتماع القبـائح من الشتم والقذف، وعـدم مبالاتـه بمـا يـوجب الفضـيحة، وتعطيـل مقاصده وترك بعض تكاليفه كترك الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها) [2]

ولهـذا قـال تعـالى في وصـف المنـافقين يـوم الأحـزاب: ﴿ أَشِـحَّةً عَلَيْكُمْ فَـإِذَا جَـاءَ الْخَـوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُـرُونَ إِلَيْـكَ تَـدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَـى عَلَيْـهِ مِنَ الْمَـوْتِ فَـإِذَا ذَهَبَ الْخَـوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ الله أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرًا (19) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَـوَدُّوا لَـوْ أَنَّهُمْ بَـادُونَ فِي الْأَعْـرَابِ يَسْـأَلُونَ عَنْ أَنْبَـائِكُمْ وَلَـوْ كَـانُوا فِيكُمْ مَـا قَـاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾

1() سراج الملوك، الطرطوشي، (2/ 668- 670)

2() جامع السعادات، ج 1 ص 207.

[الأحزاب: 19، 20]

وقــال في وصــف حــالتهم مطلقــا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُـكَ أَجْسَـامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُـوا تَسْـمَعْ لِقَـوْلِهِمْ كَـأَنَّهُمْ خُشُـبٌ مُسَـنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْـذَرْهُمْ قَـاتَلَهُمُ اللـه أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 4]

وهكذا حذر رسول الله ﷺ منه، بـل اعتـبره من المهلكـات التي توبق صـاحبها، فقـال في وصـيته للإمـام علي: (يـا عليّ، لا تشاورنّ جبانا، فإنّـه يضـيّق عليـك المخـرج.. واعلم يـا عليّ، أنّ الجبن والبخل والحرص غريزة واحدة يجمعها سوء الظنّ باللــه)[1]

وقال الإمام علي: (البخل عار والجبن منقصة)[2]

ونفى الإمام البـاقر الإيمـان الحقيقي الكامـل عن الجبـان؛ فقـال: (لا يـؤمن رجـل فيـه الشـحّ والحسـد والجبن، ولا يكـون المؤمن جبانا ولا حريصا ولا شحيحا)[3]

ولهذا كله كانت العزة والشجاعة المرتبطة بها، من صفات الكمّـل من الصـالحين، وعلى رأسـهم الأنبيـاء وورثتهم، الـذين واجهوا أقوامهم بكل قوة، ولم يدخل قلـوبهم فـزع ولا هيبـة ولا جبن، قال تعالى: ﴿ وَكَـأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَـلَ مَعَـهُ رِبِّيُّونَ كَثِـيرٌ فَمَـا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللــه يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَـا ذُنُوبَنَـا وَإِسْـرَافَنَا فِي أَمْرِنَـا وَثَبِّتْ أَقْـدَامَنَا وَانْصُـرْنَا عَلَى الْقَـوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 146، 147]

1() الخصال ج 1 ص 101.

2() نهج البلاغة ص 1089.

3() الخصال ج 1 ص 82 ح 8

وضرب بعض النماذج عن ذلك، ومنهم داود الـذي ذكـر أنـه كـان من النفـر القليـل الثـابتين في جهـادهم ضـد عـدو بـني إسرائيل، وأنه كان بشـجاعته وإقدامـه سـبب انتصـاراتهم، قـال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَـا صَـبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُـرْنَا عَلَى الْقَـوْمِ الْكَـافِرِينَ (250) فَهَزَمُـوهُمْ بِإِذْنِ الله وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ الله الْمُلْكَ وَالْحِكْمَـةَ وَعَلَّمَـهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: 250، 251]

وهكـذا كـان رسـول اللـه ﷺ مثـالا للشـجاعة والإقـدام والبطولة، وقد حدث عن نفسه؛ فقال: (والذي نفسي بيده، لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم بـأن يتخلفـوا عـني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل اللـه، ولوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيـا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل)[1]

وذكر أنس بن مالك بعض مظـاهر شـجاعته؛ فقـال: (كـان النبي ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس، ولقـد فـزع أهل المدينة، فكان النبي ﷺ سبقهم على فرس، وقال: وجـدناه بحرا)[2]

وذكرها البراء بن عازب حين سأله رجـل، فقـال لـه: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة؟ فقال: (أشهد على نبي الله ﷺ مـا ولى ولكنه انطلق أخفاء من النـاس، وحسـر إلى هـذا الحي من هوازن، وهم قوم رماة. فرموهم برشق من نبل. كأنها رجل من جراد. فانكشفوا. فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ، وأبـو سـفيان بن الحارث يقود به بغلته. فنزل ودعا واستنصر، وهو يقول: (أنـا

1() رواه البخاري 13 / 187، ومسلم رقم (1876)

2() رواه البخاري، الفتح 6 (2820)، ومسلم (2307)

النبي لا كذب. أنا ابن عبد المطلب. اللهم نزل نصرك)[1]

ثم عقب البراء على ذلك بقوله: (كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني النبي ﷺ)[2]

وكان الإمام علي في عهد رسول الله ﷺ وبعده نموذجا حيا ومثاليا لها، حتى أن المؤرخين يؤكدون بالأدلة الدامغة، أنه كان السبب الأكبر في كل الانتصارات التي حصلت للمسلمين، ولذلك بارزه المشركون والطلقاء العداوة.

ومن الأمثلة على تلك الشجاعة ما ذكره الإمام علي في محاجته للمنكرين لحقه، حيث قال لهم في معرض ذلك: (نشدتكم بالله هل فيكم أحد مسح رسول الله ﷺ عينيه، وأعطاه الراية يوم خيبر فلم يجد حراً ولا برداً غيري؟ قالوا: لا. قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد قتل مرحباً اليهودي مبارزة فارس اليهود غيري؟ قالوا: لا. قال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد احتمل باب خيبر حين فتحها فمشى به مائة ذراع ثم عالجه بعده أربعون رجلا فلم يطيقوه غيري؟ قالوا: لا)[3]

وهكذا كان جميع أئمة الهدى، فقد كانوا جميعا مثالا للعزة والشجاعة، وتحملوا في سبيل ذلك كل ألوان الأذى.

وقد عبر الإمام الحسين عن عزة القائمين بالحق، والوارثين للأنبياء، بذلك الشعار الذي لا يزال يردده الحسينيون إلى اليوم، وهو قوله: (ألا وإنّ الدّعي ابن الدّعي قد ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله،

1() رواه البخاري، الفتح 7 (4317) ومسلم (1776)

2() رواه مسلم (1776)

3() الاحتجاج، 1/322.

ونفوسٌ أبيّة وأنوفٌ حميّة مِنْ أنْ نؤثرَ طاعة اللئام على مصارع الكرام)[1]

وقال مخاطبا أولئك الجبناء الذين قعدوا عن مواجهة الباطل، واستسلموا للدنيا وأهوائها: (إنه قد نزل من الامر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، واستمرت جدا ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه حقا حقا، فاني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما، وإن الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه مادرت معائشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون)[2]

وقال: (والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد، إني عذت بربي وربكم أن ترجمون)[3]

وعندما عزم على مغادرة الحجاز والتوجه الى العراق اجتمع إليه خلق كثير في المسجد الحرام من الحجاج وأهل مكة، فخطب فيهم قائلا: (الحمد لله وما شاء الله، ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسوله ﷺ، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلاة بين النواويس وكربلا، فيملأن مني اكراشا جوفا، وأجربة سغبا، لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول الله ﷺ لحمته، بل هي مجموعة له في حضيرة

1() نفس المهموم:131.

2() تاريخ الطبري 3: 307، بحار الأنوار 78: 116.

3() تاريخ الطبري 3/ 318، بحار الانوار 45/ 6.

القدس، تقر بهم عينه، وينجز بهم وعده، ألا ومن كان فينا باذلا مهجته، موطنا على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإني راحل مصبحا إن شاء الله تعالى)[1]

وقد كانت هذه الكلمات وغيرها هي الشعارات التي حركت ما حصل في التاريخ الإسلامي من ثورات على الظلم والاستبداد، والتي اتخذ فيها المسلمون الإمام الحسين أسوة لهم في مقارعة الظالمين، وعدم السكون للظلمة والمستبدين.

ولهذا وصف الإمام الحسين بكونه أبي الضيم وشديد العزة[2]، وقال ابن أبي الحديد في وصفه: (سيد أهل الإباء الذي علم الناس الحمية، والموت تحت ظلال السيوف اختيارا على الدنية، أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عرض عليه الأمان هو وأصحابه فأنف من الذل، وخاف ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان مع أنه لا يقتله، فاختار الموت على ذلك)[3]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصادق ــ فاسع لأن تتحقق بهذه الصفات الكريمة، لتلحق بأولئك الركب الكرام الطيبين الذين ضحوا بكل شيء في سبيل إيمانهم وقيمهم ومبادئهم، وإياك والركون للمتثاقلين للدنيا، فتقعد بنفسك عن الرقي لمراتب الكمّل في سبيل حياة قصيرة منغصة مملوءة بكل ألوان الكدر.

1() كشف الغمة 2 / 241..

2() تاريخ اليعقوبي 2 / 293.

3() شرح ابن أبي الحديد 1 / 302..

الشكر والحمد

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن الشكر والحمد، وحقيقتهما، وعلاقتهما بالنفس المطمئنة، وكيفية التحقق بهما.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن الحمد والشكر من المنازل الضرورية للنفس المطمئنة، ذلك أنه لا تكتمل طمأنينتها، ولا سلامها، ولا ترقيها في مراقي السلوك من دون تحققها بمراتبها، ولو الدنيا منها.

بل إن رحلة السالكين إلى الله كلها رحلة مرتبطة بالحمد والشكر.. فبالحمد يتعرفون على كمالات الله التي لا حدود لها.. وبالشكر يتحققون بالقيم التي ترتبط بتلك الكمالات.

وإن شئت مثالا يقرب لك هذا، فانظر إلى نفسك، وكيفية تعاملك مع من يشكر فضلك القليل، أو إحسانك الجزيل، وكيف تزيده من فضلك، لأنك من خلال شكره لك عرفت أهليته لفضلك وإحسانك.. بينما تعامل من جحد معروفك بقطع فضلك عنه، لعلمك بعدم استحقاقه أو قابليته له، ولذلك وعد الله تعالى الشاكرين بالمزيد، فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (ابراهيم: 7)

وهذا المزيد لا يرتبط بالنعم الحسية فقط، وإنما يرتبط قبل ذلك وبعده بتلك المنازل الرفيعة، والمقامات السنية، والأحوال الرضية التي ينزل الله تعالى فيها النفوس التي حمدته وشكرته.

وبما أن هذه المنزلة هي الأساس الذي تؤسس عليه سائر المنازل، وهي القمة التي تهفو إليها، فقد أخبر الله تعالى عن

قلة المتصفين بها، فقـال: ﴿اعْمَلُـوا آلَ دَاوُودَ شُـكْرًا وَقَلِيـلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: 78]

وقد قـال الإمـام علي، في بعض مواعظـه: (فمـا أقـل من قبلها، وحملها حق حملها، أولئك الأقلون عـددا، وهم أهـل صـفة الله سبحانه إذ يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّـكُورُ﴾ [سـبأ: 13]) [1]

وقال الإمام الصادق مبينا سر قلة الشاكرين: (لو كان عنـد الله عبادة يتعبد بها عبـاده المخلصـون أفضـل من الشـكر على كل حال لأطلق لفظه فيهم من جميع الخلـق بهـا، فلمـا لم يكن أفضل منها خصها من بين العبادات وخص أربابها، فقـال تعـالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13])[2]

وذلك يعـود إلى أن الشـكر ليس مجـرد كلمـات يتفـوه بهـا اللسان، أو حال يسيطر على القلب، وإنما هو منهج حياة كاملة، ذلك أن من أول شـروط الشـكر على النعم ألا تسـتعمل إلا في المواضع التي أمر العبد باستعمالها فيها، كمـا عـبر الشـاعر عن ذلك بقوله:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

وهو واضح لكـل العقـول، ذلـك أن من فـرح بشـيء فرحـا استولى على كيانه، فإنه لا محالـة سـيتحرك بمـوجب مـا يهديـه إليه فرحه.. فمن فرح بمركوب ركبه، ومن فرح بمـأكول أكلـه.. ومن فرح بشيء ارتبط به.

1() نهج البلاغة، ص444.

2() مصباح الشريعة، ص 55.

وهكـــذا فـــرح من رأى نعم اللـــه عليـــه، فإنـــه لا محالـــة يستعملها.. ولكن الفرق بين استعماله لها واسـتعمال غـيره هـو أنه يستعملها في طاعة مولاه الـذي أهـداها لـه.. فلا يحـق لمن أهديت له هدية أن يستعملها في مضادة من أهداها له...

وعلى هذا اتفق كل الحكماء، وقـد قـال بعضـهم في ذلـك: (من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثـل رجـل له كسـاء فأخـذ بطرفـه ولم يلبسـه، فلم ينفعـه ذلـك من الحـر والبرد والثلج والمطر)[1]

وقال آخر: (الشكر هو القيام بين يدي الله حتى يعجز، فإذا عجز فقد شكر)[2]

وقال آخر: (الشكر هو أن لا يعصى الله بنعمه)[3]

وقال آخر: (الشكر هو الخروج عن الكـل، والرجـوع بالكـل لمن له الكل، إذ هو أن ينسب الأمور لباريها ويعامله بمـا أمـره)[4]

وقـال آخـر: (الشـكر هـو اعـتراف بعطيـة، وانصـراف عن خطية.. وهو نشر التفضل بنعت التذلل.. وهو أن تـذكر إحسـانه بنعت الاسـتكانة.. وهـو الإقـرار بالأفضـال على وجـه الإعظـام والإجلال)[5]

وقال آخر: (الشكر عند أهل التحقيق: هو الاعتراف بالنعمة

1() أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 3 ص 243.

2() حقائق التفسير، ص 1121.

3() معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 7.

4()الدر المنثور في تفسير أسماء الله الحسنى بالمأثور، ص 51.

5() أربع رسائل في التصوف لأبي القاسم القشيري، ص61، 62.

على سبيل الخضوع)[1]

وقال آخر: (الشكر على طريق المعاملة وبيان الإشارة: هو صرف النعمة في وجه الخدمة)[2]

وقال آخر: (الشكر هو أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعة الله عز وجل)[3]

وقال آخر: (الشكر هو رؤية النعمة من المنعم، والثناء على معطيها، والقيام بحقها، والإقرار بوجودها)[4]

وقال آخر: (الشكر هو غليان القلوب عند معارضات ذكر المحبوب)[5]

وقال آخر: (الشكر هو وقوف القلب على جادة الأدب مع المنعم.. وأن يتقي العبد ربه حق تقاته، وذلك أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر.. واجتناب ما يُغضب المنعم تعالى)[6]

وقال آخر: (أجمع العبارات للشكر قول من قال: الشكر معرفة بالجنان، وذكر باللسان، وعمل بالأركان)[7]

وقال آخر: (الشكر عبارة عن معروف يقابل النعمة سواء

1()القشيري، التحبير في التذكير، ص 57.

2()القشيري، تفسير لطائف الاشارات، ج 5 ص 39.

3()إحياء علوم الدين، ج 4 ص 118.

4()محاسن المجالس، ص 87، 89.

5()بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، ص 280.

6()البرهان المؤيد، ص 28، 29.

7()ابن عباد الرندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج 1 ص 188.

كان في اللسـان أو بالبـدن أو بـالقلب.. وقيـل: هـو الثنـاء على المحسن بذكر إحسانه، فالعبد يشكر الله، أي: يثني عليـه بـذكر إحسانه الذي هو نعمته، والله يشكر للعبد، أي: يثني عليه بقبول إحســـــــــانه الـــــــــــذي هـــــــــو طاعته)[1]

وقال آخر: (الشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمتـه، حـتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فتنبسط بالأوامر، وتنكف عن الزواجر)[2]

وقال آخر: (الشكر هـو عبـارة عن صـرف العبـد جميـع مـا أنعم الله عليه من الجوارح والقوى الظاهرية والباطنيـة إلى مـا خلقها الله وأعطاه لأجله)[3]

وقال آخر: (الشكر هو تصور النعمـة بـالقلب، والثنـاء على المنعم باللسان، والخدمة بالأركان)[4]

وقال آخر: (الشـكر هـو فـرح القلب بحصـول النعمـة، مـع صرف الجوارح في طاعة المنعم، والاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع)[5]

وقال آخر: (الشكر هو الأدب مـع المنعم ومن جـاءت على يديه)[6]

1() الشريف الجرجاني، التعريفات، ص 133 0

2()أحمد زروق، شرح الحكم العطائية،، ص 122 0

3()أحمد السرهندي، مكتوبات الإمام الرباني، ج 3 ص 148.

4()إسماعيل حقي البروسوي، تفسير روح البيان، ج 7 ص 99.

5()أحمد بن عجيبة، معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 7.

6()أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 1 ص 102.

والأساس الذي يقوم عليه كل ذلك هو نسبة النعم كلها إلى الله تعالى وحده لا شريك له، وبإخلاص وتجرد تام، بحيث ينفي الشاكر حوله وقوته، حتى ذلك الشكر الذي شكر الله تعالى به، يعترف أنه لولا الله ما ألهم له.. وبذلك هو نعمة من نعمه.

ولذلك كان الشكر الحقيقي هو ما عبر عنه الإمام الصادق بقوله: (تمام الشكر هو الاعتراف بلسان السر خالصاً لله عز وجل بالعجز عن بلوغ أدنى شكره، لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها، وهي أعظم قدراً، وأعز وجوداً من النعمة التي من أجلها وفقت له، فيلزمك على كل شكر أعظم منه إلى ما لا نهاية له، مستغرقاً في نعم، قاصراً عاجزاً عن درك غاية شكره، فأنى يلحق العبد شكره نعمة الله، ومتى يلحق ضيق بضيق والعبد ضعيف لا قوة له أبداً إلا بالله تعالى؟)[1]

ولذلك ذكروا أن مراتب السالكين تختلف باختلاف درجات ذلك الاعتراف ومحاله، والتي ينبني عليها بنيان الشكر، كما عبر بعض الحكماء عن ذلك، فقال: (الشكر على ثلاثة أقسام: شكر العام: بالقول وهو الحمد.. وشكر الخاص: بالفعل وهو البذل.. شكر الأخص: وهو معرفة النعم من المنعم)[2]

وقال آخر: (الشكر على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: الشكر في المحاب، وهذا شكرٌ شاركت المسلمين فيه اليهود والنصارى والمجوس. ومن سعة بر البارئ أنه عده شكراً ووعد عليه الزيادة وأوجب له المثوبة.. والدرجة الثانية: الشكر في المكاره، وهذا ممن يستوي عنده الحالات إظهار الرضى وممن

1() مصباح الشريعة، ص 25.

2()جامع الأصول في الأولياء، ج 1 ص 200.

يميز بين الأحوال كظم الشكوى ورعايـة الأدب وسـلوك مسـلك العلم، وهذا الشاكر أول من يدعى إلى الجنة.. والدرجة الثالثـة: أن لا يشهد العبد إلا المنعم، فإذا شهد المنعم عبـودةً، اسـتعظم منه النعمة، وإذا شـهده حبـاً اسـتحلى منـه الشـدة، وإذا شـهده تفريداً لم يشهد منه شدة ولا نعمة)[1]

وقال آخر: (الشـكر على الشـكر أتم من الشـكر، ومعنـاه: أن يرى شكره الله بتوفيق الله له، ويعتقد أن ذلك التوفيــق من أتم النعم، فيشكر على ذلك التوفيق الذي هو الشــكر الأول، ثم الكلام في الشكر الثاني، كذلك إلى ما لا ينتهي)[2]

وقـال آخـر: (أهـل السـعادة قـد شـكروا اللـه على نعمـة الوجود فزادهم نعمة الإيمـان، فشـكروا نعمـة الإيمـان فـزادهم نعمــة الولايــة، فشــكروا نعمــة الولايــة فــزادهم نعمــة القــرب والمعرفة في الدنيا ونعمة الجوار في الآخرة)[3]

وقال آخر: (الحمد والشكر ليس معناه مجرد قـول القائـل بلسانه الحمـد للـه، بـل معنـاه: علم المنعم عليـه بكـون المنعم موصوفاً بصفات الكمال والجلال. وكل مـا خطـر ببـال الإنسـان من صفات الكمـال والجلال، فكمـال اللـه وجلالـه أعلى وأعظم من ذلك المتخيل والمتصور، وإذا كان كذلك امتنع كون الإنسـان آتياً بحمد الله وشكره وبالثناء عليه)[4]

وقال آخر: (من اعتقد أن حمده وشـكره يسـاوي نعم اللـه

1()منازل السائرين، ص 53، 54.

2()جامع الأصول في الأولياء، ج 2 ص 238، 239.

3()تفسير روح البيان، ج 8 ص 173.

4()التفسير الكبير، ج 1 ص 172.

تعالى فقد أشرك، وهذا معنى قول الواسطي: الشكر شرك)[1]

هذه هي المقامات العالية للشاكرين ـ أيها المريد الصادق ـ فإن شئت أن تكون منهم، فاسع لأن تلتمس أسباب ذلك مما ذكرته لك في رسائلي عن النفس اللوامة، وأولها أن تدعو الله تعالى أن يرزقك شكره؛ فلولا هدايته لك لشكره ما شكرته.

ومما يروى في ذلك عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول دبر كلّ صلاة: (اللهمّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[2]

وكان يقول في صلاته: (اللهمّ إنّي أسألك الثّبات في الأمر، والعزيمة على الرّشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلبا سليما، ولسانا صادقا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم)[3]

وكان من دعائه قوله: (ربّ أعنّى ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليّ، واهدني ويسّر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليّ، ربّ اجعلني لك شكّارا، لك ذكّارا، لك رهّابا، لك مطيعا إليك مخبتا، إليك أوّاها منيبا، ربّ تقبّل توبتي واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدّد لساني، وثبّت حجّتي، واسلل سخيمة قلبي)[4]

وكان يقرن أحيانا شكره بالسجود، فقد روي أنه (كان إذا جاءه أمر شرور أو بشّر به خرّ ساجدا شاكرا لله)[5]

1() التفسير الكبير، ج 1 ص 173.

2() أبو داود(1522) والنسائي(3/ 53) وأحمد(5/ 245، 247)

3() النسائي(3/ 54) والترمذي(3407) وأحمد(4/ 123، 135)

4() أبو داود(1510) وابن ماجة(3830) وأحمد(1/ 227)

5() أبو داود(2774) وابن ماجة(1394)

وكان ﷺ يدعو إلى كثيرة الثناء على الله وحمده في كل الأحوال، لأن ذلك الذكر اللساني قد يتحول إلى ذكر قلبي، فتتقرر به في النفس حقائق الشكر، وقد ورد في الحديث أن الله عزّ وجلّ قال للمسيح عليه السلام: (يا عيسى إنّي باعث من بعدك أمّة إن أصابهم ما يحبّون حمدوا الله وشكروه، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا)[1]

وروي أنه ﷺ كان يلقى رجلا فيقول: (يا فلان كيف أنت؟) فيقول: بخير أحمد الله، فيقول له النّبيّ ﷺ: (جعلك الله بخير) فلقيه ذات يوم فقال: (كيف أنت يا فلان؟) فقال: بخير إن شكرت، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيّ الله إنّك كنت تسألني فتقول: جعلك الله بخير وإنّك اليوم سكتّ عنّي، فقال له: (إنّي كنت أسألك تقول: بخير أحمد الله، فأقول جعلك الله بخير، وإنّك اليوم قلت: إن شكرت فشككت فسكتّ عنك)[2]

وقال ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خير. وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر. فكان خيرا له. وإن أصابته ضرّاء صبر. فكان خيرا له)[3]

وقال: (من قال حين يصبح: اللهمّ ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك. فلك الحمد ولك الشّكر. فقد أدّى شكر يومه. ومن قال ذلك حين يمسي فقد أدّى شكر ليلته)(4)

وقال: (إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده

1() أحمد(6/ 450)

2() رواه البخاري (70)، ومسلم (59)

3() مسلم(2999)

4() أبو داود(5073) والنسائي في اليوم والليلة(7)

عليها، أو يشرب الشّربة فيحمده عليها)[1]

وممـا يعينـك على ذلـك أيضـا ترديـدك لتلـك الـدعوات والمناجيـات الـتي كـان يرددهـا أئمـة الهـدى، ومنهـا مناجـاة الشاكرين، التي كان يرددها الإمام السجاد، وفيهـا يقـول: (إلهي أذهلـني عن إقامـة شـكرك تتـابع طولـك وأعجـزني عن إحصـاء ثنائك فيض فضلك وشغلني عن ذكر محامـدك تـرادف عوائـدك وأعياني عن نشر عوارفك توالي أياديك، وهذا مقام من اعـترف بسـبوغ النعمـاء وقابلهـا بالتقصـير، وشـهد على نفسـه بالآمـال والتضـييع وأنت الـرؤوف الـرحيم الـبر الكـريم الـذي لا يخيب قاصديه ولا يطرد عن فنائه آمليه بساحتك تحط رحـال الـراجين وبعرصتك تقـف آمـال المسـترفدين فلا تقابـل آمالنـا بـالتخييب والايأس ولا تلبسنا سربال القنوط والابلاس)[2]

ومنها دعاء عرفـة الـذي كـان يقـول فيـه الإمـام الحسـين: (اللهمّ لـك الحمـد كمـا خلقتـني فجعلتـني سـميعا بصـيرا، ولـك الحمـد كمـا خلقتـني فجعلتـني حيّـا سـويّا، رحمـة بي وكنت عن خلقي غنيّا. ربّ بما برأتـني فعـدّلت فطـرتي، ربّ بمـا أنشـأتني فأحسنت صورتي، يا ربّ بما أحسنت بي وفي نفسي عـافيتني، ربّ بما كلأتني ووفقتني، ربّ بما أنعمت عليّ فهديتني، ربّ بمـا آويتـني ومن كـلّ خـير آتيتـني وأعطيتـني، ربّ بمـا أطعمتـني وسقيتني، ربّ بما أغنيتني وأقنيتني، ربّ بما أعنتني وأعززتـني، ربّ بما ألبسـتني من ذكـرك الصـافي، ويسّـرت لي من صـنعك الكافي، فلك الحمد يا من أقال عـثرتي، ونفّس كربـتي، وأجـاب دعوتي، وستر عورتي وذنـوبي، وبلّغـني طلبـتي، ونصـرني على عدوّي، وإن اعدّ نعمك ومننك وكرائم منحك لا أحصيها يا مولاي)

1() مسلم(2734)

2() بحار الأنوار: 94/ 146.

[1]

وكان يقول في نفس الدعاء: (أنت الذي أنعمت، أنت الذي أحسنت، أنت الذي أجملت، أنت الذي أفضلت أنت الذي مننت، أنت الــذي أكملت، أنت الــذي رزقت، أنت الــذي أعطيت، أنت الــذي أغـنيت، أنت الـذي أقـنيت، أنت الـذي أويت، أنت الـذي كفيت، أنت الذي هديت، أنت الذي عصمت، أنت الـذي سـترت، أنت الذي غفرت، أنت الذي أقلت، أنت الذي مكّنت، أنت الــذي أعززت، أنت الذي أعنت، أنت الذي عضـدت، أنت الـذي أيّـدت، أنت الذي نصـرت، أنت الـذي شـفيت، أنت الـذي عـافيت، أنت الذي أكرمت، تبـاركت ربي وتعـاليت، فلـك الحمـد دائمـا، ولـك الشكر واصبا) [2]

هذا جوابي على أسئلتك ـ أيها المريد الصـادق ـ فاسـع لأن تهذب نفسك، وتزكيها، لتصبح أهلا لهذه المنزلـة الرفيعـة، حـتى تكون من تلك الثلة القليلة التي فضـلها اللـه تعـالى على خلقـه جميعا بكثرة شـكرها، واعترافهـا لبارئهـا والمنعم عليهـا.. واعلم أنك لن تنال كمالك، ولا سعادتك في الدنيا والآخرة إلا بذلك...

1() البلد الامين ص 251.

2() البلد الامين ص 251.

التقوى والعبودية

كتبت إلي ــ أيها المريد الصادق ــ تسألني عن التقوى وحقيقتها ومنزلتها ودرجاتها وعلاقتها بالعبودية وبالنفس المطمئنة.

وجوابا على سؤالك الوجيه أذكر لك أن التقوى هي علامة العبودية وصدقها ودرجتها.. فكلما ازدادت كان ذلك دليلا على تحقق العبودية وصفائها، وكلما نقصت دل ذلك على اختلاط العبودية بالأهواء والنفس والشرك.

ولذلك كان سيد المتقين هو الذي تمثلت فيه العبودية بأتم وأكمل وأجمل معانيها، وذلك هو رسول الله ﷺ الذي نعته ربه بالعبودية، وشرفه بها، وفي أشرف المقامات، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الاسراء:1)، وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ (الجن: 19)

وهذه العبودية الخالصة لله تعالى هي العلامة على التحرر من كل القيود التي تحرم الإنسان من نعمة التواصل مع الله، ومع الكمال المتاح له، ذلك أنها تجعله متجردا خالصا ليس فيه أي شوائب يمكن أن يتعلق بها الشيطان أو الأهواء، ذلك أن الشيطان لا يقترب إلا ممن فيه حظ منه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 98 - 100]

ولهـذا وصـف اللـه تعـالى المتحـررين من كيـد الشـيطان واستعماره وسلطانه بكونهم عبيدا لله، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الْغَـاوِينَ﴾ [الحجـر: 42]

فمن وقــع في الغوايــة خــرج من العبوديــة، وصــار فيــه استعداد لاستحواذ الشيطان عليـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿اسْـتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: 19]

فإن نسي العبد ذكر الله، نسي عبوديته، وتحول من حـزب الله إلى حزب الشيطان، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: 19]

فإن حصل له ذلك انتكست حقيقته الإنسانية لتصبح حقيقة شـيطانية، وحينهـا يمتلئ بالعـذاب؛ فكـل من خـالف حقيقتـه وفطرته التي فطر عليها امتلأ بالعذاب، بقدر مخالفته.

ولذلك كانت التقـوى هي الطريـق الـذي يتقي بـه المـؤمن كل ما يحرمـه من هـذه العبوديـة الخالصـة للـه تعـالى؛ فتجعلـه وقافا عند أوامر الله، لا يجده إلا حيث أمره، ولا يفقــده إلا حيث نهاه.

وقد وصفها الإمام علي بذلك حين قـال في بعض وصـاياه: (أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه، فإنّها الزّمام والقـوام، فتمسّـكوا بوثائقهـا، واعتصـموا بحقائقهـا، تـؤل بكم إلى أكنـان الدّعـة، وأوطان السّعة، ومعاقل الحرز، ومنازل العزّ)[1]

وقال: (إنّ تقوى اللّه مفتـاح سـداد، وذخـيرة معـاد، وعتـق من كلّ ملكة، ونجـاة من كـلّ هلكـة، بهـا ينجح الطّـالب، وينجـو

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(195)

الهارب، وتنال الرّغائب) [1]

ولهذا يرد في القرآن الكـريم الحـديث عنهـا، وعن الجـزاء العظيم المُعد لأهلها.. وهو جزاء لا يرتبـط فقـط بـالآخرة، وإنمـا يرتبط بالدنيا، وبكل الأحوال والمراحل التي يمر بها الإنسان..

فــالقرآن الكــريم يبشــر المتّقين بـــ (العــون والنّصــرة، والتّكــريم، والعلم والحكمــة، وتكفــير الــذّنوب وتعظيم الأجــر، والمغفــرة، واليســر والسّــهولة في الأمــر، والخــروج من الغمّ والمحنة، والـرّزق الواسـع في الـدّنيا، والنّجـاة من العقوبـة في الآخرة، والتّوفيق والعصـمة والفـوز بـالمراد، وشـهادة اللـه لهم بالصّدق، ومحبّـة الله وإكرامـه ونيـل الوصـال وقبـول الصّـدقة والصّـفاء وكمـال العبوديّـة، والمقـام الأمين والجنّـات والعيـون والأمن من البليّـة وزوال الحـزن والخـوف من العقوبـة، وأعظم من هذا كلّه القرب من الحضرة الإلهيّة عند الفوز بمقعـد صـدق عند مليك مقتدر)[2]

ومن الأمثلــة على ذلــك الجــزاء العظيم الــذي خص اللــه تعـالى بـه المتقين في الآخـرة مـا ورد في قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَـانُوا قَبْـلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَـانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْـلِ مَـا يَهْجَعُـونَ وَبِالْأَسْـحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّـائِلِ وَالْمَحْـرُومِ ﴾ [الـذاريات: 15 - 19]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: 54، 55]

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(230)

2() انظر الآيات الدالة على هذه البشارات في بصائر ذوي التمييز(5/ 300- 303)

وقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المرسلات: 41 - 44]

وقال: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [النبأ: 31 - 36]

وقال: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: 15، 17]

وقال: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 133 - 135]

وقال: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [الرعد: 35]

وقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الدخان: 51 - 57]

ومن الجزاء العظيم المعد لهم في الدنيا ذلك الاستعداد الذي وفرته لهم التقوى للتحقق بالهداية، كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 2]، وهي دليل على أن الهداية الحقيقية لا تتحقق إلا للمتقين.

ومثل ذلك العلم اللدني الذي يهبه الله تعالى للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 282]

ومنها ولاية الله لهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: 19]

ومنها تلك البركات التي وعد الله بها المتقين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: 96]

ومنها ذلك الفرقان الذي يجعلهم يميزون بين الحق والباطل، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: 29]

ومنها ذلك السرور الذي يحميهم من كل ما يدعوهم إلى الحزن والكآبة، كما قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: 35]، وقال: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: 62 - 64]

وهو سرور يصحبهم في كل المراحل التي تمر بها حياتهم، كما قال تعالى: وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [النحل: 30 ـ 32]، وقال: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [الزمر: 10]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تعتبر التقوى علامة على الصدق والصلاح والعبودية، وتخبر عن الجزاء العظيم المعد لهم في الدنيا والآخرة.

وهكذا نجد السنة النبوية تعتبر كل الأعمال الصالحة ناتجة عن التقوى، وثمرة من ثمارها، وقد ورد في الحديث عن أبي ذر قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية: وَمَنْ يَتَّقِ اللـه يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2)(الطلاق)، فجعل يرددها حتى تعب، فقال: (يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم)[1]

وروي أنّ رجلا جاءه فقال: أوصني فقال: سألت عمّا سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك فقال: (أوصيك بتقوى اللـه؛ فإنّه رأس كلّ شيء، وعليك بالجهاد فإنّه رهبانيّة الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنّه روحك في السّماء، وذكرك في الأرض)[2]

وسئل عن أفضل الناس فقال: (التقي النقي لا إثم فيه ولا

1() رواه الحاكم والبيهقي وابن مردويه.

2() أحمد في المسند(3/ 82)

بغي ولا غلَّ ولا حسد)[1]

وأخبر عن حدود التقوى، فقال: (لا يبلغ العبد أن يكـون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأسُ)[2]

وأخبر عن استيعابها لكل المحال، فقال: (اتّـق اللـه حيثمـا كنت وأتبع السّيّئة الحسنة تمحها، وخالق النّاس بخلق حسن)[3]

وأخبر عن أفضلية أهلها، ومكانتهم، فقال: (من سرَّه أن يكون أكرم الناس فليتقِ اللهَ)[4]

وقـال: (قـد أذهب اللـه عنكم عبّيّـة الجاهليّة[5] وفخرهـا بالآبـاء، مـؤمن تقيّ، وفـاجر شـقيّ، والنّـاس بنـو آدم، وآدم من تراب)[6]

وهكـذا ذكـر أئمـة الهـدى التقـوى، وحضـوا عليهـا، وبينـوا علاماتها، وحذروا من كل التشويهات التي علقت بها، ومن ذلـك قول الإمام علي في علامات التقوى: (إنّ لأهل التقوى علامـات يعرفون بها: (صدق الحديث، وأداء الأمانة، ووفـاء بالعهـد، وقلّـة العجز والبخل، وصلة الأرحام، ورحمـة الضـعفاء، وقلّـة المؤاتـاة للنساء، وبذل المعـروف، وحسـن الخلـق، وسـعة الحلم، واتبـاع العلم فيما يقرّب إلى الله، طوبى لهم وحسن مآب..)[7]

1() رواه ابن ماجه، والبيهقي.

2() رواه أحمد والترمذي وحسّنه ابن ماجه والحاكم.

3() الترمذي(2053) وقال: حديث حسن صحيح.

4() رواه الحاكم والبيهقي والطبراني وأبو نعيم.

5() عبية الجاهلية: المراد به الكبر.

6() أبو داود(5116) والترمذي(3965)

7() تفسير العياشي 2/213.

وسـئل الإمـام الصـادق عن تفسـير التقـوى فقـال: (أن لا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك)[1]

وكتب إلى رجـل من أصـحابه يرغبـه في التقـوى، ويـدعوه إليها: (أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل، فـإنّ اللـه قـد ضمن لمن اتقاه أن يحوّله عما يكره إلى مـا يحب، ويرزقـه من حيث لا يحتسب، إنّ الله عز وجل لا يُخدع عن جنته، ولا ينُال ما عنده إلا بطاعته إن شاء الله تعالى)[2]

وقال: (أيّما مؤمن أقبل قِبَل ما يحب الله، أقبل اللـه عليـه قِبَل كل ما يحب، ومن اعتصـم باللـه بتقـواه عصـمه اللـه، ومن أقبل الله عليه وعصمه لم يبال لو سقطت السماء على الأرض، وإن نزلت نازلة على أهل الأرض فشملهم بليـة، كـان في حـرز الله بالتقوى من كلّ بلية، أليس الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: 51])[3]

وقال: (القيامة عرس المتقين)[4]

هذه هي حقيقة التقوى ـ أيها المريد الصـادق ـ وإن شـئت تفصيل علاماتها، وكيفيـة التحقـق بهـا، فـدعك من كـل مـا قالـه العلماء والحكماء، وتدبر بصدق تلك الكلمات البليغة التي وصف فيهـا الإمـام علي التقـوى أحسـن الأوصـاف وأجملهـا وأجمعهـا، وذلــك عنــدما طلب منــه صــاحبه المخلص الصــادق همــام بن عبادة[5] أن يحدثه عن صفات المتقين بعد أن رآه يكثر الحـديث

1() عدة الداعي ص284.

2() عدة الداعي ص287.

3() مشكاة الأنوار ص18.

4() الخصال 1/10.

5() هـو همـام بن عبـادة بن خيثم، وهـو من الصـادقين المشـهورين بحبهم ومـوالتهم

عنهم، وبعد أن رأى أن الكل صار يدعي التقوى لنفسه ولمذهبه وطائفته.

ومن تلك الأوصاف قوله: (المتّقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصّواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التّواضع، غضّوا أبصارهم عمّا حرّم اللّه عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النّافع لهم، نزّلت أنفسهم منهم في البلاء كالّتي نزّلت في الرّخاء، ولو لا الأجل الّذي كتب اللّه عليهم، لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقا إلى الثّواب، وخوفا من العقاب) [1]

ثم ذكر دوافع تلك الصفات، أو التقوى الباطنية، فقال: (عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنّة كمن قد رآها، فهم فيها منعّمون، وهم والنّار كمن قد رآها، فهم فيها معذّبون)[2]

ثم ذكر علامات المتقين، فقال: (قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أيّاما قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة يسّرها لهم ربّهم، أرادتهم الدّنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها)[3]

ثم وصف ليل المتقين، وكيف يعمرونه بطاعة الله، فقال: (أمّا اللّيل فصافّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن، يرتّلونها ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مرّوا

للإمام علي، وقد توفي في عهده بين عام 37 هجرية الى عام 40.

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

3() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

بآيـة فيهـا تشـويق ركنـوا إليهـا طمعـا، وتطلّعت نفوسـهم إليهـا شوقا، وظنّـوا أنّهـا نصـب أعينهم، وإذا مـرّوا بآيـة فيهـا تخويـف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنّوا أنّ زفـير جهنّم وشـهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشـون لجبـاههم وأكفّهم، وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى اللّه تعـالى في فكاك رقابهم)[1]

ثم راح يصف نهارهم، وهـو نهـار ممتلئ بالحيـاة والإيجابيـة والتأثير، فقـال: (وأمّـا النّهـار فحلمـاء علمـاء، أبـرار أتقيـاء، قـد بـراهم الخـوف بـري القـداح، ينظـر إليهم النّـاظر فيحسـبهم مرضـى، ومـا بـالقوم من مـرض، ويقـول: لقـد خولطـوا، ولقـد خـالطهم أمـر عظيم. لا يرضـون من أعمـالهم القليـل، ولا يسـتكثرون الكثـير، فهم لأنفسـهم متّهمـون، ومن أعمـالهم مشفقون، إذا زكّي أحد منهم، خاف ممّـا يقـال لـه، فيقـول: أنـا أعلم بنفسـي من غـيري، وربّي أعلم بي منّي بنفسـي، اللّهمّ لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل ممّا يظنّون، واغفر لي مـا لا يعلمون)[2]

ثم راح يصحح تلك المفاهيم الخاطئـة الـتي تصـور المتقين بصورة الضـعفاء الـذين لا أثـر لهم في الحيـاة ولا تـأثير، فقـال: (فمن علامة أحدهم: أنّك ترى له قوّة في دين، وحزمـا في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وعلمـا في حلم، وقصـدا في غنى، وخشوعا في عبـادة، وتجمّلا في فاقـة، وصـبرا في شـدّة، وطلبا في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرّجا عن طمع) [3]

ثم راح يفصل نواحي القوة في المتقين، فذكر أن صـاحبها

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

3() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

(يعمل الأعمال الصّالحة، وهو على وجل، يمسي وهمّه الشّكر، ويصبح وهمّه الذّكر، يبيت حذرا، ويصبح فرحا، حذرا لما حذّر من الغفلة، وفرحا بما أصاب من الفضل والرّحمة، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره، لم يعطها سؤلها فيما تحبّ، قرّة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى) [1]

ثم راح يذكر السلوك الرفيع الذي يسلكه المتقون مع نفوسهم أو مع الناس، وهو سلوك في قمة قمم الأدب والروحانية والتسامي، فالمتقي هو من (يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريبا أمله، قليلا زلله، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، منزورا أكله، سهلا أمره، حريزا دينه، ميّتة شهوته، مكظوما غيظه، الخير منه مأمول، والشّرّ منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذّاكرين، وإن كان في الذّاكرين لم يكتب من الغافلين) [2]

وهو في سلوكه الاجتماعي مع الناس (يعفو عمّن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيدا فحشه، ليّنا قوله، غائبا منكره، حاضرا معروفه، مقبلا خيره، مدبرا شرّه، في الزّلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرّخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحبّ، يعترف بالحقّ قبل أن يشهد عليه) [3]

وهو بعيد عن كل تلك الرذائل التي يقع فيها غيره، فهو (لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكّر، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضارّ بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحقّ، إن صمت لم يغمّه صمته، وإن ضحك لم يعل

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

3() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

صوته، وإن بغي عليه صبر حتّى يكون اللّه هو الّذي ينتقم له) [1]

أما نفسه فهي (منه في عناء، والنّاس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرتـه، وأراح النّـاس من نفســه، بعـده عمّن تباعـد عنـه زهد ونزاهة، ودنوّه ممّن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعـده بكـبر وعظمة، ولا دنوّه بمكر وخديعة) [2]

هـذه صـفات المتقين ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فاسـع لأن تتحقـق بهـا، لتنـال حظـك من العبوديـة، فلن تنـال حريتـك ولا كرامتك ولا فلاحك في الدنيا والآخرة إلا بها.

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)